

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

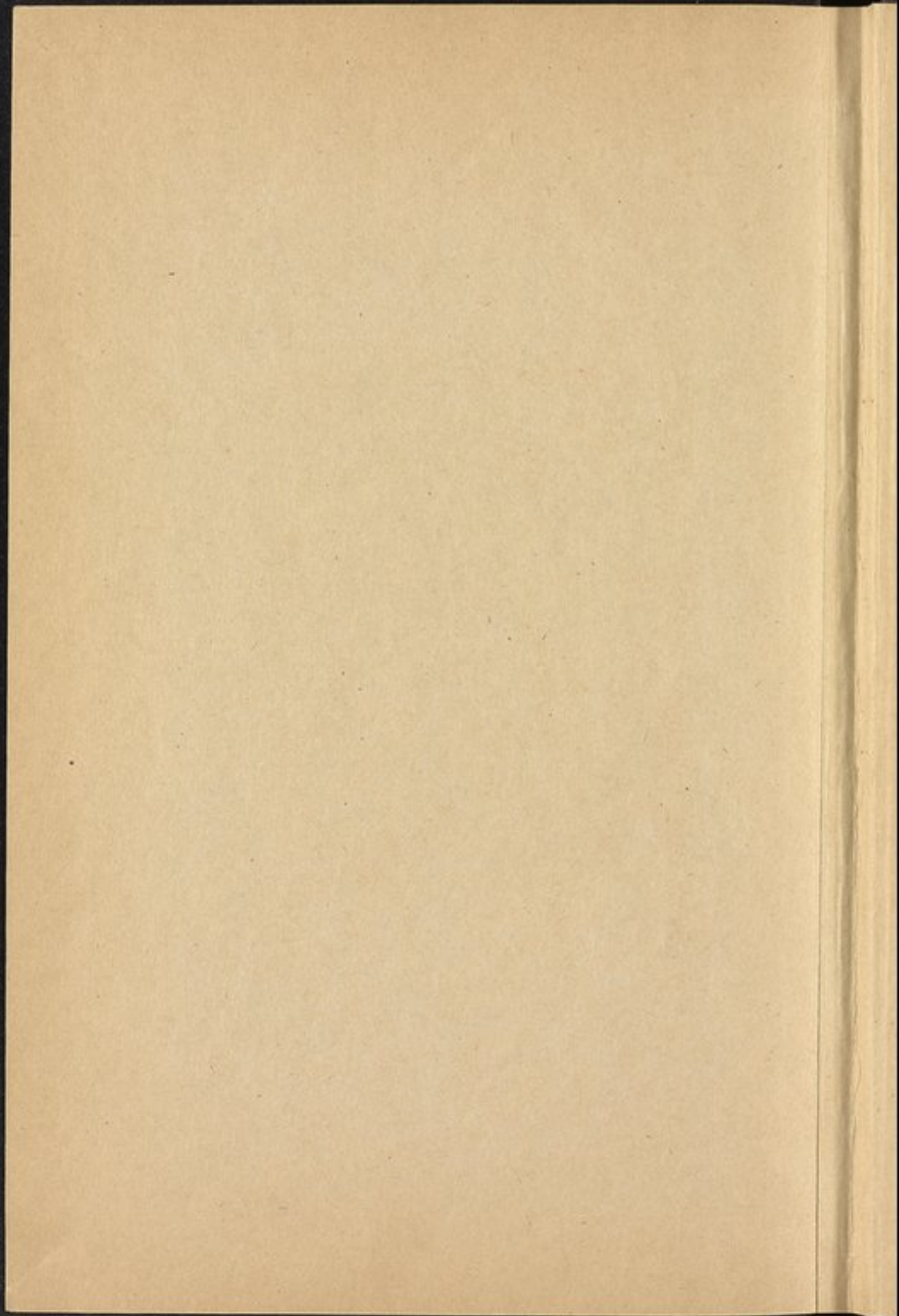


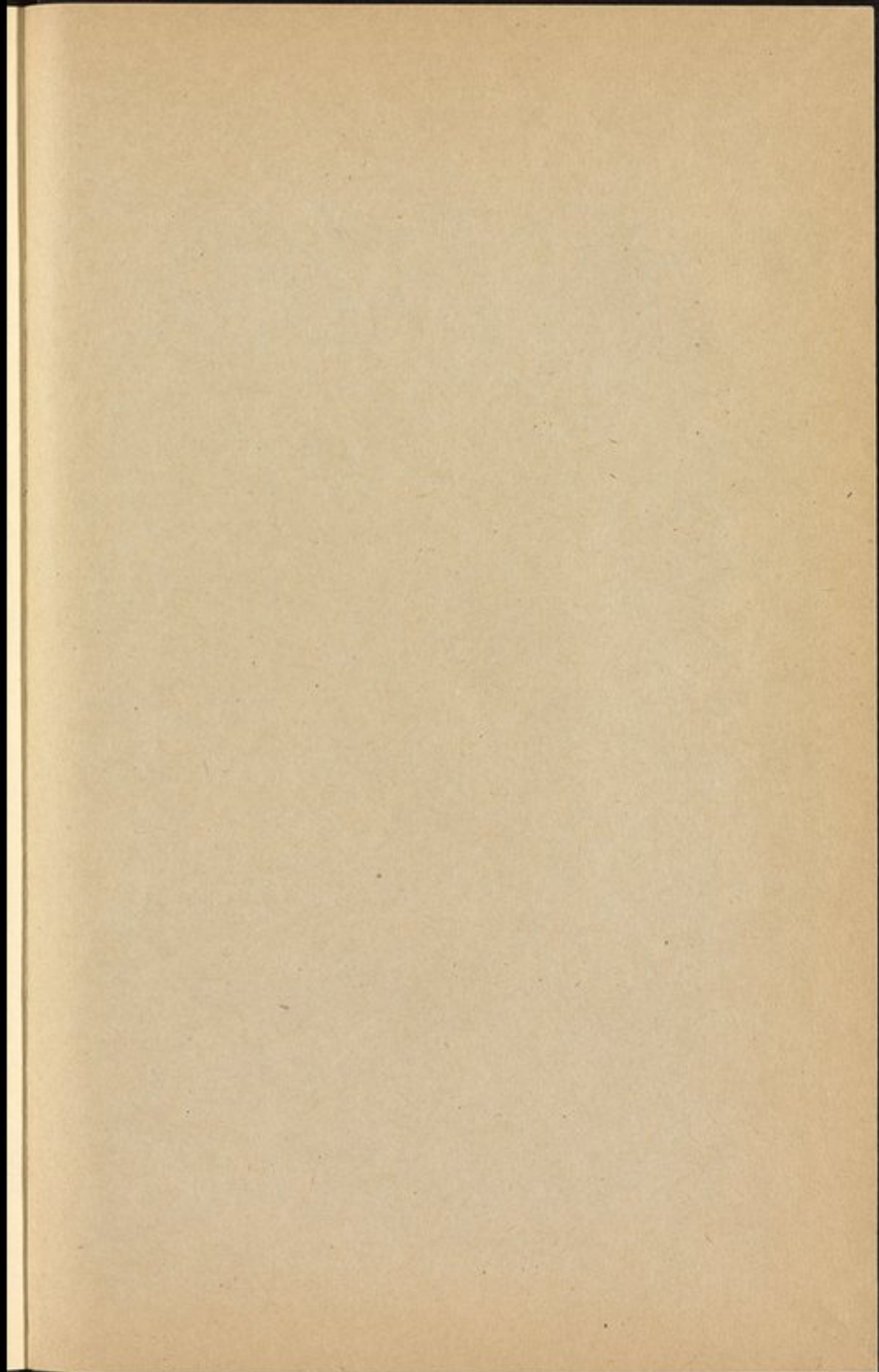
0061892157

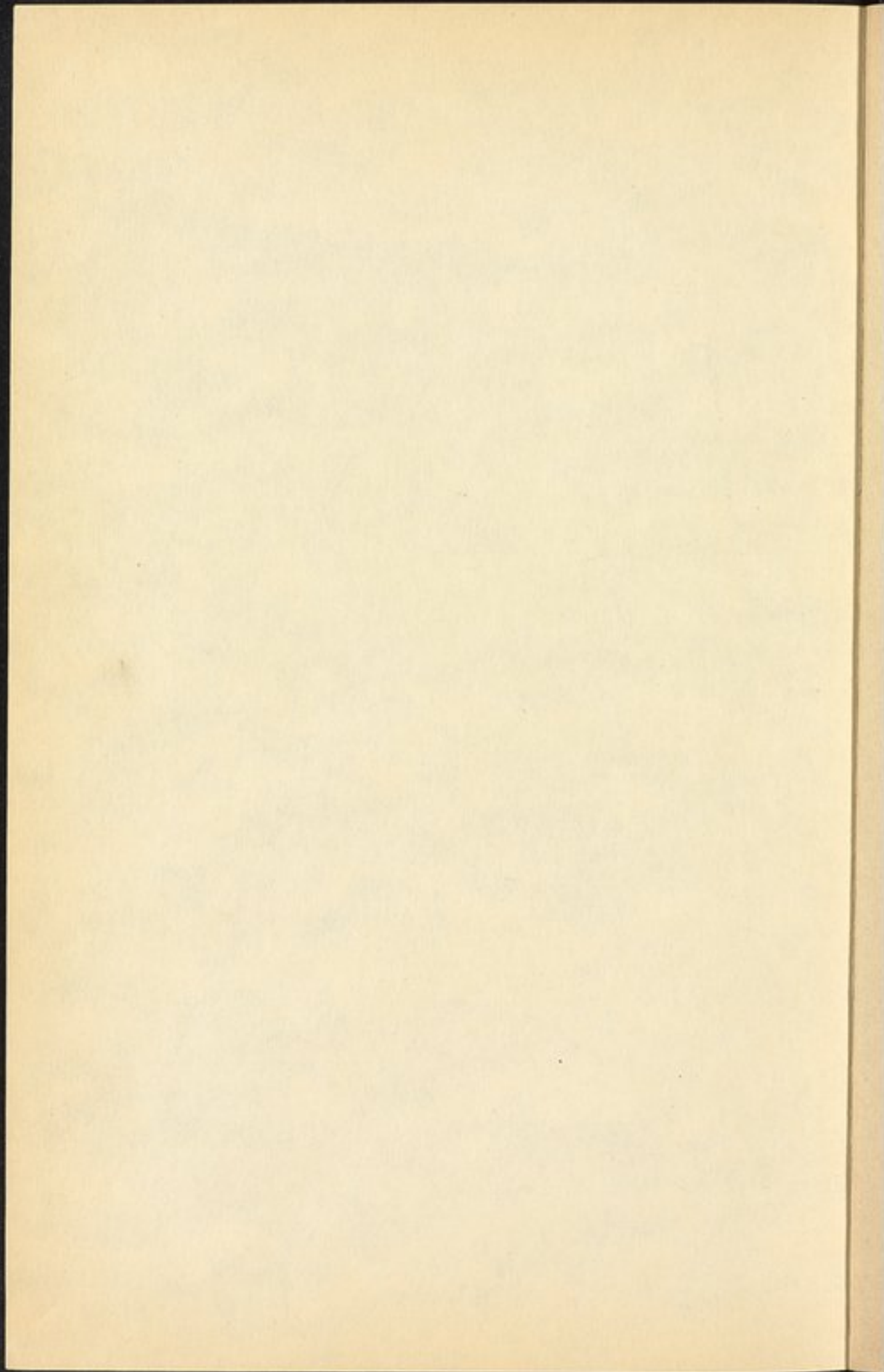
Columbia University
in the City of New York

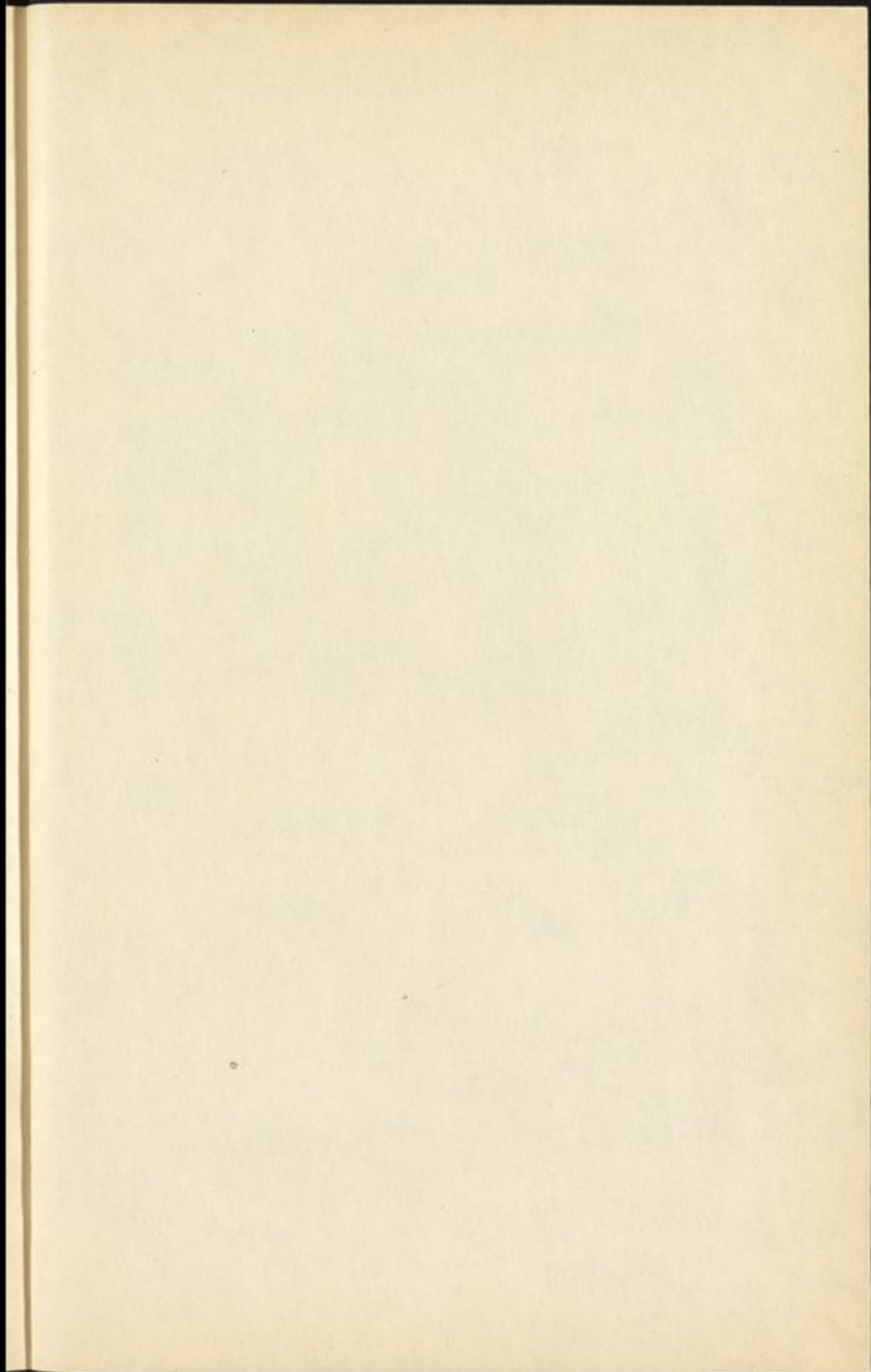
THE LIBRARIES











©
324

فهرس

الجزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

ALBANY
UNIVERSITY
LIBRARY

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

صفحة	
	المقصد الثالث - في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي : من العرب
٥	والسودان، وفيه ثلاث جمل
٥	الجملة الأولى - في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العربان ...
٦	» الثانية - » » مسلمى ملوك السودان
١١	» الثالثة - » » ملوك المسلمين بالحبشة
	المقصد الرابع - » » أهل الجانب الشمالى، وفيه ثلاثة
١٢	أطراف
	الطرف الأول - في المكتبات إلى أمراء الأتراك ببلاد الروم المسماة
١٢	الآن ببلاد الدروب
٢٥	» الثاني - في المكتبة عن ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر
	» الثالث - » إلى من وراء بحر القرم، ويشتمل على
٢٦	أربعة مقاصد
٢٧	المقصد الأول - في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ...
	» الثاني - » » » المغرب من
٣٣	جزيرة الأندلس وما والاها
٣٩	» الثالث - في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي ...
	» الرابع - » » » الشمالى من
٤٢	الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم
	الفصل الخامس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب
	الواردة على الأبواب السلطانية من أهل المملكة
٥٤	وغيرها، وفيه نوعان

صفحة

- النوع الأول - المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي
 على قسمين ٥٤
- القسم الأول - في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار
 المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان... .. ٥٤
- القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن
 أهل الممالك الإسلامية، ويشتمل على أربعة
 مقاصد ٦٢
- المقصد الأول - في الكتب الواردة عن أهل الشرق، وفيه أطراف ٦٣
 الطرف الأول - الكتب الواردة عن القانات العظام من بني
 جنك خان ٦٣
- » الثاني - في المطالعات الواردة إلى الابواب السلطانية عن
 أهل الشرق ٧١
- » الثالث - في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى
 هذه المملكة ٧٢
- » الرابع - في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 ملوك الهند ٧٦
- المقصد الثاني - في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب، وفيه جمل ٧٨
 الجملة الأول - في المكاتبة الواردة عن صاحب تونس... .. ٧٩
- » الثانية - في المكاتبات الواردة عن صاحب تلمسان من
 بني عبد الواد... .. ٨٤
- » الثالثة - في المكاتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧
- » الرابعة - في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

- المقصد الثالث - في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ،
 وفيه ثلاثة أطراف ١١٥
- الطرف الأزل - في المكاتبات إلى صاحب مالي ١١٥
- » الثاني - » الصادرة عن صاحب البرنو ... ١١٦
- » الثالث - » عن ملك الكاتم ١١٩
- المقصد الرابع - في الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى
 بلاد الروم ١١٩
- النوع الثانى - [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتبات الواردة إلى
 هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
 وهى على أربعة أضرب ١١٩
- الفصل السادس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم
 المكاتبات الإخوانيات، وفيه طرفان ١٢٦
- الطرف الأول - فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين
 » الثانى - » الإخوانيات المحدثه بعد السلف، وفيه
 ثلاثة مقاصد ١٢٧
- المقصد الأول - فى رسوم إخوانيات أهل المشرق، وفيه أربعة مهايع
 المهيع الأزل - فى صدور الابتداءات ١٢٧
- » الثانى - فى الأجوبة على هذا المصطلح ١٣٩
- » الثالث - فى خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح ... ١٤١
- » الرابع - فى عنوانات الكتب على هذا المصطلح ١٤٤

- صفحة
- المقصد الثاني - في رسوم إخوانيات أهل المغرب ، وفيه جملتان ... ١٤٨
- الجملة الأولى - في مفتحات المكاتب على أصطلاحهم ، وفيها مهيعان ١٤٨
- المهيع الأزل - في آبتداء المكاتب ١٥٤
- » الثاني - في الأجوبة ١٥٨
- الجملة الثانية - في خواتم المكاتب على أصطلاحهم ١٥٩
- المقصد الثالث - في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية ، وفيه
- ثلاثة مصطلحات ١٦٠
- المصطلح الأزل - ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية ... وفيه
- ثلاثة مهابع ١٦٠
- المهيع الأزل - في الصدور ١٦٠
- » الثاني - في خواتم الكتب ١٦٦
- » الثالث - في عنوانات الكتب ١٦٦
- المصطلح الثاني - من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال
- في الدولة الأيوبية ١٦٧
- » الثالث - من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات
- ماجرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية ، وفيه مهيعان ١٦٨
- المهيع الأزل - في رتب المكاتب المصطلح عليها ... وهي
- على قسمين ١٦٨
- القسم الأزل - الأبتداءات ١٧١
- » الثاني - من المكاتب الإخوانيات الدائرة بين أعيان
- المملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة ٢١٢
- المهيع الثاني - في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من
- أعيان الدولة ٢١٧

- صفحة
- الفصل السابع - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى مقاصد
المكاتبات، وهى قسمان ٢٣٣
- القسم الأول - مقاصد المكاتبات السلطانية، وهى على نوعين ... ٢٣٣
- النوع الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو على ثلاثة
أضرب [صوابه أربعة] ٢٣٣
- الضرب الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو
على أصناف ٢٣٣
- الصف الأول - الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة ٢٣٣
- » الثانى - من الكتب السلطانية الكتب فى الدعاء إلى الدين ٢٤٤
- » الثالث - « « « بالحث على الجهاد ٢٤٦
- » الرابع - « « « فى الحث على لزوم
الطاعة وذم الخلاف ٢٥٢
- » الخامس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكت
العهد من المخالفين ٢٥٩
- » السادس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من خلع الطاعة ٢٦٣
- » السابع - الكتب فى الفتوحات والظفر... .. ٢٧٤
- » الثامن - المكاتب بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ... ٢٩٠
- » التاسع - المكاتب بتوبيخ المهزوم الخ ٢٩٩
- » العاشر - فى المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم ... ٣٠٣
- » الحادى عشر - الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين ... ٣٠٦
- » الثانى عشر - المكاتب بالأوامر والنواهى ٣٠٨
- » الثالث عشر - المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية ... ٣١٠
- » الرابع عشر - « فى التنبيه على شرف مواسم العبادة الخ ٣١٢

- صفحة
- الصف الخامس عشر — المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد... ٣١٣
- « السادس عشر — المكتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج ... ٣٢٨
- « السابع عشر — فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير الخ ٣٣٣
- « الثامن عشر — المكتبة بالبشارة بحج الخليفة ... ٣٣٦
- « التاسع عشر — الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع ... ٣٣٩
- « العشرون — المكتبة بالتنويه والتلقيب ... ٣٤١
- « الحادي والعشرون — المكتبة بالإحسان والإذمام ... ٣٤٦
- « الثاني والعشرون — ما يكتب مع الإنعام لتواب السلطنة بالخليل والجوارح ... ٣٥١
- « الثالث والعشرون — المكتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه ... ٣٥٦
- « الرابع والعشرون — ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض ... ٣٥٧
- الضرب الثاني — من مقاصد المكتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان في الجواب ... ٣٥٨
- « الثالث — من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن تواب السلطنة الخ ... ٣٥٩
- « الرابع — من المكتبات السلطانية ما يكتب عن التواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦
- المهيع الأتزل — في الأجوبة عن الكتب السلطانية ... ٣٦٦
- « الثاني — من مقاصد المكتبات السلطانية ما يكتب به عن تواب السلطان والأتباع إلى السلطان آبتداء ... ٣٩٠

(تم فهرس الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صنعة الأسيوطي

الجزء الثامن

1875

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثامن

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٥

893.71K125

W

v. 8

cp. 2

45-39141

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصود الثالث

في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبيّ من جرت العادة بالمكتبة إليه
من العرب والسودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العربان)

وقد ذكر في "التتقيف" ممن كُتِبَ منهم جماعة بالطُرُقَات الموصلة من الديار
المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها . ثم قال : ولعلّ هؤلاء أيضا من عربان الممالك
المحروسة ، غير أنه لا إقطاعات لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، وذكر أنه كتب
إلى كل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأول — سُمرة بن كامل العامري .

الثاني — عبّاد بن قاسم .

الثالث — كمال بن سوار . قال : وهو مستحدّث المكتبة في العشر الأول من

جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة .

الرابع — جُنَيْد : شيخُ الجَوَابرة من الهكاريّة بأبواب النوبة . قال : وهو

مستحدّث المكتبة في سنة تسع وستين وسبعائة .

- الخامس - شريف : شيخ النمامية ، بأبواب النوبة أيضا ، ومكاتبه
مستجدة حينئذ .
- السادس - علي : شيخ دغيم .
- السابع - زامل الثاني .
- الثامن - أبو مهنا العمراني .

الجملة الثانية

(في المكتبة إلى مسلمي ملوك السودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول - ملك النوبة . وهو صاحب مدينة دنقلة : وقد تقدم الكلام عليها
مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في " المسالك والممالك " . قال في " التعريف " :
وهو رعية من رعايا صاحب مصر ، وعليه حمل مقرر ، يقوم به في كل سنة ، ويُخطب
[ببلاده]^(١) لخليفة العصر ، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » وهذه الإتاوة كانت مقررة
عليهم من زمن الفتح ، في إمارة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ثم صارت تنقطع
تارةً وتُجمل أخرى ، بحسب الطاعة والعصيان . وهي الآن مملكة مستقلة بذاتها ،
ولذلك أوردتُ مكتبة صاحبها في جملة الملوك :

ورسم المكتبة إليه إن كان مسلما على ما ذكره في " التعريف " :

صدرت هذه المكتبة إلى المجلس الجليل ، الكبير ، الغازي ، المجاهد ، المؤيد ،
الأوحد ، العُصْد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك
والسلاطين .

(١) الزيادة من " التعريف " .

وذكر ذلك في «التنقيف» نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكاتبة متداولة بين الجماعة . قال : ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء ، ولم يزد على ذلك .

ورأيت في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبه هذه المكاتبة أيضا ، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادته ، وبلغه في الدارين إرادته ، نتضمن إعلامه كيت وكيت ، فيتقدم بكذا وكذا ، فيحيط علمه بذلك» . ثم قال : والمكاتبة إليه في قطع العادة ، والعلامة «أخوه» ولا يخفى أن العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُقله» .

الثاني — ملك البرنو . قال في «التعريف» : وبلاده تحدد بلاد [ملك] التكرور من الشرق ، ثم يكون حدها من الشمال بلاد [صاحب] أفريقية ، ومن الجنوب الهمج ، وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة في «مسالك الأبصار» . قلت : وملكها يزعم أنه من ذرية سيف بن ذي يزن ملك اليمن على ما ورد به كتابه في أواخر المائة السابعة . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في «التعريف» :

أدام الله تعالى نصر الجناح الكريم ، العالی ، الملك الجليل ، الكبير ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهمام ، الأوجد ، المظفر ، المنصور ، عز الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التكرور) : يعني شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعى له بما يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشوق هذه المفاوضة تبدي ، على ماسياتي ذكره في مكاتبه .

(١) الزيادة من «التعريف» .

وهذا صدر يليق به : ولا زالت هممُ سلطانه غير مُقَصَّره ، ووفودُ حجه غيرِ محصَّره ، وسيُفه في سوادٍ من جاوره من أعدائه الكُفَّار يقول : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) صدرت ، ولها مثلُ مسكئة أفقه عبق ، وعبرة طينته سوادٌ إلا أنه من السواد اليقِّق ، وشيية ملكه الذي يفديه سوادُ الحدق . أوجها وُد أسكنه [مسكنه^(١)] من سويداء القلب لا يريم ، وأراه غرة الصباح الوضاح تحت طزة الليل البهيم . وحكى ذلك عنه في " التثقيف " ولم يزد عليه .

ورأيت في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبه في قطع الثلث ، والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب برنو » .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكى فيه من عرب جدّام المجاورين له ؛ ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه بأعوهم في الإفطار ، وسال الكشّاف عن خبرهم ، والمنع من بيعهم بمصر والشام ؛ وأرسل هدية صالحة من زبيب وغيره . وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر : أحد كتّاب الدست . صدره : أعز الله تعالى جانب الجناب الكريم ، العالی ، الملك الجليل ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهام ، الأوحيد ، المظفر ، المنصور ، المتوكل ، نحر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس : عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيف الجلالة ، ظهير الإمامه . وبعث إليه به مع رسوله الوارد ضجبة المجمع ، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث — ملك الكانيم . قال في " مسالك الأبصار " : وقاعدة الملك منها بلدة أسمها « جيمي » ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة أسمها « زلا » وآحرها طولاً بلدة

(١) الزيادة من " التعريف " ص ٢٩ .

يقال لها « كَاكَا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثمون ، ومليكمهم على حَقارة سلطانه ، وسوء بُقعة مكانه ، في غاية لائتدرك من الكبرياء ، يمسحُ برأسه عَنانَ السماء ، مع ضَعْف أجناد ، وقلة متحصِّل بلاد ، محجوبٌ ، لا يراه أحدٌ إلا في يوم العيدين بكرةً وعند العَصْرِ ، وفي سائر السنة لا يكلمه أحدٌ ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب .

وقال في "التعريف" ملوكها من بيت قديم في الإسلام ، وجاء منهم من ادعى النسب العَلَوِيَّ في بني الحسن ، وهو يمتدُّهُبُ بمتدُّهُبُ الشافعي . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كرم مكتبة صاحب البرنؤ ، بدون الكريم ، وتبعه على ذلك في "التنقيف" ناقلاً له عنه . ثم قال : ولم أطلع على مكتبة له غير الذي قد ذكره .

الرابع — ملك مالي . قال في "مسالك الأبصار" وهي في نهاية الغرب متصلةً بالبحر المحيط ، وقاعدة المُلْك بها بنِي . وهي أعظم ممالك السودان ؛ وقد تقدّم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها ، وما تيسر من ذكر ملوكها ، وأن مالي اسمٌ للإقليم ، والتكرور مدينةٌ من مدنه ، وكان ملكها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » منسأ موسى ، ومعنى منسأ السلطان .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنه وصل منه كتابٌ عن نفسه لنفسه فيه ^(١) ناموساً ، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجاً ، وأجتمع بالسلطان الملك الناصر ، فقام له وتلقاه ، وأكرمه وأحسن نُزُلَه ، على ما هو مبسوط في موضعه .

(١) عبارة "المسالك" في الكلام على مملكة مالي نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة السلطانية بمصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض ، السطر إلى جانب السطر وهو يمسك فيه ناموساً لنفسه » فقل مالي الأصل هكذا « عن نفسه وهو يمسك لنفسه الخ » فتدبر .

قال في "التعريف": "وملك التكرور هذا يدعى نسبا إلى عبد الله بن صالح
 ابن الحسن، بن علي، بن أبي طالب .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف": « أدام الله تعالى نصر المقر
 العالى، السلطان، الجليل، الكبير، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الأوحيد،
 عز الإسلام، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين،
 جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامة، عضد أمير المؤمنين »
 الملك فلان . ويدعى له بما يناسب . وبعد إهداء السلام والتشويق « هذه
 المفاوضة تبدي » .

قال : ولا يعرض له ولا يقتر بشيء من الألقاب الدالة على النسب العلوى .

وهذا صدر لهذه المكتبة ذكره في "التعريف" .

ويسر له القيام بقرضه ، وأحسن له المعاملة في قرضه ، وكثر سواده الأعظم
 وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه ، وتمتع بملك يجد الحديد تحجب سمائه والذهب
 نبات أرضه . صدرت هذه المفاوضة وصدورها به مملو، وشكرها عليه يخلو، ومزايأ
 حبه في القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حلي به الطرف والقلب من السواد، تنزل
 به سفنها المسيرة في البحر وترسى، وتحل عند ملك ينقص به زائده وينسى موسى
 منسى، وتقيم عليه والدهر لا يطرفه فيما ينوب، والفكر لا يسوقه إلا إذا هبت صبا
 من أرضه أو جنوب .

والمتداول بين جماعة كتاب الإنشاء أن المكتبة إليه : « أعز الله تعالى جانب

الجناب الكريم العالى، الملك، الجليل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، المرابط،
 المتأخر، العابد، الناسك، الأوحيد، فلان، دُخر الإسلام والمسلمين، نُصرة الغزاة

والمجاهدين، عَوْنُ جُيُوشِ الْمُؤَحِّدِينَ؛ رُكْنِ الْأُمَّةِ، عمادِ الْعِلْمَةِ، جمالِ الْمُلُوكِ
والسلاطين، ولى أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك في الدُّسْتُورِ الْمُنْسُوبِ لِلْقَتْرِ الْعَلَاؤِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ؛ ثُمَّ قَالَ وَيُقَالُ :
«صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِيِّ مَمْلُوءَةً الصَّدْرَ بِشُكْرِهِ ، بِاسْمَةِ الثَّغْرِ بِرَفْعِهِ
قَدْرِهِ ، مَوْضَعَةً لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ كَيْتَ وَكَيْتَ . وَذَكَرَ أَنَّ خُطَابَهُ بِالْجَنَابِ الْكَرِيمِ ، وَالطَّلَبِ
وَالْقَصْدِ وَالْحَقِّ بِالْإِحَاطَةِ ؛ وَذَكَرَ هُوَ وَصَاحِبُ «التَّنْقِيْفِ» أَنَّ الْمَكَاتِبَةَ إِلَيْهِ فِي قِطْعِ
الثَّلْثِ ، وَالْعَلَامَةِ «أَخُوهُ» ؛ وَتَعْرِيفُهُ «صَاحِبُ مَالِي وَغَانَةٌ» .

الجملة الثالثة

(في المكاتبه إلى ملوك المسلمين بالحبشة)

قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أن ببلاد الحبشة
سبعة ملوك مسلمين ، لهم سبع ممالك ؛ كل مملكة منفردة بملك ؛ وبها الجوامع
والمساجد ينادى فيها بالأذان ، وتقام بها الجمع والجماعات ، وهم مع ذلك تحت أمر
صاحب البحر ملك ملوك الحبشة ؛ يختار لولاية ممالكهم من شاء توليته ، ولا يردون
ويصدرون إلا عن أمره ، وهي مملكة أوقات والزبلع ، ومملكة دوارو ؛ ومملكة
أرابيني ؛ ومملكة هدية ؛ ومملكة شرخا ؛ ومملكة بالي ؛ ومملكة داره .

وقد تقدم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها في المقالة الثانية .
قال في "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تجاور ناصع ، وسواكن ، ودهلك ؛
وليس بها مملكة مشهورة .

قال في "التعريف": ولم يرد من هذه الملوك السبعة كتاب، ولا صدر إليهم خطاب. قال: فإن ورد منهم شيء فتجرى مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكائن والبرنو. وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في "التعريف": «أعز الله تعالى نصرة الجنب الكريم، وأعز الله تعالى جانب الجنب الكريم» على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه.

المقصود الرابع

(في المكاتبة إلى أهل الجانب الشمالي، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى أمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم
المسماة الآن ببلاد الدروب)

قال في "التعريف": وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني تنهى في شرقها إلى بحر القرم المسمى بحر نييطش، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني وتنتهي متشاملة إلى القسطنطينية، وتنتهي جنوبا إلى بلاد الأرمن، يحدها البحر الشامي. قال: وهذه البلاد بلاد متسعة، وهي مفترقة للملوك مجتمعة، ولكنه لا يطلق عليهم إلا اسم الإمارة؛ ولا انتظام لكلمتهم، ولا اجتماع لجملة، ثم قال: وأكبرهم صاحب كرميان، وله بينهم وضع محفوظ، ونظام مرعى.

أما ملوكها، فأجل من لديهم منهم جماعة بنى قرمان، لقرب ديارهم، وتواصل أخبارهم، ولنكياتهم في ممالك سبيس وأهل بلاد الأرمن، وأجتياحهم لهم من ذلك

الجناب، مثل آجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب، فمكاتبنا إلى نبي قرمان لا تكاد تقطع، وأما إلى البقية فأقل من القليل، وأخفى من مرأى الضئيل. ثم عد منهم ستة عشر أميراً، وذكر رسم المكاتب إلى كل واحد منهم:

الأول - صاحب كرميان. قال في "التعريف": ولم يكتب إليه مدة مقامي بالأبواب السلطانية؛ ويشبه أن تكون المكاتب إليه بالمرقر نظير صاحب ماردين، لكن بأبسط ألقاب: إذ هي أذعى لاستحسانهم لقلّة معارفهم، وعلى هذا التقدير يكون رسم المكاتب إليه: «أعزّ الله تعالى نصر المقرّ الكريم، العالى، الملكى، الأجلّى، العالمى، العادى، المجاهدى، المؤيدى، المرابطى، المناغرى، المظفرى، المنصورى، الفلانى، عون الأنام، شرف الملوك والسلاطين، نصير الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدم العساكر، ظهير أمير المؤمنين».

قال: فإن لم يُسمح له بكل هذه المخاطبة، ولم يؤهل لنظير هذه المكاتب، كتبت إليه هذه الألقاب مع الجناب الكريم، وخُوطب بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالملك.

قال في "التتقيف" ولعل مكاتبته بالجناب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى: لأنه إذا كان بنو قرمان أجلاً لدى ملوكنا، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالى، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبةً في المكاتب بدرجتين (١) وهي: الجناب الكريم. قال: هذا هو الأولى عندي.

قلت: وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برّسا الآتى ذكره، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة؛ أما بعد ارتفاعه وأحيطاطهم دونه فينبى أن يُنظر في قدر المكتوب إليه، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال.

(١) لعله بدرجة تأمل.

الثاني - صاحب طَنْغُزُلُو . قال في " التعريف " ورسم المكاتبه إليه :
« صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى الأميرى » ولم يذكر العلامة إليه . قال
في " التثقيف " والذي وجدته مسطورا في مكاتبته الأسم والسامى بالياء .

الثالث - صاحب تَوَازَا . قال في " التعريف " : وهو في المكاتبه نظير
صاحب طَنْغُزُلُو ، ولم يزد على ذلك ، غير أنه ذكر أن اسمه في زمانه كان « على أرينه »
وذكر في " التثقيف " أنه لم يقف له على رسم مكاتبه سوى ذلك .

الرابع - صاحب عَيْدَلِي . قد ذكر في " التعريف " أن اسمه في زمانه دَنْدَار
أخو يونس صاحب أنطاليا ، وأنه نظير صاحب تَوَازَا في المكاتبه ، فتكون المكاتبه
إليه : صدرت والعالى . قال في " التثقيف " ولم أقف على رسم مكاتبه إليه سوى
ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو . وقال : إن المكاتبه إليه الأسم والسامى
بالياء ، وذكر أن المقر الشهابى بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره في " التعريف "
ثم قال : وقد تكون هي عَيْدَلِي المقدم ذكرها ، وإنما تكررت بتغيير الحروف . قال
ولم يتحزر هل هما آثان أو واحد .

الخامس - صاحب كَضَطْمُونِيَّة وهي قَسْطَمُونِيَّة . قال في " التعريف "
وكانت آخر وقت لسليمان باشا ، وكان أميراً كبيراً ، كثير العدد ، موفور المدد ، ذاهية
وتمتع . ثم قال : وورث ملكه أبنه إبراهيم شاه ، وكان عاقاً لأبيه ، خارجاً عن
مرآضيه ، وكان في حياته منفرداً بمملكة سَنُوب . قال : وهي الآن داخله في ملكه ،
منخرطة في سلطه .

وذكر أن رسم المكاتبه إليه : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الأميرى » بأكل
الألقاب ، واتم ما يكتب في هذا الباب ، وذكر في " التثقيف " نقلاً عن القاضى
ناصر الدين بن النشائى ، وأمين الدين خضر مثل ذلك ، وأن العلامة إليه « أخوه » .

السادس — صاحب فاوياً . قال في "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مرادُ الدين حمزةُ ، وهو ملكٌ مضعوفٌ ، ورجلٌ يجالسُ أنسَه مشغوفٌ . قال : ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى الأميرى » بالياء . قال فى "التتقيف" وهو غير بعيد .

السابع — صاحب بُرسًا . وقد ذكر فى "التعريف" أنه فى زمانه أرخان بن عثمان . ثم قال : وهو نظير صاحب فاوياً فى المكتبة ، فتكون مكاتبه السامى بالياء . قال فى "التتقيف" ولم أطلع على رسم للمكتبة إليه غير ذلك ، إلا أنه ذكر فى الفصل الأول من الباب الرابع فى الكلام على مكاتب الحكام أرخان بن عثمان . وقال : إن لقبه سيف الدين . ثم قال : ويقال إنه صاحب بُرسًا ؛ وذكر أن رسم المكتبة إليه فى قطع العادة والدعاء والمجلس العالى ، والعلامة أخوه ، وتعريفه اسمه .

قلت : وقد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أرخان بن عثمان جق ؛ ثم إلى ابنه مراد بك ؛ وأنه أتسع ملكه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينى حتى قارب خليج البنادقة ؛ ثم إلى ابنه أبى يزيد فزاد فى الملك على ما كان بيد أبيه ؛ وتزوج فى بنى قرمان ، ودخل بنو قرمان وسائر الترمكان فى طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس ؛ فإنها كانت مع قاضيا إبراهيم المتغلب عليها ، ولم يزل كذلك حتى قصده تمرلنك وأسره ، ومات فى يديه ؛ وملك بعده ابنه سليمان چلبى . ثم مات ؛ وملك بعده أخوه محمد بن أبى يزيد بن مراد بك ابن عثمان جق ، وهو القائم بها إلى الآن . وكانت المكتبة قد استقرت إلى أبى يزيد

(١)

فى الأيام الظاهرية (برقوق)

(١) الثامن — صاحب أكبرا . قد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه دمرخان ابن قرآشي ؛ وذكر أن مكاتبته نظير مكاتبه صاحب برسا ، يعني السامى بالياء ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع — صاحب مرمرأ . وقد ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان ببحشى بن قرآشي . وقال : إن رسم المكاتبه إليه : « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى » .

قلت : وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج القسطنطيني بها مقطوع رُخام ، وأن النصارى غلبوا عليها .

العاشر — صاحب مغنيسيا . ذكر في "التعريف" : أن اسمه صاروخان . وقال : إن المكاتبه إليه السامى بالياء . وذكر في "التثقيف" : أنها صارت بعده إلى ابنه إسحاق بن صاروخان ؛ وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة بالاسم والسامى بالياء .

الحادى عشر — صاحب نييف . ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان على باشا أخو صاروخان صاحب «مغنيسيا» المقدم ذكره ؛ وذكر أن رسم المكاتبه إليه مثل أخيه المذكور ، فتكون صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى .

الثانى عشر — صاحب بريكي . ذكر في "التعريف" : أنها في زمانه كانت بيد ابن أيدين ولم يصرح باسمه . قال : وإن المكاتبه إليه « أدام الله تعالى نعمته المجلس العالى » بالألقاب التامة ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف له على مكاتبه غير ذلك .

(١) هي كذلك في كتاب "المسالك" والذي تقدم في ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضا صاروخان ، وليست في نسخة "التعريف" التي بأيدينا .

الثالث عشر - صاحب فوكه . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه أرخان
ابن منتشا، وأن المكتبة إليه نظير صاحب بري، فتكون الدعاء مع العالی بالألقاب
التامة أيضا، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف في مكانته على غير ذلك .

الرابع عشر - صاحب أنطاليا . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه
أسمه خضر بن يونس . وقال : إن رسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى
المجلس العالی » . وذكر في "التثقيف" : أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب
سنان الدين، وأنه استقر بعده دادى بك، ثم استقر بها آخراً محمد المعروف بكجوك،
وذكر أن المكتبة إليه « أخوه » والدعاء والعالی . ثم قال : وهو الأصح لأنه آخر
ما استقر عليه الحال في مكانته وكتب به إليه .

الخامس عشر - صاحب قرأصار . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه
أسمه زكريا، وأن رسم المكتبة إليه : هذه المكتبة إلى المجلس السامى، بلا ياء،
وذكر في "التثقيف" : أنه لم يطلع على مكانة إليه سوى ذلك، وأنه لم يكتب
إليه شيء في مدة مباشرته .

السادس عشر - صاحب أرمنالك . ذكر في "التعريف" : أنها كانت في زمانه
بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه، وذكر في "التثقيف" : أن أسمه علاء الدين سليمان .
قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی
بأكل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثرها . وذكر في "التثقيف" : أن آخر
من استقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة علاء الدين على بك بن قرمان،
ووافق على رسم المكتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخوه » وتعريفه
« فلان بن قرمان » .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال في "التعريف": وإلاخوة صاحبها آبن قِرْمَان المذكور رسوم في المكاتبات، فأكبرهم قَدْرًا، وأفتكهم نابًا وظفُرا، الأميرُ بهاءُ الدين موسى . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه حضر إلى الأبواب السلطانية، ووجّه مع الركب الشريف؛ ثم عاد إلى الأبواب السلطانية، وأجلس في المرّتين مع أمراء المشورة، وأشرك في الرأي . وسأل السلطان في كتابة منشور بما يفتحه من بلاد الأرمن فكُتِب له . قال في "التعريف": وأسقطت المكاتبُ إليه مثل مكاتبه أخيه . قال : أما بقية بني قِرْمَان فدُونهُمَا في المكاتبه .

وأعلم أن صاحب "التتيف" قد زاد على ذلك من أمراء هذه البلاد ستة نفر .

أحدهم - الحاكمُ بالعلّايَا . وذكر أنه كان اسمه حُسامَ الدين محمودَ بنَ علاء الدين، وأنه كتب إليه في سؤال سنة سبع وستين وسبعائة «أخوه» والدعاء، والعالى، في قطع العادة .

الثاني - صاحب بلاط وريح . ذكر أنه كان بها « أمير موسى » بن إبراهيم ابن منتشا، وأن المكاتبه إليه في قطع العادة «والده والدعاء، والمجلس العالى» .^(١)
الثالث - صاحب أكردور وهي أكردون . ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بني حميد، وأن رسم المكاتبه إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه في سؤال سنة سبع وستين وسبعائة «والده» والسامى بالياء .

الرابع - صاحب آيا سلوق . ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين، وأنه كتب إليه في سؤال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدم في القواعد «بلاط» فقط ولم نعرطها بعد البحث والتصحيح .

الخامس — صاحب بلى شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبه .
وقال : إن المكتبة إليه الأسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كومان بن منشا . ذكر أنه ممن استجدت مكاتبه
في شوال سنة سبع وستين وسبعائة .

وأعلم أنه قد زاد في "التثقيف" ذكر مكتبة جماعة لم أتحقق هل هم من أهل
هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء ؛ ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قوجى ؛ وأن المكتبة
إليه فى قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، فى قطع الثلث الأسم والسامى بالياء، وتعريفه اسمه .
ومنهم صاحب بكجرى : استجدت الكتابة إليه فى شوال سنة سبع وستين
وسبعائة، وكتب إليه الأسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب إليه الأسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة، كتب إليه الأسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهى أشنوكتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة ؛ منهم نائب
خلاط، وصاحب موغان، وهى موقان، والحاكم بإسعد وهى سيعرت، وصاحب
قيشان وهى قاشان .

وقد تقدم أن خلاط من أرمينية، وموقان من أرمينية، وإسعد من ديار ربيعة
من الجزيرة الفراتية، وقاشان من عراق العجم ؛ وبالجملة فقد خلط فى "التثقيف"
فى البلدان تخليطا كثيرا، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدم في صدر الكلام على المكاتبات ذكر أصول يعتمدها الكاتب في كتبه ثم الكتب السلطانية وغيرها ؛ وأنا أذكر هنا ما يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل القصد إليها لقربها، ويحصل الغرض من ذلك، بذكر [تسعة] أمور :

أولها — مقادير قطع الورق؛ قد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملة، والذي يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير :

- أحدها — قطع البغدادى الكامل ؛ وقد مر أنه يكتب فيه للقانات .
 - وثانيها — قطع النصف ، وفيه يكتب إلى أكابر الملوك ممن دون القانات .
 - وثالثها — قطع الثلث ، وفيه يكتب إلى الرتبة الثانية من الملوك .
 - ورابعها — قطع العادة ، وفيه يكتب إلى أصاغر الملوك والولاة وغيرهم .
- الثانى — العُنوان ؛ قد تقدم في مقدمة الكتاب أن الذى كان يكتب عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره ؛ أما الآن ، فإن كاتب كل كتاب صار هو الذى يكتب عنوانه بنفسه .

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب اليه ونعوتة التي في صدر المكاتبة في الباطن ؛ ثم يدعى للمكتوب إليه في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل : أعز الله أنصاره ، أو ضاعف الله نعمته ، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تفتح بها المكاتبات ؛ فإن كان الكتاب مفتتحا بالحمدلة أو بلفظ من فلان ، كُتِبَ في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك ؛ ثم بعد الدعاء يُحَلَّى بياضا قليلا ؛ ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات .
وتكون كتابة العُنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ . وتكون أسطره متصلة من
أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ، وأسطره متلاصقة متتالية .

الثالث - الطَّرَزة التي يُكْتَب فيها تعريفُ المكتوب إليه ، والعلامة التي يكتبها
المكتوبُ عنه ، والسببُ في كتابته .

وقد جرت العادةُ في ذلك أنه يكتب في رأس الدَّرَج في الجانب الأيمن
«إلى فلان» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفي الوسط العلامة التي يعامها
السلطانُ مثل «أخوه» أو «والده» أو «أسمه» : يُنظَر عند علامة السلطان على
الكتاب فيعلم حال الكتاب ، ويجرى الأمرُ في العلامة على هذا الرسم ، وتكون كتابتها
بقلم الكتاب من ثلث أو رفاع أو غيرهما ، إلا أن يكون الكتابُ مختَصراً الطُّومار في قطع
البغدادى فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطَّرَزة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب .

الرابع - البياض في أعلى الكتاب ، وقد جرت العادةُ في الكتُب السلطانية أن
العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال
بياضاً بما فيه من وصل العُنوان ؛ ثم تكتبُ البسملةُ في رأس الوصل الرابع ؛ وإن
كانت العلامةُ إليه الأسم ، تُرِكَ وصلان بياضاً فقط وكتبت البسملةُ في أول الوصل
الثالث ؛ ثم يُكْتَب السطر الأول من الكتاب على سمت البسملة ملاصقاً لها ؛ ثم يُعْثَلُ
موضع العلامة بياضاً ، ويكتبُ السطر الثاني على سمت الأول في أواخر ذلك
الوصل على قدر إصبعين من آخره ؛ ثم يُعْثَلُ بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة ،
إن كان القطع صغيراً ، وإن كان القطع كبيراً كان فيه قدر رُبع ذراع أو نحوه بحسب

(١) لعله في الكتابة أى يكتب ما يناسب العلامة .

المناسبة؛ فإذا آتتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في الوَسَطِ على بُعدٍ قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب: «كُتِبَ في تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستند على نحو البعد المذكور: فإن كان بتلقّي كاتب السَّرِّ خاصَّةً كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلقّي كاتب السروكُتاب الدَّسْتِ من دار العَدْلِ كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «مِنْ دار العَدْلِ الشريف» في سطر. وإن كان برسالة الدَّوَادار كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «برسالة الجَنَابِ العَالِي الأَمِيرِيّ الفَلَانِيّ الدَّوَادار الفَلَانِيّ» بلقب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمته». وإن كان من ديوان الخَاصِّ، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر وتحتَه «مِنْ ديوان الخَاصِّ الشريف». وإن كان بِحِطِّ السلطان: بأن كُتِبَ على القِصَّةِ بالخط الشريف، كتب «حَسَبَ الخِطِّ الشريف» في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العَالِيَةِ الأَمِيرِيَّةِ الكَبِيرِيَّةِ الفَلَانِيَّةِ» في سطر، وكتب تحتَه بقدر إصبع «كافِلِ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى». وإن كان بإشارة أستاذ الدار، كتب «بالإشارة العَالِيَةِ الأَمِيرِيَّةِ الكَبِيرِيَّةِ الفَلَانِيَّةِ» في سطر؛ ثم يكتب تحتَه بقدر إصبع «أستاذ الدار العَالِيَةِ أعلاها الله تعالى». على أنه قد تقدّم في الألقاب أن كتابتهم أستاذ الدار هو عرف جرى عليه اصطلاحهم؛ وأن الصواب فيه إسْتَدَارَ بغير ألف بعد التاء. وتكون كتابة المستند ببياض من جانبيه، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر كامل على بُعدٍ قدر إصبعين من المستند؛ ثم يكتب الخُسْبَةَ على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلة.

وقد تقدم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلًا عن عبد الرحيم بن شيث أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنهيه كتابتها .

الخامس — قد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنه لا يُكتب في حواشي الكتب السلطانية : لأن في ذلك شُحًا بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاء في استقباح ذلك ، بل قد يُستقبَح ذلك في غير السلطان كما سيأتى . كره في الإخوانيات .

السادس — العلامة السلطانية على المكتوب ، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر في "التعريف" أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء وممالك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومن دون ذلك « الأسم الشريف » ؛ أما الغرباء كملوك المسلمين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح والأكابر؛ فترجمته بالخط الشريف « أخوه » ومن دون ذلك الأسم الشريف .

والذي استقر عليه الحال آنحرا في زماننا أن لأكابر الأمراء من التواب وغيرهم « أخوه » لرفعة مكان الأخ على الولد، ولن دُونهم « والده » ولَمَن دُونَ ذلك « الأسم » وبقى الحال على ما ذكره ؛ وقد سبقَت ترجمة كلِّ مكتوب إليه في الكلام على المكتبة إليه .

أما الفئات الكبار فقد تقدم في الكلام على المكتبة إليهم أنه تكتب لهم طُغْرة بالألقاب السلطانية في موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكُفْر، فسيأتى أنه تكتب طُغْرة بالألقاب السلطانية فوق البسمة .

السابع — طى الكُتُب السلطانية : قد تقدم في صدر الكلام على المكتبات نقلًا عن ابن شيث من كُتُب الدولة الأيوبية أن كُتُب السلطان يكون طيها

في عَرْض أربعة أصابع ، وأن مقتضى ذلك أن كُتِبَ السلطان بالديار المصرية كانت تُطَوَّى على هذه الهيئة كما في كُتُب أهل المغرب الآن ؛ والذي آسَقت عليه الحال آخراً أنها يجعلُ طيها في صورة أنبُوبِ القنّاة ولا تُضغَط في طيها لتكون نبيلة تعظيماً لأمر السلطان وإجلالاً لقدره .

الثامن — ختم الكتاب : قد تقدم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تُختم ^(١) بسحاة ، ويُطبع عليها بطين أحمر ، يُوقى به من سيراغ ، وتُختم بخاتم كما تُختم المغاربة الآن ؛ أما الآن فقد آسَقت الحال على أن الكتب تُلصق بالنشا أو ما في معناه من الكثيراء ونحوها ؛ وقد سأل الشيخ جمال الدين بن نباتة في رسالته التي كتبها إلى الشهاب محمود رحمه الله حين بلغه وقوع بعض كُتُب دِمَشق في حقه عن غير طين الختم إلى النشا ، ولم أقف على زمان تغير ذلك ولا من غيره ، على أني حللت معظم أسئلة هذه الرسالة في خلال هذا الكتاب مفترقة في مواضعها .

التاسع — أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلى أحد من عظماء الملوك كالقائات ببلاد الشرق ، أو ملوك بلاد المغرب ونحوهم ممن يتعاني البلاغة في الكتب الصادرة عنه ، كتبت مسجوعة كلها ؛ وإن كانت إلى صغار الملوك والحكام كتبت غير مسجوعة ؛ وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة ؛ فإن كانت في أمر بعد وقوعه : كالكتابة بالإشارة بوقاء النيل ، أو جلوس السلطان على التخت لأقرب أمره ، أو برثه من المرض ، أو ولادة ولي له ، أو الإشارة بفتح ، أو الإعلام بركوب الميدان ، أو الإناعام بحبل أو نحوها ؛ كتبت مسجوعة ، وإلا كتبت مُرسلة غير مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحاة كما يؤخذ من بقية العبارة وما تقدم في جزه هـ

الطرف الثاني

(في المكتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه

الحال، إلى ملوك الكُفْر)

وأعلم أن ملوك الكفر المكاتبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الروم ،
والفرنج ، والكُرج ، والحبشة وغيرهم ؛ إذ كانوا هم المستوين على ما أكثر الممالك ؛
أما اليهود ، فإنهم لم يبق لهم مملكة معروفة ، بل هم تحت الذمة أين كانوا . قال
تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَا تُقْفُوا إِلَّا يُحْبَلِي مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ .
قال في " التعريف " وجميع الكُتُب المكتوبة إلى ملوك الكُفْر لا يشتملها الخطُّ
الشريف أصلاً ، بل يُكْتَب فوق البسملة في الكتاب بخط الكاتب عوض العلامة
الشريفة أسطر قصيرة بياض من الجانبيين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملك الناصر - مثلاً - العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ،
المُتَأَمِّر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاه ؛ فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام
والمسلمين ، مُنْجِي العَدْل في العالمين ، وارث المُلْك ، ملك العرب والعجم والتُرك ؛
ظَلَّ اللهُ في أرضه ، القائم بسُنَّتِهِ وفَرْضِهِ ؛ إسكندر الزمان ، مَمْلِك أصحاب المنابر
والتُّخوت والتَّيجان ؛ واهب الأقاليم والأمصار ، مُبِيد الطُّغَاة والبُغَاة والكُفَّار ؛ حامي
الحرمين والقِبْلَتَيْن جامع كلمة الإيمان ، ناشِر لواء العَدْل والإِحْسَان ؛ سيِّد ملوك
الزمان ، إمام المنتقين ، قسيم أمير المؤمنين ؛ أبي فلان ، آبن السلطان الشهيد الملك
الفلاني فلان ، خَلَّد اللهُ سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه » .

وأوضح ذلك في " التثقيف " فقال : ويكون في الطرة بعد وصلين بياضاً من أول
الكتاب بهاميش جيد من الجانبيين يَمْنَةٌ وَيَسْرَةٌ ، ويكونان في قدر بياضهما سواءً

تقدير أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض؛ وفي قطع العادة دون ذلك . وتكون الأسطر متقاربة، ما بينهما من البياض تقدير إبهام أو أزيد منه بشيء يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلاً أبيض؛ ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكتبة للكتوب إليه .

الطرف الثالث

(في المكتبة إلى من وراء بحر القرم بالجانب الشمالي منه)

وهو صاحب البلغار والسرب . وهي بلاد في نهاية الشمال ، متاخمة لصاحب السراى ؛ وقد ذكر في " التعريف " المكتبة إليه في المكتبة إلى جملة ملوك المسلمين . وقال : إن صاحبها يظهر الإقبال لصاحب السراى ، وإنه أرسل رسله تطلب له الأولوية من الأبواب السلطانية بجهزت إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والحيل المسرجة المنجمة . وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما كتبت إذ ذاك :

« أعز الله نصر الجناح الكريم ، العالى ، الملكى ، الأجلى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المرابطى ، المناغزى ، الأوحدى ، سيف الإسلام والمسلمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، جمال الملوك والسلاطين ، دُخر أمير المؤمنين » .

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد شتملة على الجهات الأربع :

المقصد الأول

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار ببلاد الشُّرق ؛ وجملةٌ من بها من ملوك

النصارى المكاتيين عن هذه المملكة مملكتان)

الأولى - مملكة الكُرج من النصارى المَلَكِيَّة . قال : في "التعريف" ويقال في المسلمين الكُرد، وفي النصارى الكُرج . قال : وموقع هذه [البلاد] بين بلاد الروم وبين بلاد أرمينية . وهي بلادٌ جليسةٌ ، ومملكةٌ مفضحةٌ ، وكأنها مقتصعة من البلادين ، ولها ملك قائم ، وبها ملك دائم ، وأُمُّها مدينة تَفَاليس ، وسلطانُ بيت هولاكو بمملكة إيران يحكم عليها ، ويرالغهُ تَصِلُ إليها ؛ إلا أنه لا يَطْفئُ بها سَيْلَهُ ، ولا تجوسُ خِلالَ ديارها للحرب المضرمة خِيَلُهُ ؛ وإنما له بها ثومانٌ اتخذه سِداداً لتغرُّها ، وقياماً بأمرها ؛ مَتَرَهُمْ فَيَسِيحُ بِوَادِيهَا ، أَهْلُ حَلِّ وَتَرَحَالٍ ، وَتَنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . قال : وآخِرُ مَنْ كَانَ لَهُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ سُمْعَةٌ ، وَأَقِيلَتْ بِهِ لِلْمَهَابَةِ صَرَعُهُ ؛ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ جُوبَانَ ، وَكَانَ بَاسِلاً لِأَيْطَاقٍ ، وَرَجُلًا مَرًّا الْمَدَاقِ ؛ وَلَمَّا جَرَتْ الْكَائِنَةُ لِأَبِيهِ ، لَازَ بِالسُّلْطَانَ (أَزْبَك قَان) ثُمَّ لَمْ تَطُلْ لَهُ مُدَّةٌ ، وَلَا أَنْفَرَجَتْ لَهُ حِلْقُ شِدَّةٍ ؛ وَأَتَاهُ أَجَلُهُ وَمَا اسْتَطَاعَ رَدَّهُ . ثُمَّ قَالَ : وَعَسَكَرَ الْكُورْجُ صَالِبِيَّةَ دِينِ الصَّلِيبِ وَأَهْلُ الْبَأْسِ وَالتَّجْدَةِ ، وَهَمَّ لِلْعَسَاكِرِ الْهُولَاكُوهِيَّةِ عِتَادَ وَذُنُورِ ، وَهَمَّ بِهِمْ وَتُوقَ وَعَلَيْهِمْ أَعْيَادُ ، [وَلَا] سِيَّماً لِأَوْلَادِ جُوبَانَ وَبَنِيهِ ، وَبَقَايَا مَخْلَفِيهِ ، لِسَالِفِ إِحْسَانِ جُوبَانَ إِلَيْهِمْ ، وَبِيدِ مَشْكُورَةٍ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُمْ ، وَكَانَ صَدِيقًا لِلْمَلِكِ بَرِطَانَا يَغْرَسُ عِنْدَهُ الصَّنَائِعَ ، وَيَسْتَرَعِيهِ الْوَدَائِعَ ؛ فَكَانَ أَحْصَى خَصِيصَ بِهِ ، وَأَصْدَقَ صَدِيقَ لَهُ ، يَدْعُوهُ لِلْمُهْمِ ، وَيَسْتَصْرِخُ بِهِ فِي الْمَلِيمِ ، وَيَعُدُّهُ رِدْءًا لِعَسَاكِرِهِ ؛ وَمُنْزِيلاً لِمُنْكَرِهِ .

وعقب ذلك بأن قال : وبرطلما المذكور عهدي به حتى يُرزق من أجل ملوك
النصرانية ، وأعرق أنساب بني المعمودية ، وقد كان كاتب الأبواب السلطانية
بسبب كنيسة المصلب ، وأن تُرفع عنها الأيدي المتغلبه ، فبرزت الأوامر المطاعة
بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم -وهي بظاهر القدس الشريف- وأخذت
مسجدا ، وعز هذا على طوائف العلماء والصلحاء وان لم يعمل هذا سدى . قيل
إنه كان يحسن لجوبان قصد البلاد ، ويبدل له عليه الطارف والتلاد . وذكر أن
رسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل
الهمام ، الباسل ، القترغام ، السמידع الكرار ، الغضنفر ، المتخت ، المتوج ، العالم
في ملته ، العادل في رعيته ، بقية الملوك الأغر بية ، سلطان الكرج ، ذخر ملك البحار
والخلج ، حامى حمى الفرسان ، وارث آبائه في الأسرة والتيجان ، سياج بلاد الروم
وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك الشريان ، بقية أبناء التخت والتيجان ،
مِعز النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مَسِيح الأبطال المسيحية ، معظّم البيت المقدس
بعقد النبي ، عماد بني المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية ، مؤاد المسلمين ، خالصة
الأصدقاء المقربين ، صديق الملوك والسلاطين » .

وهذا دعاء أورده في "التعريف" يليق به وهو : وسمى ملكه بؤده لا يجنده ،
وبوفائه بعهده لا يجيشه ومدبئده ، وبما عندنا من سخايا الإحسان لا بما يظن أنه من
عنده ، وبما في رأينا المورى لا بما يقدر النار من زنده - وربما قيل مصافى
المسلمين بدل مؤاد المسلمين .

أما في "التثقيف" فقد ذكر أن للكرج ملكين (أحدهما) صاحب تفليس المقدم
ذكرة ، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك «داود» (الثاني) الحاكم "بسخوم" و"أنجاس"
وهما مدينتان على جانب بحر القيرم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره في الكلام على

المسالك والممالك في الجانب الشمالي، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان). قال :
ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قِطْع النصف : أطل الله تعالى بقاء حضرة الملك
الجليل، المكرّم، الخطير، الباسل، الهمام، المقدّس، الروحاني، فلان؛ عزّ الأئمة
المسيحية، كتز الطائفة الصليبية، نجردين النصرانية، ملك الجبال والكُرج
والجرجان، صديق الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما "ملك الكُرج" .

ثم قال : وقد ذكر القاضي المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكتبة
المذكورة من التغييرات مالا حاجة إلى ذكره : لأنّ ما ذكرته هو المستقرُّ في المكتبة
إليه إلى آخر وقت .

قلت : وذلك لأنه في زمن المقرّ الشهابي بن فضل الله كان مرعى الجانب
بمألاة التتر وأنضمامه إلى جوبان، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ فكانت المكتبة إليه
إذ ذاك أعلى وأغنى، فلما زالت دولة التتر من إيران وتحدت قسوتهم انحطت رتبة
المكتبة إلى ملك الكُرج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم في المسالك والممالك
في الكلام على مدينة تفليس أنها من إقليم أران، وأنها كانت قد فتحها المسلمون .
ثم غلب عليها الكُرج وملكوها، فلو ^(١) تبرّ عن صاحبها بتملك تفليس كما كان يعبر عن
المستولى على سيس من الأرمن بتملك سيس ، وعن المستولى على قبرس بتملك
قبرس على ما سياتي ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى .

الثانية - مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة "سيس" قبل فتحها ؛ وقد سبق
في الكلام على مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب ، في الكلام على الممالك الشامية
في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها ؛ وأنها كانت تسمى

(١) جواب لو معلوم أي لكان له وجه .

في زمن الخلفاء بلاد الثغور والحواصم ؛ وأنها كانت بأيدي المسلمين ، وأهلها نصارى
 أرمن ؛ وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى المملك ؛ إلى أن كانت طاعتهم آخراً لبقية المملك
 السلاجقة ببلاد الروم ، والعمال والشحاني على بلادهم من جهة المملك السلجوقي حتى
 ضعفت تلك الدولة ، وسكنت شقاشق تلك الصولة ، وانتدب بعضهم لقتال
 بعض ، وصارت الكلمة شورى ، والرعية فوضى ، وشواخ المعامل مجالاً للتخريب ،
 والبلاد المصونة قاصية من الغنم للذئب ، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ
 فيها واستنسر بغائه ، واشتد إنكائه ، ورأى سواماً لا ذائد عنه فساقه ، ومتاعاً لاحامية
 له فلا منه أوساقه ؛ فاستولى على هذه البلاد وتملكها ، وتحيف مواريث بنى سلجوق
 وأستهلكها . وذكر في "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لاون .

قال في "التعريف" وقد أخذ في أنحريات الأيام الناصرية ، يعني (محمد بن قلاوون)
 بلاد ماوراء نهر جاهان وأمها آياس ، وكان قد أخذ بعض ذلك [أيام] المملك المنصور
 (لاجين) واستنيب به استدمر الكرجي ؛ ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطاة استدمر
 حين قتل لاجين وضعفت الدولة . وذكر أنه قرر على الأرمن مملك الديار المصرية
 قطعة مقررة بلغت ألف ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف ، ثم حط لهم منها ؛
 ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان . وذكر أنه كان مملك البيت الهولا كوهي
 عليهم حكم قاهر ، وله فيهم أمر نافذ ، قبل ضعف شوكتهم ، ولين قسوتهم ، وخلو
 غابهم من قسورتهم . ثم قال : ولو تمكنا من دمشق لمحوا آثارها ، وأنسوا أخبارها ؛
 ثم أشار إلى أن مملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به ، وأنه مع ذلك أوصى
 سلطاننا صاحب مصر على ابنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته ، وجعل ذلك وسيلة
 لبقاء دولته ؛ وكتب له تقليد عوضاً عن أبيه وجهاز إليه ، وأليس التشریف فلبس

(١) وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِهِ وَخَدَمَ . قَالَ فِي "التعريف" : وَمَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَمِيَ التَّكْفُورَ ، سَمَةً جَرَتْ عَلَيْهِمْ مُنْذُ كَانُوا وَإِلَى الْآنَ . قَالَ : وَمَلَكَهُمْ مَلَكَ عَرِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ، يَزْعُمُ أَنْ أَسْلَمَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ . قَالَ : وَعِنْدِي نَظَرٌ فِي دَعْوَاهُمْ ذَلِكَ : إِذْ كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ هُمْ صَالِيَةُ الرُّومِ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْمَلَكَانِيَّةِ وَالْبَيْتِ التَّكْفُورِيِّ أَرْمَنُ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْيَعَاقِبِيَّةِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ ، وَبَيْنَ الْمَعْتَقِدِينَ بَعْدَ عَظِيمٍ ، وَبَوْنُ نَاءٍ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" "أَبَ اسْمِهِ لِيْفُورِ بْنِ أَوْشِيرٍ" . وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكَاتِبَةِ [إِلَيْهِ] صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، الْجَلِيلِ ، الْبَطَلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَامِ ، السَّمِيدِ ، الضَّرْغَامِ ، الْغَضَنَفَرِ ، فَلَانَ بْنِ فَلَانَ ، نَحْرِ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، ذُنْحَرِ الْأُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادِ بْنِ الْمَعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ .

وهذه أدعية — ذكرها في "التعريف" تناسبه :

وَقَفَّهَ اللَّهُ تَعَالَى لَطَاعَةَ يَكْفُفُهُ ذِمَامُهَا ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ الشُّؤْمِ التَّزَامُهَا ، وَتَجْرِي لَهُ بِالسَّلَامَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ أَحْكَامُهَا .

آخِرُ : وَلَا عِدَمَ مِنْ مِينَبِ الْكَرَمِ الَّذِي أَجَارَهُ ، وَالْأَمْنَ الَّذِي أَمَّنَ جَارَهُ ، وَالْأَمَانَ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ وَجَارَهُ ، وَالْعَفْوَ الَّذِي وَقَاهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ نَارًا وَقُودَهَا النَّاسَ وَالْمَجَّارَهُ .

آخِرُ : أَبْقَاهُ اللَّهُ لَوْلَا يُبْدِيهِ ، وَقَرَضَ مِنَ الْخِدْمَةِ يُؤَدِّيهِ ، وَدَيَّنَ فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الْوُظَيْفَةِ يَقُومُ بِهِ مَعَ طَرَائِفِ مَأْيَدِيهِ .

(١) في التعريف بدون خدم .

(٢) في التعريف المطبوع ص ٥٧ ليفون بن أوشين ، ونخشى أن يكون تصحيفا .

آخر : أراه الله ما يستدفع به من مواضي السيوف البلاء إذا نزل ، والسّمهريّ
الذي لا يرويه البحر إذا نهل ، والسّيل الذي لا يقف في طريقه شيء ولا يمشي
على مهل .

آخر : صان الله تعالى بمصانعه من أهل ملته كلّ قبيل ، وأمن الله بمداراته
من خوف جيوشنا المنصورة كلّ سبيل ، وصد عنه بصدق صداقته بعث جنودنا
الذي لا يردّ وأوله بالقرات وآخره بالنيل .

آخر : ولا زال يتوقى بطاعته بؤادر الأسنه ، وعوادي الخيل موشحة
بالأعنه ، وعيث الجيش حيث لا يبق إلا أحد الأقسام الثلاثة : القتل أو الأسر
أو المنه .

آخر : جنب الله رأيه سوء التعكيس ، وشراً ما يزين لمثله إبليس ، وأخذ
جنائب قلاعه وأول تلك الجنائب سيس .

والذي ذكره في "التثقيف" أنه كان اسمه كسقندي بن هنيوم ؛ وأن رسم
المكاتبه إليه على ما كان استقر عليه الحال إلى حين الفتح في سنة ستّ وسبعين
وسبعمائة ، في قطع العادة : « صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة الملك الحليل ، المكرم ،
المبجل ، المعظم ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان بن فلان ؛ عزّ دين النصرانيه ، كبير
الطائفة الصليبيه ، عماد بن المعموديه ، صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله
نعمته ، وحرس مهجته ، تعلمه كذا وكذا » . وتعريفه « مملك سيس » قال : وكتبت
أنا والجماعة إليه بهذه المكاتبه مرّات .

قلت : وقد بطلت هذه المكاتبه بفتح سيس حين فتحها قسطنطين المنصوريّ
نائب حلب في الدولة الأشرفيه « شعبان بن حسين » في التاريخ المقدم ذكره ،

وَأَسْتَقَرَّتْ نِيَابَةٌ فِي رَتْبَةِ نِيَابَةِ طَرَابُؤُسٍ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ؛ ثُمَّ أَسْتَقَرَّتْ تَقْدِيمَةَ عَسْكَرٍ فِي مُضَافَاتِ حَلَبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ هُنَاكَ . وَإِنَّمَا كَانَ يُقَالُ لَهُ مَمْتَلِكٌ سِيسِ دُونَ مَلِكٍ سِيسِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلًا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا رَيْسُ الْأَرْمَنِ الْمُقَدَّمُ ذَكَرَهُ فَلَكَهَا مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، وَفِيهِ الْحَمْدُ فِي إِعَادَتِهَا إِلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْتَقَرَّارَهَا فِي جُمْلَةِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

المَقْصِدُ الثَّانِي

(فِي الْمَكَاتِبَةِ إِلَى مَلُوكِ الْكُفَّارِ بِيَلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَمَا وَالِاهَا مِمَّا هُوَ شَمَالِي الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ آفَتْحُوا جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهَا أَقَامَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَأْسِ السِّتِّائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا غَرْنَاطَةَ وَمَا مَعَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، عَرَّضَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي طُولِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ؛ وَبَاقِي الْجَزِيرَةِ عَلَى سَعْتِهَا بِيَدِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، وَأَنَّ الْمُسْتَوْلىَ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ :

الأوَّلُ — صَاحِبُ طُلَيْطَلَةَ وَمَا مَعَهَا ، وَلَقَبُهُ الْأَذْفُونُشُ : سَمَّاهُ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ ، وَعَامَّةُ الْمَغَارِبَةِ يُسَمُّونَهُ الْفُنْشُ ، وَلَهُ مَمْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَعُمَلَاتٌ مَنَسَّعَةٌ ، تَشْتَمِلُ عَلَى طُلَيْطَلَةَ ، وَقَشْتَالَةَ ، وَإِشْبِيلَةَ ، وَبَلَنْسِيَةَ ، وَقَرْطَاجَنَةَ ، وَجِيَانَ ، وَجَلْبِقِيَةَ ، وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا .

(١) ضبطلها ياقوت عن الحميدي بضم الطاءين وفتح اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الاول وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدم في جزءه هـ فلينبه .

الثاني - صاحب أشبونة وما معها، وتُسمى البرتقال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عرّضاً له، تستعمل على أشبونة وغرب الأندلس .

الثالث - صاحب برشلونة، وأرغون، وشاطبة، وسرقسطة، وبلنسية^(١)، وجزيرة دانية، وميورقة .

الرابع - صاحب بيرة : وهي بين عمالات قشتالة، وعمالات برشلونة، وقاعدته مدينة بنبلونة، ويقال للملكها ملك البشكنس . ووراء هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحب إفرنسة التي هي أصل مملكة الفرنج كما تقدم في الكلام على المسالك والممالك، وملكها يقال له الرّيد إفرنس . قال في "التعريف" : وهو الملك الكبير المطاع، وإنما الأدفونس هو صاحب السطوة، وذكره أشهر في المغرب لقربه منهم، وبعد الرّيد إفرنس .

والمكاتب منهم ملكان :

الأول - الأدفونس المبدأ بذكره . قال في "التعريف" : وبسده جمهور الأندلس، وبسيفه فيت بجاحمها الشمس، وهو وارث ملك لذريق . ولذريق هذا الذي أشار إليه في "التعريف" هو الذي أترعها المسلمون من يده حين الفتح في صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف" : وحدثنى رسول الأدفونس بتعريف ترجمان موثوق به من أهل العدالة يسمى صلاح الدين الترحمان الناصري : أن الأدفونس من ولد هرقل المفتاح منه الشام، وأن الكتاب الشريف النبوي الوارد على هرقل متوارث عندهم مصون، يُنف بالدبياج والأطلس، ويدخر أكثر من ادخار الجواهر والأعلاق، وهو إلى الآن عندهم لا يخرج، ولا يُسمح بإخراجه،

(١) هي بلنسية المتقدمة أضيفت إلى برشلونة فيما بعد .

يُنظَرُ فِيهِ بَعِينُ الْإِجْلَالِ ، وَيُكْرَمُونَهُ غَايَةَ الْكِرَامَةِ ، بِوَصِيَّةِ تَوَارِثِهَا مِنْهُمْ كَأَبْرَ عَنْ كَابِرٍ
وَحَلْفَ عَنْ سَلْفٍ .

قال : وكان الأدفونش من قَوِيّ طَمَعُهُ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي أُخْرَى لِيَالِي الْأَيَّامِ
الْفَاطِمِيَّةِ . ثُمَّ قَالَ : وَمَكَاتِبَاتُهُ مُتَوَاصِلَةٌ ، وَالرُّسُلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَا تَنْقَطِعُ عَلَى سُوءِ
مَقَاصِدِهِ ، وَخُبْتُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ ؛ أَهْدَيْتُ مَرَّةً إِلَى السُّلْطَانِ سَيْفًا طَوِيلًا وَثَوْبًا بُنْدُوقِيَا
وَطَارِقَةً طَوِيلَةً دَقِيقَةً ، تَشْبَهُ النَّعْشِ ، وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى مِنْ آسِيفَتَا بَابِ الشَّرِّ
وَالْتَصْرِيحِ الْمَعْرُوفِ بِالكَتَابَةِ ؛ فَكَانَ الْجَوَابُ أَنْ أُرْسَلَ إِلَيْهِ حَبْلٌ أَسْوَدٌ وَحَجْرٌ ، أَيْ
إِنَّهُ كَلَبٌ إِنْ رُبِطَ بِالْحَبْلِ وَالْإِرْمِيَّ بِالْحَجْرِ .

قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرة
الملك الجليل ، الهمام ، الأسد ، الباسل ، الضّرغام ، الغضنفر ، بقية سلف قيصر ،
حامى حماة بنى الأصفر ، المنع السلوك ، وارث لذريق وذراري الملوك ، فارس
البر والبحر ، ملك طليطلة وما يليها ، بطل النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، حامل
راية المسيحية ، وارث التيجان شبيه مريخنا المعمدان ، محب المسلمين ، صديق
الملوك والسلاطين .

دعاء وصدر يليقان به

وَكَفَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ ، وَجَنَاهُ ثَمَرُ غَرْسِهِ ، وَوَقَاهُ فَعَلَ يَوْمَ يُحْرُ عَلَيْهِ مِثْلَ أَمْسِهِ ، وَأَرَاهُ
مِقْدَارَ النِّعْمَةِ بِالْبَحْرِ الَّذِي تَمَنَّى بِسُورِهِ وَتَوَقَّى بِتُرْسِهِ .

أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ وَجَنَدُ اللَّهِ لَا يَمْتَنِعُهُمْ مَانِعٌ ، وَلَا يُضْرِبُهُمْ فِي اللَّهِ مَا هُوَ جَامِعٌ ، وَلَا يَبَالُونَ
أَكْتَابَ يُخْلَفُونَهَا أَمْ كُتُبًا ، وَجَدَاوِلُ تَعْرِضُ لَهُمْ أَمْ بِحَارًا لَا تَقْطَعُهَا إِلَّا وَثْبًا .

آخِرُ : وَوَقَاهُ بِتَوْفِيقِهِ تِلَافَ الْمُهَجِّ ، وَلِفَاهُ بِأَسْ كُلِّ أَسَدٍ لَمْ يُهَجِّ ، وَحَمَاهُ مِنْ
شَرِّ فِتْنِهِ لَا يَبُلُّ الْبَحْرُ الَّذِي تَحَصَّنَ بِهِ عُبَارَهَا مِنَ الرَّهَجِ .

أصدرناها إليه وأستئنا لأثره عن نحر ، وأعتنا لا تصد بسور ولو ضرب من وراء البحر .

قلت : وينبغي أن تكون في قطع النصف .

الثاني — صاحب برجلونة ، وهم في "التثقيف" بفعله هو الأدفونش المقدم ذكره . وقال : إنه يلقب أدفونش ، دون حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكيتلان ورسم المكاتبه إليه في قطع النصف بقلم الثلث الكبير « أدام الله تعالى بهجة الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، الريدارغون ، فلان ، نصير النصرانية ، نخر الأمة العيسويه ، ذخر الملة المسيحية ، حامى الثغور ، ممتلك السواحل والبحور ، عماد المعمودية ، ظهير بابا روميه ، ملاذ الفرسان ، جمال الأخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب برجلونة » .

قال في "التعريف" : أما الريد فرنس فلم يرذ له إلا رسول واحد ، أبرق وأرعد ، وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاية مع ولاته ، والبلاد مناصفة ، ومساجد المسلمين قائمة ، وإدارات قومها دائرة ، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تعجل ومجمل في [كل] سنة ، نظير ^(٢) دخل [نصف] البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويطرف في كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسن هذا كتاب من كتبة القبط ، كانوا صاروا رؤوساً في الدولة بعائم بيض وسراثر سود ، وهم أعداء زرق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و [ان] سرى في البدن هذا السم ، وتطلب له الدرايق فعز .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليلٌ معجَّلٌ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطَةٌ في بحرٍ ،
وحصاةٌ في دهناء .

قال : وبلغ هذا أبي رحمه الله ، فألى أن يُجَاهِرَ في هذا ، ويُجَاهِدَ بما أمكنه ،
ويدافعَ بمهما قَدَّرَ عليه ، ولو لاوى السلطانَ على رأيه إن أصغى إلّا أولئك الأفكّة ؛
وقال لي : تقوم معي وتكلم ، ولو خُصِبت منا ثيابنا بالدم ، وراسلنا قاضيَ القضاة
القزويني الخطيب ، فأجاب وأجاد الإِستعداد ؛ فلما بكَرنا إلى الخِدمة وحضرنا بين
يدي السلطان بدار العَدل ، حضرت الرسل ، وكان بعضُ أولئك الكُتّبة حاضرا ،
فاستعدَّ لأن يتكلم ؛ وكذلك استعدينا نحن : فما استتم كلامهم حتى غَضِبَ السلطانُ
وحَمِي غضبه ، وكاد يتصرَّم عليهم حطبه ، ويتعجَّل لهم عطبه ، وأُسِكتَ ذلك المنافيقُ
بجزئته ، وسكتنا نحن اِكْتفاءً بما بلغه السلطان مما رده بجيئته ؛ فصدَّ ذلك
الشیطانُ وكفى الله المؤمنين القتال ؛ ورُدَّتْ على راميا النصال . وكان الذي قاله
السلطان : والكم أنتم عرِّقتم ما القيم نوبة دمياط من عسكر الملك الصالح ، وكانوا
جماعة أكرادٍ ملفقة مجَّعة ؛ وما كان بعد هؤلاء الترك ؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال
التر؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح^(١) [نحن وإياهم] من جنس واحد ما يتخلى بعضه
عن بعض ، وما كنا نُريد إلا الابتداء ؛ فاما الآن فتحصلوا وتعالوا ، وإن لم تجوا
فتحن نجيحكم ولو أننا نخوض البحر بالخييل ؛ والكم صارت لكم السنة تذكرون بها
القدس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه تراباً إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب !
وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم ، وردتهم أفبح رد ، ولم يقرأ لهم كتابا ، ولا رد
عليهم سوى هذا جوابا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن أتفق أن يكتب إلى الرّيد إفرنس المذكور فتكون المكتبة إليه مثل المكتبة إلى الأدفونش أو أجل من ذلك .

وأعلم أن الريد فرّنس هو الذى قصد الديار المصرية بمواطاة الأدفونش : صاحب طليطلة المقدم ذكره ، وملكوا دمياط ، وكانت الواقعة بينهم فى الدولة الأيوبية فى أيام الصالح أيوب ؛ وأخذ الرّيد فرّنس وأميسك وحيس بالدار التى كان يتزلها نحر الدين بن لقمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورسم عليه الطواشى صبيح ، ثم نفّس عنه ؛ وأطلق لأمر فرّقر عليه ؛ وقال فى ذلك جمال الدين بن مطروح أبياته المشهورة وهى :

[قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَتَّهْ * مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحِ
أُنَيْتَ مِصْرًا تَبَغْنِي مُلْكُهَا * تَحَسَّبُ أَنَّ الزَّمْرَ بِاطْبَلِ رِيحِ
وَكُلَّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعْتَهُمْ * بِحَسَنِ تَذْيِيرِكَ بَطْنِ الضَّرِيحِ
نَحْسِينَ أَلْفًا لَأَتْرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَيْبِلِ أَوْ أُسَيْرِ جَرِيحِ
وَفَقُّوكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْبِي مِنْكُمْ يَسْتَرِيحِ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عَبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً * لِأَخْذِ نَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَبِيحِ :
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحِ^(١)

(١) بيض هذه الأبيات فى الأصل وقتلناها مما تقدم فى ج هـ

المقصود الثالث

(في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي)

والمكاتب بهذا الجانب منهم ملكان :

الأول - صاحب أمحرأ: ملك ملوك الحبشة، ولقبه عندهم حطى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين، سمة على كل من ملك عليهم منهم .

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه نصراني يعقوبي، يحكم على تسعة وتسعين ملكا، منهم سبعة مسلمون، وهم صاحب وفات، وصاحب دوارو، وصاحب أرابيني، وصاحب شرخا، وصاحب هدية، وصاحب بآلى، وصاحب دارة، وأنه لولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعدد معمودى إلا باتصال من البطريك، وأن كرسي البطريك كنيسة الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده، لشمخ بأنفه عن المكتبة، لكنه مضطرا إلى ذلك .

قال في " التعريف " ورسم المكتبة إليه :

أطال الله بقاء الحضرة العالية، الملك، الجليل، المهام، الضرم، الأسد، الغضنفر، الخطير، الباسل، السמידع، العالم في ملته، العادل في مملكته، المنصف لرعيته، المستمع لما يجب في أفضيته، عز الملة النصرانية، ناصر الملة المسيحية، ركن الأمة العيسوية، عماد بنى المعمودية، حافظ البلاد الجنوبية، متبع الحواريين، والأخبار الربانيين، والبطاركة القديسين، معظم كنيسة صهيون، أوحده ملوك اليعنوبية، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاء مفحما يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في "التعريف":
 وأظهر فضله على من يُدانيه من كل ملك هو بالتاج معتصب، ولكف الججاج
 بالعدل متعصب، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصر أو للحق معتصب .
 صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية ومن حضرة القدس مسراها، ومن
 أسرة الملك القديم سراها، وعلى صفاء تلك السريرة الصافية ترد وإن لم يكن بها
 غليل، وإلى ذلك الصديق الصدوق [المسيحي] تصل، وإن لم تكن بعنت إلا من
 تلقاء الخليل .

ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه . أما في "التثقيف" : فإنه ذكر أنه
 يكتب إليه في قطع الثلث بقلم التوقيعات مانصه :

أطال الله بقاء الملك، الخليل، المكرم، الخطير، الأسود، الضغام، الهام،
 الباسل، فلان بن فلان، العالم في ملته، العادل في مملكته، حطى ملك أمراء، أكبر
 ملوك الحبشان، نجاشي عصره، سند الملة المسيحية، عضد دين النصرانية، عماد بني
 المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، والدعاء، وتعريفه «صاحب الحبشة» .

قال : فإن كانت المكتبة جوابا، صدر الكتاب إليه بما صورته : ورد كتاب الملك
 الخليل، ويذكر بقية المكتبة . ثم قال : وهذه المكتبة هي التي استقر عليها الحال عند
 ما كتبت جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .



وهذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سلطنة الملك المظفر
 صاحب اليمن، على الملك «الظاهر بيبرس» رحمه الله، بطلب مطران يقيمهم لهم
 البطرك، مما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي :

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهام، العادل في ملته، حطّى ملك أمّحرا أكبر ملوك
 الحبشان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشى عصره، صديق الملوك والسلاطين،
 سلطان الأمّحرا حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسسه؛ فوقفنا عليه وفهمنا ماتضمنه :
 فاما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب،
 وإنما كتابُ السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة
 الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة
 عساكره ، وأن من حملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر
 الإسلام . وأما وخم بلاده فالآجالُ مقدّرة من الله تعالى، ولا يموتُ أحدٌ إلا بأجله،
 ومن فرغ أجله مات .

وأعلم أنّ العادة جرت أنه كلما كتبت إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب
 قرينه كتابٌ عن البطريرك . قال في "التعريف" : ولأوامر البطريرك عنده
 ما لشريعته من الحرمة ، وإذا كتب كتابا فاتى ذلك الكتابُ أوّل مملكته ، خرج
 عميدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ على رأس علم ، ولا يزال يحمله بيده حتى يُخرجه
 من أرضه ، وأربابُ الديانة في تلك الأرض : كالفُسوس والشامسة حوله مُشاةٌ
 بالأدخنة ؛ فإذا خرجوا من حدّ أرضهم تلقّاهم من يليهم أبدا كذلك في كلّ أرض
 بعد أرض حتى يصلوا إلى أمّحرا، فيخرج صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفعل
 الأوّل ؛ إلا أنّ المطران هو الذى يحمل الكتابَ لعظّمته لا لتأبى الملك . ثم لا يتصرف
 الملكُ في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادى للكتاب ، ويجمع له يوم الأحد
 فى الكنيسة، ويُقرأُ والملك واقف ؛ ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

الثانى — صاحب دُنقلّة . قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك
 أنّ دُنقلّة هى قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت فى الأصل يكون ملكها من نصارى

الثوبة، ومعتمدُهم معتقدُ اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعضُ المسلمين من العرب فلنگها؛ وقد تقدم ذكر المكتبة إلى صاحبها إذا كان مسلماً؛ أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه: هذه المكتبة إلى النائب، الجليل، المبجل، الموقر، الأسد، اباسل، فلان؛ مجد الملة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُقله».

المقصد الرابع

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار بالجانب الشمالي من الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم، وجميعهم معتقدُهم معتقدُ الملائكية)

وجملة ما ذكر من المكتبات في "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرة مكتبة: الأولى - مكتبة الباب، وهو بطريرك الملائكية، القائم عندهم مقام الخليفة؛ والعجب من جملة في "التثقيف" بمنزلة النان عند التتار، والنان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر، والباب ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحرير.

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة أنهم كانوا يُسمون القسيس ونحوه أباً، ويُسمون البطريرك أباً؛ فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمة له تميزه عن غيره من الآباء، فأختاروا له لفظ الأب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لما غلب الروم على المملكة، وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصوا اسم الباب ببطريركهم؛ فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدم

(١) مراده أن يطلقوا على البطريرك سمة الخ.

هناك ، ورسمُ المكتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" ضاعفَ اللهُ تعالى بهجةَ الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القديس ، الروحاني ، الخاشع ، العامل ، أباً رومية ؛ عظيم الملة المسيحية ، قُدوة الطائفة العيسوية ، مملك ملوك النصرانية ، حافظ الجُسور والخُجان ، ملاذ البطاركة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكتبة .

قال في "التثقيف" : هذا ما وجدته مسطوراً ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه . ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" جملةً ، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة ، وأن الكتابة إليه في قطع النصف مع المكتبة المتقدمة .

الثانية - المكتبة إلى ملك الروم صاحب القُسطنطينية . قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آنراً إلى بني الأشركى ، فصار الأشركى سمّة لهم ملكاً بعد ملك . قال في "التعريف" وقد كان قبل غلبة الفرنج ملكاً جليلاً ، يرجع إليه من عبّاد الصليب سائر الملوك ، ويفتقر إليه منهم الغني والصعلوك ، وكتب التواريخ مشحونةً بأخباره ، وذكر وقائعه وآثاره ، وأول من ألبس هامته الذلّة ، وأصار جمعه إلى القلّة ، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهدي إياه ، فأزال السّم من أنفه ، وثنى جامع عطفه . فاما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حدّ النكايه ، ولا أعظمت له الشكايه ، قال : وهذا الملك الآن كان السلطان (أزبك) قد كاد يبتزّ تاجه ، ويُعقم نتاجه ، ويُجمل من جانب البحر المغلق رتاجه ، فأحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال ، وصحب أيامه على مَضض

الاحتمال؛ وكانت له عليه قطيعةٌ مقرّره، وجملةٌ مالٍ مقدّره؛ ثم عمّيت علينا بعده منهم الأخبار، وتولّى بالدنيا الإدبار .

ورسم المكتابة إليه على ما ذكره في " التعريف " : ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة العالمة ، المكرمة ، حضرة الملك ، الجليل ، الحظير ، الهمام ، الأسد ، الغصنفر ، الباسل ، الضرغام ، المعرق ، الأصيل ، المنجد ، الأثير ، الأئيل ، البلاوس ، الريدأرغون ، ضابط الممالك الرومية ، جامع البلاد الساحلية ، وارث القياصرة القداماء ، محيي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأمور دينه ، العادل في ممالكه ، معزّ النصرانية ، مؤيد المسيحية ، أوجد ملوك العيسويه ، مخول التخت والتيجان ، حامى البحار والخلجان ، آخر ملوك اليونان ، ملك ملوك السريان ، عماد بنى المعمودية ، رضى الباب بابا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قطع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما فى التعريف .

وجعل له من السلامة ^(١) يدا لا تُزعزعه من أوطانه ، ولا تنزعُه من سُلطانه ، ولا تُوجب له إلا استقرارا لتيجانه ، وأستقرارا بملكه على مادارت على حصونه مناطق خُلبجانه ، ولا برحت ثمار الودّ تدنو من أفنانه ، وموآثيق العهد تُبوى له مايسر به من إشادة معالم سلفه وشدّ بناء يونانه : أصدرناها ، وشكره بكاره البحر لا يُوقف له على آخر ، ولا يُوصف مثل عقده الفانخر ، ولا يكأثر إلا قيسل : أين هذا القليل من هذا الزانخر .

(١) فى التعريف « مع الإسلام » .

آخر له : ونظّم سلّكك ، وحمى بحسن تأتيه ملكك ، وكفى محبّه هلكك ،
وأجرى بوده ركائبه وفلكك ، ووقاه كذب الكاذب وكف إفكك ، وأشهد على بده
الليل والنهار وما جنّ كافور هذا كأفوره ولا مسك هذا مسكك .

قلت : هذا الدعاء والصنّدر وإن أوردته في " التعريف " في جملة الأدعية له
والصدور ، فإنه منحط الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يخصّ هذا بحالة
منازعة أو تهديد ، ونحو ذلك .

وذكر في " التثقيف " أن الذي استقرّ عليه الحال في المكاتبة إليه أنه يكتب إليه
في قطع النصف ما نصه : ضاعف الله تعالى [بهجة ^(١)] حضرة الملك الجليل ،
المكرم ، المبجل ، الأسد ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، فلان ،
العالم في ملته ، العادل في أهل مملكته ، عزّ الأمة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ،
بحال بنى المعمودية ، صمصام الملوك اليونانية ، حسام المملكة الماكسونية ،
مالك اليرغلية والاملاحية ، صاحب أمصار الروس والعلان ، معزّ اعتقاد الكرج
والسريان ، وارث الأسرة والتيجان ، الحاكم على الثغور والبحور والخلجان ، الضوقس
الأنجالوس الكنينوس البالاولوغس ، صديق الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته تشكراً موالاته ، (ومن هذه المادة) وتوصّح
لعلمه السعيد .

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختمها بقوله : فيحيط بذلك علما ، والله تعالى
يديم بهجته .

(١) مقتبسة من " التعريف " لصحة الكلام .

قال في "التثقيف" : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكتبة هي المتداولّة بديوان الإنشاء بين مكّابيه ، وأنه هو كُتِبَ بها إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكتبة التي ذكرها في "التعريف" بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه .

الثالثة - المكتبة إلى حُكّام جنوة : وهم جماعة متفاوتو المراتب ، وهم : البودشطا ، والكبطان ، والمشايخ . ورسم المكتبة إليهم على ما ذكره في "التثقيف" في قطع التُّلث :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرّمين ، الموقّرين ، المبجلين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأَكابر المحترمين ، أصحاب الرأي والمشورة ، الكُنون بجنوه^(١) ، أجداد الأئمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رُشدَهم ، وقرن بالخير قَصْدَهم ، وجعل النصيحة عندهم . تتضمن إعلامهم كذا وكذا . وتعريفهم « الحُكّام بجنوة » .

قال في "التثقيف" والذي استقرّ عليه الحال آتراً في مفتّح سنة سبع وستين وسبعائة إبطال المكتبة إلى البودشطا والكبطان ، بحُكْمَ أنهما أُبطلَا ، وأستقرّت [ت مكتبة] الدُوج مكانهما بما نصه :

صدرت هذه المكتبة إلى الدُوج الجليل ، المكرّم ، المبجل ، الموقّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقي على ما تقدم ذكره .

قلت : هكذا هو في "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم في آخره كإنا على ماسياتي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر .

(١) لعله الحاكون بجنوة .

وأعلم أنه قد ذكر في "التتقيف" أنه كان لصاحب جنوة مُقَدِّم على الشَّوَانِي بِقُبْرَسَ ، وقيل إنه كان بالماغُوصَة ، وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قَطْع العادة مانصه :

وردتُ مَكاتِبَ المُحَنِّثِمْ ، الجليل ، المَبَجَّل ، الموقر ، الأسد ، الباسل ، فلان ؛
مَجِدِ المِلَّةِ المَسِيحِيَّةِ ، كَبِيرِ الطائفة الصَّليبيَّةِ ، غُرَسِ الملوک والسلاطين ؛ ثم الدَّعاء .
وتعريفه «مقدِّم الشَّوَانِي الجَنَوِيَّةِ بِقُبْرَسَ» .

الرابعة — المَكاتِبَةُ إلى صاحب البُنْدُقيَّةِ . قال في "التتقيف" : ورسم المَكاتِبَةُ إليه على ما استقرَّ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين وسبعائة ، وهو يومئذ مَرَكْرَادُو في قطع التُّث :
وردتُ مَكاتِبَةَ حَضْرَةِ الدُّوجِ ، الجليل ، المَكْرَم ، الخطير ، الباسل ، الموقر ،
المَفْعَم ، مَرَكْرَادُو غَيْرِ المِلَّةِ المَسِيحِيَّةِ ؛ جَمالِ الطائفة الصَّليبيَّةِ ، دُوجِ البُنْدُقيَّةِ
والمانسية ، دوج كرال دين بنى المعمودية ، صديق الملوک والسلاطين ، والدَّعاء .
وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلاً عن خط القاضي ناصر الدين
أبن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دُوكِ البنادقة :

وردتُ مطالعةُ الدُّوكِ الجليل ، المَكْرَم ، المَبَجَّل ، الموقر ، البَطَّل ، الهام ، الضَّرغام ،
الغَضَنَفَر ، الخطير ؛ مَجِدِ المِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، غَيْرِ الأُمَّةِ العيسويَّةِ ، عماد بنى المعمودية ،
معزَّ بآبَا رُوميَّة ، صديق الملوک والسلاطين ، دُوكِ البنادقة ، وديارقة ، والرُّوسَا ،
والإصطَبُولِيَّةِ . ثم قال : ولم يذكر تعريفه ولا قَطْعَ الورق الذي يُكْتَبُ إليه فيه ؛
ثم نقل عنه أيضاً أن المَكاتِبَةَ إلى دُوكِ البُنْدُقيَّةِ : هذه المَكاتِبَةُ إلى حَضْرَةِ
المَحْتَشَم ، الجليل ، المَبَجَّل ، الموقر ، المَكْرَم ، المَفْعَم ، الباسل ، الضَّرغام ، فلان ؛

عزَّ الامَّة المسيحيَّة، جمالِ الطائفة العيسويَّة، ذُخر الملة الصليبيَّة، صديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتُه من غير ذكر تعريفه ولا القَطْع الذي يكتب إليه فيه . قال : وما يبُعدُ أنه غيرُ الأوَّل ولم يزد على ذلك .

قلت : ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدوك غيرُ الملكِ نفسه . على أن المكتبة الأولى والثانية في الجواب متقاربتان . اما المكتبة الثالثة فمنحطة عن الأوَّلَيَّيْنِ . على أنه قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البندقيَّة نقلا عن ابن سعيد أن ملك البنادقة يقال له الدوك بضم الدال المهملة وواو وكاف في الآخر، وهذا مما يحتاج إلى تحرير؛ فإن كان الدوك هو الملك فتكون المكتبة إليه اختلفت باختلاف الحال، أو باختلاف غرض الكُتَّاب، أو عدم اطلاعهم على حقيقة الأقدار والوقوف مع ما يُلقَى إليهم من المزاحمة في كل وقت وهو الظاهر .

الخامسة — المكتبة إلى صاحب سُبُوب، من سواحل بلاد الروم، قبل أن تُفتح ويستولى عليها التترُكَّان . قال في "التعريف" وهي على صَفَّة انخيلج القسطنطينيَّة، وملكها روميٌّ من بيت الملك القديم، من أقارب صاحب القسطنطينيَّة . قال : ويقال إن أباه أعرق من آبائه في السلطان . قال : ولكن ليس ملكه بكبير، ولا عدده بكثير، ويكونُ بينه وبين أمراء الأتراك حروب، يكون في أكثرها المغلوب . وذكر أن رسم المكتبة إليه مثلُ ممتلك سيس، فتكون على ما ذكره في مكتبة ممتلك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك، الجليل، البطل، الباسل، الهمام، السَّميدع، الضَّرغام، الغضنفر، فلان، نخر الملة المسيحيَّة، ذُخر الأمة النصرانيَّة، عماد بن المعموديَّة، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف":

وكفاه شرَّ ما يُنوب، وروحَ خاطره في الشمال برِّياً ما يُهبُّ من الجنوب، ووقاه
سوءَ فِعْلِ يورث النَّدمَ وأوَّلُ ما يَقْرَعُ السَّنَّ سنُّوب .

السادسة - المكتبة إلى صاحب البلغار والسرب . قد تقدم في الكلام على
المكتبات إلى ملوك الإسلام بالجانب الشمالي نقلاً عن "التعريف" ما يقتضي أن
ملكها مسلم، وذكرت مكتبته الإسلامية هناك، وعلى ذلك أقصر في "التعريف"
وتقدم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارت إلى ملوك النصرانية، وعليه أقصر
في "التتيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التتيف" نقلاً عن ابن النشائي في قطع
الثالث ما نصه :

أطال الله تعالى بقاءَ حضرة الملك، الجليل، المكرم، المبجل، الهام، الضرغام،
الباسل، الدوقس، الانجالوس، الكنينوس، فلان، عماد النصرانية، مالك السرب
والبلغار، نخر الأئمة العيسويه، دُخر الملة المسيحية، فارس البحور، حامى الحصون
والثغور . والدعاء، أصدرنا هذه المكتبة، وتعريفه «صاحب البلغار» .

وأعلم أنه في "التتيف" بعد أن أورد المكتبة المتقدمة لصاحب السرب والبلغار،
نقلاً عن ابن النشائي ذكر نقلاً عنه أيضاً أن المكتبة إلى صاحب السرب في قطع
الثالث نظير ممتلك سيس، فتكون المكتبة إليه على ما تقدم أنه الذي استقر عليه الحال
في المكتبة لممتلك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك، الجليل، المكرم، المبجل، المعزز،
الهام، الباسل، فلان، عز دين النصرانية، كبير الطائفة الصليبية، عماد بنى

(١) أى البلد التي هي عاصمة ملكه .

المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمته، وحرس مهجته، تعلمه كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السَّرب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارة فيكون بهما آثان تارة وواحد تارة أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكتبة صاحب البلغار وحده مفردا كما ذكر مكتبة صاحب السَّرب وحده مفردا .

قلت : كَلَّا الأمرين محتملٌ، فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحد، وأنه كتب تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناءً به عن الآخر، أو أنه كتب إلى صاحب السَّرب بمفرده، ولم يحط رتبته في قطع الورق عن رتبة من اجتماعه، ولا يلزم من ذلك أنه كان يكتب لصاحب البلغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيء حينئذ، وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة — المكتبة إلى ملك رُودس . قال في "التعريف" وهي جزيرة تقابل شطوط البلاد الرومية . قال : وأهلها في البحر حرامية، إذا ظفروا بالمسلم، أخذوا ماله، وأحيوه، وباعوه أو استخدموه؛ وإذا ظفروا بالفريسي، أخذوا ماله وقتلوه .

ورسم المكتبة إليه مثل ممتلك سيس، إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية، وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه، وحينئذ فيتجه أن تكون المكتبة إليه :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل، البطل، الباسل، السميذغ، فلان؛ فخر الملة المسيحية، دُثر الأمة النصرانية، صديق الملوك والسلاطين، أونحو ذلك . على أنه في "التعريف" لم يذكر في المكتبة إلى ممتلك سيس، معزٍ بابا رومية؛ فلم يكن ليحتاج أن يقول : إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" وهو
 قَدَّمَ اللهُ لَهُ الْأَعْدَارَ، وَكَفَاهُ قَوَامِعَ الْإِنْدَارِ، وَحَدَّرَهُ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْتَفِعَ الْحِدَارُ.
 آخِرُ: فَكَ اللهُ مِنْ وَثَاقِهِ كُلِّ مَاسُورٍ، وَأَقَالَ كُلَّ غَرَابٍ لَهُ مِنْ الرُّجُوعِ
 وَجَنَاحُهُ مَكْسُورٌ، وَعَصَمَهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا أَقْتَرَفَ، لَا بِالْبَحْرِ وَلَوْ أَنَّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، وَسُورِ
 مَدِينَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُ مَائَةٌ سُورٍ.

الثامنة - المكتبة إلى صاحب جزيرة المصطكى . قال في "التعريف" : وهي
 جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية ، وصاحبها صغير لا في مال ولا في رجال ؛
 وجزيرته ذات حُط لا يطيرُ شاربها بزراع ، ولا يدُرُ حالها بضرع ؛ إلا أنها تُبِت
 هذه الشجرة فتحمّل منها وتُجَلب ، وتُرْمى السفنُ عليها بسببها وتُطَلَب ؛ قال :
 وفي ملكها خدمةٌ لرُسُلنا إذا ركبوا شَجَّ البحر ، وتجهيزٌ لهم إلى حيثُ أرادوا ، وتعييرٌ
 لهم إذا توجَّهوا وإذا عادوا ؛ ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكتبة
 إلى صاحب جزيرة رُودس المتقدمة المذكور آنفاً وهي :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم .

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" دعاءً من ذلك ، وفقه الله لطاعته ،
 وأنهضه من الولاء بقدر طاقته .

آخِرُ : أَطَابَ اللهُ قَلْبَهُ ، وَأَدَامَ إِلَيْنَا قُرْبَهُ .

آخِرُ : لَا زَالَ إِلَى الطَّاعَةِ يُبَادِرُ ، وَعَلَى الخِدْمَةِ أَنْهَضَ قَادِرًا ، وَمَكَانُهُ يُرْمَى
 إِلَيْهِ رَكَائِبُ السُّفُنِ بِكُلِّ وَارِدٍ وَصَادِرٍ .

التاسعة - المكتبة إلى ممتلك قبرس . وإنما قيل له ممتلك قبرس لأنها كانت
 قد فتحها المسلمون ؛ ثم تغلب عليها النصارى وملكوها ؛ فقيل لمن غلب عليها ممتلك

ولم يُقَلِّ له مَلِكٌ ؛ وذكر في "التثقيف" عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن المكتبة إليه [مثل] ممتلك سيس ولم يزد على ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكتبة إليه مثل ما استقر عليه الحال في المكتبة إلى ممتلك سيس في قطع العادة :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بن المعمودية ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مَهْجَتَه . وتعريفه «ممتلك قبرس» .

قال صاحب "التثقيف" : ولم أقف على مكتبة إليه ابتداءً ولا جواباً سوى ذلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاي اليوسفي عند وقوع الصلح في سنة اثنتين وستين وسبعائة ، يعني عند ما كان الجاي أتاك العساكر المنصورة .

العاشرة - المكتبة إلى ملك مونفراد . ذكر في "التثقيف" أنه كان بها ابن ملك إصطنبول ، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة :

أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، البطل ، الهام ، الأسد ، الضرام ، فلان ؛ مجد النصرانية ، نخر العيسوية ، عماد بن المعمودية ، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية ، ملك مونفراد ، وارث التاج ، معز الباب ، أدام الله بقاه ، وحفظه ووقاه ، وأورثه من أبيه تحته وتاجه وولاه ؛ تتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكتبة المذكورة ، ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولم أدر ما تعريفه ، ولا في أي قطع يكتب إليه . قال : والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة ، وأن يكون تعريفه « ملك مونفراد » .

الحادية عشرة - المكتبة إلى صاحبة نابل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان اسم صاحبها جوانا، وأنه كُتِب إليها في أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ماصورته :

صدرت هذه المكتبة إلى الملكة، الجليّة، المكرّمة، المبجّلة، الموقّرة، المفخّمة، المعزّزة، فلانة، العالمّة في ملّتها، العادلة في مملكتها، كبيرة دين النصرانية، نصيرة الأئمة العيسويّة، حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، تتضمن إعلامها، وتعرّيفها «صاحبة نابل» ولم يذكر قطع الورق لمكتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها .

قلت : فإن ولي مملكتها رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء . وهؤلاء جملة من تعرّض إلى مكاتبته في "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكُفْر؛ فإن اتفقت المكتبة إلى أحد سواهم فليُقَس على من هو مثله منهم . ثم قد ذكر في "التثقيف" القنصل بكفا، وذكر أنها جارية في حكم جنوة، وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكتب عن الأبواب السلطانية .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ؛

من جرت العادة بمكاتبته إليها من أهل المملكة وغيرها من

سائر الممالك المكتوبة عن هذه المملكة ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(المكتوبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي على قسمين)

القسم الأول — في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ،
والبلاد الشامية ، ممن يؤهل للمكتابة إلى الأبواب السلطانية ، من النواب وغيرهم ؛
من الأمراء ، وأرباب الأقاليم : من الوزراء ، والعلماء ومن في معانهم ؛ وهم على
ضريين :

الضرب الأول

(في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية

والبلاد الشامية : من النواب ومن في معانهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة ، أن
يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي ،
وإن كان بالبلاد الشامية فمن الورق الشامي ، وجميع ذلك في الورق الأبيض ، إلا
نائب الشام ونائب الكرك ، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب
السلطانية في الورق الأحمر الشامي ، شئاً اختصابه دون سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر في "عرف التعريف" أن المملوك لا يُكْتَب إليهم إلا «يُقَبَّل الأرض»
ويُنْهَى . ويُخْتَم الكتاب بما صورته : طالع المملوك بذلك وللآراء العالية مَزِيدُ العُلُو؛
أو أنهى المملوك ذلك وللآراء العالية مَزِيدُ العُلُو، والعنوان «المَلِكِيّ- الفلاني» ، مطالعة
المملوك فلان « وحينئذ فالذي جرت به العادة في ذلك أن يتدبى الكاتب فيكتب
فِيهِرِست الكتاب في رأس الدَّرَج من جهة وجهه ، في عَرَض اصبع ، في الجانب الأيمن
« إلى الأبواب الشريفة » وفي الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » ثم يَلِيبُ الدَّرَج
ويكْتَب في ظاهره ، بعد تَرْك ما كُتِبَ الفِهْرِستُ في باطنه ، العُنْوَان ؛ فيكتب :
« المَلِكِيّ الفلاني » في أول العُنْوَان ، و« مطالعة المملوك فلان » في آخره . ثم بعد ذلك
يَلِيبُ الدَّرَج ، ويترك وَصلاً أبيض ، ويكْتَبُ بالبسملة في رأس الوصل الثاني بعد
خُلُو هَامِيش من الجانب الأيمن . ثم يَكْتَبُ تحت البسملة ملاصقاً لها ما صورته
« المَلِكِيّ الفلاني » بحيث يكون آخر المَلِكِيّ الفلاني مسامتاً بلحالة البسملة ، بلقَب
السلطان ، كأنه يَنْسَبُ نَفْسَهُ إلى سلطانه . ثم يكتب صورة المكتبة على سَمْتِ البسملة
في سطرٍ ملاصقي للمَلِكِيّ الفلاني « يَقَبَّل الأرض وَيُنْهَى كذا وكذا » فإن كان ابتداءً
كتب وَيُنْهَى أن الأمر كذا وكذا ، ويأتي بمقاصد المكتبة : فإن كانت فصلاً
واحداً ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه ؛ وإن كان الكتاب مشتملاً على فُصُولٍ أتى
بالفصل الأول إلى آخره . ثم يَحْلِي بياضاً قدرَ خمسة أسطر . ثم يَسْرُدُ الفُصُولَ بعد
ذلك فَصْلاً فَصْلاً : يُحْلِي بين كل فصلين قدرَ خمسة أسطر أيضاً ، ويقول في أول
كل فصل « المملوك يُنْهَى كذا وكذا » وإذا أتى على ذكر السلطان ، قال : خَلَدَ اللهُ
سلطانه ؛ أو خَلَدَ اللهُ ظَلَمَهُ ؛ أو أتى على ذكر المرسوم الشريف ، قال : شَرَّفَهُ اللهُ
وعظَّمَهُ ونحو ذلك ؛ وإذا سأل في أمر ، قال : والمملوك يُعْرِضُ على الآراء الشريفة
كذا وكذا ، أو إن اقتضت الآراء الشريفة كذا فلها مَزِيدُ العُلُو ، ولا يقال : يَسْأَلُ

الصدقات الشريفة، إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب، ولا يلقب أحدا بالجناب والمجاس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام، أو نائب حلب، أو أمير كبير. قال: إن مملوك مولانا السلطان خلد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالملكة الشامية المحروسة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، أو القاضي فلان الدين، أو ناظر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجري هذا المجرى، ولا يدعى في المطالعة لأحد. وإذا آتت الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهز المملوك بمطالعه هذه مملوكه فلانا السيئي مثلا المائل بها. وإن كان ثم مشافهة، قال: وقد حمل مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو يُنهيها إلى المسامع الشريفة إذا رسم له بإنهاها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة النواب بالبلاد الشامية أن يقدموا في صدر المكتبة ما اشتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواحر هذه المملكة: من تجدد أمر، أو حركة عدو، أو حكاية حال مهمة من أحوال تلك البلاد، مثل أن يقال في أول المكتبة، وينهى أن قصاده عادوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التي أخبر بها قصاده.

وإن كان الخبر نقلا عن نائب من نواب الأطراف كالرها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة وردت بكذا وكذا، ويذكر ما تضمنته ملخصا. وإن كانت المطالعة جواب مثال شريف ورد فقط، قال: وينهى أن المرسوم الشريف

شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمّن ما اقتضته المراسيم الشريفة ، أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها : من كذا وكذا ، ويذكر نصّ المثال الشريف حرفاً حرفاً . ثم يقال : وتفهّم المملوك ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة - زاد الله تعالى شرفها - بتكرار تقبيل الأرض والامتثال ؛ وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذي ينيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقّف .

ثم إن كان النائب عظيم القدر كاتب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب ، جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع ؛ وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهى في أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض .

وإن كانت المطالعة في أمر مهمّ كاستقرار نائب أو بشارة بفتح أو نحو ذلك ، أتى بجميع الكتاب مسجّعا وإلا فلا .

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداءً .

يقبل الأرض ، ويُنبئ أنه ورد على المملوك مكتابة نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، يذكر فيها أن قُصّاده عادوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدو المخدول فلانا قد نرجح عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكّر راجعا إليه بعد أن كان قاصداً هذه الجهة ، وأحبّ المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك .

المملوك يُنبئ أن مطالعة نائب الرّحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلانا التركمانى قد عاد إلى الطاعة الشريفة ، ولأذ بمراحم الأبواب العالسة ، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا الخوف من السطوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمان شريف له وجماعته ومن يليه بأن يكونوا آمينين على أنفسهم ،

وأموالهم ، وسائر ذات يديهم ، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، وأمتثل ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته . والمملوك ينظر ما يردُّ به الجوابُ الشريف في أمره لكاتب نائب الرِّجبة المحروسة بما يعتمده في أمره .

المملوكُ يُنهي أنه قد بلغ المملوك أنَّ البحر مشغولٌ بمراكب القرنج ، ولم يعلم إلى أيِّ مكان يقصدون ، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المرَّكين ، وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ ، وقد عرض المملوك ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ، ويكتب به التواب بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوك يُنهي أن الأمير فلانا الفلاني : أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة قد توفى إلى رحمة الله تعالى ، والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار امرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ، ولد المملوك فلان ، إعانة له على الخدمة الشريفة ، وجبراً لخاطر المملوك ، فإن حسن ذلك بالآراء الشريفة ، وإلا فالرأي العالي مزيد العلو .

المملوك يُنهي أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزت المراسيمُ الشريفةُ باستقراره في نيابة صفد المحروسة ، وقد توجه إلى محل نيابته ، والمملوك يعرض على الآراء الشريفة إن حسن بالرأي الشريف أن يستقر في الوظيفة المذكورة الأمير فلان الدين فلان : أحد الأمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة ، فإنه كُفِّ لذلك ، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة .

المملوك ينهي أن فلانا : أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة ، قد درج بالوفاة ، وقد كتب المملوكُ مربعةً باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه ، وجهزها إلى الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية ، فإن حسن بالرأي الشريف

إمضاؤها وإلا فيستقر على إقطاعه من تبرز المراسيم الشريفة باستقراره، وقد جهز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان إلى الأبواب الشريفة .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالى ثم يكمل .



وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضا، في جواب مكتبة شريفة وردت عليه وهي :

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي، بالأبواب الشريفة، يتضمن أن المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والمواني، وإقامة الأيزك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة، وتعمد أحوالها وتفقدتها، وتقويم أحوالها بحيث تقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها، ولا يقع على أحد ذلك بسببها . وأن المملوك يتقدم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه . فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه، وتفهم ما رسم له به، وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بالامتثال، وتقدم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك، وأخذ في حفظ السواحل والمواني، وإقامة الأيزك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديبانات والمناسر [فقامت الأحوال] على أحسن العوائد، وجرى على أكمل القواعد، ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصدده من ذلك، وقد أعاد المملوك فلان الدين فلان البريدي المذكور بهذه المطالعة : ليحصل الوقوف عليها . طالع بذلك



وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب : يقبل الأرض وينهى أنه قد حضر رسول من القسان فلان بالملكة الفلانية [وقصدته التوجه] إلى الأبواب الشريفة ، والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره ، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة ، جهزه المملوك إليها على العادة .

المملوك ينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسافر من الأبواب الشريفة ، يتضمن طلب فلان الفلاني ، وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به ، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالامتثال ، وتقدم بطلب فلان المذكور وسأله إلى فلان الدين المسافر المذكور ، وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة .



صورة وضع المطالعة من نواب السلطنة ومن في معانهم ، إلى الأبواب الشريفة		
الجانب الأيمن	الطيرة	الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة		بسبب كذا

العنوان

الملك الفلاني	مطالعة المملوك
	فلان

الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الظاهري مثلاً

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، ورد على المملوك ، على يد فلان الدين فلان البريدي ، ويكل عليه إلى آخره .

الضرب الثاني

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

المطالعات الواردة من الوُلاة ومن^(١) في معنهم .

(١) بيض له في الأصل بقدر صفحة

القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكتوبة عن هذه المملكة . وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رتبة القدر . وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرّف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة ، ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه ، ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة ، وعظيم النفع ، وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بحك المعرفة .

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق، في الأيام الظاهرية الشهدية برقوق سقى الله تعالى عهده ، وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أذربك ، ورُفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك ، فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة ، فخرجوا وتلقوه بالعظيم ، على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره ، وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره ، فلما عرض كتابه نظر فيه المقرّ البدرى بن فضل الله ، نعمده الله تعالى برحمته ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، فوجده غير جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة ، فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته ، فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان ، فأنكر عليه ذلك ، وحطّ رتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه ، وعلا بذلك مقدار المقرّ البدرى بن فضل الله المشار إليه عند السلطان ، وشكره ما كان من ذلك .

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في الكتب الواردة عن أهل الشرق، وفيه أطراف)

الطرف الأول

(الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جنكخان، ولها حالان)

الحال الأولى — ما كان الأمر عليه قبل دخولهم في دين الإسلام .

وكان الأمر يجرى في كتابتهم بجري المخاشنة ، والتصريح بالعداوة ، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هولاكو بن طوحي ، بن جنكخان ، المتربع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفر قطز في سنة ثمان وخمسين وسبعائة ، وهو :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم :

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس الممالك الذين هربوا من سيوفنا إلى

هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها

من الأعمال ، أننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من أحل

عليه غضبه ، فسلموا إلينا أموركم تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ،

وقد عرفتم أننا نربنا البلاد ، وقتلنا العباد ، فلكم منا الهرب ، ولنا خلفكم الطلب ؛

فما لكم من سُيُوفنا خَلَّاص : خُيُولنا سَوَاق ، وسُيُوفنا قَوَاطِع ، وَقُلُوبنا كالجبال ،
 وَعَدَدُنا كالأرمال ، وَمَنْ طَلَبَ حَرْبنا نَدِم ، وَمَنْ قَصَدَ أماننا سَلِم ؛ فَإِنْ أتم لَشْرطنا
 وأوامرنا أَطعتم فلُكُم مالنا ، وَعَلَيْكُم ما علينا ؛ فقد أَعَدَّ مَنْ أُنْذِر . وقد ثبت عندكم
 أَننا كَفَره ، وَثَبَّتْ عندنا أَنكُم الفَجْره ، فَأَسْرِعُوا إلينا بالجواب قَبْلَ أَنْ تُضْرِمَ الحَرْبُ
 نارها ، وَتَرْمِيكُم بِسَرارها ، فلا يَبْقَى لَكُم جَأهٌ ولا عِزٌّ ، ولا يَعِصُكُمْ مِنَّا جَبَلٌ ولا
 حِرْزٌ ، فمابَقِيَ لَنا مَقْصِدٌ سِواكم ، والسَلامُ عَلينا وَعَلَيْكُم ، وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى ،
 وَخَشِيَ عِواقِبَ الرَّدَى ، وَأَطاعَ المَلِكَ الأَعْلَى .

الحال الثانية — ما كان الأمر عليه بعد دُخُولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة
 بين الدولتين .

وكان عادتهم في الكتابة أن يُكْتَبَ بعد البسملة « بقوة الله تعالى » ثم يُكْتَبَ
 بعد ذلك « بإقبال قان فرمان فلان » يعني كلام فلان .
 ولهم في ذلك طريقتان .

إحداهما — أن يُكْتَبَ بِسْمِ الله سَطِرا ، وَيُكْتَبَ « الرحمن الرحيم » سَطِرا
 تحتها ، وَيَكْتَبُ « بقوة الله » سَطِرا « وتعالى » سَطِرا آخر تحتها ؛ ثم يكتب تحت
 ذلك في الوسط بهامش من الجانبين « بإقبال قان » سَطِرا ، وتحت « فرمان فلان »
 باسم السلطان المكتوب عنه سَطِرا آخر .

والطريقة الثانية — أن تُكْتَبَ البسملةُ جَمِيعُها سَطِرا واحداً ، ثم يكتب تحت
 وَسَطِ البسملة « بقوة الله تعالى » سَطِرا « وميامين الملة المحمدية » سَطِرا آخر ؛
 ثم يكتب تحت ذلك سَطِرا آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فرمان السلطان فلان »
 يعني كلام السلطان فلان .

ولم أقف على قطع الورق الذي كُتِب فيه حينئذ ، والظاهر أنه في البغدادى الكامل تعظيماً لشأن المكتوب عنه عندهم . وبالجملة فإن الظاهر أن الكتب الواردة عنهم على نمط الكتب الواردة من هذه المملكة إليهم ، جرياً على قاعدة كُتِب هذه المملكة من أن الغالب مضاهاتهم لأكابر الملوك في كتبهم في الهيئة والترتيب شرقاً وغرباً .

وهذه نسخة كتاب على الطريقة الأولى ، ورد عن السلطان « أحمد » صاحب مملكة إيران ، من بنى هولاكو المقدم ذكره ، وهو أول من أسلم منهم ، كتب به إلى الملك المنصور « قلاوون » صاحب الديار المصرية ، تغمده الله تعالى برضوانه ، ورد مؤرخاً بأوسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة ، ورأيت في بعض الدساتير أنه من إنشاء الفخر بن عيسى الموصلى ، وورد بخطه وهو :

بسم الله

بسم الله

تعالى

الرحمن الرحيم

. بإقبال قان .

. فرمان أحمد .

إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنقوان الصبا ، ورعان الحدائث ، إلى الإقرار برؤيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصديق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريئته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبنا الجليل ، وأخينا الكبير ، نوبه الملك ، فأضفى علينا من

جَلَّابِيبِ الطَّافَةِ وَلَطَائِفِهِ ، مَا حَقَّقَ بِهِ آمَانَنَا فِي جَزِيلِ آيَاتِهِ وَعَوَارِفِهِ ، وَجَلَّى هَذِهِ الْمَلَكَةَ عَلَيْنَا ، وَأَهْدَى عَقَيْتَهَا إِلَيْنَا ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَنَا فِي قُورِ يَلْبَانَ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ الْمَجْتَمِعُ الَّذِي تُقَدِّحُ فِيهِ الْآرَاءُ - جَمِيعُ الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَمْرَاءِ الْكِبَارِ ، وَمَقَدِّمُو الْعَسَاكِرِ ، وَزَعَمَاءُ الْبِلَادِ ، وَأَتَفَقْتُ كَلِمَتَهُمْ عَلَى تَنْفِيذِ مَا سَبَقَ بِهِ حُكْمُ أَحْيَانَا الْكَبِيرِ ، فِي إِنْفَازِ الْحَمِّ الْغَفِيرِ ، مِنْ عَسَاكِرِنَا الَّتِي ضَاغَتْ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا مِنْ كَثْرَتِهَا ، وَأَمْتَلَأَتْ الْأَرْضُ رُعبًا مِنْ عَظِيمِ صَوْلَتِهَا ، وَشَدِيدِ بَطْشَتِهَا ، إِلَى نَلِكِ الْجَهَةِ بِهَمَّةٍ تَخَضَعُ لَهَا صُمُّ الْأَطْوَادِ ، وَعِزْمَةٌ تَلِينُ لَهَا الصَّمُّ الصَّلَادِ ، فَفَكَّرْنَا فِيمَا تَمَخَّضَتْ زُبْدُ عِزَاتِهِمْ عَنْهُ ، وَاجْتَمَعَتْ أَهْوَاؤُهُمْ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْنَاهُ مُخَالَفًا لِمَا كَانَ فِي ضَمِيرِنَا مِنْ آقْتِفَاءِ الْخَيْرِ الْعَامِّ ، الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَقْوِيَةِ شِعَارِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَصُدَّرَ عَنْ أَوْامِرِنَا مَا أَمْكَنَّا إِلَّا مَا يُوجِبُ حَقْنَ الدَّمَاءِ ، وَتَسْكِينِ الدِّهْمَاءِ ، وَتَجَرِّي بِهِ فِي الْأَقْطَارِ ، رُخَاءُ نَسَائِمِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَيَسْتَرِيحُ بِهِ الْمَسَامُونَ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ ، فِي مِهَادِ الشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ، تَعْظِيمًا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، فَالْهَمْنَا اللَّهُ تَعَالَى إِطْفَاءَ تِلْكَ النَّارِ ، وَتَسْكِينِ الْفِتَنِ النَّارِ ، وَإِعْلَامَ مَنْ أَشَارَ بِذَلِكَ الرَّأْيِ بِمَا أُرْشَدْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ : مِنْ تَقْدِيمِ مَا يُرْجَى بِهِ شِفَاءُ مِرْزَاجِ الْعَالَمِ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَتَأخِيرِ مَا يَمِيبُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الدَّوَاءِ ، وَأَنْتَا لَا نَحِبُ الْمَسَارَعَةَ إِلَى هَرِّ النَّصَالِ لِلنَّصَالِ إِلَّا بَعْدَ إِضْوَاحِ الْمَحَاجَّةِ ، وَلَا نُبَادِرُهَا إِلَّا بَعْدَ تَبَيُّنِ الْحَقِّ وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ، وَقَوَى عِزْمَتِنَا عَلَى مَا رَأَيْنَاهُ مِنْ دَوَاعِي الصَّلَاحِ ، وَتَنْفِيذِ مَا ظَهَرَ لَنَا بِهِ وَجْهُ النَّجَاحِ ؛ إِذْ كَانَ ، الشَّيْخُ قَدْوَةُ الْعَارِفِينَ « كَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » الَّذِي هُوَ نِعْمَ الْعَوْنُ لَنَا فِي أُمُورِ الدِّينِ ؛ فَارْسَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لِمَنْ [الَّتِي] دُعَاهُ ، وَنِقْمَةً عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَصَاهُ ؛ وَأَنْقَدْنَا أَقْضَى الْقَضَاةِ قَطْبَ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ ، وَالْأَتَابِكَ بِهَاءِ الدِّينِ ، أَللَّذِينَ هُمَا مِنْ تِقَاتِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّاهِرَةِ لِيُعَرِّفُوهُمْ طَرِيقَتَنَا ، وَيَتَحَقَّقَ عِنْدَهُمْ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ لِعُمُومِ الْمَسْلَمِينَ جَمِيسُ نَيْتِنَا ، وَبَيْنَا لَهُمْ أَنَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ

يُحِبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى الْوَقْتُ فِي قُلُوبِنَا أَنْ نَتَّبِعَ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ ، وَنُشَاهِدَ أَنَّ عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ لِلْكَافَّةِ بِمَا دَعَانَا إِلَيْهِ مِنْ تَقْدِيمِ أَسْبَابِ الْإِحْسَانِ ، أَنْ لَا يُحَرِّمُوهَا بِالنَّظَرِ إِلَى سَائِرِ الْأَحْوَالِ فَكُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ؛ فَإِنْ تَطَلَّعْتَ نَفْسُهُمْ إِلَى دَلِيلِ تَسْتَحْكُمُ بِسَبَبِهِ دَوَاعِيَ الْإِعْتِيَادِ ، وَحُجَّةٍ يَتَّقُونَ بِهَا مِنْ بُلُوغِ الْمُرَادِ ؛ فَلْيَنْظُرُوا إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ أَمْرِنَا مِمَّا أَشْتَهَرَ خَبْرُهُ ، وَعَمَّ أَثَرُهُ ، فَإِنَّا أَبْتَدَأْنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ بِإِعْلَاءِ أَعْلَامِ الدِّينِ وَإِظْهَارِهِ ، فِي إِيْرَادِ كُلِّ أَمْرٍ وَإِصْدَارِهِ ، تَقْدِيمًا لِنَامُوسِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ ، عَلَى مَقْتَضَى قَانُونِ الْعَدْلِ الْأَحْمَدِيِّ ، إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا ؛ وَأَدْخَلْنَا السَّرُورَ ، عَلَى قُلُوبِ الْجُمْهُورِ ، وَعَقَفْنَا عَنْ كُلِّ مَنْ احْتَرَحَ سِنَّةً وَأَقْتَرَفَ ، وَذَابَلَنَاهُ بِالصَّفْحِ وَقُلْنَا عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ ؛ وَتَقَدَّمْنَا بِإِصْلَاحِ أُمُورِ أَوْقَافِ الْمَسْلَمِينَ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْمَدَارِسِ ، وَعِمَارَةِ بِقَاعِ الدِّينِ وَالرِّبْطِ الدَّوَّارِسِ ؛ وَإِصْلَاحِ حَاصِلِهَا بِمُوجِبِ عَوَائِدِهَا الْفَائِدَةِ إِلَى مَسْتَحَقِّهَا بِشُرُوطِ وَإِقْفِيئِهَا ؛ وَمَنْعَنَا أَنْ يُلْتَمَسَ شَيْءٌ مِمَّا اسْتُحْدِثَ لَهَا ؛ وَأَنْ لَا يَغْيَّرَ أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا قُرِّرَ أَوَّلًا ؛ وَأَمْرِنَا بِتَعْظِيمِ أَمْرِ الْحُجَّاجِ وَتَجْهِيزِ وَفْدِهَا ، وَتَأْمِينِ سُبُلِهَا ، وَتَسْيِيرِ قَوَائِلِهَا ؛ وَإِنَّا أَطْلَقْنَا سَبِيلَ التَّجَارِ الْمُرْتَدِّينَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ لِيَسَافِرُوا بِحَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ عَلَى أَحْسَنِ قَوَاعِدِهِمْ ؛ وَحَرَمْنَا عَلَى الْعَسَاكِرِ وَالْقَرَاغُولَاتِ وَالشَّحَابِي فِي الْأَطْرَافِ التَّعَرُّضَ لَهُمْ فِي مَصَادِرِهِمْ وَمَوَارِدِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ قَرَاغُولٌ صَادَفَ جَاسُوسًا فِي زِيَّ الْفُقَرَاءِ كَانَ سَبِيلُهُ أَنْ يَهْلِكَ ، فَلَمْ تُهْرَقْ دَمَهُ : لِحُرْمَةِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَعْدَنَاهُ إِلَيْهِمْ . وَلَا يَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانَ فِي إِنْفَازِ الْجَوَاسِيسِ مِنَ الضَّرْرِ الْعَامِّ لِلْمَسْلَمِينَ ، فَإِنَّ عَسَاكِرَنَا طَالَمَا رَأَوْهُمْ فِي زِيَّ الْفُقَرَاءِ وَالنُّسَاكِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ ، فَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ فِي تِلْكَ الطَّوَائِفِ ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلُوا ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا فَعَلُوا ، وَارْتَضَعَتِ الْحَاجَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى ذَلِكَ بِمَا صَدَرَ إِذْنُنَا بِهِ مِنْ فَتْحِ الطَّرِيقِ وَتَرُدِّدِ التَّجَارِ ، فَإِذَا أَمَعُوا الْفِكْرَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَأَمْنَاهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ أَنَّهَا أَخْلَاقٌ جَبَلِيَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ ، وَعَنْ شَوَائِبِ

التكليف والتصنع عريه . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المصرة التي كانت موجبة للخالفة ، فإنها إن كانت طريقا للذبّ والذود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن يتحزى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلزلا وحسن مآب . وقد رفعتنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب ، وعرفناهم [طريقتنا و] ما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمتنا على جميع العساكر العمل بخلافها ، لنرضى الله والرسول ، ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، وتستریح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور الإيتلاف ، ظلمة الاختلاف ، والغمة ، ويشكر سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر . ويعنى عن سالف الجرائر ، فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والإتقاد ، وبذل الإخلاص بحيث تعمّر تلك الممالك وتيك البلاد ، وتسكن الفتنة النائرة ، وتعمد السيف البآره ، وتحل العامة أرض الهويئي وروض الهدون ، وتحلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُدنا ، ﴿وما كنا معدّيين حتى نبعث رسولا﴾ والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيم على البلاد والعباد ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية ، كُتِبَ به عن السلطان « محمود غازان » صاحب إيران أيضا ، إلى السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية ، وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِينِ الْمِلَّةِ الْمَحْمَدِيَّةِ

فرمان السلطان محمود غازان

لَيَعْلَمُ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، بَعْضُ عَسَاكِرِهِمُ الْمُفْسِدَةُ دَخَلُوا
أَطْرَافَ بِلَادِنَا، وَأَفْسَدُوا فِيهَا لِعِنَادِ اللَّهِ وَعِنَادِنَا، كَجَارِدِينَ وَنَوَاحِيهَا، وَجَاهِرُوا
اللَّهَ بِالْمَعَاصِي فِيمَنْ ظَفَرُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْدَمُوا عَلَى أُمُورٍ بَدِيعَةٍ، وَأَرْتَكَبُوا
آثَامًا شَنِيعَةً، مِنْ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَنَحْرَقِ نَامُوسِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنْفَنَّا مِنْ تَهْجُمِهِمْ، وَغَرْنَا
مِنْ تَحْجُمِهِمْ، وَأَخَذْنَا الْحَمِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِجَذْبَتِنَا إِلَى دُخُولِ بِلَادِهِمْ، وَمَقَابَلَتِهِمْ عَلَى
فَسَادِهِمْ؛ فَرَكِبْنَا بَيْنَ كَانٍ لَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَوَجَّهْنَا بَيْنَ اتَّفَقِ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَاضِرٌ؛
وَقَبْلَ وَقُوعِ الْفِعْلِ مِنَّا، وَأَشْتَهَارِ الْفِتْكَ عَنَّا؛ سَلَكْنَا سَبِيلَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقْتَفَيْنَا آثَارَ
الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَقْتَدَيْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَأَنْقَذْنَا
حُجْبَةَ يَعْقُوبَ السَّكْرِيَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقَضَاةِ، وَالْأَيْمَةَ الثَّقَاتِ، وَقَلْنَا ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ
النُّذُرِ الْأُولَى أَرَفَتِ الْآزِفَةَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فَقَابَلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ،
وَحَكَمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سَنَنَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ،
وَصَبَرْنَا عَلَى تَسَادِيكُمْ فِي غَيْبِكُمْ، وَخُلُودِكُمْ إِلَى بَغْيِكُمْ، إِلَى أَنْ نَصَرْنَا اللَّهَ، وَأَرَاكُم
فِي أَنْفُسِكُمْ قَضَاءَ ﴿أَقَامُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَظَنَّنَّا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَحَقَّقُوا كُنْهَ
الْحَالِ، وَآلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى مَا آلَ، أَنَّهُمْ تَدَارَكُوا الْفَارِطَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَرَتَّقُوا مَا فَتَّقُوا
بَعْدَهُمْ، وَوَجَّهَ إِلَيْنَا وَجْهَ عُدَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ رُبَّمَا سَيَّرُوا إِلَيْنَا حَالَ دُخُولِهِمْ إِلَى الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ، رُسُلًا لِإِصْلَاحِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، فَبَقَيْنَا بِدِمَشْقَ غَيْرِ مَتَحَنِّينَ، وَتَتَبَطَّنَا تَتَبَطُّ
الْمُتَمَكِّنِينَ، فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّعْيِ فِي صَالِحِ حَالِهِمُ التَّوَاتِي، وَعَلَّقُوا نُفُوسَهُمْ عَنِ الْيَقِينِ

بالأمانى، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، ورأوا
 جبراً ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والقراه، وأن عزيمتهم
 موصراً على ذلك لا سواه؛ فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتقبين
 ثبوت دعواهم، وقلنا لعل وعسأهم، فما لَمَعَ لهم بارق، ولا ذرَّ شارِق، فقدمنا إلى
 أطراف حلب، وعجبنا من تبطُّبهم غاية العجب؛ وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا
 الباهرة، وجموعنا العظيمة الفاهرة، ربَّما أحرب البلاد مرورها، وبقايتهم فيها
 فسدت أورها، وعم الضرر العباد، والحراب البلاد؛ فعدنا بقياً عليها، ونظرة لطف
 من الله إليها. وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومُشحذون غرار
 عزائمنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، وعازمون بعد
 الإنذار ﴿وما كنا معدِّين حتى نبعث رسولاً﴾. وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب
 الأمير الكبير ناصر الدين على خواجاً، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى
 ابن يوسف، وقد حملناهما كلاماً شافهما به، فثبتوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما
 من الأعيان، المعتمد عليهما في الديوان، كما قال الله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
 فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلتعدوا لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر،
 وإن لم تداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتديبرهم، ومطلوبة عند الله
 في طول تقصيرهم.

فليمن السلطان لرعيته النظر في أمره. فقد قال صلى الله عليه وسلم «من ولاة
 الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم، احتجب دون
 حاجته وخلته وفقره». وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حدّر، والسلام على من

(١) شحذ السكين كنع حدها كما شحذها أظفر القاموس.

أتبع الهدى - في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة - بجبال الأكراد،
والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا [محمد] المصطفى وآله وصحبه
وعترته الطاهرين .

قلت : وقد تقدم جواب هذين الكتابين في الكلام على المكتبات إلى القانات
ببلاد الشرق من بني جنكخان فليُنظر هناك .

الطرف الثاني

(في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
من الملوك والحكام ببلاد أتباع القانات ومن في معناهم)^(٢)

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوسط بل العشر الوسطى أو الوسط قال وبعض النحويين أجازوه
فأى الجواب على ذلك الرأى .

(٢) ترك في الأصل باقى الصفحة بياضاً ولم يكتب عن هذا الطرف شيئاً .

الطرف الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمين إلى هذه المملكة)

وعادة مكاتباته أن يحدو حدو الديار المصرية ، فيما يكتب إليه عنها ، فيبتدئ
المكاتبة بلفظ : أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ،
الفلانى بلقب السلطنة ، ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقصد ، ويختتم
بالدعاء ونحوه ، ويكتبون في قطع الشامى الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشرف « إسماعيل » صاحب اليمن ، إلى الملك
الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية ، في شهر سنة ثمان وتسعين وسبعائة ،
على يد القاضى برهان الدين المحلى ، تاجر الخصاص ، والطواشى آفتخار الدين فاجر
دوادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور ، وهو :

أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالى السلطانى الظاهرى ، وزاده
فى البسطة والقدرة ، وضاعف له مواد الاستظهار والنظر العزيز ، وجعل الظفر مقرونا
برايته أينما يمت ما بينهما تميز ، ومحبوباً إلى عساكره المنصورة حيث توجهت
وفتح ببركة أيامه كل مقفل ممتنع بأمر وجيز ، ولا زال ممثل الأوامر والمراسم ،
رافلاً فى أردان العز والمكارم ، ممدوداً على الأمة [منه] ظل المراحم ، بمنه وكرمه .

أصدرها إليه من زبدة زيبدة المحروسة معربة عن صدق ولانه ، متمسكة بوثيق
أسباب آلاله ، ناشرة طيب شأنه ، مترجمة ناظمة لمنثور الكتاب الكريم الظاهرى
الوارد على يد المجلس العالى البرهانى ، بتاريخ ذى الحجة عظم الله بركاتهما ، سنة
سبع وتسعين وسبعائة ، أحسن الله خاتمها ، فتلقيناه باليدى ، ووضعناه على الرأس
والعين ، وأستدللنا به على شريف همته ، وصفاء مودته ، وتأكىد أخوته ، وسألنا الله

تعالى أن يمتنعنا ببقاء دولته القاهرة، وينشر في المشارق والمغارب أعلامه الزاهرة؛
 ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم
 الشريف ما ينجل منه نوار الربيع وبهائه، فانشرحت به الصدور، وتزايد به السرور؛
 وقزت به الأعين، وكثر التهجد به لما استعدبته الألسن؛ وأمتلنا المرسوم الشريف
 في تعظيم المجلس العالي ذى الجلالين؛ برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى، ومراعاته
 في جميع أموره وسرعة تجهيزه؛ على أنا نجله ونجبهه، ونوجب حقه ولا نجمله، فهو
 عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا
 المكين الأمين؛ وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مراسمنا إلى النواب
 بتغر عدى المحروس أن لا يعترض في عسور ونول، وحملناه على ظهور مرآكبنا عزيزا
 مكرما، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا
 لأجل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه؛ وجهزنا الهدية السعيدة المباركة
 المتقبلة، صخبته هو والأمير الأجل الكبير الأفتخارى: أفتخار الدين فاجر الدوادار،
 وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة؛ للقام الشريف والأمرء الأجلء الكبراء، وصخبتهما
 نقر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافيات
 الحيات. على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره
 بمقدار همته الشريفة العالیه، ورؤيته المنيفة السامية، لاستصغرت الأفلاك الدائرة،
 والشهب السائرة، وأستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقلتته طرفه، ولم
 نرض أن نبعث إليه الأنام ممالك وخولا، ونجبي إليه ثمرات كل شيء قبلا، ولو رام
 محب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع
 إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد، وليس على المستور

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقام الاعتقاد" تأمل .

على الطاعة سوى الإجهاد ، والمخلص في الولاء ، محمول على قدرته لا على ما أراد ،
فوثق بهذه القضية ، وأخذ إلى المقام الشريف على يد موصِّلها هذه الهدية ، راغباً
إلى إنعامه في بسط عُدْرته ، وحمله على شروط المحبة طول دهره ، وتصريفه بين
أوامره الممتلئة ، ومراسيمه المتقبَّلة . والمسئول الإتحاف بالمهمات والمراسيم الشريفة
شرفها الله تعالى وعظَّمها .

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بُنوده ، وأشرقت
سُعوده ، وبرقت سُيوفه في رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المارِبُ فتناولها باليمين
(نصر من الله وفتح قريب وبشير المؤمنين) وفتح القلاع والمصانع ، والأستيلاء على
الحرايع والمزارع ، وأستئصالنا شافة المارقين ، وأسترجاع حصن قاف المحروس بعد
طول مكثه تحت يد العرب ، فكم من كيمي مقتول ، وأسير مكبول ، وحصان ترك
سبيلها ، ورب حصان كثر عليه عويلها ، نخر بنا المعازل ، وأطلقنا العقائل ، وأوطنناهم
الحميم (وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله
العزيز الحكيم) وغير ذلك ما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمر آفتخار الدين :
فانحر الدوادار ، لقضاء بعض الحوائج الطارئة من الديار المصرية « ألف وأربعمائة
وسبعون قطعة من أصناف البهار ، وسبع قطع حرير » والمستمد من إحسان المقام
الشريف العالی ، بروز أمره الأشرف العزيز النافذ المطاع ، أنذره الله تعالى شرقاً
وغرباً ، وأمضاه بعداً وقرباً ، في قضاء حوائجيهما وسرعة تجهيزهما وقبولها إلى يمين
اليمين ، وعزَّ تعزُّ قريباً .

وبعد ، فإنَّ الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة ، وتوفير الحرُمات ، بل
هي أعظم الكرامات ، والمسئول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى
أنصاره ، وضاعف اقتداره ، بروز أمره الأشرف إلى التواب بمصر المحروسة ،

ونغر الإسكندرية، والشام، بالجلالة والإحترام، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن أنتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أو مقبياً، وأن يُعار في مهماته، جلاله تقياً ظلالتها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد، تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهره، إن شاء الله، فتم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح نخدمنا القديما، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتب لهم مربعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يُبدى المستعطي ما في ضميره إلى المعطي، والأشهر بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة الممهدة، والمصافاة المؤكدة، والمودات المحكمة، والأسباب النابتة، أوجب ذلك؛ وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال، في هذا الإرسال؛ ولم يخف عن المقام الشريف أن الله عوارف يجذب بها القلوب إليه، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه؛ وتعاطي كأس الوداد، يدل على حسن الاعتقاد؛ ولذلك نطق اللسان، وكتب البنان، بما أقرض على عباده الرحمن؛ فقال في محكم كتابه المبين ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ . ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف: ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تُتلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في المنك العقيم تُملى. جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتفسير الحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام، فاج اليمن تعذرت عليه الطرقات، ولم يُطبق حمل التفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح بركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحل عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهاب، بمنه وكرمه .

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهاني فإنها مَبِينة ، وشواهدُها من أقواله وأفعاله مُبِينة ، خصوصاً في المقام الشريف ، وأسَمَّأَتْهُ للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نَظَمَ مَعَاوِدَ الأَثْلَافِ ، وتَزَايِدَ بَشْرِحِ الأَنْسِ في محاورته والإِخْتِلَافِ ؛ ولولا المُهِمُّ الشَّرِيفُ لاسْتَوْقَفْنَا عندنا عاماً كاملاً من بعد هذا التاريخ : يُعْمَلِي عَلَيْنَا آيَاتِ المقام الشريف ؛ شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ . وعلى لسانه مأيديهِ في المَوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ شِفَاهاً إن شاء اللهُ تَعَالَى .

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتسعين وسبعائة ، أحسن اللهُ تَعَالَى خَتَامَهَا ، والحمدُ لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

قلت : أما إمامُ الزيدية باليمن فلم أَقِفْ له على مَكْتَبَةٍ ، وإن كان المَقَرُّ الشهبانيُّ ابنُ فضل الله قد أشار في كتابه "التعريف" إلى أنه ورد عنه مَكْتَبَةٌ إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن ، والغالبُ على الظنِّ أن مَكْتَبَتِهِ أُعْرَابِيَّةٌ ، كما أن إمارته أُعْرَابِيَّةٌ : إذ لا أَعْتَنَاءَ لأهل البادية وعُربان الوادي بَقْنَ الإنشاء جملةً ؛ وإنما يَكْتُبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مَقْتَعاً من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد عَلِمَ اللسان وعليهم فيه يُعَوَّلُ .

الطرف الرابع

(في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدم أن المَكْتَابَةَ إلى صاحب الهند تُشْبِهُ المَكْتَابَةَ إلى القانات العظام بإيران وتُورَان . وتقدم أن الكُتُبَ الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكُتُبِ الصادرة إليهم في قَطْعِ الورق والترتيب ، من حيث إن الغالبَ جَرِيَانُ العادة

في الأجوبة بأن تكون على نمط الكتب الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكتب الواردة من صاحب الهند في هيئة الكتب الصادرة إليه في قطع الورق وغيره ، فتكون في البغدادى الكامل بقلم مختصر الطومار بالطغراء والخطبة المكتبتين بالذهب ، إلى ما يجرى مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكتبات إلى القانات .

قلت : ولم أقف على صورة مكتبة من ذلك ولا على نسخة شيء ورد ، لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكة تُعرف بالسيلان ، وقد رأيت في تذكرة (محمد بن مكرم) التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، أنه في سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ، وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صفيحة ذهب رقيقة ، عرض ثلاثة أصابع ، في طول نصف ذراع ، وحواله مدورة (حلقه) داخلها شبيهة بالخوص أخضر ، عليه كتابة تُشبه الخط الرومى أو القبطى ، فطلب من يقرؤه فلم يوجد ، فسئل الرسل عما هو مكتوب فيها . فقيل : إنه سيررسوله رومان ورفيقه ، وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف ، فقيل له : ما لم طريق . فقال لهم : سافروا إلى (هرمز) فحضروا إليها ، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام ، والدعاء للسلطان ، وأن بلاد السيلان مصر ، وبلاد مصر السيلان ، وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة ، وتعلق بحبة مولانا السلطان خلد الله ملكه ، وسأل أن يحضر رسولاً من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رسله ، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق ، وأن عنده الجواهر والآلات والفيلة والقماش الكثير من البز وغيره ، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم ، وأن عنده في كل سنة عشرين مراكباً يسيرها إليه ، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التّقادِمَ والفيلةَ حتى يسافروا إلى اليمن فردّه ، ولم يُعطه شيئاً ، وأنه يُعَيّ التّقادِمَ والفيلةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنّ بمملكة سيّلان سبعمائة وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهرِ والياقوتِ ومغاصُ اللؤلؤِ . ولم يزد على ذلك . ورأيت في كتاب "الذيل" على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التي مرّت عليها رسلُ صاحب السّيّلان في طُرُقها .

المقصود الثاني

(في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب)

والعادةُ الجاريةُ في الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على تَمَطِّ واحدٍ في الورق ، مع تقاربِ الحال في الترتيب ، وتكونُ كتبهم في طُومارٍ واحدٍ ، في عَرَضِ نحوِ شبرين ، في طُولِ نحوِ ثلاثةِ أشبار ، والبسملةُ بعد بياضِ نحوِ شبرٍ وثلاثةِ أصابعٍ مطبوقَةٍ من أعلى الطُومارِ ، وعَرَضُ سبعةِ أصابعٍ مطبوقَةٍ عن يمينِ البسملةِ ؛ والسُّطورُ منحَطَّةٌ الأوائلُ مرتفعةٌ الأواخرُ حتى يصيرَ البياضُ الذي في أعلاها في آخرِ سَطْرِ البسملةِ قدرَ شبرٍ فقط ، وبين كلِّ سَطْرَيْنِ قدرُ عَرَضِ إصبعٍ ونصفِ إصبعٍ ؛ وكلُّ سطرٍ ينقص عن الذي فوقه قليلاً من جهةِ اليمينِ على التدرّجِ ، حتى يكونَ السطرُ الآخِرُ قطعةً لطيفةً في زاويةِ الطُومارِ التي على اليسارِ من أسفلٍ ؛ ثم يكتب بحاشيةِ الطُومارِ من أسفلهِ آخذاً من آخرِ السطرِ الأخيرِ ، ويكون بين ذلك وبين الكتابةِ الأصليةِ قدرُ رأسِ خنصرٍ ، ويتدبى السطرُ الأوّلُ منها بقطعةٍ لطيفةٍ منحَطَّةٍ الأوّلُ مرتفعةٍ الآخِرُ ثم السطرُ الثاني قطعةً أطولُ من ذلك ، ولا يزال كذلك حتى يكملَ السطرُ فيكتبُ أسطراً كاملةً ، إلا أنه في أوّلِ كلِّ سطرٍ ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتى يكونَ السطرُ

الأخير قدر الأتملة في زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدر إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة ، أسطرًا متضابقة حتى ينتهي إلى آخر الكلام ؛ ويكتب في آخره بقلم الثلث : وكتب في التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوفة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(في المكتبة الواردة عن صاحب تُوُس)

وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ : « من عبدالله الفلاني » بلقب الخلافة الخاص به ، « أمير المؤمنين ابن فلان » . ويقال : في كل من آرائه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له « إلى أخينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبعديّة إلى المقصد ، ويختم الكتاب .

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبدالله بن أبي بكر ، إلى السلطان الملك الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جواباً عن كتابه إليه . وهو :
من عبدالله ، المتوكل على الله ، أمير المؤمنين « أحمد » ابن مولانا الأمير أبي عبدالله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ؛ أعلى الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب عزه عُيون حوادث الأيام .

إلى أخينا الذي لم نزل نُشاهد من إخوانه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تُغيرها يد بعاد ولا أتراح ، وتثار من حفظ عهده ، والقيام بحق وده ، على ما يؤكّد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ؛ وتبادر لما يبعث القلوب على الائتلاف ، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف ؛ وإن شحطت الدار وتناوت

الصُّور والأشباح . وَتَعْتَرِفُ بِمَا لَهُ مِنْ مَزِيدِ الإِعْظَامِ ، بِجَاوِرَةِ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَالقِيَامِ
بِمَا هُنَا لَكَ مِنْ مَطَالِعِ الوَحْيِ الكَرِيمِ وَمَشَاعِيرِ الصَّلَاحِ ، وَنَجْتَلِي مِنْ أَنْوَانِهِ الكَرِيمَةِ
الشَّرِيفَةِ ، وَمَطَالِعِهِ العَالِيَةِ المُنِيفَةِ ، وَجُوهَ البَشَائِرِ رَائِقَةَ الغُرُورِ والأَوْضَاحِ . وَتَسْتَهْدِي
مَائِسِرُنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ ، مِمَّنْ يَرِدُ مِنْ تَلْقَائِهِ ، حَتَّى مِنْ أَنْوَارِ الصَّبَاحِ وَسُقْرَاءِ الرِّيحِ ، وَتَبْتَلِ
إِلَى اللَّهِ بالدَعَاءِ أَنْ يُخَيِّرَنَا عَنْهُ ، وَيُطَاعِنَا مِنْهُ ، عَلَى مَا يَقْرُ عَيُونََ الفَوْزِ وَيُشْرَحُ صُدُورَ
النَّجَاحِ - السُّلْطَانِ الجَلِيلِ الطَّاهِرِ ، المَلِكِ الأَعْظَمِ «الظَّاهِرِ» ، جَمَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ،
مُؤَيَّدِ كَلِمَةِ اللَّهِ العُلْيَا ، سَيْفِ العِلْمَةِ المَرْهُوبِ المَعْضَاءِ ، بِيَدِ القَضَاءِ ، وَرُكْنِهَا البَاسِقِ
العَلَاءِ ، فِي أَوْجِ عِزِّهَا المُنْدَاحِ لِلقَضَاءِ ، المَشْهُودِ لَهُ مِنْ لَدُنْ حَلِّ التَّامِّمِ ، وَلَوْثِ العَامِّمِ ،
بِالشَّهَامَةِ الَّتِي تُرْعِبُ الأُسْدَ فِي أَحْجَمِهَا ، وَتَسْتَخْدِمُ لَهُ سَائِرَ الأُمَّمِ : تُرْكِمُهَا وَعَمَّرَهَا
وَعَجَّجَهَا ، المَخْتَارِ للقِيَامِ بِمَقَمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ، المُنَازِمِ مِنْ جِوَارِ بَيْتِ اللَّهِ
وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، وَمُشْرِعِ المَجْبِجِ إِلَيْهِ وَتَيْسِيرِ سَبِيلِهِ ، بِمَا أَحْرَزَ لَهُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ ، وَعِزَّ
المَقَامَيْنِ ، كَوَكَيْبِ السَّعْدِ الَّذِي شَقِيَتْ بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، وَبَدْرِ الدِّينِ الَّذِي اسْتَضَاءَتْ بِهِ
أَنْحَاؤُهُ ، مِيزَانِ العَدْلِ لِإِنصَافِ الحَقُوقِ ، وَشَمْسِ الهِدَايَةِ النَّبِيَّةِ الغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ،
(أَبِي سَعِيدِ بَرَقُوقِ) وَصَلَّ اللَّهُ لَهُ رَتَبَةً رَاقِيَةً يَتَّبِعُونَ مَحَلَّهَا ، وَنِعْمَةً بَاقِيَةً يَتَفَيَّأُ ظِلَّهَا ،
وَعِزَّةً وَاقِيَةً تَسِيمُ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ خَسْفَهَا وَذُلَّهَا ، بِمَنَّةِ وَكَرَمِهِ .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ نَاطِمِ الشَّمْلِ وَقَدِ رَابَ تَثْرُهُ وَشَتَاتُهُ ، وَجَابِرِ الصَّدْعِ وَقَدِ آتَسَعَتْ
عَنِ الجَبْرِ جِهَاتُهُ ، وَرَادَ الأَمْرَ وَقَدِ أَعْيَا ذَهَابُهُ وَقَوَاتُهُ ، وَوَاوَصِلِ الحَبْلَ وَقَدِ آسْتَوَلَى
أَنْقِطَاعَهُ وَأَنْبَتَاتُهُ ، العَالِمِ الَّذِي لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مَثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا تُكِنُّهُ أَرْضُهُ وَسَمَوَاتُهُ ،
الَّذِي قَرَنَ بِالعُسْرِ يُسْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، فَلَا تُحْتَرِكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَكُونُ
فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا تُنْفَذُهُ أَحْكَامُهُ وَإِرَادَاتُهُ .

والصلاة والسلام الأكمين ، على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي صدعت بالحق آياته ، وقامت بحجة دعواه معجزاته ، ونطقت بانه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته ، المبعوث بالملة السّمة ، ومن أزكاها حج بيت الله المقدسة أركانه ومجراته ، المعظمة عند الله حرمانه ، المغفورة لمن سبقت له الحسنى بحجة سيئاته ، وعلى آله وأصحابه الذين قضاوا رضى الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولائه ، وأنصار حزيه المفلح وحماته ، وليوث دفاعه فى صدور الأعداء وكفاته .
والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خلصت لله نيافته ، وصدقته فى ذاته دعواته ، وصممت لإظهار دينه القويم عزمانه ؛ وصلته الدعاء لهذا المقام الأحمدى المتوكل الفاروقى ، بنصير تمضى به فى صدور أعدائه شبانه ، وعز يطرد به استقلاله وثباته ، وسعيد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته ، وتطول به حياته .

فإننا كتبنا لسلطانكم - كتب الله لكم من إسناده ما يتكفل بعزه ونصره ، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره ، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره - من حضرتنا العلية "نؤس" كلاًها الله تعالى ، ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسيرة متبلجة الصور ، وآيات فتحه المبين والله المنه محكمة السور ، وأحاديث الشكر على نعمه سبحانه مسلسلة الخبر ، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت إياتنا الكريمة من البشر . وإلى هذا فوجهه إليكم بعد تقريب حب شرعت فى ملة الوفاء قواعده ، وقيل فى عقد الصفاء شاهده ، وأستقل بصله الخلوص عائده ، وثبت فى مرسوم الصداقة الصادقة زائده ؛ إعلامكم أنا علم الله من حين أتصل بنا خبركم الذى جره القدر المقدور ، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المسطور ، لم نزل نتوجه إلى

(١) مراده من تحت حكنا وسياستنا .

الله تعالى في مظان قبول الدعاء، ورفع النداء؛ بأن يُجبركم بفضلِهِ من حيث صدع،
ويصلكم بخيره إثر ما قطع، ويُعطِيكم من نعمته أضعاف مائة، إلى أن دارك الله
بظفهِ وأجاب، وتأذن بفضلِهِ في قبول الدعاء بظهِر الغيب وهو مُستجاب، فردَّ
عليكم مُلككم، وصرف إليكم ملككم، فأخذ القوس باريها، وفوق السهم مقرطسها
وراميها، وأنفذ القضايا حَكْمًا ومُفْتِيها، وإذا كان العويل يُفْضِي إلى التجدد، والبلا
يَقْضِي بالحد، والفرج يُدافع في صدر الشدة، فلا جرم ذفر الله للأيام ما أقرفت،
لما أنابت وأقرفت، وهل هو إلا التخصيص الإلهي أراكم الله من باطن الضراء
سراءكم، وأجزل من جانب الغماء^(١) نعماءكم، والتبر بعد السبك يروق النواظر خلاصة
نضاره، والبدر بعد السرار تتألق أشعة أنواره.

ولما جاءنا بنصركم البشير، وطلع من تينة الهناء بأحكام السرور إلينا يُسير، هرزنا
له أعطاف الأرتياح، وتلقينا منه واردة التهاوي والأفراح، وحمدنا الله لكم على ما آمن به
من الفوز والنجاح؛ وراينا أن تهنتكم به من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المُجددة،
وأنه لا يقوم به عنا هبالكم، ويؤدى ما يجب منه بين يدي كُرمي جلالكم، إلا من له
من ديار الملوك، قرب الأدب والسُّلوك؛ فاقنضى نظرنا الجميل أن عيناً له شيخ دولتنا
المستشار، وعلمها الذي في مهماتها إليه يُسار؛ فلان.

وقد كان منذ أعوام يتطارح علينا في أن نُحلى للبحر سبيله، ونبلغه من ذلك مأمولة،
ويد الضنة لا تسمح به طرفه دين، ونفس الإغباط لا تُجيب فيه دواعي البين، إلى
أن تعين من تهنتكم الكريمة ماعينه، وسهل شأنه علينا وهونه، فوجهناه والله تعالى
يُسعد وجهته، ويجعل حجته لقبول الأعمال حجة. وحملناه من أمانة الحب ما يليق
إليكم، ومن حديث الشوق ما يُقص أخباره عليكم، ومن طيب الثناء ما يُقص ختامه

(١) النعم والغناء والنعمة الكرب والشدة . انظر القاموس .

بين يديكم، وأصحابنا برسم إصطبلاتكم الشريفة مايسر الحب سبيلها، وأوضح الخلوص دليلها، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت المملوك تُهادى على قدر جلالها، لما أنسعت لذلك خزائن أموالها، ليكنها عنوان الحب السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الكريم .

وفي أثناء شروعتنا في ذلك، وسلوكتنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر في وجوه بشارته نصرته النعم، فاطلعنا منه على مارات العيون وصفنا ونعتنا، وعبر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمنا، والله هو من كتاب كتب من البيان كتاب، وأستأثر بفلك الإجابة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسمنا بالقلم وما سطر! والحبر وما حبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به ليبد لأعاده في مقام يلد، ولو قصص على قس إياها فصاحت لترله عن منبر خطابه بعكاز، أو تحب على سخبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر الحلال بين المعاني الراقية والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه، تشوقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يسديه الله من ذلك ببلادنا، رأينا أن تُحف أسماعكم منه بما قرث به عين الإسلام، وأتلى صدور الليالي والأيام . وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ماصدر، حسب ماجره محتوم القدر، لم نزل نبيع لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماه، ونطرق طروق الغارة الشعواء ببلاده وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ماجمعت بها يده، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرفوا عاقبة مكرهم .

وكان من جزائرهم المعترضة شجا في حلق الخطار، ومنتجشمي الأخطار، وركاب البحار : من الحجاج والتجار، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غير يانا نعقت عليهم بالمنون ، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون، وتحنأها عدداً وعدداً، واستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً ، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها ، وتقوم إلى أن رمت تحالب مراسيها عليها ، فلما نزلوا بساحتها ، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بيث الذي كفر، وودّ الفرار والحين يناديه أين المفتر، فلما قضى السيف منهم أوطاره، وشفى الدين من دماهم أواره ، وشكر الله من المسلمين أنصاره، عمدوا إلى ماتخطاه السيف من اليد وولد ، ومن أخذ إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد، فجمعوا منهم عدداً يُذيف بعد الأربعة على الأربعين ، وجاءوا بهم في الأصفاة مقرنين ، وأمتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين ، وأقبلوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين ، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمين .

فعرفناكم بهذا الفتح : لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه ، وتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه ، وهو سبحانه وتعالى يُطاعنا ويطلعكم على ما يسر النفوس ويهينها ، ويجلو وجوه البشائر ويبيديها ، بمنه وكرمه ، والسلام العطر الحيا الجميل الحيا عائذ عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "تلمسان" من بني عبد الواد)

ورسم مكاتبه فيما وقفت عليه في المكاتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يتبدأ الكتاب بقوله : إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال ، ويؤتى بخطبة ، ثم بالسلام ، ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويختتم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يعمراسن ، إلى السلطان الملك الناصر
(محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

إلى الحضرة العالمة السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُذِلَّ عبدة الأصنام ، الذي
أيده الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ،
الأرفع ، الأتمجد ، الأسمى ، الأسرى ، ذى المجد الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك
الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الجليل ، العادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفر ، الأعلى ،
الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأتمجد ، الأسمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،
ومُعَلِّي كلمة الموحدين ، المقدس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ،
والذكر المدخور ، الملك المنصور ، أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه
نعمه باطنه وظاهره ، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافره ،
وصفقة أعدائهم خائبة خاسره .

وبعد حمد الله الذى أظهر الأمر العلى الناصرى وأيده ، وبسط في قول الحق
وفعله لسانه ويده ، وسدد نحو الصواب منحاه كله ومقصده ، والصلاة التامة المباركة
على سيدنا محمد رسوله المصطفى ، الذى خصه الله بعموم الدعوة وأفرده ، وقرن ذكره
بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده . والرضا عن آله الكرام ، وصحابة الأعلام ، الذين
حفظوا بالتوفير والتعزيز مغيبه ومشهده ، وكانوا عند أسبلال السيوف ، وبجبال
الخطوف ، عدده المظفر وعدده . والدعاء لذلك المقام الشريف بسعد يطيل في شرف
الدين والدنيا مدده وأمه .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، من أخيك، البرّيك، الحريص على تصافيك،
عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن . وإنا كتبناه إليكم كتبَ الله لكم أنجح
المقاصد وأرحمها، وأثبتها عزّاً وأوضحها، من حصن "نلمسان" حرسها الله تعالى،
ولا نأشئ بفضل الله تعالى إلا ما عوّد من بشارٍ مُنحْتِ جِادها، ومسارٍ يتناول
إلى المزيد أعتيادها - وإلى هذا أعلى الله كلمتكم، وأمتع المسلمين بطول بقائكم،
فإنا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير، فلتقينا بما يجب من التكريم والتعظيم،
وتبّعنا فصوله، وأستوعبنا فروعه وأصوله، وتحققنا مقتضاه ومحصوله، وعلمنا
ما أنطوى عليه من المنّ والإفضال، وأشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومن أعظم
ذلك إذنكم لنا في أداء فرض الحجّ المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيع في المحشر،
الذي وجبت له نبوته، ومثني الغيب عليه مُنْسدِل، وآدم صلوات الله عليه في طينته
مُنْجِدِل، ودلم الله أننا لم نزل آمالنا متعلقةً بيلكم المشاعر الكريمة، وقلوبنا متشوقةً
إلى تِلْكم المشاهيد العظيمة، فلنا في ذلك نيات صادقة التّجويم، وعزّ مات داعيةً
التّصميم، وكان بؤدنا لو ساعدنا المقدار، وجرى الأمر على ما نحبّه من ذلك ونختار،
أن نُمّتع برؤية المواطن التي تُقرّ أبصارا، ويُشفي بها إراداً وإصدارا، ولعلّ الله
تعالى ينفعنا بخالص نياتنا، وصادق طوياتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات، وأتصلت المحبة والموودة طول الحياة،
غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا وأستئناسكم، ونحنُ والحمد لله أعلم الناس
بما يجب من حقوق ذلك المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء
بكريم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يُحشني والحمد لله من كيدته، ولا يبالي بهزله
ولا جدّه، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع
الأكل الزاهد أبو زكريا يحيى ابن الشيخ الصالح المرابط المقدّس المرحوم أبي عبدالله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يُقْبِه إلى ذلك المقام الشريف من تقرير الوُدِّ والإخاء، والمحبة والصفاء، مما يعجز عنه الكتاب؛ فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن نعرفوه بجميع ما يصلح لذلك المقام الشريف مما فى بلادنا، ويصلكم إن شاء الله فى أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنَّة العظمى، والمزية القصوى، والله تعالى يُبْقِي ذلك المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب؛ إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب

السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين ». وأقول من كتب منهم أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » حين استولى على المغرب، قبل بى مرين، خضوعاً أن يتلقب بأمر المؤمنين مُضَاهَاةً للخلفاء. وهو:

من عبد الله على أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك العدوتين، ^(١) أبى سعيد، أبى مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبى سعيد أبى مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا فى الأصل الوحيد وصوابه "أبى الحسن" كما يؤخذ مما تقدم فى الكلام على ملوك فاس من أن علياً هذا يكنى أبى الحسن وأنه أبى السلطان أبى سعيد عثمان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق قلعل ما فى الاصل من أعمال النساخ فتنه .

دين الحق، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، منح الله التأييد مقامه، وفَسَّحَ لفتح
مَعَاوِلِ الكُفْرِ وَكَسَرَ بِمُحَافِلِ الصُّفْرِ أَبَامَهُ .

إلى السلطان، الجليل، الكبير، الشهير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافل،
الملك، الناصر، المجاهد، المرابط، المناغر، المؤيد، المظفر، المنصور، الأشعد،
الأصعد، الأرقى، الأوقى، ناصر الدنيا والدين، وقامع البغاة والمعتدين، مفيد الأوطار،
مبيد الكفار، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار، مالي صدور البراري
والبحار، حامى القبلتين، خديم الحرمين، غيث العفاة، عون العناة، مُصَرَّفُ
الكتائب، مُشَرَّفُ المَوَاكِبِ، ناصر الإسلام، ناشر الأعلام، فخر الأنام، ذخرا الأيام،
قائد الجنود، عاقد البتود، حافظ الثغور، حامى الجمهور، نظام المصالح، بقية السلف
الصالح، ظهير الخلافة وعَضُدِهَا، ولي الإمامة وسندها، عاضد كلمة الموحدين، ولي
أمير المؤمنين، أبي المعالي (محمد) ابن السلطان، الكبير، الجليل، الشهير، الشهيد،
الخطير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المظفر، المعظم
المجلى، المكبر، الموقر، المعزز، المجاهد، المرابط، المناغر، الأوحد، سيف الدين
(قلاوون) أدام الله فضل عزمه الماضي بتأييده، وأدار الأفلاك بتشديد ملكه
الشامخ وتمهيدته، وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين، وأذناس المارقين، بما يريق
عليها من دماءهم، فما كلُّ متطهرٍ يُجْزَى عَنْهُ غَسْلُ مائه أو تيمُّ صعيده .

سلامٌ كريم، طيب عميم، أريج الشميم، متضوع النسيم، تستمد الشمس باهر
سنانه، ويستعير المسك عاطر شذاه، يحص إحاء كم العلي، ووفاء كم الوفي،
ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي أيد المؤمنين، على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، وعرف
الإسلام وأهله من السر العجيب، والصنع الغريب، ما فيه عبرة للسامعين والنظرين؛

حكمة عجزت عن فهم سرها المكتوم ، وقصرت عن كنهها المختوم ، الباب عبيده
القاصرين . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي أرشد به الحائدين
الحائرين ، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله برغم الجاحدين
الكافرين ، وعلى آله وصحبه الذين هاجروا إليه وبلادهم هجروا ، والذين آووا من أوى
إلهم ونصروا ، والذين جاهدوا في الله فصبروا ، ففازوا بذكر المهاجرين والأنصار
وأجر المجاهدين الصابرين ، وصلة الدعاء لحزب الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها
بفضيل لا يزالون معه لأعدائهم قاهرين ، وسعيد لا ينفكون له بآمالهم ظافرين ،
ونصير من عند الله وما النصر إلا من عند الله وهو خير الناصرين .

فإنا كتبنا لكم - كتب الله لكم مجدا مديد الظلال ، وعرضا حديد الإلال ، وسعدا
جديد السربال - من منصوره "تيا مسان" حرسها الله تعالى ، والصنائع الربانية تكيف
العجائب ، وتعرف العوارف الرغائب ، وتسنف الأسماع بما تُسمعها من إجزال
المُنوح والمواهب ، وتوقف الرقاع بما تُودعها من أحاديث الفتوح الغرائب ، والحمد لله
على ما يسر من المآرب ، وسهل من المواهب . وإخاؤكم الصادق مبرور الجوانب ،
مأثور المناقب ، مشرق الكواكب ، مُعندق السحاب ، نامي المراتب ، سامي المراقب ،
والله تعالى يُقيه في ذاته ، ويقيه من صرف الدهر وأذاته . وإلى هذا وصل الله
لكم سعدا جديدا ، وجدا سعيدا ، ومجدا حميدا ، ومجدا مجيدا ، فقد وصل كتابكم
الأيثر ، المزمى بالمسك الثير ، فاجتلبنا منه روضة جادها البيان فأمرعها ، ورادها البنان
فوشعها ، واجتنبنا من غصون سطوره ثمرات ودا ما أينعها ، إنباء عما تلقاه الإخاء
الكريم من قبل الشيخ الأجل ، أبي عبدالله محمد بن الجراح مما عانا تحمل ، وفي إلقائه

وأدائه بحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزم مولانا الوالدة
ألحقها الله تعالى رضوانه ، وبوأها جانه : من حج البيت المحرم ، وزيارة [القبر] المعظم
المكرم ، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثابتها في شد
الرجال المسجد الأقصى ونعم المغنم ، وقضاء النسك بتلك المناسك والمشاهد ، والتبرك
بتلك المعالم المنيغة والمعاهد ، وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ، ووصف
من أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حربي ، وما منحنا الله من نذر لعلوب أهل
الإيمان مبهيج ، ولصدور عبدة الصليبان مخرج ، وأن الإخاء الكريمة حصل له بذلك
أبهي آتياج ، وحل منه محل القبول الذي آتياج له من آفئى سبيل القصد أنهى
آتياج ، فعقد العزم على تلى الوافد من تلقائنا ، والوارد رجاء أداء فرض الحج من
أرجائنا ، بتسهيل سبيله ، وتيسير آرتحاله إلى بيت الله ورسوله ، وأنه متى وقع الشعور
بمقدم المولاة رحمة الله تعالى على بلاده ، وقربها من جهاته المجودة من جود جوده
بعياده ، يقدم للخروج من يتلقى ركبها ، ويعتمد بالبر والتكريم جنابها ، حتى تحمد وجهتها
الشريفة بجبل نظره وإيائها ، وقام عنا بما نوده من برها ، وسأهم فيما تقدمه إلى الله عز
وجل من صالح أجرها . وقد نابلنا هذا الفضل من الشكر بأجرله ، ومن البر بأخفاه
وأحفله ، وحصل لدينا بإزائه سليم وده وكريم إخوانه ، من تخليص ولآنه ، وتمحيص
صفائه ، من لا يزال عهد الأتيق في نهائه ، وتقدده الوثيق في آزدياده ونمائه ، وغضنه
الوريق في رونق علوانه ، ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها ، وبرد ضريحها ،
قد وافت بما قدمت عند الله من صالح العمل ، ومانت على ما أبرمته في قصد البيت
الشريف من نية وأمل ، إذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد ناهبت لذلك ، واعتدت
لسلوك تلك المسالك ، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك ، وعلى الله إجزال
نواياها ، وعنده نحتسب ما ألمم فآلم من مصابها - فإن لدينا ممن يمت بحرمة المحرم إلينا ،

ويلزم بحق التربية علينا ، من يقوم عندنا مقامها ، ويروم من ذلك المقصد الشريف مرآمتها ، وسنوردها إن شاء الله تعالى على نيلكم البقاع ، ونوردها من تلکم الإفطار والأصقاع ، ما يجمل بحسن نظركم مورده ومصدره ، ويطابق في جميل أعتنائكم وحفيل احتفالكم خبره ومحبره ، بفضل الله وعونه .

وأما تشوق ذلكم الإخاء ، لمواصله الكتب بسائر الأنبا ، فإن من أقرها عهدا ، وأعدتها حديثا يهادى ويهدى ، ما كان من أمر العاق قاتل أبيه ، الحال من إقليم تلمسان ومالكها بالحلل النبيه ، وذلك أن أسلافه بنى زيان ، كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان ، ولم يزل بينهم وبين أسلاف المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع توردتهم الحمام ، وتذيقهم الموت الزؤام ، فيدعون المنازعه ، ويعودون للوادعه ، ثم لم يلبثوا ، أن ينكثوا ، ولم يصبروا ، أن يغدروا ، إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته إياهم ، فأكثر موتهم وكدر محياهم ، وتمادى بهم الحصار تسع سنين ، وما كانوا غير شردية قليلين ، وهنالكم اتصلت بينكما المراسله ، وحصلت الصداقة والمواصله ، ثم حرم موته ، وتم قوته ، رحمة الله تومه ، ورضوانه يشمله ويعمه ، فنفس خناقهم ، وعاد إلى الإبدار محاقهم ، وصرف القائم بعده عنهم الحين ، عما كان هو رحمه الله قد طوعه من بلاد مغراوة وتحين ، فأنسعت عليهم المسالك ، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائهم طمع من الممالك ، لكن هذا الخائن وعمه كانا من أسارته الفتن ، وعم به فيها غوامر المجن ، فسلكا مسلك أسلافهما في إذاعة المهادنه ، والروغان عن الإعلان بالمفاته .

ولما سؤل الشيطان لهذا العاق قتل والده ، والاستيلاء على طارفه وتالده ، لم يقدم عملا على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبي سعيد ، قدس الله

(١) مراده أنه بدأ أول كل شيء . باشخاص الخ .

مَثْوَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ، فِي السَّلْمِ رَاغِبًا ، وَلِلْحُكْمِ بِمَوَادِعَتِهِ طَالِبًا ، فَاقْتَضَى النَّظَرَ
 الْمَصْلِحِيَّ حَيْثُ ذَمَّ مَوَافَقَتَهُ فِي غَرَضِهِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِنُهُ عَلَى مَرَضِهِ ، فَقَوِيَ أَمْرُهُ ، وَضَرِيَ
 ضَرْهُ ، وَشَرِيَ شَرُّهُ ، وَوَقَدَ تَحْتَ الرَّمَادِ جَمْرَهُ ، وَسَرَى إِلَى بِلَادِ جِيرَانِهِ الْمُوَحِّدِينَ دَاوُدَ ،
 وَطَالَ عَلَيْهِمْ تَضْيِيقُهُ وَأَعْتَدَاؤُهُ ، وَأَسْتَشْعَرَ ضَعْفَهُمْ عَنِ مَدَافِعَتِهِ ، وَوَهَّنَهُمْ عَنِ مَقَاوِمَتِهِ
 وَمَنَازَعَتِهِ ، فَبَغَى وَطَغَى ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ مِنْ فَوْقِهِ سَقَبَ السَّمَاءِ رَغَا ، وَبَاطِنَ جَمَاعَةٍ مِنْ
 عَرَبِ أَفْرِيقِيَّةِ الْمُفْسِدِينَ وَجَرَّوهُ بِجِبِلِّ الْأَطْمَاعِ إِلَيْهَا ، وَأَقَامَ عَلَى بِيحَايَةِ عَشْرِينَ سَنَةً
 يَسُدُّ عَلَى بِيحَايَةِ الْحِصَارِ ، وَيُسْنُّ عَلَى أَحْوَازِ تُونُسِ الْغَارِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ
 لِصَاحِبِهَا مَا كَانَ ، بِمِالَةِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ وَرَاتِيهِ (٩) كَابِنِ الثَّقِيانِي ، وَأَبْنِ الشَّهِيدِ ،
 وَأَبْنِ عِمْرَانَ ، فَادَّى ذَلِكَ صَاحِبَهَا السُّلْطَانَ أَبَا بِيحِيٍّ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ بَعَثَ إِلَيْنَا
 وَزِيرَهُ فِي طَلْبِ النُّصْرَةِ رَسُولًا ، وَأَوْقَدَ عَلَيْنَا أَعْرَ وَوَلَدَهُ أَبَا زَكَرِيَّاءَ إِذْ هَابَ الْمَضْرَّةَ عَنْهُ
 دَخِيلًا ، نَخَاطِبُنَا إِذْ ذَاكَ هَذَا الْخَائِنُ الْعَاقُّ مَبْصُرِينَ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ مَذْكُورِينَ ، فَمَا زَادَتْهُ الْمَوْعِظَةُ الْأَشْرَاءَ ، وَلَا أَفَادَتْهُ
 التَّذَكُّرَةُ إِلَّا بَطْرًا ، وَحِينَ ذُكِّرَ فَلَمْ تَنْفَعَهُ الذُّكْرَى ، وَفُكِّرَ فَلَمْ يَتَيْسَّرَ لِلْيُسْرَى ، آمَتْنُنَا
 فِيهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُرْتَبَّ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِي ﴾ فَازْمَعْنَا قَدْعَهُ ،
 وَأَجْمَعْنَا رَدَّهُ وَرَدْعَهُ . وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَصَلَّ إِلَيْنَا أَيْضًا سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ مُسْتَغِيثًا عَلَى
 النَّصَارِيِّ أَعْدَاءِ اللَّهِ جِيرَانِهِ عَلَى طَاغِيَتِهِمْ ، الْمُهِصِرِّ عَلَى عِدَاوَتِهِ وَعِدَاوَتِهِمْ ، بِجَهْزِنَا مَعَهُ
 وَلَدْنَا عَبْدَ الْوَاحِدِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْأَبْطَالِ ، وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِمَا كَفَّاهُمْ مِنَ الطَّعَامِ
 وَالْعُدَّةِ وَالْمَالِ ، فَاجَازَ مِنْ سَبْتَةِ إِلَى الْخِضْرَاءِ عَجَلًا ، وَلَمْ يُقَدِّمَ عَلَى مَنَازِلَةِ جَبَلِ الْفَتْحِ
 عَمَلًا ، وَكَانَ هَذَا الْجَبَلُ الْخَطِيرُ شَأْنُهُ مِنْذَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْعَدُوُّ قَصَمَهُ اللَّهُ فِي سَنَةِ
 تِسْعٍ وَسِتِّينَ تَبَجًّا فِي لَهَوَاتِ أَهْلِ الْعُدُوَّتَيْنِ ، وَغُصَّةٍ لِنُفُوسِ السَّاكِنِينَ بِالْجِهَتَيْنِ ،

لإطلائه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تُخطف من رام العبور ببحر الرقاق، وما يقرب الملجا إلى هذا المعقل المستقر من الحفاق، فكم أرملة وأيم، وأنكل وأيم - فاحاطت به العاديات السوايح برا وبحرا، وأذاقت من به من أهماج الأعلاج شرا وحضرا، إلى أن أساموه للمسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله حزبه المؤمنين فتحا ونصرا، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغائته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بجبله ورجله إزاءه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقي منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنت يمينه، وأقلع بعد شهرين وأيام مذبجا، وأسرع العود إلى مستقره وأسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنايته للسلم وأقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب "عمرناطة" من معتاده، وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفا من الذهب في العام، ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي لإزام، فسمناه تركها وإسقاطها، والزمناه فيما عقدها له من السلم أن يدع أشتراطها، والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد آعنتينا بتحصين حصن هذا الجبل تميها وتكبيلا، وأبتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجا وإكليلا. وكنا في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعمرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا المتنع "بسيجلماسة" من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، مافيه الصلاح والفلاح على التفصيل والجملة، لعنايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب "تلمسان"، ومساعدته على البنى والعدوان، فسهل الله افتتاحها، وعجل من صنائه الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف.

وفي خلال تلك المنازله ، وحال تلك المحاولة ، لاحت للخائن التماساني فُرصه ، جَرَعَ منها غُصَّه ، إذ ظنَّ أنا عنه مشغولون ، وفي أمرٍ ماعرض من سيجامسة وجبل الفتح معتمِلون ، نخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والحد ، إلى حصن ماوررت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحَد ، فوجد هنالك ولدنا الأسعد تاشفين ، في ثلثة من بني مرين ، آساد العرين ، فلما نذرُوا به نارُوا إليه مُسردين ، فنكص على عقبه ، ولم ير له جنة أوقى من هربه ، وتاد لذلك ثأنيه ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وإنيّه ، بل رُدته في الحافره ، وأنشدته بلسان حالها الساخره :

إن عادت العقبُ عُدنا لها * وكانت النعل لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلك الشواغل ، وأرغنا من الخائن التماساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن وإغزل ، فأعرض وأشاح ، وما لاحت عليه مخيلة فلاح ، نهدنا نحو أرضه ، لتجزيه بقرضه ، بجيوش يضيق عنها فسبح كل مدى ، وخبول نذر الأكم للخوافر تُججدا ، تنقص دلي الأقران أمثال الأجادل ، ونقص الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل ، فكفنا بتسلم منازله متزلا فترلا ، وتسلم معاقله معقلا فمعقلا ، وجبل رعاياه تُقر بفضلنا ، وتقر من جوره إلى عدلنا ، ومن تمسك منهم بجبله ، أو سلك من النى في سبله ، قاده السيف برعنه ، وأستزله على حُكمه ، والنفوس مع ذلك يؤمهم ، والإحسان يُسلمهم ويعمهم ، حتى لم يبق إلا معقله الأشب ، ومنزله الذي رأى أنه عن عين الشوايب محتجب ، قد شتمخ أنفا حميا ، وصاغ كفا للثريا ، ولم يرض لهامنه عمائم إلا الغمام ، ولا لأنامل شرفاته خواتم ، إلا النجوم العواتم ، فترنا بساحه ، وأقبلنا على كفاحه ، وجعلنا نقدفهم من حجارة المجانيق ، بأمثل النيق ، ومن كيزان النقط الموقده ، بأمثل الشهب المرصده ، ومن السهام العقاره ، بأمثل العقارب

(١) كذا في الأصل باهمال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الحرارة ؛ حتى غدت جذرائهم مهذومة ، وجسومهم مكلومة ؛ وتغور شرفاتهم
 في أفواه أبراجهم مهتومة ؛ وظلت الفعلة تُسَيِّد إزاء أبراجهم أبراجا ، وتمهد منها
 لتسوير أسوارهم أدرجا ؛ وللعاول في أسانلها إعوال ، وللعوايل على أعالها أعمال ،
 وللأشقياء مع ذلك شدة وجلد ، وعدة وعدد ، وحدة ولد ، يقاتلون حميه ؛ وينازلون
 بنفوس أبيه ، وحجارة المجانيق تشدح هامهم ، وبنات الكائن ترزُل أقدامهم ؛ وهم
 في مثل ذلك لازمون إقدامهم ، إلى أن آشتدت أزمتم فلم يجِدُوا لها من فارح ،
 وأحاطت بهم الأوجال من خارج ؛ وهدمت أبراجهم الشواحق ، وُردمت حفائرهم
 والحدائق ؛ وأخذت الكُماة ، في العروج ، إلى البروج ، والجمأة ، في السباق ، إلى الأنفاق ،
 والرماة ، في النضال ، بالنصال ، فمن مرتقي سلما ، غير متقي مؤلما ، ومشتغل بالنقب ،
 غير محتفل بشابور الحجارة المنصب ؛ وأفرج المضييق ، وأتهيج الطريق ؛ وأفتحمته
 أطلاب الأبطال ، وولحت أفيال القبائل وولى الأشقياء الأذبار ، وعادوا بالفِرار ،
 وبدت عليهم علامات الإذبار ؛ وسابقوا إلى الأبواب ، فكان مجيئهم من أقوى
 الأسباب ، وقتل منهم الزحام ، من أساره الهدم والحسام ؛ فتملأنا مادارت عليه
 الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الحنان والعروش التي ما أنفك الشق
 يجتهد في عمارتها ويتعب ؛ وأعلنا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا ، ووصل إلينا تائبا ،
 منحناه العفو ، ومحونا عنه الحقو ؛ وأوردناه من إحساننا الصفو ؛ فتبادروا عند ذلك
 يتساقطون من الأسوار ، تساقط جنيات الثمار ؛ فرادى ومثنى ، آيين إلى الحسنى ؛
 فبسعهم الصفح ، ويحسبهم المن والمنح .

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه ، وشاهد نفرق من ذلك الموقف جمعه ؛ أمر
 بسراح من في قبضته وسجنه ، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شىء على وهيه ووهنه ،
 وأعتمد الناس في بقية يومهم السور لتوسع أنقابه ، وتخرق أبوابه ؛ إلى أن جنهم

الليل، وحق منهم بالأعداء الويل؛ ولزم كل مكره، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه؛ وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون؛ فلما ارتفع الضياء، وتمتع الضحاه، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعدله بالمراصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلالنا تحت راياتنا المنصورة عليها؛ فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم؛ ولم يكن إلا كلاً حتى أمطيت تلك الصهوه، وتُسنت فيها الذروه، وتسلمت بيد العنوه، وفصمت عراها عروة عروه، وأزلوا من صياصيمهم؛ وتمكنت يد القهر من نواصيمهم، وحققت عليهم كلمة العذاب من معاصيمهم؛ وفتر الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره؛ وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن علي معينه على البغي والعصيان؛ وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكفهم هنالك أولياء دولتنا العلية، فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السائب حياض المنية، ونيدت بالعرء أجسامهم، وتقدمنا لفيهم، بأن يمد على الرعية ظل التامين؛ ويوطأ لهم كنف التهديئة والتسكين، ويوطد لهم مهاد العافية، وتكف عنهم الأكف العادية، حتى لا تمتد إليهم كف منتهب، ولا يلفت نحوهم طرف مستلب؛ ومن آتتهب شيئاً أمر برده، وصدد عن قصده - وكل لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد؛ ونسخت منها دولتهم، ونجيت من صحيفتها دعوتهم؛ وعوض الرعايا من خوفهم أمناً، ومن شومهم يمناً؛ وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية؛ وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيفة التي بهرت الصنائع بجمالاً؛ وأضفت على المسلمين من الصلاح والعافية سر بالاً. وقد رأينا من حق هذا الإنعام الجسيم، والصنع الرائق الوسيم؛ أن نتبع العفو بعد المقدرة،

(١)
 بالإحسان لمن أسلف لنا غمظته أو شكره ، [فمننا] على قبائل بني عبد الواد ، وأضفينا
 عليهم صنوف الملابس نساءً ورجالاً ، وأوسعنا لهم في العطاء مجالا ، وأفعمنا لهم
 من الحباء سجالا ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير
 من بلادهم ، وحبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم ، وإخصاب مرادهم ،
 وخططناهم بقبائل بني مريين ، وحطناهم باتحاد الكلمة من تقول المتقولين ، وتزوير
 المزورين ، وأعدنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعدنا من فؤسانهم ورجالهم
 ليطعان الأعدى أكبر مدد ، وأزيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية إضرهم ، وأزيج
 عنهم بتوحي العدل فيهم جورهم ووزرهم ، وخففنا عنهم ما آد من المغارم ، وهاد
 من المكارم ، فانشرح صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذي نل محال الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ،
 وأخذهم بما احتقبوا من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم ،
 وأباحوا من المسكرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربهم معيدن
 الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيما في أيام المسرور بهناته ،
 المغرور بما سؤل له الشيطان وأمل له من ترهاته ، المشهور بقتل أبيه ، المأثور
 من متالبه ومعآيه بما لم يأت الدهر له بشييه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ،
 وبلغت أخبار خيائنه من باطراف المعمور وأفاصيه ، ولكن الله تعالى أمل له
 ليكثر ما يمه ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهي ظالمه .

والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورحص عنها بأيدينا
 أوضار أدناسه وأنجاسه ، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المرید المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بيض في الأصل هذه الكلمة وقد اقتبسناها من المقام .

البلاد والعباد ؛ ولو لم يكن إلا ما نال المُجَاج من تعنيه وتعديه ، وطال عليهم من تعرضه لهم وتصديه ؛ حتى حمز عن الحجاز الشريف فصاده ، وحجر بقطع السبيل عن بيت الله الحرام من أراده ؛ فكم سلب المُجَاج ، وسد عليهم المسالك والفجاج ؛ وفرق فريقهم ، وعوق طريقهم . والآن بحمد الله حقت الحقائق ، وآرتفت العوائق ؛ وصح العليل ، ووضح السبيل ؛ وتسهل العرام ، وتيسر القصد إلى البيت الحرام ؛ مكان ترواه الزوار عليكم أرسالا ، ووفود الأبرار للسلام خفاناً وثقالاً ؛ يأتون من كل فج عميق ، ويقضون ما يقضون من مناسكهم ، آمين في مسالكهم ، إلى البيت العتيق ؛ وهكذا أيضا خلا وجهنا لجهاد الروم ، ولإعداد من يغزونها في عقرب دارهم للقصد المروم ؛ وأن نجدد من هذا العمل بجزيرة الأندلس حماها الله تعالى ما لسلفنا بها سلف ، ونبدد من شمل عباد الصليب ما تلحقهم بفضل الله تعالى خير خلف ؛ فعمل الجهاد ، بهذه البلاد ، هو الفضيلة التي لنا الله سبحانه ذخرها ، والحسنة التي في صحائف أعمالنا سطرها ، ويجوئنا المنصورة عز دين الإسلام بهذا المغرب الغريب ، وبسؤوفنا المشكورة والله المشكور ذل بها الصليب ، أوزعنا الله تعالى شكر آلائه ، وأمتنا بتواتر نعمائه ، بمنه وفضله .

وأنبئنا لعلمكم الكريم هذه الأنباء السازة ، والآلاء الدآزة : لما ذكركم من تشوقكم لإستطلاعها ، وسطركم من تشوقكم لإستماعها ، ولعلمنا أنكم تسرون بقطع دابر الباغين ، وتستبشرون بحسم أدواء الطاغين ؛ وتؤثرون الإخبار بإتلاف الكلمة على أعداء الله الكافرين إيثار الحامدين لفعل الله تعالى في إظهار دينه الشاكرين . لازتم تسرع نحوكم البشار ، وتفرع بذكركم المنابر ، وترفع لأجتلاء آثار أمركم الستائر ،

(١) لم يذكر في الكلام جواب لو ، ولله معلوم أى تكفى تأمل .

وَأَسْجَلَاءَ أَخْبَارِ سِيرَتِكُمُ الْبَاهِرَةِ النَّوَاطِرَ، وَتُجَمِّعُ لَسَجَايَاكُمْ السَّنِيَّةَ الْعَلَاءَ، وَمَزَايَاكُمْ
الْعَلِيَّةَ السَّنَاءَ؛ نَوَاقِبُ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاحِرِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ الْأَتَمُّ ،
الْأَضْوَعُ الْأَتَمُّ، يُحْصِ إِخَاءَكُمْ الْأَوْفَى، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدم] في الكلام على المكاتبات عن الأبواب
السلطانية في المكاتبات إلى الملوك .



وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المرينيّ صحبة الهدايا، والحرّة الحاجة
في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعائة، ونصّه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،
ملك البرّين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب
العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ،
المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي سعيد^(١) ،
ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان
العدوتين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسّح
لفتح معاقل الكُفْر وكسْر جحافل الصُفْر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الكافل ،
الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأصبغ ، الأرق ،
الأوق ، الأتجد ، الأتجد ، الأتخم ، الأضحّم ، الأوحّد ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاضد
كلمة المسلمين ، محيي العدل في العالمين ، فاتح الأمصار ، حائر ملك الأفطار ، مفيد

(١) تقدم في ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبي الحسن فتنبه .

الأوطار، مُبِيد الكُفَّار، هازِمُ جُيُوشِ الأَرَمَنِ والفَرَنْجِ والكُرُجِ والتُّتَّارِ، خادِمِ
 الحَرَمِينَ، غَيْثِ العُفَّاهِ، غَوْتِ العُنَّاهِ، مُصَرِّفِ الكُتَّابِ، مُشَرِّفِ المَوَاكِبِ، ناصرِ
 الإِسْلامِ، نَاشِرِ الأَعْلَامِ، نَخْرِ الأَنامِ، ذُخْرِ الأَيَّامِ، قائِدِ الجُنُودِ، عاقِدِ البُنُودِ، حافظِ
 الثُّغُورِ، حائِطِ الجُمُهورِ، حامِيِ كَلِمَةِ الموحِّدِينَ، أبِي المَعَالِي، مُحَمَّدِ بنِ السُّلْطانِ؛
 الجَلِيلِ، الكَبِيرِ، الشَّهِيرِ، الشَّهِيدِ، الخَطِيرِ، العادِلِ، الفاضِلِ، الكافِلِ، الكامِلِ،
 الحافِظِ، الحافِلِ، المُؤَيِّدِ، المُكْرَمِ، المَبْجَلِ، المُكَبَّرِ، المُوقَّرِ، المُعَزَّزِ، المُعَزَّزِ، المُجاهِدِ،
 المُرابِطِ، المُتَناغِرِ، الأَوْحِدِ، الأَسْعَدِ، الأَصْعَدِ، الأَوْفَى، الأَنْعَمِ، الأَشْخَمِ، المُقدَّسِ،
 المُرحومِ، المُلكِ المُنصُورِ، سَيفِ الدُّنْيا والدِّينِ، قَاسِمِ أميرِ المُؤْمِنِينَ . أبقِ اللهُ مُلْكَ
 مُوصُولِ الصُّوْلَةِ والأَقْدارِ، مَحْمِيَّ الحَوْزَةِ حامِيًا لِلدِّيَارِ، حَمِيدَ المَآثِرِ المَأثُورَةِ والأَنارِ،
 عَزِيزَ الأَوْلِياءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ والأَنصارِ .

سَلامٌ كَرِيمٌ، زَالِكٌ عَمِيمٌ، تُشْرِقُ إِشراقَ النَهارِ صَفْحائِهِ، وَتَعْبِقُ عَن شَدَا الرُوضِ
 المُعْطارِ نَفْحائِهِ، يُحْضِ إِخاءَ كَمِ العَليِّ، وَرَحمةَ اللهِ وَبَرَكانِهِ .

أما بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي وَسِعَ العِبادَ مَنًّا جَسِيًّا ، وَفَضَّلَ جَزِيلًا ، وَأَهْمَهُمُ الرِّشادَ
 بِأَنَّ أَدبِي لَهِمُ مَنِ أُنارِ قَدْرَتِهِ ، عَلِيٌّ مَقْدارِ وَحَدِثِهِ ، بُرْهانًا واضِحًا ودَليلًا ، وَأَلْزَمَ أُمَّةَ
 الإِسْلامِ ، حَجَّ بَيْتِهِ الحَرامِ ، مَنِ اسْتَطاعَ إِليه سَبيلًا ؛ وَجَعَلَ تَعْظِيمَ شَعائِرِهِ مَن تَقوى
 القُلُوبِ ، وَمَنابِتِ مَحَطِّ الأوزارِ والدُّنُوبِ ؛ فَمَّا أَجَزَلَ نِعْمَتَهُ مَنيلًا ، وَأَجْمَلَ رَحمةَ رَبِّهِ
 مَقِيلًا ؛ وَالصَّلاةِ وَالسَّلَامِ عَلَي سَيِّدِنَا وَمولانا مُحَمَّدِ المُصْطَفَى مَن أَفضَلَ العَرَبِ
 فَصِيلَةً ، فِي أَكْلِ بَقاعِ الأَرْضِ فَضيلَةً ، وَأَكرَمِها جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا ، المُحْتَجِّي خَتمَ الرِسالَةِ ،
 وَحَسَمَ أَدواءَ الضَّلالةِ ، فَاحسَبَ اللهُ بِهِ النَبْوةَ ثَمَمًا وَالرِسالَةَ تَكْميلًا ، المُخْصُوصِ بِالحُوضِ
 المَورُودِ ، وَالمَقامِ المَحْمُودِ ، يَوْمَ يَقولُ الظالمُ (يا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلانًا حَليلاً) المَبْوا

من دار هجرته ، ومقرَّ نُصْرته ، محلاً ما بين بيته ومينبره فيه روضةٌ من رياض الجنة لم
 يزل بها نزيلاً ، والرضا عن آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار ، الذين فضلتهم سابقةُ
 السعادة تفضيلاً ، وأهلتهم العناية [بأمر الدين إلى أن يُوسِعُوا الأحكام برهاناً ودليلاً ،
 فإننا نحيط علم^(١) الإخاء الأعزَّ ما كان من عزِّم مولاتنا الوالدةِ قدس الله رُوحها ،
 وتقرَّ صرِيحها ، على أداء فريضة الحج الواجبه ، وتوفية مناسكه اللازبه ، فاعترض
 الحام ، دون ذلك المرام ، وعاق القدر ، عن بلوغ ذلك الوطر ، فطوى كتابها ،
 ونجَّج إلى مقرِّ الرحمة بفضل الله مأبها ، وعلى الله أجرها ، وعنده يحسب دُخْرها ،
 وإن لدينا من تُوجب إعظامها ، وتقيمها بحكم البرِّ مقامها ، وعزُّمها إلى ما أمثله
 مصروف ، وأملها إلى ما كانت أمته موقوف ، وهى محلُّ والدتنا المُكرَّمة ، المبرورة ،
 الأثيرة ، الموقرة ، المجلَّة ، المفضَّلة ، المعززة ، المعزرة ، المعظمة ، المطهَّرة ، أسنى
 الله مكاتبها ، وسنى من هذا القصد الشريف لُبَّاتِها ، وقد شيعناها إلى حج بيت
 الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام ، والفوز من السلام ، على
 ضريح الرسالة ، ومثابة الجلاله ، بنيل السؤل والمرام : لتظفر بأملها المرغوب ، وتتفرَّ
 بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب .

وحين تَخَصَّ لذلكم الغرض الكريم ، موكِّبها ، وخلَص إلى قصد الحرم العظيم ،
 مذهبها ، والكرامة تُلحِّفها ، والسلامة إن شاء الله تكفُّفها ، أصحابنا من حور
 دولتنا وأحظيائها ، ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة
 الأثر ، والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصدر ، من أعيان بني مريم أعزهم
 الله تعالى والعرب ، وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى المسالين دلاء القرب ، إلى

(١) في الأصل وأهلتهم العناية الإخاء الخ ولا يخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناصح شئ . فردنا ما بين

التربعين لا على أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْدَ الْكَرْبِ ؛ وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَثْرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَشُهْرَةٌ بِالْمَزَايَا الرَّاحِمَةِ وَالسَّجَايَا الصَّالِحَةِ
مَأْثُورَةٌ ؛ وَقَصْدُهُمْ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضِ الْحَجِّ قَصْدُهَا ، وَوَرْدُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
مَنْهَلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرَدُّهَا ؛ وَهَكَذَا سَيَّرْنَا مِنْ تُخْفِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَيْسَّرُ فِي الْوَقْتِ
تَسِيرُهُ ، وَإِنْ تَعَذَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَصَدْنَاهُ وَهَذَا الْغَرَضُ أَرْدْنَاهُ تَيْسِيرُهُ ، لَطُولِ الْمَغِيبِ
عَنِ الْحَضْرَةِ ، وَالشُّغْلِ بِتَمْهِيدِ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ ؛ وَعَيْنًا
لِإِرَادِهَا لَدَيْكُمْ ، وَإِيفَادِهَا عَلَيْكُمْ ؛ أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَثْمَانَ
السُّوَيْدِيَّ ؛ وَأَمِيرَ الرِّكْبِ الْحَسَنَ بْنَ عِمْرَانَ وَغَيْرَهُمْ ، كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُمْ ، وَيَمِّنُ
ظَعْمَهُمْ وَإِقَامَتَهُمْ . وَمَقَامُ ذَلِكَ الْإِخَاءِ الْكَرِيمِ يُسَنِّي لِمَنْ مِنَ الْيُسْرَى وَالتَّسْمِيلِ الْقَصْدَ
وَالسُّوْلَ ، وَيَأْمُرُ نَوَابَ مَالِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَقَوَّامَ مَا بَهَا مِنَ الْمَسَالِكِ ، لِتُكَلَّلَ الْعَنَاءُ بِهِمْ
فِي الْمَمَرِ وَالْقُقُولِ . وَمَعْظَمُ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمُبَارَكَةِ لِإِصَالِ الْمُصْحَفِ الْعَزِيزِ
الَّذِي حَطَّطْنَاهُ بَيْنَنَا ، وَجَعَلْنَاهُ ذَخِيرَةً يَوْمِنَا لَعَدْنَا ؛ إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَعَصْمَةِ
دِينِنَا وَدُنْيَانَا ؛ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَيْبَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا ، وَأَبِي عَلَى
الْأَيَّامِ نَحْرَهَا مُنِيفًا ، رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْقَوْزِ بِحَقِّهِ مِنْ أَجْرِ التَّلَاوَةِ فِيهِ
يَوْمَ الْمَاتَبِ .

وَقَدْ عَيْنًا بَيْنَ مَحَلِّ الْوَالِدَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، كَرَّمَ اللَّهُ جَبْهَتَهَا ، وَيَمِّنُ وَجْهَتَهَا ، مِنْ
الْمَالِ مَا يُشْتَرَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُحَوَّطَةِ مِنَ الْمَسْتَغْلَلَاتِ مَا يَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْقِرَاءَةِ
فِيهِ ، مُؤَبَّدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ فَوَائِدُهُ وَبِحَايِيهِ . وَالْإِخَاءُ الْكَرِيمُ يَتَلَقَّى
مِنَ الرَّسْلِ الْمَذْكُورِينَ مَا لِيهِمْ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَلْتَيْنَاهُ [وَيَأْمُرُ] بِاحْتِضَارِهِمْ لِأَدَائِهِمْ
بِالْمَشَافَهَةِ مَا لَدَيْهِمْ أَوْعَيْنَاهُ ، وَيُوعِزُّ بِإِعَاتِهِمْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ ، وَيُسِّرُّ لَهُمْ
أَسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنُهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِمَا

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السبيل الواضح ؛ وشكرًا بآدراككم موطن الأساس ، مطرد القياس ، متجدد مع اللحظات والأنفاس ؛ والله يصل للإخاء العلى نُصرة أيامه ، ويوالى نُصرة أعلامه ؛ ويبقى الثغور القصية ، والسبيل السريه ، نوطه بتفضله وإبرامه ، محوطة بمعاوضة أسيافه وأقلامه ، والسلام الكرم العميم ، يخص إخوانكم الأعز ، ورحمة الله وبركاته - وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأول تام ثمانية وثلاثين وسبعائة .



وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المريني ، في العشر الأوسط (١) من شعبان سنة أربع وثمانائة ، وهو :

من عبد الله ووليه : عثمان أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدى بآثار آبائه الكرام ، المقتفى سنتهم الحميدة في نُصرة الإسلام ، المُعيل نفسه العزيزة في التهم بما قلده الله من أمور عباده ، وحياطة تُغوره وبلادته ، سيف الله المسلول على أعدائه ، المنتشر عدله على أقطار المعمور وأنحائه ، ظل الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وقرضه ، عماد الدنيا والدين ، علم الأئمة المهتدين ، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة الإمام ، ملك الملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأقطار ، مُمهد الأقاليم والأمصار ، جامع أشنات الحميد ، ملجأ الصادر والوارد ، الملك الجواد ، الذي حلت محبته في الصدور محل الأرواح في الأجساد ، أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي العباس ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي سالم ، ابن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النعاة وان كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين،
المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل
رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وصل الله تعالى أسباب تأييده
وعضده، وقضى باتصال عرف تجديد سعده، وأناله من جميل صنعه ما يتكفل
بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى محل أخينا الذي نُؤثِرُ حَقَّ إِيَّاهُ الكَرِيمَ، وَنُثِّي عَلَى سُلْطَانِهِ السَّعِيدِ ثَنَاءَ الْوَلِيِّ
الْحَمِيمِ، وَنَشْكُرُ مَالَهُ فِينَا مِنَ الْحُبِّ السَّلِيمِ، وَالْوُدِّ الثَّابِتِ الْمُقِيمِ، السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ،
الْمَاجِدِ الْأَصِيلِ، الْأَعَزَّ الْخَطِيرِ الْمَيْسِلِ، الشَّهِيرِ الْأَمْجَدِ الْأَرْفَعِ، الْهَامِّ الْأَمْنَعِ،
السَّرِيِّ الْأَرْضِيِّ، الْمَجَاهِدِ الْأَمْضِي، الْأَوْحِدِ الْأَسْنَى، الْمَكِينِ الْأَحْمَى، خَدِيمِ
الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، حَازِرِ الْفَخْرَيْنِ الْمُتَنِيفَيْنِ، نَاصِرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، مُجْبِي الْعَدْلِ
فِي الْعَالَمِينَ، الْأَجَدَّ، الْأَوْدَّ، الْمَكِينِ، الْأَخْلَصِ، الْأَفْضَلَ، الْأَكْلَ، أَبِي السَّعَادَاتِ
فَرَجَ، ابْنَ السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ، الْأَعَزَّ الْمَيْسِلِ، الْخَطِيرِ الْأَصِيلِ، الْأَرْفَعِ، الْأَمْجَدِ،
الشَّهِيرِ، الْهَامِّ، الْأَوْحِدِ، الْأَسْمَى، الْأَسْرَى، الْأَرْضِيِّ، الْمَجَاهِدِ، الْأَمْضِي، خَدِيمِ
الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، حَازِرِ الْفَخْرَيْنِ الْمُتَنِيفَيْنِ، الْأَفْضَلَ، الْأَكْلَ، الْمَبْرُورِ، الْمُقَدَّمِ،
الْمَرْحُومِ، أَبِي سَعِيدِ (بَرْقُوقِ) بْنِ أَنْصَ، وَصَلَّ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلْطَانِهِ الْمُؤَيَّدِ جَدًّا
لَا يُعْجَمُ عُدُّهُ، وَعِزًّا لَا يَمِيلُ عُمُودُهُ، وَنَصْرًا يَمْلَأُ قُطْرَهُ بِمَا يَنْصُ بِهِ حَسُودُهُ،
وَعَضْدًا يَأْخُذُ بِرِمَامِ أَمَلِهِ السَّنَى فَيُسُوقُهُ وَيَقُودُهُ .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى سُبُوغِ نِعْمَاتِهِ، وَتَرَادُفِ لُطْفِهِ وَأَلَائِهِ، الَّذِي عَرَّفَنَا مِنْ وِلَايَتِكُمْ
الْكَرِيمِ مَا سَرَّنَا مِنْ أَطْرَادِ أَعْتِنَاتِهِ، وَأَبْهَجِ النُّفُوسِ وَالْأَسْمَاعِ مِنْ صَفَاءِ وِلَايَتِهِ،

ومواصله صفائه ، والصلاة والسلام الأكلين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رُسله
 وأنبيائه ، ومبغ رسالاته وأنبيائه ، صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء
 المعقود ، فأكرم بمقامه وحوضه ولوائه ، والرضا عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين
 هم للدين بدور أهدائه وتجوم أفتدائه ؛ وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه
 وأعتلائه ، وأقتبال النصر المبالغ في آحتفاله وأحتفائه ، وحياطة أنحائه وأرجائه ،
 وتأبيد عزمائه وآرائه .

فإنا كتبنا إليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعزما ظافرا ، من حضرتنا العلية
 بالمدينة البيضاء كلاًها الله تعالى وحرسها ، ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ،
 ولأؤه جل جلاله سابق الأذيال ، وخلافكم التي ترعى بعين البر جوانبها ، ونقتنى
 في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومداهبها - وإلى هذا وصل الله سعدكم وإلى
 عضدكم ، وكأبنا هذا يقرر لكم من وادنا ماشاع وذاع ، ويؤكد من إخلصنا
 إليكم ما تحدث به السمار فتوعيه جميع الأسماع ؛ وقد كان آتتهى إلينا حركة
 عدو الله وعدو الإسلام ، الباغى بالاجترأ على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام ،
 الآخذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعى بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ،
 وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية ، وأتهاز
 الفرصة على حين غفلة من خلافتكم عليه ، والحمد لله الذى كفى بفضله شره ، ودفع
 بقمته وضره ، وأنصرف ناكصا على عقبيه ، خائبا من نيل أربه . ولقد كنا حين سمعنا
 بسوء رأيه الذى غلبه الله عليه ؛ وما أضمر نخلق الله من الشر الذى يجده فى أحراه
 ظلله يسعى بين يديه [عزمتنا على] أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه
 الفضا ، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يمدد فى إمداد المناصرة ويرضى ؛

فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال ، وأذهب عنهم الأوجال ، ويسر لهم الأعمال ،
وهياً لخلافكم السيئة وللسلمين ، هناءً يتضمّن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام
والسنين .

وبحسب مالنا فيكم من الودّ الذي أسست المصافاة بُنيانه ، والحُبّ الذي أوصح
الإخلاص بُرهانه ، وقع تحيّرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجملته ، وتقدير
مالدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ؛ على الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارك ،
الأصيل ، الأسنى ، الحظي ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأحنف ، الأفضل ،
الأكل ، أبي عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجل ، الأعز ، الأسنى ، الأوجه ، الأنوّه ،
الأرفع ، الأجد ، الآثر ، الأزهى ، الشريف ، الأصيل ، المعظم المثيل ، الأثمهر ،
الأخطر ، الأمثل ، الأجل ، الأفضل ، الأكل ، المرضي ، المقدّس ، المرحوم
أبي عبد الله محمد ، بن أبي القاسم ، ابن نفيس الحسنى العراقي ؛ وصل الله تعالى
سعادته ، وأحمد على حضرتكم السيئة وفادته ، حسب ما يفى بشرح ما حملناه نقله ،
ويكل بايضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يديم
سعادتكم ، ويحفظ مجادتك ، ويُسني من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس)

والرسم في ذلك أن يكتب «الأبواب الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب
السلطان النلافي» ويصفه ، ويذكر ألقابه ، ثم يدعوله ، ثم يقول : «سلام كريم»
ويصفه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعد حمد الله ،

ويأتي مُحَطَّبَةٌ في المعنى تشتمل على التحميد، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم،
والرضا عن الصحابة رضي الله عنهم؛ ثم يقول: فإننا كتبنا اليكم، ويأتي على ما يناسب
المقام، ثم يخرِّط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن أمير المسلمين السلطان أبي عبد الله محمد بن
أبي الحجاج يوسف بن نصير بن الأحمر، صاحب غرناطة - من الأندلس،
إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون،
إنشاء الوزير أبي عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة
الفرنج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهم في لقبه
الملوكي فلقبه المنصور. وهي:

الأبوابُ الشريفةُ التي تعنو لِعِزَّةِ قَدْرِهَا الأبوابُ، وتعتري إلى نَسَبِ عَدْلِهَا
الحِكْمَةُ والصَّوَابُ؛ وتُنادِيهَا الأَفْطَارُ البعيدةُ مَفْتِخَرَةٌ بولائها، واصله السبب بعلائها،
فَيَصْدُرُ بما يَشْفِي الجوى منها الجَوَابُ؛ فإذا حَسُنَ منابٌ عن أئمة الهدى، وسَبَّاقِ
المَدَى، كان منها عن عُمومة النبوَّة النَّوَابُ؛ وإذا ضَفَّتْ على العَفَاةِ بغيرها أوثابُ
الصَّلَاتِ، ضَفَّتْ منها على الكعبة المقدَّسة الأوثابُ - أبوابُ السلطانِ الكبيرِ،
الجليلِ الشهيرِ، الظاهرِ، الظاهرِ، الأوحِدِ، الأَسْعَدِ، الأَصْعَدِ، الأَمْجَدِ، الأَعْلَى،
العادلِ، العالمِ العامِلِ، الكاملِ، الفاضِلِ، الكافِلِ؛ سلطانِ الإسلامِ والمسلمينِ،
رافِعِ ظلالِ العُدُلِ على العالمينِ، جمالِ الإسلامِ، عَلمِ الأَعْلَامِ، نَجْمِ اللَّياليِ والأَيَّامِ،
مَلِكِ البرينِ والبحرينِ، إمامِ الحرمينِ، مؤمِّلِ الأَمْصارِ والأَفْطَارِ، وعاصِبِ تاجِ
القَفَّارِ، هازِمِ القَرْنِجِ والتُّركِ والتتارِ، الملكِ المنصورِ أبي الفُتُوحِ شَعْبَانَ، ابنِ الأميرِ،

(١) في الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "نفتح".

الرفيع المجاهد ، الكريم البؤة والولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير ، الشهير ، المعظم ،
 المجدد ، الأسمى ، الموقر ، الأعلى ، نحر الملة ، سيف الأمة ، تاج الإمارة ، عز
 الإسلام ، جمال الأيام ، قمر الميادين ، أسد أجمة الدين ، سمام الطغاة والمعتدين ،
 المقدس ، المظفر ، الأمير أبي علي - حسين ، ابن السلطان الكبير ، الشهير ،
 ملك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيف خلافة الله في العالمين ، ولي
 أمير المؤمنين ، وظهير الدين] سلطان الحج والجهاد ، وكلمى الحرم الأمين ،
 قابع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنة ، محي الملة ، ملك البرين
 والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين ، العادل ، العالم ، العامل ، الطاهر ،
 الظاهر ، الأسعد ، الأصعد ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيد المعان ، المرفع ،
 المعظم ، المبجل ، المؤمل ، المجاهد ، المرابط ، الغازي ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ،
 الصالحى أبقاه الله ، وقلق الصباح يشهد بكاله ، وخدمة الحرمين الشريفين طراز
 مذهب على حلة أعماله ، ومسورات الإسلام ، آمنة على طول الأيام ، من إهماله ،
 ولا زال رنكا للدين الحنيف ، تراحم على مستلمه الشريف ، شفاه أماله .

سلام كريم ، برعميم ، كما استودعت الرياض أسرارها ، صدر النسيم ، وأرسلت
 مطالع الفجر أنهارها ، من بحر الصباح الوسيم ، يبرى من الطيب ، والحمد المطيل
 المطيب ، فى الصوان الكريم ، ويقف موقف الأدب والفهامه ، بما استحفظ
 من الأمانة إلى محل الإمامه ، وقوف الحفيظ العليم ، يعتمد مشاريع تلك الأبواب
 الشارعة إلى الفضل العميم ، المقابلة لدمام وسائل الإسلام بالصندر المشروح ، والبر
 المنوح ، والقلب السليم - من معظم سلطانه ، ومجل شأنه ، المتخير بالانتظام فى سلك

خُصَّصَ ، أمير المسلمين بالأندلس ، عبد الله الغالب بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل
ابن فرج بن نصر ، بلغه الله من رضاه أفضى سوله ، وأعانته على جهاد عدو الله
وعدو رسوله .

أما بعد حمد الله جاعل قِلادة الإسلام ، على الدوام ، آمنة من الإختار ، والإنتثار ،
مفصلة النظام ، بجزز المائر العظام ، والآثار . معترف أهلها ، في حزن البسيطة وسهله
عوارف الصنع المثار ، وإقالة العثار . القوى العزيز الذي لا يغالب قدره بالإحتشاد
والاستئثار ، ولا يبدل غيبه المحجوب ، بعد ما عين حكمة الوجوب ، في خرائن
الاستئثار ، حتى تظهر خبيثه عنايته بأوليائه ، المعترفين بالائه ، بادية للأبصار ، فيما
قرب وبعد من الأعصار ، ورحمته عند الاستغاثه به والانتصار ، في مختلف الأقطار
والأمصار . الولي الذي لا تكدر هبات فضله شروط الاعتصار ، ولا تشين خطب
حمده ضرائر الأقتصار والأختصار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نُحبة الاكوان ، وسرِّ الدهور والأزمان ،
وفائدة الأدوار . نور الله المتميز باختصاصه ، وأستصفائه واستخلاصه ، قبل خلق
الظلمات والأنوار . ورحمته الوارفة الشاملة ، الهامية الهامله ، على الهضاب والوهاد
والنجد والأغوار . أقرب عوالم الشهادة والخلق ، إلى حضرة الحق ، على تعدد الرتب
وتفاضل الأطوار . منقذ الناس من البوار ، ومبويهم من جوار الله خير الحوار .
نبي الرحمة والجهاد والغوار . المنصور على الأحزاب عند ما استداروا بمثوى نبوته على
الأطم والأسوار دور السوار . الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فهما
أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار .

والرضا عن آله وأصحابه حمة الذمار ، ومقتحيمي الغمار ، وباذلي كرائم الأموال من
دونه ونفائس الأعمار ، القائمين في سماء ملته للاهتداء بسننهم ، والإقتداء بسننهم ،

مَقَامَ النُّجُومِ الهَادِيَةِ وَالْأَقْمَارِ؛ مَا صَقَلَتْ مَدَاوِيسُ النَّسِيمِ سُيُوفَ الْإِنِّهَارِ، وَتَجَلَّجَ
الْوَرْدُ مِنْ تَبَسُّمِ الْبَهَارِ، وَغَازَلَتْ عَيُونُ زَهْرِ الْخَبْرَةِ عُيُونَ الْأَزْهَارِ، وَطَرَدَ أَدْهَمُ اللَّيْلِ
أَشْهَبَ النَّهَارِ .

وَالدُّعَاءِ لِنَتِكَ الْأَبْوَابِ، الْمُتَعَدِّدَةِ الْخِجَابِ، الْمَعُودَةِ بِاجْتِلَاءِ غُرِّ الْفَتْوحِ، وَالْمَطَّاعِ
الْمَشِيدَةِ الْمَصْنَعِ عَلَى الْعَزِّ الْمُنُوحِ، وَالْأَوَاوِينَ، الْمُؤَيَّدَةِ الدَّوَاوِينَ، بِالْمَلَأْنِكَةِ وَالرُّوحِ،
بِإِعْلَاءِ الْمَظَاهِرِ وَالصُّرُوحِ، وَإِنَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَهْلَةٍ تَلِكُ السُّرُوحِ سَاحَاتِ تَلِكِ
السُّرُوحِ، وَلَا زَالَتْ أَقْلَامُ بَشَائِرِهَا تَاتِي عَلَى سُورَةِ الْفَتْحِ بِأَكْلِ الشُّرُوحِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لِمَتَابَتِكُمُ السَّلْطَانِيَّةِ دَارِ الْعِزِّ الْأَحْمِي، وَالْمُلْكَ الْأَشْرَفِ الْأَسْمِي،
وَالصَّبِيَّةِ الْبَعِيدِ الْمَرْمِي، كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنْ عِنَايَتِهِ - وَقَدْ فَعَلَ - أَوْفَرَ مَقَاسِمِ التَّعْمِي،
وَجَعَلَ غَيْثَ نَوَالِهَا الْأَهْمِي، وَحَفَّظَ جَلَالَهَا مِنْ اللَّهِ الْأَهْمِي، وَدَامَتْ كَوَاكِبُ سُعُودِهَا
تَمَرَّقُ جَلَالِيبَ الظُّلْمَا، وَأَخْبَارَ بِأَسْبَا وَجُودِهَا، وَسَعَادَةَ وَجُودِهَا، تُهْدِيهَا عَلَى الْبُعْدِ
رَكَائِبُ الدَّأْمَا، وَتَرْفِرُفُ بِرِيَّاحِ آرْتِيَّاحِهَا أَجْنِحَةُ بَنَاتِ الْمَا، مِنْ مَنَزَلِنَا الْمُحْبُورِ،
بِسَعَادَةِ سُلْطَانِكُمُ الْمَنْصُورِ، وَخِزْيِ عَدُوِّهِ الْمَذْخُورِ، بِحَمْرَاءِ غَرَّ نَاطَةِ: دَارِ مَلِكِ الْجِهَادِ
بِجَزِيرَةِ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ، وَآلِي اللَّهِ عِنْدَ الدَّفَاعِ، وَأَنَارَ بِمِشْكَاةِ نُورِهِ الَّذِي وَعَدَ بِإِتْمَامِهِ
الْأَعْلَامَ مِنْهَا وَالْأَيْفَاعَ، وَوَصَلَ لَهَا بِشَرَفِ مَخَاطِبَتِكُمُ الْآرْتِفَاعَ وَالْإِنْفِاعَ، حَتَّى تَسْتَفْعَ
بِتَهَانِيكُمُ الْأُونَارَ وَتُوتِرَ الْأَنْسِفَاعَ، وَآلَاءِ اللَّهِ لَدَيْنَا، بِنِعْمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَيْنَا،
قَدْ أَنْجَلَتِ اللِّسَانَ الشُّكُورَ، وَإِنْ آسْتَنْفَدْتَ الرُّوَّاحَ وَالْبُكُورَ، وَالثَّقَمَةَ بِاللَّهِ فِي هَذَا
الثَّغْرِ الْغَرِيبِ قَدْ كَثُرَتِ الْعَدَدُ الْمَنْزُورِ، وَالْحَقُّ الصَّرِيحُ قَدْ كَافَحَ الزُّورَ، وَالتَّوَطُّيْنُ عَلَى
الشَّهَادَةِ قَدْ شَرَحَ الصُّدُورَ، وَأَقْتَطَعَ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ وَالذُّورَ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَقَامِ تَلِكِ
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَقِيدَةٌ لَا تُبَدَّلُ، وَأَدْوَاخُ عَلَانِهَا حَامِيُّمُ الْحَمْدِ بِهَا تَهْدَلُ، وَحَافِلُ

ثنائها تتراكم في سماءها الألوّة والمندل؛ [والحال ما علمتم : بحر زانحر الأواج ، وعدو
 وإفر الأفواج] ^(١) وحرّم لولا اتقاء الله مقتحم السّياح ؛ وجياد ضمّرتها مصابرة الهياج ،
 وداء على الأيام متوقّع الأهتياج ، وعدد إلى الإصراخ والإنجاد عظيم الاحتياج ؛
 فالنفوس إلى الله تُجهز وتسلم ، والصّبيان في المكاتب تُدرّب على مواقف الشهادة
 وتعلم ، والألسنة بغير شعار الإسلام لا تنيس غالباً ولا تسكّم ، إلا أنّ عادة الخبير
 اللطيف ، تخفيف الذعر المطيف ، ونصر التّر الضعيف ، على عدد التضعيف ؛
 والحال تُزجى بين الحرب والسلم ، والمكاملة والكّم ، وتأميل الجبر ، وأرتقاب عاقبة
 الصبر ، على حماة الدبر .

وإلى هذا فإننا أتصل بنا مارامت الروم من المكيّدة التي كان دفاع الله من دونها
 سداً ، والملائكة جنداً ، والعصمة سورا ، والروح الأمين مددا منصوراً ، وأنها
 استنفدت الوسع في احتشادها ، حتى ضاقت البلجج عن أعوادها ، وبلغت المجهود
 في استنفادها ، حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصيح بهم التائب ، ويذمّهم
 الصليب ، وقد سؤل لهم الشيطان يكاد تغر الإسكندرية شجاً صدورهم ، ومرمى
 آمال غرورهم ، ومحوّم قديمهم ، ومتعلّل غيرهم ، ليرتموا تغر الإسلام بصدمتها ،
 ويقودوا جنائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعزة ، ويتلقفوا في القدس
 كرة الكثرة ؛ ويُقلّصوا ما آمتد من ظلال الإسلام ؛ ويشيّموا ^(٢) سيوف التغلب على
 الشام ؛ ويحولوا بين المسلمين وبين محطّ أوزارهم ، وحجّهم ومزارهم ، وبيت ربهم
 الذي يقصدونه من كل فج عميق ، ويركبون إليه نهج كلّ طريق ، وقبر نبيهم الذي
 يُطافون بزيارته من الشوق كلّ حريق ، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء

(١) الزيادة من الرخصة وهي لازمة كما لا يخفى .

(٢) شام السيف عمده واستله ضد . والمراد هنا المعنى الثاني كما لا يخفى .

وشهيق ، وشوقٍ بذلك الحبيب خَلِيق . ويقطَعوا جبلَ المسلمين حتى لا يتأثى بلوغُ
فريقٍ ولا غرضُ تشريقٍ ، واللهُ من ورائهم مُحِيطٌ ، وبدمائهم مُشِيطٌ ، وعباده
بصيرٌ ، ولدينه الحقُّ وليٌّ ونصيرٌ ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فما هو إلا أن صمأ^(١) جرادهم ، وخلص
إليها مرادهم ، وفاض عليها بحرهم ، وعظم من المحاولة أمرهم ، حتى أشترك الشرك
بعض أسوارها ، ونال النهبُ مستطرف ديارها ، وظننت أنها الوهية التي لا تُرْفَعُ ،
والمصيبة التي غلظت لانتقع ، وأشتعل الباس ، ودُعمَ الناس ، وأرى الشدة من
تدارك بالفرج ، وأعاد إلى السعة من الحرج ، وأنشأ ريح النصر عاطرة الأرج ، ونصر
حزب الإسلام من لا غالب لمن ينصره ، وحصر العدو من كان العدو يحصره ، وظهر
الحقُّ على الباطل ، والحالي بزينة الله على العاطل ، نخرج العدو الخاسر عما حازَه
والسبوفُ ترهقه حيث تُلفيه ، والسهام تُثبته وتنفيه ، وغرما كرة الإسلام تستفضي
منه دينها وتستوفيه ، والحزبي قد جلل سبأه الضمب ، وحنأ الدماء قد خضبت
مشيخته الشهب ، والغلب قد أخضع رقابه الغلب ، فكم من غريق أزدته دروعه ،
لمَّا حشى بالروع روعه ، وطعين نطمت بالسهمي ضلوعه ، فغلبوا هنالك وانقلبوا
صاغرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فأى رحمة منشورة ضفت على
الإسلام ظلالها ، وخطبة نعمة أتسع نطاقها ورحب مجالها ، وبجلى صبيعة راق
عيون المؤمنين جمالها ، فاهترت بها الأرض وربت ، وبسكَّر الله جل جلاله أعربت ،
وآستبشرت النفوس ، وذهب البوس ، وضفا بمنة الله الألبوس ، وظهرت عنايه الله
بمقامكم ، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم ، فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

(١) صما عليهم كنع طلع أنظر القاموس في باب المهموز .

الحرمين ، وإنها لولوسيلة الكُبرى ، والذريعة إلى سعادة الدنيا والأخرى ؛ وهي
عهدة الله التي يصونها من كل أهتضام ، وقِلا دته التي ما كان يترُكها بغير نظام .
وكان من لطائف هذا الفتح الذي أجزَل البُشرى ، وأوسع أعلام الإسلام نُشرا ،
ورُوده بعد أن سُفيت العِلَّة ، ونُصرت المِلَّة ، وبعد أن جَفَا الدهرُ وتجاوَى ، وعادى
ثم صافى ، وهجرَ ووافى ، وأمرضَ ثم عافى ؛ فلو ورد مُقدمه قبل تاليه ، ونقده متأخرا
عن كاليه ، أو كانت أوانِحه بعيدا ما بينها وبين أواليه ، لأوحشت الظنون وساءت ،
وبلغت الهموم من النفوس ماشاءت ؛ فإن الإسلام كالجسد يتداعى كله لتألم بعضه ،
ويتسأهم إخوانه في بسطه وقبضه ، وسمأؤه مرتبطة بأرضه ، ونقله متعلق بفرضه ،
فالحمد لله الذي خفف الانتقال ، وألم حال الضرر الانتقال ، وسوغ في الشكر المقال ،
وزاروا قال ، وجمع بين إيقاظ القلوب ، وإنالة المطلوب ، وأن وجد العدو طعم
الإسلام مرًا فما ذاقه ، وعوده صلبا فما أطاقه ، ورفع عن طريق بيت الله ماعاقه ،
وقاد إليكم في بيوتكم فضل الجهاد وساقه [ورد المكر السيئ على العدو وأحاقه ^(١)]
فما كانت هذه المكيدة إلا داهية للكفر طارقه ، ونكثنة لعصب التلث عارقه ،
ومعجزة من آثار النبي الشريف لهذا الدين المنيف خارقه ؛ واستأصلت للعدو المال ،
وقطعت الآمال ، وأوهنت اليمين والشمال . فبادرنا عند تعرف الخبر ، المختال من
أنواب المسرة في أهبي الخبر ، المهدي أعظم العبر ، إلى تهنتكم تطير بنا أجنحة
الإرتياح ، مبارية للرياح ، وتستفزنا دواعي الأفراح ، بحسب الود الصراح ؛ وكيف
لا يسر اليسار يمينه [والوجه بجبينه ، والمسلم يدينه ، وخطبتنا كم مهنتين ولولا العوائق ^(١)]
التي لا تبرح ، والموانع التي وصحت حتى لا تُسرح ، ومكيدة هذا العدو الذي يأسوبه
الدهر ويبحر ، لم تجتر بإعلام القلم ، عن أعمال القدم ، حتى نتشرف [بالورود على

(١) الزيادة من " الرخصة " .

تلك المثابة الشريفة، ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفة، فنقضى [الفرص تحت رعيها،^(١) وبركة سعيها، لكن المرء جنيب أمه، ونية المؤمن أبلغ من عمله، فهنيئاً بما خولكم الله من ظفر شهدت برضا الله مراسمه، وأقترت عن تغور العناية الربانية مباسمه، وتوقرت لديكم مواهبه ومقاسمه، وبيئى البيت المقدس مكان فضل الله ومنه، وسلامة مجته، وبيئى الإسلام عصمة نغره المؤثر، وطهارة كتابه المنشر، وجمال عنوانه، وقفل صوانه، وباب إيوانه : مرفاً القسطاط، ومركر لواء الرباط، ومحط رحال الإغباط، ومتخير الإسكندر عند الإناء والإختطاط. ومما زادنا بجحا هذا الفتح، وسرورا زائدا بهذا المنح، ماتحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذى لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، وتجلب عليه براً وبحراً عبدة الاصنام، بحيث البرموصول، والكفر بكثرة العسد يصل، ونيران الحوار [مترائية للعيان، والقرايح القليلة] متوسطة^(١) بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا ينسب، والصريح إلا من عند الله لا يحسب، فتنجدنا بالدعاء السنة فضلائه، ونسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويعرفنا بركة أنبيائه، وينصرتنا فى أرضه بملائكة سمائه.

وقد كانت أتصل بنا فى هذه الأيام الفارطة الذنر الذى ملاً اليد استخارا، والخلد أعيداداً واستظهاراً، والهيم نغارا، وأضاء القطر أنواراً : جوابكم الكريم يدم من نفعاته شدا الإذنر والجليل، وتتمس من خلال حافاته بركات الخليل، وتقرى الوجوه به آثار المعاهد، وتتمسح من شايا وقادته بوارق الفوائد، فأكرم به من وافد محطوب، وزائر مرقوب، صدعنا به فى حفل الجهاد انتحاء وأتبخارا، ثم صنائه

في كرائم الخزائن آفتاءً تخلف وأذخارا ، وجعلنا قِراه سُكراً معطارا ، وثناءً يبقى
 في الخافقين مطارا ، ودعاءً يُعلي الله به لمقامكم السنّي في أوليائه مُتدارا ، ويجهز به
 لمدِّكم كما فعل أنصارا ، ويثيبكم الجنة التي لا يرضى السعداءُ بغيرها قرّارا ،
 والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاءِ مدارا ، ويُقيم الشكر
 ألزم الوظائف لحقكم آبدارا ، والثناء أولى ماتحلى به مجدكم شعارا ، ويُيقمكم للإسلام
 رُكناً شديدا ، وظلاً مديدا ، وسماءَ مدرارا ، ما استأنفتِ البدورُ إبدارا ، وعاقبَ الليلُ
 نهارا ، والسلام .

المقصد الثالث

(في رسم المكاتب الواردة عن ملوك السودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتب^(١) إلى صاحب مالى)

وهو المستولى على التُّكُور وغانة وغيرهما ، وهى أعظمُ ممالك السودان المسلمين
 مملكةً ، ولم أقف لأحدٍ منهم على صورةِ مكتبة إلى الأبواب السلطانية ، إلا أن المقرّر
 الشهابي بن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام على هذه المملكة
 تعرّض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو منسى موسى ؛
 وذكر أنه ورد منه كتاب يُمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته .

(١) كذا في الأصل ولعله « المكاتب الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنؤ)

ورسم مكاتبتَه أن تُكْتَبَ في ورقٍ مرَّعٍ بَخَطِّ تَخَطِّ المَغَارِبَةِ : فإن فضل من المكاتبَةِ شَيْءٌ كُتِبَ بظَاهِرِهَا ، وَتُفْتَحَ المَكَاتِبَةُ بِخُطْبَةٍ مَفْتَتِحَةٍ بِالْحَمْدِ ، ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى المَقْصِدِ بَعْدِيَّةً ، وَيَأْتِي عَلَى المَقْصِدِ إِلَى آخِرِهِ ، وَرَأَيْتُهُ قَدْ خَتَمَ مَكَاتِبَتَهُ إِلَى الأَبْوَابِ السُلْطَانِيَّةِ بِقَوْلِهِ : وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى . وَكَأَنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ مِنَ الكَاتِبِ بِمَقْصِدِ صِنَاعَةِ الإِنشَاءِ ، إِذْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى حَقَائِقِهَا .

وهذه نسخةُ كِتَابٍ وَرَدَ عَلَى المَلِكِ الظَاهِرِ «أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقٍ» وَوَصَلَ فِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، صَحْبَةَ أَبِي عَمْرٍو ، مَعَ هَدِيَّةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَى السُّلْطَانِ بِسَبَبِ مَا يَذْكُرُ فِيهِ مِنْ أَمْرِ عَرَبِ جُدَامِ المَجَاوِرَةِ لَهُمْ ، وَهِيَ فِي وَرْقٍ مَرَّعٍ ، السُّطْرُ إِلَى جَانِبِ السُّطْرِ ، بِخَطِّ مَغْرِبِيٍّ ، وَليْسَ لَهُ هَامِشٌ فِي أَعْلَاهُ وَلَا جَانِبِيٍّ ، وَتَمَّةُ الكِتَابِ فِي ظَهْرِهِ مِنْ ذَيْلِ الكِتَابِ وَهُوَ :

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ الخَطَّ تَرَاوُلًا بَيْنَ الأَبْعَادِ ، وَتَرَبُّعًا بَيْنَ الأَقَارِبِ ، وَمُصَاحَفَةً بَيْنَ الأَحْبَابِ ، وَمُؤْنَسًا بَيْنَ العُلَمَاءِ ، وَمُوحِشًا بَيْنَ الجُهَّالِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَبَطَلَتِ الكَلِمَاتُ ، وَفَسَدَتِ الحَاجَاتُ . وَصَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَى نَبِيِّنَا المصْطَفِيِّ ، وَرَسُولِنَا المُرْتَضِيِّ ، الَّذِي أَعْلَقَ اللّٰهُ بِهِ بَابَ النُّبُوَّةِ وَخَتَمَ ، وَجَعَلَهُ آخِرَ المرْسَلِينَ بِشِيرَا وَنَذِيرَا ، وَدَاعِيَا إِلَى اللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرَا ، مَا نَاحَتِ الوُرُقُ ، وَمَا عَاقَبَ الشُّرُوقَ الأَصِيلُ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ ، رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

من المتوكل على الله تعالى، الملك، الأجل، سيف الإسلام، وربيع الأيتام،
الملك المقدم، القائم بأمر الرحمن، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان،
ودهير وزمان: الملك، العادل، الزاهد، التقى، النقي، الأتجد، الأتجد، الغشمشم،
نخري الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح
الظلام، أبو عمرو عثمان الملك، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرم الله
ضريحه، وأدام ذرية هذا بملكه - هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لآلنا ولا نخرف -

إلى ملك مصر الجليل، أرض الله المباركة أم الدنيا .

سلام عليكم أعطر من المسك الأذقر، وأعدب من ماء الغمام واليم، زاد الله ملككم
وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم،
وجماعتكم، وأهل طاعتكم، أجمعين .

وبعد ذلك، فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو ابن عمي، اسمه إدريس بن محمد
من أجل الجائحة التي وجدناها، وملوكنا، فإن الأعراب [الذين] يُسمون جُدّاما
وغيرهم قد سبوا أحرارنا: من النساء والصبيان، وضعفاء الرجال، وقرابتنا، وغيرهم
من المسلمين. ومنهم من يشركون بالله، يُمارقون للدين، فغاروا على المسلمين
فقتلوهم قتلا شديدا، لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا
ملكنا، عمرو بن إدريس الشهيد، وهو أخونا ابن أينا إدريس الحاج، بن إبراهيم
الحاج، ونحن بنو سيف بن ذى يزن، و[الد] قبيلتنا، العربي القرشي، كذا
ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها، في بلد برنو كافة
حتى الآن، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين، ويبيعونهم جلاب مصر والشام
وغيرهم، ويختمون ببعضهم؛ فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى
أسوان، فإنهم قد اتخذوا متجرا، فاتبعتوا الرسل إلى جميع أرضكم، وأمرائكم،

ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويحسبون
ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليترعوهم من أيديهم، وليبتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن
مسلمون فصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإذا تبين ذلك لكم فاطلقوهم وردوهم إلى حريتهم
وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يقسدون في أرضنا ولا يصابحون، فإنهم الجاهلون
كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزبنون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تحذلوهم
يُسترقوا ويأعوا. قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿نَاخِمْ بَيْنَهُمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وقال الله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظلُّ الله في الأرض
يأوي إليه كلُّ مظلوم». وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه» إلى آخره. وفي الحكمة:
القيامة. وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه» إلى آخره. وفي الحكمة:
ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كلِّ من بسطت يده في الأرض (أراد به السلاطين)
وعلى من تصل يده إلى ذلك (أراد بذلك القضاة والحكام والأمرأء) فإن لم يقدر
فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاء والعلماء) وان لم يقدر فبقبلة، (أراد بذلك عامة
المسلمين) أطل الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم،
قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقال عليه
السلام: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئول عن رعيته». وقال في الحكمة: لولا السلطان
لأكل بعضهم بعضا. وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً
فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ والسلام على من
آتبع الهدى - ولم يؤرخ.

الطرف الثالث

(في المكاتبات الصادرة عن ملك "الكائيم" ولم أقف له على مكتبة إلا انه يُشبهه أن تكون المكتبة عنه نظير المكتبة عن صاحب "البرنو"
فانه على قُرب من مملكته والله أعلم

المقصد الرابع

(في الكتب الواردة من الجانب الشمالي، وهي بلاد الروم)
قد تقدم ذكر المكتبة إلى أمراءها، وأن كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وأنقادوا
إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برسا^(١).

القسم الثالث

(من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكُفار،
وهي على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتب الواردة عن ملوك الكرج^(٢))

الضرب الثاني

(الكتب الواردة عن ملوك الحبشة^(٣))

والمادة فيها أن ترد في قطع^(٣) باللسان^(٣) ولم أظفر بصورة مكتبة في هذا
المعنى إلا مكتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب
اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات، وهو:

(١) لم يذكر في الأصل نموذجاً من المكتبة ولا ترك لها بياضاً كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجاً ولم يتكلم على رسمها كثيراً . (٣) بياض في الأصل .

أقلّ الممالك يقبل الأرض ، ويُنبئ بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أنّ رسولاً وصل إلى من وإلى قوص ، بسبب الراهب الذي جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك [أن] يجهز لنا مطرانا يكون رجلاً جيداً عالماً ، لا ينجني ذهباً ولا فضة ، ويرسله إلى مدينة "عوان" . وأقلّ الممالك يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر : صاحب اليمن ما يلزمه ، وهو يسيره إلى نواب مولانا السلطان ، وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى [ما] بين يدي مولانا السلطان إلا أنني كنت في سكار (؟) والملك داود قد توفّي ، وقد ملك موضعه ولده ، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين ، وأما النصارى فكثير لا يحصون ، والكل غلمانك وتحت أمرك ، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين ؛ وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقلّ الممالك ، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون ؛ وأما الرسول الذي سفروه فهو مريض ، وبلادنا ونعمة . أي من مريض لا يقدر أحد يدخل إليه ، وأي من شم رائحته فيمرض فيموت . ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين ، فسروا مطرانا يحفظهم .

قلت : وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر ، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة ، وأنه لولا اضطرابه إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يسمع بنفسه عن المكتبة ، ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم .

الضرب الثالث

(الكتب الواردة عن ملوك الروم، ورأس الكل صاحب القسطنطينية)

وقد وقفت على كتاب ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربع عشرة
وثمانمائة في درج ورق فرنجي في نحو عشرين وصلاً قطع النصف، والبياض في أعلاه
وصل واحد، وفي أسفله وصلان، وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره، كل
منهما تقدير إصبعين، ومقدار ما بين السطور متفاوت: فأعلاه بين كل سطرين
أربعة أصابع مطبوقة؛ ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كل سطرين قدر ثلاثة
أصابع؛ ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر إصبعين؛ ثم بعد ذلك بين كل سطرين
قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية [الدقة بـ] قلم الرقاع الدقيق،
وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتاب معربة بترجمة بطرك الملبكانية، بحضور سيف الدين سيف^(١)
الترجمان، وهي:

المعظم، المنجد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق
وحلب وغيرها؛ الملك الناصر (فرج) ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر (برقوق)
المحبوب إلى العزيز أكثر من أولاد مملكتي.

يحيط علمه أني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون - أن شاء الله
تعالى - سلطتك المنجدة طيبة في خير؛ وأن المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم
وبين والدي إلى آخر وقت. ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت،

(١) لعله سودون الآتي بعد في الضرب الرابع.

ونتوكد أيضا المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد ، فإن ذلك واجب ، وتردد رسلكم بكتبكم إلينا ، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم ، وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولا لكن الفتن في بلادنا ، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تحت مملكته ، ولم نعرف إلى أي مكان توجه ، أوجب تأخير ذلك ، وأن حامل هذا الكتاب المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا ، وله نداء بالتردد إلى مملكتكم المعظمة ، ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي ، فجهزنا لكم صحبة المذكور خمس كواهي وبازدار ، ليكون نظركم الشريف عليهم ، وكذلك على البطاركة والنصارى والخائس على حكم معدلة السلطان ومحبه ، والوصية بهم ، ومعاونتهم وردائهم وإجراؤهم على جاري عواندهم ، من غير تشويش على مالقوه من انصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا ، واستمرار العناية بهم ، مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم ، والإحسان إليهم ، ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته ، ونضعف شكرنا من إحسانكم على ذلك ، وتكونوا ان شاء الله تعالى طيبين ، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا ، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع^(١) ، فيرسم يعرفنا بها وينادي بذلك .

والذي بآخره بالحمرة علامة الملك مضمونها (مانويك المسيحي بنعمة الله ،

ضابط مملكة الروم البلاغوس) .

(١) كذا في الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضرب الرابع

(الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالانديس، والجهات الشمالية،

وما والى ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب فى فرخة ورق فرنجى مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدى أو دونها، بأسطر متقاربة، باللسان الفرنجى وقلمه، ثم يطوى طياً مسطحا ويعنون فى وسطه، ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهراً من الطى، ثم يُحَرَزُ وَيُحْتَمَّ بِسَحَاءة، ويحتم عليه بطمعة فى شمع أحمر على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب؛ فاذا ورد على الأبواب السلطانية فكُتِّمَتْ، وتُرْجِمُ بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وتكتب تعريبه فى ورقة مفردة وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره فى مقدمة الكتاب.

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقى فى سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر، وسيف الدين سودون، الترجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخة ورق فرنجى مربعة متقاربة السطور، وهو:

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه. يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة^(١)، ويسأل الله أن يزيد عظمته: لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها. ويُنهى ما عنده من الشوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا. فتنبه

والحجة لمولانا السلطان ، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتمسسين والمتردددين من الفرجح إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العسرى في تغردمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتمسسين من التجار بشعر الإسكندرية المحروس ، وزنجهم بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم البهيلة بين جنوسهم والضّرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفنا ، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا ، وتعجبنا من ذلك : لأن طائفنا لم يكن لهم ذنب ، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته ، ومحبتنا له ، ومناداتنا في جميع مملكنا بكثرة عدله ، وبجيبته لطائفنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا لجميع قوابنا : إنهم يكرمون من يجذونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه ، والمسؤول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم ، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يئسبه هذا الأمر ، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، ويرددوا إلى مملكته .



وهذه نسخة كتاب ورد من كبطان الماعنوسة والمستشارين بها ، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة ، ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التبرجمانيين بالأبواب الشريفة ، وهو :

الملك المعظم ، ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ، الملك الناصر ، عظم الله شأنه .

يَقْبَلُ الْأَرْضَ بَيْنَ أَيْدِيهِ الْكِبْطَانُ وَالْمُسْتَشَارُونَ، وَيُنْهَوْنَ أَنَّهُمْ آتَاءَ اللَّيْلِ دَاعُونَ
 بِطَوْلِ بَقَائِهِ، مَجْتَهِدُونَ فِي اسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ وَالْمَوْدَةِ الَّتِي لَا يَشُوبُهَا كَدْرٌ بَيْنَ الْقَوْمُونَ (؟)
 وَبَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَأَنَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَمَّ حَرَامِيَّةُ غِرَابٍ يَحْرَمُونَ بِأَطْرَافِ هَذِهِ
 الْبِلَادِ، وَالْمَبِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَنَحْنُ لَمْ نَزَلْ نُسْحِطْهُمْ بِالْمَرَآكِبِ وَالْأَغْرَبَةِ، وَنَمْنَعُهُمْ
 مِنْ ذَلِكَ جُهْدَنَا وَقُدْرَتَنَا، حَتَّى إِنْ صَارَ أَحَدًا صَارَ لَا يَحْتَسِرُ عَلَى الدَّخُولِ إِلَى مِينَا
 الْمَاعُوضَةِ بِجَمَلَةٍ كَافِيَةٍ، مَعَ أَنَّنَا كُنَّا خَالِصِينَ فِي الْمُدَّةِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْحَرَامِيَّةِ الْمَذْكُورِينَ
 نَحْسَةَ وَعَشْرِينَ نَفَرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْرَمْنَا هُمْ وَأَطْلَقْنَا سَبِيلَهُمْ [وَعَزَمْنَا أَنْ] نَجْهَظَهُمْ
 إِلَى دِمْيَاطٍ أَوْ إِلَى ثَغْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

وَأَمَّا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنْ بَرَطَلَمَا أَوْسَقَ لِلوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ صَابُونًا فِي مَرَاكِبِهِ،
 وَكَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَهْرَبَ بِذَلِكَ، فَلِلْحَالِ عَمَّرْنَا مَرَكِبًا كَبِيرًا، وَأَخَذْنَا بَرَطَلَمَا الْمَذْكُورَ
 بِالْمَحَارِبَةِ، وَأَحْضَرْنَا هُ إِلَى الْمَاعُوضَةِ، وَعَهَدْنَا بِطَرُوقِ الْمَرْكَبِ إِلَى شَخْصٍ يُسَمَّى
 (أَرْمَانِ سَلِيُورِيُونِ) وَهُوَ رَجُلٌ مَشْكُورُ السَّيْرِ، وَقَلْنَا لَهُ إِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى خَازِنِ الصَّابُونِ
 الْمَذْكُورِ وَيَسْتَشِيرُهُ إِنْ كَانَ يُوسِقُ شَيْئًا مِنَ الْأَصْنَافِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَيَجْهَظُهُ إِلَى
 أَيِّ مَكَانٍ اخْتَارَهُ لِيَسْلِمَهُ لِيَدٍ مِنْ تَبَرُّزِهِ الْمَرَاسِيمِ الشَّرِيفَةِ بِتَسْلِيمِهِ، فَلِيَفْعَلْ، وَهَذَا
 الْقَوْلُ كُلُّهُ يَكُونُ دَلِيلًا عِنْدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ عَلَى صِدْقِ الْوَلَاءِ وَالتَّمْسِكِ بِالصُّلْحِ،
 وَالْمُسْتَوْلِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ الْإِقْبَالِ عَلَى التَّجَارِ الْجَنَوِيَّةِ الَّذِينَ عِنْدَ مَمْلَكَتِهِ،
 وَكَفَّ أَسْبَابَ الضَّرْرِ عَنْهُمْ، وَيُنْشِرُ مَعْدَلَتَهُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ بَقَاءَهُ بِمَنَّةِ وَكْرَمِهِ .

الفصل السادس

[من الباب الثاني] من المقالة الرابعة

(في رسوم المكتبات الإخوانية - وهي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - والمراد المكتبات الدائرة بين الأصدقاء . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ؛ وهي في الغالب لا تخرج عن ضربين)

الضرب الأول

(أن تُفتَح المكتبة باسم المكتوب عنه)

وكان رسمهم فيه أن تفتَح المكتبة بلفظ « من فلان إلى فلان ، سلام عليك ، إني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو » فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يُزاد هنا في السلطانيات « وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله » كما تقدم في موضعه ، جرى الكُتاب في الإخوانيات على ذلك أيضا ، وكان الخطابُ يجري بينهم في ذلك بأنا ، وأنت ، ولي ، ولك ، وعندي ، وعندك ؛ وما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب ، وكانت خاتمة الكتب عندهم بالسلام .

الضرب الثاني

(أن تفتَح المكتبةُ باسم المكتوب إليه : تفخياً لأمره ، وتعظيماً لشأنه)
 وكان رسمهم في ذلك أن يفتَحوا المكتبةَ بلفظ « إلى فلان من فلان ، سلامٌ
 عليك ، فإنِّي أحمدُ اليك الله الذي لا إله إلا هو » وبقى الكتاب على ما تقدم في الضرب
 الأول في الخطاب والختام وغيرهما .

الطرف الثاني

(في رسوم الإخوانيات المحدثّة بعد السلف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في رسوم إخوانيات أهل المشرق ، وفيه أربعة مباحث)

المهيع الأول

(في صدور الابتدآت ، وهي على أساليب ^(١))

الأسلوب الأول - أن تفتَح المكتبةُ بالدعاء ، وعليه أقصر أبو جعفر النعمان
 في كتابه " صناعة الكتاب " وكان على رأس الثلثية في خلافة الرازي ، وقد تقدم
 في الكلام على مقدمات المكتبات نقلاً عن " مواد البيان " أن الأدعية كانت
 في الزمن الأول تُستعمل فيما يتعلق بأمر الدين : مثل قولك : أكرمه الله ، وحفظه الله
 وفقهه ، وحاطه ، وما أشبه ذلك ؛ نُعدّل عنها قصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء
 بإطالة البقاء ، وإدامة العز ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافس فيه أبناء

(١) لم يذكر منها إلا الأسلوب الأول ونبه على أن النعمان أقصر عليه فتنبه .

الدينيا، جربا على عادة الفرس . ثم رتبوا الدعاء على مراتب : فجعلوا أعلاها الدعاء
بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العمر ، ثم بالمدة في العمر ، وكذلك سائر المكتوبات على
ما تقدم بيانه هناك .

ثم هو على ستة أضرب :

الضرب الأول

(المكتبة من المرسوس إلى الرئيس ، وهو على صنفين)

الصنف الأول

(المكتبة إلى الأمراء)

قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتباتهم : أطال الله بقاء الأمير، فإذا أردت
أجل ذلك كله، كتبت : أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والشروع
والغبطة، وأتم عليه نعمه في علو الدرجة، وشرف من الفضيلة، وتتابع من الفائدة،
ووهب له السلامة والعافية في الدنيا والآخرة، وبلغ بالأمير أفضل ما تجرى إليه
همته، وتسمو إليه أمنيته، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل، وأجر له
ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر ، وكرامة دائمة ،
ونعمة سابعة ، وزاد في إحسانه إليه ، والفضيلة لديه ، ولا أخلى مكانه منه .
قال : ومنه أطال الله بقاء الأمير ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمكينه ،
وكبت عدوه .

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها - أطال الله بقاء الأمير،
ومكن له في البسطة وتزايد النعمة ، وزاده من الكرامة والفضيلة ، والمواهب

الجليله ، في أعزَّ عِزِّ وأدوم سلامة ، وأسبَل عافية - ومنها - أطال الله بقاء الأمير ، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه ، وزاد في إحسانه لديهِ ، وأتمَّ نعمته عليه ، ووصل له خير العاجل بجزيل الآجل .

الصنف الثاني

(المكاتبة إلى القضاة)

وقد قال النحاس : إنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به للأمير غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي ، إلا أن الفضل بن سهل قال : يدعى لقاضي القضاة : أطال الله بقاء القاضي ، وأدام عِزَّه وكرامته ، ونعمته وسلامته ، وأحسن من كلِّ جميل زيادته ، وألبسه عَفْوَه وعافيته . وإنه يدعى له أيضاً : أطال الله بقاء القاضي في عزِّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسن زيادته ، وأتمَّ نعمته عليه في أسبغ عافية ، وأشتمل سلامة . قال : وقال غير الفضل : إن الكُفَّ ، يكتب كُفَّاه ومن كان خارجاً من نعمته : أدام الله بقاءك أيها القاضي .

الضرب الثاني

(المكاتبة من الرئيس إلى المرعوس : كالمكاتبة عن الوزير وقاضي القضاة)

وغيرهما ، والخطاب في جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهي على مراتب ، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عِزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وإحسانه إليك وعندك . ودونه « أطال الله بقاءك ، وأعزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك وعندك » . ودونه « أدام الله عِزَّك ، وأطال بقاءك ، وأدام كرامتك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وأدامها لك » .

ودونه « أعزك الله ، ومدّ في عمرك ، وأتمّ نعمته عليك ، وما بعده على توالى الدعاء
الذى تقدّم » . ودونه « أكرمك الله وأبقاك ، وأتمّ نعمته عليك ، وأدامها لك » .
ودونه « أن تُسقط وأدامها لك » . ودونه « أبقاك الله وحفظك وأتمّ نعمته عليك ،
وأدامها لك » . ودونه « أن تُسقط وأدامها لك » . ودونه « حفظك الله وأبقاك ،
وأتمّ بك » . ودونه « عافانا الله وإياك من سوء » .

قال في "صناعة الكتاب" : هذا إذا جرى الأمر على نسبه ولم تتغير الرسوم ،
وإلا فقد يعرض أن يكون في الدولة من هو مقدّم على الوزير أو مساوئى به فتغير
المكاتبه ، فقد كان عبد الله بن سليمان (يعنى وزير المعتضد) يكتب أبا الجيـش (يعنى
نُحَّارَويه بن أحمد بن طُولون) : أطال الله يَأْنِي بَقَاكَ إلى آخر الصدر ، للصَاهِرَة
التي كانت بين أبي الجيـش وبين المعتضد ولأنّ المعتضد كآه . ثم قال : فإن كان
الرئيس غير الوزير ، فربما زاد في مكاتبته زيادة لمن له محلّ : فيزيده ويكتبه زيادة
التأييد ودوام العزّ . قال : ويُدعى للنقهاء : أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته
وكفائته ، وأعلى جدك وصان قدرك ، وكان لك ومعك حيث لا تكون لنفسك .
أو : أدام الله بقاءك في أسرّ عيش وأنعم بال ، وخصّك بالتوفيق لما يُحبّ ويرضى ،
وحبّاك برُشدّه ، وقطع بينك وبين معاصيه . أو : أطال الله بقاءك بما أطال به بقاء
المُطيعين ، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين . أو : أكرمك الله بطاعته ،
وتولّاك بحفظه ، وأسعدك بعونه ، وأيدك بنصره ، وجمع لك خير الدنيا والآخرة
برحمته ، إنه سميع قريب . أو : تولّاك من يُمسك السماء أن تقع على الأرض
إلا بإذنه ، وكان لك من هو بالمؤمنين رءوف رحيم . أو : أكرم الله عن النار
وجَهك ، وزين بالتقوى تجلّك . أو : أكرمك الله بكرامة تكون لك في الدنيا عزّاً ،
وفي الآخرة من النار حرّاً .

الضرب الثالث

(المكتبة إلى النظراء، والمخاطبة فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" وأعلى ما يكتب في ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيدى «أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر». ودونه «أطال الله ياسيدى بقاءك». ودونه «ياسيدى وأجى أطال الله بقاءك». ودونه «أدام الله يا أجى بقاءك».

الضرب الرابع

(المكتبة إلى الأبناء، والخطاب فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" يكتب الرجل إلى ابنه: يا بني أنت، أو: فداك أبوك. أو: مات قبلك. أو: أسأل الله عز وجل حفظك وحياتك ورعايتك. أو: أرشدك الله أمرك. أو: أهدن البلاء بك. أو: بلغ الله بك أفضل الأمل، وأتم السرور بك، وجعلك خلفا صالحا، وبقية زاكية.

الضرب الخامس

(المكتبة إلى الفتيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس: يدعى لهم: صرف الله سوء عنك، وعن حظي منك. أو: أطال الله بقاء النعمة عليك وعلى فيك. أو: جعلت أنا وطاري وتالدي فداك. أو: ملأني الله إخوانك، وأدام بقاءك. أو: أستودع الله عز وجل ما وهب لي من خلقتك، ومنحني من أخوتك، وأعزني به من مودتك. أو: حاط الله حظي منك،

وأحسن المدافعة عنك . أو : ببقائك مُتعت ، وفقدك مُنعت . أو : نفسى تَفديك ،
والله يُبقيك ، ويَقيني الأسواء فيك . أو : ملأني الله النعمة ببقائك ، وهنأني مامنحني
من إخوانك . أو : أبق الله النعمة لي ببقائها لك ، وبلغتها بك . أو : وفر الله حظي
منك ، كما وفر من المكارم حظك . أو : ملأني الله ببقاك ، كما منحني إخالك .
أو : دافع الله لي وللكارم عن حوْبائك ، وأمتعني ببقائك ، وجمع أملي فيك بجمعه
المكارم لك . أو : زادك الله من النعم حسب تزيديك في البرِّ لإخوانك ، وبلغ بك
أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك .

الضرب السادس

(المكاتبة إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهن يُكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبة الرئيس والمرئوس
والنظير ، غير أنه قد وقع في الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال في مكاتبتهم وكرامتك
ولا وأتم نعمته عليك ، ولكن وأتم نعمته لَدَيْكَ ، ولا فضله عندك ، ولا سعادتك ،
ولا فعلت ولا أن تفعل ، ولكن يقال : إن رأيت أن تمنني بذلك مننت به ، وما
أشبه ذلك ، وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهن لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب في تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابهِ بالكاف
عن نظير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك
وخصوصاً الخطاب بالكاف بادنى المراتب في حق المكتوب إليه . على أنه قد تقدم
من كلام النحاس إنكار ذلك على من اعتمده محتجاً عليه بأنه لا أعظم من الله تعالى
مع أنه يقال في الدعاء يا الله ونحو ذلك .

(١) كذا في الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلى الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعية مرتبة على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه»، وأدام تمكينه وأرتقاءه، ورفعته وسنائه، وكبت عدوه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيدته، وكبت عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوَّباه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعمائه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام نعمائه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام عزَّه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام توفيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام سداً وإرشاده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توفيقه». ودونه «أدام الله عزَّه وسنائه». ودونه «أدام الله عزَّه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزَّه الله». ودونه «أيدته الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وقفه الله». ودونه «سامه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله». وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضي. أو بقاء سيدي. أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك في كل رتبة بحسبها.

وأعلم أن الذاهبين من الكُتاب إلى إجراء المخاطبة في المكتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما في معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيِّدنا ومولانا على لفظ الأفراد كسيدي ومولاي؛ ويتعنون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويجعلون الأفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي، أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل. ان لم يكن زائداً من قلم الناصح.

ونحو ذلك . ثم توسَّعوا في ذلك بفعلوا الدعاء متوسِّطاً كلام الصدر على القرب من
الابتداء، مقدِّمين بعض كلام الصدر عليه، ومؤخِّرين بعضه عنه . مثل أن يقال
في المكتبة بَشْكُر: إذا كان الشُّكْر - أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان - ترجمان النِّية ،
ولسان الطويِّه ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الإختصاص ، وسبباً إلى الزيادة ،
وطريقاً إلى السَّعادة، وكانت معارفه قد أحاطت بمعادينه، واستولت على محاسنه،
فألسن آثارها مع الصَّمت أفصح من لسانه، وبيانها مع الجُود أبلغ من بيانه ،
ونحو ذلك . ثم أحدثوا أصطلاحاً آخر أضاقوه إلى الاصطلاح الأول، فقدموا على
الدعاء لفظ «كاتبنا» أو لفظ «كاتبى» رتبة دون رتبة؛ مثل أن كتبوا: كاتبنا - أطال
الله بقاء الأمير - ونحن على أفضل ما عودنا الله من انتظام الأمور وسدادها، واستقامتها
بمحضرتنا وأطرادها . أو كاتبى - أطال الله بقاء مولاي الحاجب - عن سلامة ينفعها
قتدك، ويتقصها فراقك، وما يجرى مجرى ذلك . وربما أبدلوا لفظ كاتبنا أو كاتبى
بلفظ كتبت بصيغة الفعل، وربما أبدعوا بلنظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار
إلى مصطلحات أصطلحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القديم : فغاطبوا بالحضرة
تارة، وبالخدمة تارة، وبالمجلس أخرى، فكتبوا: كاتبى - أطال الله بقاء حضرة سيدنا
الوزير، أو سيدنا الأمير، ونحو ذلك، أو أسعد الله الحضرة، أو أسعد الله الخدمة،
أو ضاعف الله جلال الخدمة، أو أعز الله أنصار الخدمة . وربما كتبوا: صدرت
هذه الخدمة إلى فلان . وقد يكتبون: صدرت هذه الجملة، إلى غير ذلك من
تفئنتهم التي لا يسع استيعابها، ولا يمكن اجتماع متفرقها .

قلت : وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتدائها على هذا المصطلح
غير ممكن لأختلاف مذاهبهم في ذلك ، والذي تحصل لى من كلام النحاس

وآبن حاجب النعمان، وترسل أبي إسحاق الصابى، والعلاء بن موصلايا، وأبى الفرج
البيغاء، وغيرهم من الكُتاب المُجيدين أنَّ الغالب فى المكاتبات الدائرة بين أعيان
الدول على سبعة أساليب :

الأسلوب الأول

أن تفتح المكاتب بالدعاء

كما كتب أبو إسحاق الصابى إلى الصاحب إسماعيل بن عبَّاد بالشكر والتشوق .
أطال الله بقاء سيدنا الصاحب الجليل ، فى سلامة دنيا ودين ، ونفاذ أمر وتمكين ،
وتمام عز وتأييد ، وثبات وطأة وتمهيد ، وعلو قدر وسلطان ، وتعاضم خطر وشان ،
وتولاه فى نفسه وأوليائه بأحسن ما عُرف وألف ، من نيم دائرة الحلب ، متفرعة
الشعب ، محيية الجهات والجوانب ، محجوبة عن النوايب والشوائب ، وأراه فى حساد
فضائله ، وكفَّار قواضله ، ماعوده فيهم من شقاء جدودهم ، وفلول حدودهم ، وحلول
النكال بهم ، وإثبات العزيمة منهم . وجعل حكمه قطبا لمدار الأتلاك ، ونهجا
لجبارى الأقدار ، فلا يتزل منها محبوب مطلوب إلا توجه إليه ونحاه ، ولا محذور إلا
أعرض عنه وتعاماه ، ثم كان برؤوس معانديه حلولة ، وبرقابهم إحاطته ، وفوق
ظهورهم تحمله ، وعلى صدورهم بحتمه ، أمرا جزما قضاء الله له وخصه به ، وأعطته
الأيام عليه عهد أمانها ، وأمرت له به عقد صمائها ، عاطفة عليه بطاعتها ومواناتها ،
مغضية له عن نرائنها ونبواتها ، وحقيق عليه جل أسمه أن يفعل ذلك به ، ويسمع
هذا الدعاء فيه ، إذ كان مرفوعا إليه فى أوفر عباده فضلا ، وأغمرهم نيلا ، وأجزلم
أدبا ، وأكثرهم حسبا ، وأعملهم بطاعته ، وأولاهم بإحسانه ومعونته ،

كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الصَّاحِبِ الْجَلِيلِ ؛ ثُمَّ أَنْخَرْتُ فِي سَلْكِ
مَقْصِدِهِ إِلَى آخِرِهِ .

الأسلوب الثاني

أَنْ يَتَوَسَّطَ الدُّعَاءُ صَدْرَ الْكِتَابِ بَعْدَ الْإِبْتِدَاءِ بِكَلَامٍ مُنَاسِبٍ لِلْمَحَالِ .
كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي أَيْضًا عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ إِلَى أَمِيرِ آخَرَ، مَبَشِّرًا بِفَتْحِ:
وَمَنْ أَعْظَمَ النِّعَمِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ الْجَلِيلِ - خَطَرًا، وَأَحْسَنَهَا أَثَرًا،
نِعْمَةً سَكَنَتْ قُورَهُ، وَأَطْفَافَتْ قُورَهُ، وَعَادَتْ عَلَى النَّاسِ بِجَمِيلِ الصُّنْعِ، وَجَلِيلِ النَّفْعِ،
وِنِظَامِ الْأُمُورِ، وَصَلَاحِ الْجُمْهُورِ، فَتَلْكَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا مَتْرَادِفًا،
وَالْإِعْتِدَادُ بِهَا مَتَضَاعِفًا، بِحَسَبِ مَا أَزَالَتْ مِنَ الْمَضَرَّةِ، وَجَدَّدَتْ مِنَ الْمَسْرَّةِ،
وَأَمَاطَتْ مِنَ الْمُحْدُورِ، وَنَشَرَتْ مِنَ الْمَأْمُولِ . وَحَقِيقٌ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَعْرِفُوا حَقَّهَا،
وَيُؤْفِقُوا مِنْ حَمْدِ اللَّهِ قِسْطَهَا، وَيَتَنَجَّزُوهُ وَعَدَهُ الْحَقُّ فِي آدَائِهَا، وَإِطَالَةِ الْإِمْتِنَاعِ بِهَا،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ جَعَلْنَا مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَيَعْتَقِدُهُ وَيَنْطَوِي عَلَيْهِ،
وَيُؤَدِّي فَرَضَ الْأَجْتِهَادِ فِي الْأَسْتِدَامَةِ وَالْإِسْتِرَادَةِ مِنْهُ، وَأَنْ خَصَّصْنَا مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ
بِذَوَاتِ الْفَضْلِ السَّابِغِ، وَالظَّلِّ الْمَاتِعِ، الْجَامِعَةِ لَكِبْتِ الْعَدُوِّ وَمَسَاءَتِهِ، وَابْتِهَاجِ الْوَلِيِّ
وَمَسْرَتِهِ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ جَلَّ أَسْمُهُ وَعَزَّ ذِكْرُهُ، أَنْ لَا يَسْتَبْنِي مَا أَلْبَسْنَا مِنْ سَرَابِلِهَا،
وَأَجْرَانَا مِنْ فَضْلِ ذُبُوبِهَا، وَعَوْدَانَا مِنْ جَلَالَةِ أَقْدَارِهَا، وَتَعَاظِمِ أَخْطَارِهَا، وَلَا يُعْدِمَنَا
مَعُونَةٌ مِنْهُ عَلَى بُلُوغِ أَقْصَى الْوُسْعِ فِي الْإِعْتِدَادِ بِهَا، وَمُنْتَهَى الطُّوْقِ فِي الْبِشْرِهَا،
بِمَنَّةِ وَطَوْلِهِ، وَقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ .

وَقَدْ عَرَفَ مَوْلَانَا الْأَمِيرُ فُلَانٌ مَا كَانَ مِنْ كَذَا وَكَذَا ؛ ثُمَّ أَتَى عَلَى ذِكْرِ الْفَتْحِ
إِلَى آخِرِهِ .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كِتَابِي » كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله الحسن بن سعدان، إلى نجر الدولة بن بويه في إشارة فتح .

كتابي - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل نجر الدولة - ومولانا الملك السيد صمصام الدولة وتشمس الملة ، جارٍ على أفضل حال ، جمع الله بينهما في تمام عزٍّ ونصر، ونفادٍ أمرٍ ونهى ، وعلوِّ كلمةٍ ورأي ، وسُبُوغٍ موهبةٍ ونعمه ، وشكر الله يستر يد من فضله ، ويستدر المادّة من طوله ، وأنا جارٍ فيما أحمله من أعباء خدمتهما ، وأتولاه من تعاطم شئونهما ، على أجمل ما عود الله ووزراء هذه المملكة المناهجين لها ، وأولياؤها المجامين عنها ، من هداية إلى مرآشد الأمور ، وتوفيق لصواب التدبير ، والحمد لله رب العالمين ، وقد كان كذا وكذا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كَتَبْتُ » كما كتب الصابي إلى صاحب الجيش في تعزية :
 كتبت - أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش - والعينُ عبْرِي ، والكبدُ حرِي ،
 والصبرُ مسلُوب ، والعزّاءُ مغلوب ، بالفجّية في سيدي فلان نضر الله وجهه ، وكرم مُنْقَلَبه ، التي هدّت الجلّد ، وفتّت في العَضُد ، وبسَطّت عُدْرَ الجُزُوع ، وهجّنت حِلْمَ الحليم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإلى أمره صائرُونَ ، وعند الله نحْتَسِبُه عُصْنَا ذَوِي ، وشهاباً خباً ، وعلق مِضْنَةً عَلِقَتْ به أيدي النواب ، وتخيّرته سهام المصائب ، وقارنت بين قلوب الأبعاد والأقارب ، والخواص والعوام في التالم لفقده والإستيحاش لمصرعه ، والكتابة لوقوع المحذور به ، وعزّ على أن يجري لساني بهذا القول ، ويدي بهذا الخط ، إلى آخر المكتبة .

الأسلوب الخامس

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِالْخَطَابِ : كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه ، إلى مُجَاعِ الدَّوْلَةِ وَزَيْرِ دِمَشْقَ ، بعد هَلَاكِ زَيْنِ بْنِ أَيْسُوقَ .

أيها السيد الرئيس المحامي عن سريره ، والذي قَصَّرَ إِلا فِي الْمَعَالِي ، رَبُّ نَاهٍ بِجِسْمِهِ وَهُوَ دَانٍ بِقَلْبِهِ ؛ وَغَرِيبٌ إِذَا نَسَبَتْ وَأَمِيرٌ عَلَى دِمَشْقَ مَطَاعٌ فِي صَحْبِهِ ، وَهُوَ بِالْعِرَاقِ إِخْوَانٌ مِنْ حِزْبِهِ ، إِلَى آخِرِ الْمَكَاتِبَةِ .

الأسلوب السادس

أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبَةُ بِالْفِظِ : «أنا» كما كتب الصابي عن نفسه إلى الأثير أبي الحسن يهنئه بعيد .

أنا - أطل الله بقاء سيدنا الأستاذ الأثير - أحوارُ الخِدمَةِ لَهُ وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ مِنْذُ وَصَلْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ ، فَيَعْتَرِضُ دُونَ ذَلِكَ عَوَارِضٌ يَجْرِي بِهَا الْمَقْدُورُ ، إِلَى الْحَيْنِ الْمَوْقُوتِ الْمَسْطُورِ ؛ وَقَدْ عَلِمَ مِنِّي وَشَمِرَ عَنِّي كَذَا وَكَذَا ، إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ .

الأسلوب السابع

أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبَةُ بِالْفِظِ « صَدَرَتْ » أَوْ « أَصْدِرَتْ » كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفرج سعد بن محمد تشوقاً .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِلَى نَلَانٍ ، وَلَوَاعِجِ الْأَشْوَاقِ إِلَيْهِ مِتْضَاعِفَةً مِتْرَادِفَةً ، وَأَسْتَمْرَارِ الصَّبْرِ عَلَى الْبُعْدَعَةِ قَدَرَتْ قُوَاهُ ، وَوَهَنَ عُرَاهُ ، وَأَعْوَزْنَا وَجْدَانَهُ إِذْ عَنَتْ ذِكْرَاهُ ،

وإن كان ذكره سَمِيرَ الخاطر ، وتُجَاهَ الناظر ، والغريمَ المَلَازِمِ ، الذي يستحقُّ غالبه اللبيبُ الحازمُ ، إلى آخر الكتاب .

المهَيِّع الثاني

(في الأجوبة على هذا المصطلح ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

أن يُفْتَحَ الجواب بما يُفْتَحُ به الإبتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه : إما ملاصقاً لأوّل الإبتداء ؛ وإما بعد كلام طويل .
فأما ما هو متصل بأوّل الإبتداء ، فكما كتب الصابى .

كتابي — ووصل كتاب مولاي وفيه منته ، وجلّ عندي قدره وموقعه ، وسكنتُ إلى ما دلّ عليه من سلامته ، وسألتُ الله أن يُسَبِّحَ عليه ظلّها ، ويَبْلِيَهُ نِعْمَهُ كُلَّهَا ؛
فأما ما ذكره من كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

وأما ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضاً عن نفسه إلى الصاحب ابن عبّاد .

كتابي — أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكُفَاهِ — وليس من جارحة إلا ناطقةً بِسُكْرِهِ وحمده ، ولا في الدهر جراحةٌ إلا عافيةٌ بفضله ورفده ، وأنا مستمرُّ له على دعاء : إن خلوتُ من أن يكونَ عائداً لصلّاحي ، ورائياً لجنّاحي ، لآلِترِمتِه عن الأحرار العائنين في نداءه ، المستظّلين بِدَرَاهِ^(١) ، فكيف وأنا أوّلُ ساهرٍ في مرّابعه ،

(١) الدرّى ما يستكن فيه الانسان والفلل راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةً على استقامة أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائه،
 واتباعها إثارةً في أوليائه وأعدائه؛ والحمد لله رب العالمين، قضاءً لحقه وأقتضاءً
 لمزيدة، واستدامةً للنعمة عنده، التي استحصفت في أيدينا سعتها، وسالت علينا
 شعابها، وعمرتنا بجمالها، ونفيات لنا ظلالها، وما يزال بين رغبة مولانا صاحب الجليل
 كافي الكفاة - أدام الله علوه، وكبت عدوه، في عبده ورغبة عبده إليه سرٌّ مكنونٌ
 في الصدور، ومستورٌ تحت الضلوع، فهما يتناجيان به على بُعد الدار، ويتقيان
 عليه بالأفكار، فإن تطلع من حجاب القلوب؛ وشد من ظهور الغيوب، فإن ظهوره
 يكون من جهته في تفحات الإنعام؛ ومن جهتي في ثمرات الكلام. وقد وصل كتابه
 المخطوط بكرمه لا بقلبه، إلى صنيعة المائل بين يديه بهمه لا بقدمه، فلم يستطع
 أن ينهض من الفكر، إلا بقدر ما يرى ساحة من الكفر، ويبلغه إلى آخر الاجتهاد
 والعدر؛ وأسأل الله أن يطيل بقاءه للأفضل المأخوذ منه، والفضل المأخوذ عنه،
 والعلم الذي يزخر به بحره؛ والفخر الذي يسحب له ذيله، والعز الذي ضرب عليه
 رواقه، والسلطان الذي ألقى إليه استحقاقه، والأمر والنهي اللذين يحويهما ترانا
 وأكتسابا، إذا حوآهما غيره غلولا وأغتصابا، بمنه وطوله؛ وقد كان كذا وكذا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله بن سعدان في جواب كتاب ورد عليه .
 وصل كتابك - أطل الله بقاءك - وفهمته ، وأدى فلان ما تحمله عنك ووعيته ،
 وأزددت به بصيرة في سدادك ومعرفتك ، وفضلك وحصافتك ، واجتماع الأدوات
 الجميلة فيك ، الداعية إلى إعلاء محلك ، وحميد حالك ، والثقة بك ، والإستقامة إليك ،

وأنهيت ذلك إلى مولانا الملك فلان ، فأصغى إليه مستمعاً ، وأوجب لك به حقاً متضاعفاً ، وأمرني بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج البيهقي في جواب كتاب :

ورد كتابك مشافهاً من البرِّ ، ومؤدياً من الفضل ، ومتحملاً من المِنَّة ، مانحاً وازٍ الإنصاف إلى الإسراف ، وقرن الإكرام بالإنعام ، ولم أدر أئى المنح به أشكر ، ولا بأى العوارف له أعترف : أبما تعلمه من جميل نيته ، أم ما أدنى من جليل مخاطبته ، أم مانحتي به فوائد ملاحظته ، أم ما اعتمدني من حلاوة مفاوضته ، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطاؤها بشكر ، ولا أقاومها بمنة أعتداد : وهو ابتداءه ليأى من المكاتب بما أحرز به على عادته قصب السبق ، وزاد على الرغبة مبرهنها وبصايق الودِّ مخبرها ، وإلى البسط دليلاً ، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعته ، ووجدته أيدى الله قد فعل كذا وكذا .

المهتج الثالث

(في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح)

وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختامات ، ولا ما يقتضى ملازمة آختتام معين لصدر معين ، بل ذلك موكول إلى رأى الكاتب لا يراعى فيه غير علو الرتبة وهبوطها ، حيث تفاوتت رتب الاختامات عندهم .

ثم الاختامات لديهم على أنواع شتى .

منها — الاختتامُ باستماحة الرأى ، وهو على مراتب : أعلاها « ولمولانا علو الرأى » في ذلك « كما كتب الصابى في خاتمة كتاب : ولمولانا علو الرأى في تشریف خادمه ،

بالقبول، والتقدم بإعلامه بالوصول، واستخدامه بما يتعلق بأرابه وأوطاره - ومن نظائر ذلك وأشكاله - إن شاء الله تعالى .

ودون ذلك - الاختتام بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابي في خاتمة كتاب بشارة بفتح، فإن رأى سيدي أن يعرفني موقع هذه البشري منه، ومقابلتها بالشكر الواجب عليها، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله، ليكتب الله به عدوه وعدونا، ويكاتبني بما أتطلعه من أحواله وأخباره، وأتعمد إسعافه به من مآربه وأوطاره، فإني أعتده شريكاً لنا مساهماً، وخليطاً مفاوضاً، فعل إن شاء الله تعالى .

ودونه « فرأيتك في كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج البغاء في خاتمة كتاب في الحث على مواصلة الكتب، فرأيتك في إيناسنا بكتبك متضمنة ما نؤثره من أنيساطك، ونعلمه من أخبارك، موقفاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأى معنى كان فرأيتك دون فإن رأيت .

وذكر ابن حاجب الثعمان أن أعلى المراتب « وللاراء العالية فضل السموم ومزيد القدره . ودونه « ولرأى المجلس الفلاني فضلاً وسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة مولانا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى » . ودونه « ورأيه موقفاً » . ودونه « ورأيه السيد » . ودونه « ورأيه الأرشد » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحب أن يفعل كذا » . ودونه « ويجب أن يفعل كذا » . ودونه « فأفعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « واحذر المخالفة » .

ومنها — الإختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة كتاب « وأسأل الله أن يطيل بقاءه ، ويصل إخوانه ، ويحفظه بعيدا وقريبا ، ويرعاه غائبا وحاضرا .

ومنها — الإختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب؛ وأنا أسأله أن يواصلني بكتبه، مضمنة أخباره الطيبة، وأمره المثل، وأوطاره ومهماته، معتمدا بذلك، إن شاء الله تعالى .

ومنها — الإختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورى، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة، وما أطالب سيدى بالمكاتبة إلا عند الحاجة العارضة؛ فإنه يقيدنى بها جميلا أشكوه، ويستفيد منى سعيًا يجده، فأما ماعدًا ذلك مما يشغل أوقات راحته، ويسد فرج خلوته، فإننى أستعفى منها استعفاء المتقرب إليه، المؤثر لما خف عليه؛ وله فيما سألت فضل النظر فيه، والإسعاف به، إن شاء الله تعالى .

ومنها — الإختتام بالتحذير من المخالفة، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم: وليكتب كل واحد منهم بخبر من عسى أن يظفر به من هؤلاء، أو يقف على موضعه، أو ينتهى إليه شىء من خبره، وليحذر من التقصير فى ذلك. إلى غير ذلك من الإختتومات التى لا تحصى كثرة .

وقد ذهب كثير من الكُتَّاب [إلى عدم تفضيل بعض الإختتومات على بعض] ^(١) على أن ابن حاجب النعمان قد قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" إن أعلى ذلك بالنسبة إلى المكتوب إليه: وللآراء الفلانية فضل السمو ومزيد القدرة. ودونه « ولرأى المجلس الفلانى فضله وسموه ». ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله ». ودونه « ورأى حضرة سيدنا أسمى ». ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى ». ودونه « ورأيه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتنم الكلام وعبارة ابن حاجب النعمان تقدمت فى الصفحة قبل قننه .

مَوْفَقًا . . ودونه « ورأيه السَّديد » . ودونه « ورأيه الأرشُدُ » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحبُّ كذا » . ودونه « ويجبُ أن يفعل كذا » . ودونه « وسبيله أن يعتمد كذا » . ودونه « فافعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « وأحذرِ المخالفة » .

المهَيِّعُ الرَّابِعُ

(في عُنوانات الكتب على هذا المصطلح ، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى - أن يكون العنواُن من الرئيس إلى المرئوس ، قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن العُنُوانات من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب :

(الأولى) أن يكتب في الجانب الأيمن « لأبي فلان أطال الله بقاءه وأعزّه » ، وفي الجانب الأيسر « من فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه إن لم يكنه الإمام ؛ فإن تكأه ، كتب « من أبي فلان » ، والقاضي في معنى ذلك .

(الثانية) أن يكتب في الجانب الأيمن « لأبي فلان أطال الله بقاءه » فقط ، ويكتب الاسم^(١) ولا يكتب وأعزّه .

(الثالثة) أن يكتب في الدعاء للكتوب إليه ، أدام الله عزّه .

(الرابعة) أن يكتب أعزّه الله .

(الخامسة) أن يكتب أكرمه الله وأدام كرامته .

(١) أي أسم الوزير في الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزّه أي في الدعاء للكتوب إليه الذي هو في الجانب الأيمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتَبَ أكرمهُ اللهُ ، وفي ذلك يَكْتَبُ اسمُ الوزيرِ في الجانب الأيسر .

(السابعة) أن يُكْتَبَ أبواه اللهُ ، ولا يذكرُ اسمُ الوزيرِ في هذه المرتبة وما بعدها .

(الثامنة) أن يكتب حفظه اللهُ ولا يكتبُ اسمُ الوزيرِ .

(التاسعة) أن يكتب عافاه اللهُ .

وعلى نحو ذلك جرى أمرُ حاجبِ الثعالبِ في "ذخيرة الكتاب" فقال : إنه يُبدأ في الجانب الأيمن بذكر المكتوب إليه ونوعيته وكنيته واسمه وأسمِ أبيه ونسبه المشهور من ناحيته أو قبيلته أو بلده ؛ ثم يذكر المكتوب عنه في الجانب الأيسر باسمه وأسمِ أبيه ؛ فإن كان الكتابُ عن الوزير ، ذكر كُنيتَه في الجانب الأيسر ، إن كان الإمام أمره أن يكتب متكنياً أو متلقباً .

وقد سبق في الكلام على أصول المكتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان وقال : الصواب أن يكتب إلى أبي فلان . قال في "صناعة الكتاب" ويكتب : لأبي الحسن ، فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت أبو الحسن على بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ ، وإن شئت خفضت على البديل ، فإن لم تُعد الكنية كان الخفض أحسن فقلت لأبي الحسن ؛ ثم قال : وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن ، كتبت لأبوي الحسن إذا لم يكن لهما ولدٌ يقال له الحسن ، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبوي الحسنين . قال : والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضاً ، لأن المعنى للذين يقال لكل واحد منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكتنيان بأبي الحسن : لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة

من قال جاءني أبك ، والأصل فيه لأبي الحسن سقطت النون للإضافة ، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء ، الأصل لأبي بكسرها أيضا ، سقطت النون للإضافة على لغة من قال : جاءني أبوك يعني بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر ، كما يقال لفتى الحسن .

قال في "ذخيرة الكتاب" وإن كان الكتاب إلى آتين وكنايتهما مختلفة : كأبي جعفر ، وأبي منصور ، وأبي بكر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كنايتهم متفقة مثل أن تكون كنية كل منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العنوان من المرئوس إلى الرئيس . قد ذكر «النحاس» عن الفضل بن سهل أنه إذا خُوطب الكُفء يجعلني الله فداءك بالصدر الكامل ، فأحسن دُعائه للعنوان ، أعزّه الله وأطال بقاءه ، وذكر أنه إذا كُتِبَ بأعزّه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره . قال في "صناعة الكتاب" ولا يتكئ الرجل في كُتبه ، إلا أن تكون كنيته أشهر من اسمه فيتكئ على نظيره ، ويتسمى لمن فوقه ، ثم يلحق المعروف بأبا فلان ، أو المعروف بأبي فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما تُوجب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوان من الرجل إلى آبنه ومن في معناه ، قد ذكر النحاس أنه يُعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته .

(١) كذا في الأصل ولم نعث في كتب النحو على هذه الثقة ولعله تحريف من الناسخ والأصل جاءني أبك

يعني بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله إلى آتين فأكثر وكنايتهم ... فتأمل .

الحالة الرابعة - أن يكون المكتوب إليه امرأة . قال في "صناعة الكتاب" :
 إن كان المكتوب إليه أم الخليفة ، كتب : للسيدة أم فلان أمير المؤمنين ، وإن
 كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهوداً إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أم فلان وليّ
 عهد المسلمين ، وإن كانت امرأة رجل جليل ، كتب للحرّة أم فلان ، ولا يكتب
 اسمها ، ويدعو لها بالدعاء الذي يكون خطاباً به .

هذا ما كان الحال عليه في زمن النحاس في خلافة الرازي وما حوّلها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في "ذخيرة الكتاب" أن الحال تغير عن ذلك عند
 تغير المكتبات إلى المجلس العالى ، والحضرة السامية ، وما يجري مجرى ذلك ؛ ثم قال :
 فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوته ، فيجب
 أن يكتب عن نفسه بالملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم . وإذا كتب : الحضرة
 السامية أو العالية ونعوتها ، فيجب أن يكتب عن نفسه الخادم أو خادمها أو عبدها .
 وإذا كتب : حضرة سيدنا ونعوتها ؛ فيجب أن يكتب عن نفسه خادمها أو خادمه
 وعبدها أو عبده . وإذا كتب : حضرة مولانا ونعوته ، فيجوز أن يكتب عن نفسه ماشاء
 من ذلك . قال : وفي الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبته ،
 بل له أن يكتب عن نفسه بما شاء مما تقدم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتب من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكتب : حضرة
 القلانى بغير مولاي - ودونه : القلانى بغير حضرة ، وكنيته ونعوته واسمه وأسم أبيه ،
 ويكتب عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروف مشهور ، ويزيد
 في اسمه وأسم أبيه ألفاً ولاماً ، إن كانا مما يجوز أن يزداد [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس
 إلى الرئيس وكتب عن نفسه بما كتبه ، فيجب أن يحذف من اسمه وأسم أبيه الألف

واللام . قال : وللرئيس أن يكتبَ عن نفسه بما شاء من الكفايات التي تليق بمنصبه وأسمه وأسم أبيه ونعته المقترن بأمر المؤمنين ، مثل ناصر أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصد الثاني

(في [رسوم] إخوانيات أهل المغرب)

وعادتهم فيها أن يكون الخطابُ فيها خطابَ المُواجهَةِ ، مثل : أنتَ ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربما خاطبوا الواحدَ بجمع تعظيماً للكتوب إليه ، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" ولا يُعرف ذلك لغيرهم ، وربما وقع الخطابُ عندهم على الغيبة أيضاً ، وفيه جملتان :

[الجملة الأولى]

(في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في ابتداء المكاتبات ، وهي على طرق)^(١)

منها — أن تُفتتح المكاتبة بالدعاء : إِمَّا بِطُولِ الْبَقَاءِ كَمَا كَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ :
أطال الله بقاء سيدي الأعلى ، ومفرعي في الجلى ، ممتمةً عليه النعم ، ميسرةً لديهِ
الهيم ، أقول بدءاً أيديك الله : لقد أعنني الناظرين سنالك ، كما أعيا الطالبين مسعالك ،
ولئن قُتَّ الجميع ، لقد أبدعت الصنيع ، فلا غايةً لتهجد إلا وأنت آتياها ، ولا ذروةً لعزِّ

(١) بيض لذلك في الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إلّا ومن ظنّك بأنّها ؛ لك الهدى والناس ضلال ، وفي يدك الضوء والكُلُّ أغفال ؛
وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة : أطال الله بقاء الأخ السرى الكريم ، الحرى
بالتقديم والتعظيم ؛ أوحّد فرسان الإحسان ، وواحد عقبان البيان ؛ ولا زال قلمه جالى
بدائع السحر ، جالب بضائع الشجر ، مغبوط السبق ، عند كلال جياذ الكلام ، مبسوط
الرزق ، فى حال إملاق الأقلام ، إن ذكرت - أبقاك الله - البلاغة فمن على مورها
يساجلك ، أو قيل فى شريعتها يُنبت على خمس فإنما هى أناملك ، صفوها متفجر
من معينك ، وشاؤها لا مطمع فيه لغير يمينك ، وشاؤها تستوفيه فى هيئة ممهل ،
وجناها ترعاه بعزة أحي مهمل ، فقد صرت أمام أمها ، لا بل إمام أمتها ، والراضع
لرسلها ، بل الواضع لأصلها . فهينتا لها أن كنت سابق غايتها ، وسائق رايتها ، وبشرى
لمهريق وشسته براعتك ، ومشته براعتك ، لقد أوتى من الحسنى ما تشتره القلوب
بجباتها ، وتشتهه النفوس أكثر من حياتها ؛ وإن الأمر كذا وكذا .
وإما بالبقاء المجرد .

كما كتب أبو محمد بن عبد البر ، إلى بعض أرباب الأقلام :

أبى الله الشيخ فى عزّة تالده طارفه ، وسعادة لاتزال طارقة بكلّ عارفه ؛ ولا زال
قاصده مخنيا من رفته بروض ناضر ، ومحوما من مجده على مسرة سمع وقرة ناظر ؛
والأمر كذا وكذا .

وإما بالدناء للحضرة .

كما كتب أبو زيد الغازى :

أبى الله حضرة السيد ناصرة أذواج السعد، عاطرة أفواح المجد، ساكبة أنواع
الحد، صائبة سهام الحد، ولا زالت مغشية الحناب، بوفد الحمد، موشية الإهاب،
بسودد الحقد. الظل إذا رحب، ازدحم عليه الضاحون، والورد إذا عدب،
ازدلف إليه أمتاحون، وظل الحضرة المكرمة كئيف الأفياء، ووردها مغن عن وسائط
الأرشيية والدلاء، فلا غرو أن تضرب إليها أجاد الإبل، وتغص بالوفود عليها أفواه
السبل، والله تعالى يعين الحضرة المكرمة على الأيادي تسوغها، والآمال تبلغها،
بمنه. وإن الأمر كذا وكذا.

وإما بالدعاء للحل.

كما كتب أبو المطرف بن عميرة في صدر شفاة.

أبى الله المحل الأعلى حرماً يتعاماه الأنام، وعلما تتضاءل له الأعلام، ولا زالت
آراؤه الناجحة، تستمدتها العقول والأفهام، ومساعيه الصالحة، يشكرها الله
والإسلام. إن مجدا سامى الكواكب بمنواه، وسارى الغر السواكب في جدواه،
لداع إلى استلام كفه العلية، وإلاستهام على وصفه الذى له حقيقة الأوليه، وكيف
لا وقد أجار من الدهر المخيف، وصار قبلة كل داخل تحت التكليف، يعيد متى
أخطاها صلاة الأمل، ويرى الاجتهاد فى طلبها من راحة العمل، وإن الأمر
كذا وكذا - إلى غير ذلك من أنواع الدعاء.

ومنها - أن تفتتح المكتبة بلفظ « كتابى » كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى
بعض العلماء.

كتابى إلى سيدى - حفظه الله مقبياً وسائراً، وأبقاه لغر البيان ساحراً، وعن وجه
الإحسان سافراً، ولا زالت آدابه تُشرق وتروق ساهراً، ومحاسنه كالشمس إذا لم

يَلْقَى نَوْرها سَاتِرا - من فلانة - وَالوَدَّ رَوْضَةً مَطْلُوله ، وَرِحْمٌ مَوْصُوله ؛ خَلَصَ من
القلب إلى حَبْتِه ، وَأَخْتَصَّ منه بما ليس لأحيدٍ من أَحْبْتِه ؛ وَأَنَارَ شَوْقا على قَدْرِه ،
وَهَوَى نَوَى في صَدْرِه ؛ وَأَسْقَى على عَهْدِ أَصْبُو إلى ذِكرِه ؛ فَاتٌ ، وَرَدُّ الْفَاتِ يَعْسُرُ ،
وَقَصْرٌ ، وَأَيامُ السُّرورِ تَقْصُرُ ؛ كَأَنَّما كان قِراءَةَ سَطْرٍ ، أو إِغْفاءَةَ بَحْرٍ ؛ أو زِيارَةَ
مُجْتَازٍ ، أو عِبارَةَ ذِي إِيجازٍ . فَمَنْ لَنَا بِذَلِكَ الأَرَجِ الذِّكْرِ ، وَالأَزْيَجِيِّ يَرْتاحُ لما يَخْتَرَعُ
أو يَحْكِي ، وَمَتى نُفوزُ بِمن يَنْحَتُ من صَخْرٍ ، وَيُزِرِّي بِأبي صَخْرٍ ، وَيَعْرِفُ من بَحْرٍ ،
وَيَجْرِي مع أبي بَحْرٍ ؛ وَيَجْمَعُ إِسنادَه بين الجامع والمُسْنَدِ ، وَيُنشِدُ من بدائع حَفِظَه
ما يُؤَثِّرُ في المُسْنَدِ ، شِجرَةَ عِلْمٍ تُؤْتِي كُلَّ حينٍ أَكْلامَها ، وَمُزْنَهُ فَضْلٌ تَجوَدُ ما نَحْشِي بِمُجْلَمِها ،
وَضالَّةٌ أَدِيبٌ يَقُلُّ لها أن يُجْعَلَ القارِثُ جُعْلَمَها ، فَاتٌ عَنَّا ، فَاتَعَبَ وَعَنَى ، فَهَلْ مَعِينٌ
على دَوْلِهَ إِذْ نَحْنُ لِنُسْعِنَا ، أَوْ سَبِيلٌ إلى ما يَفِيدُنَا من الكِلامِ فَتَحْنُ في حروفِ تَجِيٍّ ، بِغَيْرِ
مَعْنى ، وَإِنْ الأَمْرُ كَذَا وَكَذا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفاززي .

كتبتُ - كتب اللهُ للأخِ الأَبْرَّ الأَوْفَى ، وَالفاضِلِ الذِي أَنارَ ماثِرِهَ لِأَتْحَفِي ، مَجْداً
هامِي الرِّبابِه ، سامِي الرِّبابِه ، وَذِكرًا مَتَحَلِّلاً بِالإِطالَةِ وَالإِطابِه ، وَقَرَنَ أَعْمالَهَ بِالقَبُولِ
وَدَعَوائِهَ بِالأَسْتِجابِه - من مَكَانِ كِذا ، وَلا جَدِيدٌ يُبَيِّنُ اللهُ تَعالَى إِلا صُنْعُهَ الجَميلِ ،
وَلُطْفُهَ العَرِيضِ الطَويلِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينِ ، حَمْدًا يُؤمِّنُ آلاءَهَ من التَغْييرِ
والتَبْديلِ ، وَالأَمْرُ على كِذا وَكَذا .

ومنها - أن تفتح المكتبة بكفاية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء .

الجناب الرياسي أدام الله أعتلاءه، وحرس مجده وسنائه .

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب بحلاله من التعظيم،
ولفضله من التقديم، ولآلائه من الشكر العميم؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري .

السيد العماد، والماجد الجواد، والملجأ المنيع المرع لمن يرتاع أو يرتاد، أدام الله
علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بذر الجملة الشريفة، وفرغ الدوحة المنيفة، من
آل قيس الجود، وقيل بني قيسلة الباذلين الموجود، أولئك الذين عز المهاجرون
بإخائهم وسخائهم، فلا غرو أن تكلف الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه،
ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتتحة، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير
أبي زكريا بن إسحاق .

الأمير الأجل الهام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهر بالضرورة
مضاهه وأعتزاه، راسخ شرف التجار، ثابت أصل الفخار، مستهل آلاء السحب
الغزار، والعيون إليه ساميه، والهيم إلى مالديه متراميه، والصدور بالأمل فيه تُشرح،
والنفوس الحرة إلى استرقاقه تطمح، ولا غرو والكرم من بعض شيمه، والغنى
من فضل ديمه - أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتترامى نحوه ركائب
الرجاء من كل تربه . ومخاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما تعلمه من كبير قدره،
وتوجبته لعالي أمره، وتبيح به من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون :

العِمَادُ المذَنَّبُ، والمَلَأُذُ الذي بولائه أَفخَرَ، جعل اللهُ قَدْرَهُ عَالِيَا، ودَهْرَهُ بِحَاسِنِهِ حَالِيَا، ولا زالَ لِلنَّعْمِ قَابِلًا ولِلأَمْرِ [سواء] قَالِيَا، كَتَبْتُ من مَكَانِ كَذَا، وَالوُدَّ حَالِيَةً يَتَأَلَّقُ رَوْتِقُهَا، وشَجَرَةٌ لا يَسْقُطُ ورَقُهَا، وإِنها مَغْرُوسَةٌ، لا تَقْبَلُ بَذْرَ العَوَادِي، ومَغْرُوسَةٌ، لا يَقَعُ عَلَيْها من يَقَعُ في شَجَرِ الوادِي، والأمرُ كَذَا وكَذَا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعا موصيا :

المحلُّ الأعلَى - ضاعفَ اللهُ أنوارَ هِدَايَتِهِ، وأبقَى على الجَمِيعِ آثارَ عِنَايَتِهِ - مستودِعُ الكَمالِ، ومَشْرَعُ الأَمالِ، ومَقْعَدُ أربابِ السُّؤالِ، ومَضْعَدُ الصالِحِ من الأَعْمالِ، وإِن فلانا من أمره كَذَا وكَذَا .

وكما كتب ابن أبي الحِصَالِ :

الشيخُ الأَجَلُّ أدام اللهُ عِزَّهُ ونُعماءَهُ، ووصلَ رِفْعَتَهُ وَعِلاهُ بِتَقْواهِ، يُجِلُّ قَدْرَكُمْ، ومِلَّتْ رِجْلُكُمْ وشُكْرِكُمْ، العارِفُ بِحَقِّكُمْ، فلانٌ؛ فكتبَ يَعظَمُكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ خيرا مَسْتَمْتِزًا، وِرْصًا على ما تَرْضَوْنَهُ نائِبًا مَسْتَقْتِزًا، من مَكَانِ كَذَا، على الرِسمِ المَلْتَمِزِ من تَوْفِيرِ عَلائِكِ، والشُّكْرِ لا لائِكِ، والرَّبُّ تَعَالَى يُنْهَضُ بِحَقِّكُمْ الأَزمِ الأَزمِ، وَيَصِلُ حِراسَةَ مَجْدِكُمُ الأَثَلِدِ الأَقْدَمِ؛ بِمَنَّةٍ وَقَضَلِهِ، وإِنَّ الأمرُ كَذَا وكَذَا .

وأعلم أنه ربما أتى بعد ذكر النعوت بالسلام، ثم بحمد الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم الرضا عن الخلفاء الماضين والخليفة القائم . وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحدين أتباع «المهدي بن تومرت» كما كتب أبو محمد بن عبد البر :

الشيخ الأجل ، أدام الله عزته ، ووصل كرامته ورفعته . مجل قدره ، وملتزم بره
 وشكره ، المسرور بما يجريه إحسانه من طيب ذكره .
 سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم ، وعلى آله -
 والرضا عن الإمام المعصوم مهديه ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين - والدعاء لسيدنا
 الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين ، بالنصر الأعز ،
 والفتح الأتم الأوفى ، فكتب كتب الله لكم مجدا لا يهوى شره ، وسعدا لا يني
 طرفه ، من فلانة - حرسها الله - ولا ناشئ عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير
 الأكل ، والصنع الأجل ، والحمد لله رب العالمين كثيرا ، وإن الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب : كاتب ابن
 الأحمر بالأندلس على القرب من زماننا .

ومنها - أن تفتح المكتبة بالخطاب ، إمام مع حذف ياء النسب أو مع إثباتها .
 أما مع حذفها ، فكما كتب أبو المطرف بن المنثري :

سَيْدِي وَمَفْخَرِي ، وَعِصْمَتِي وَوَزْرِي ، وَرُكْنِي وَعِمَادِي ، وَذَخِيرِي
 وَعَتَادِي ، أَبْقَاكَ اللَّهُ نَاهِجًا سُبُلَ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ، مُوقِفًا حَوَادِثَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي .
 كُنْتُ أَعَزُّكَ اللَّهُ عَنْ عَهْدٍ حَسَنٍ لَكَ قَدْ أَحْكَمْتَ مَعَاقِدُهُ ، وَوَدَّ مَحِيضَ فَيْكَ قَدْ صَفَتْ
 مَوَارِدُهُ ، وَنَفْسُ تَرْتَاخٍ لَذِكْرِكَ ، وَلِسَانٌ لَاهٍ بَيْنَ مَحَاسِنِكَ وَعُغْلَاكَ ، قَدْ أَنْفَسَ فِي نَشْرِ
 فَضَائِلِكَ مِيدَانُهَا ، وَفَاقَ فِي وَصْفِ قَوَاضِلِكَ بَيَانُهَا ، فَهِيَ تَنْظِمُ عُقُودَ مَجْدِكَ ، عَلَى أَجْيَادِ
 شُكْرِكَ ، وَتَحْوِكُ مِنْ بُرُودِ تَقْرِيفِكَ وَتَسَائِكَ ، خِلْعًا لِمَجْدِكَ وَسَائِكَ ، وَشَيْهًا لِلذِّكْرِ
 الْخَطِيرِ ، وَطِرَارُهَا التَّرْفِيعِ وَالتَّوْقِيرِ ، تَكْسِرُ عَصَبَ عَدْنٍ ، وَتُعْفِي عَلَى وَشَى الْيَمَنِ ؛

وَتُطَلَّعُ مِنْ رِيَاضِ أَخْلَاقِكَ ، فِي مَنَابِتِ أَعْرَاقِكَ ، مَا يُزِيرِي بِنَسِيمِ الْمِسْكِ تَضْوَعُ
عَرَفَهُ وَأَنْتَشَارُهُ ، وَيُرِي عَلَى حُسْنِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ طَوَالِيعَ أَزْهَارِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَقَ
بِمَنْ جَمَعَ اللَّهُ الْعَالَمَ فِيهِ ، وَحَرَسَ مَعَاهِدَ الْبِرِّ بِكَرِيمِ مَسَاعِيهِ ، أَنْ لَا تُعْزِي خَلَّةَ نَيْبِلَةٍ إِلَّا
إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْصِرَ مَنَقِبَةَ جَلِيلَةٍ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا تُؤْثِرُ مَأْثِرَةَ نَهَيْسَةٍ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُتَمَتِّسَ
سِيرَةً جَمِيلَةً إِلَّا مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَجِي هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْبَدِيدَةَ ، وَالْحَلَالَ
الرَّفِيعَةَ ، مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ وَنَوَازِلِ الْغَيْرِ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَيَصْرِفُ عَنْهَا مَعْرَةَ
كُلِّ خَطْبٍ وَشَدَّةٍ ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وَأَمَّا مَعَ إِثْبَاتِ يَاءِ النَّسَبِ ^(١) ، فَكَمَا كَتَبَ أَبُو الْمُطَرِّفِ بْنِ الدَّبَّاعِ إِلَى بَعْضِ الْأَدْبَاءِ

عِنْدَ وِرْوَدِهِ إِلَى بِلَادِهِ :

يَا مَوْلَايَ ، وَسَيِّدِي ، الْعَظِيمَ شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ ، الْعَالِيَّ صِيبَتُهُ وَذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ
فِي عِزٍّ لَا تَنْقِصُ عُرَاهُ ، وَحِرْزٍ لَا يُسْتَبَاحُ حِمَاهُ ، لَمْ أَزَلْ - أَيْقَا اللَّهُ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ -
تَسْمُوبِي إِلَى الْكِتَابَةِ هِمَّةً ، وَتَتْرَامِي بِي إِلَى الْبَلَاغَةِ عَزْمَةً ، حَتَّى تَذَلَّتْ لِي صِعَابُهَا
فَامْتَطَيْتُ ، وَتَسَهَّلَتْ لِي حُزُونُهَا فَارْتَهَيْتُ . وَلَمَّا رُفِعَتْ لِي عَنْ غَرَائِبِهَا الْأَسْتَارُ ،
وَعَلِمْتُ مِنْ غَوَامِضِهَا الْأَسْرَارُ ، وَفُزْتُ بِالْمَعْلَى مِنْ سَهَامِهَا ، وَالْمَوْفُورُ مِنْ أَقْسَامِهَا ،
جَعَلْتَ بَأْيَ أُمَّتِي وَأَهْتَدِي ، وَإِلَى أَى رُؤْسَائِهَا أَنْتَسِبَ وَأَعْتَرِي ، نَاطِرًا فِي ذَلِكَ
إِلَى شَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَمُتَدَاوِلِ الْآثَارِ ، فَوَجَدْتُ الْأَلْسِنَةَ إِذَا تَنَاوَلَتْ صِفَةَ سِوَاهُ ، تَحَلَّتْ
بِعَضِّ حِلَاةٍ ، أَوْ أَرْقَنَتْهُ إِلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْعُلِيَاءِ ، تَمَثَّلَتْ بِهِ فِي الرَّفْعَةِ وَالسَّنَاءِ ، ثُمَّ تُفْرَدُ
أَعْرَهُ اللَّهُ دُونَهَا بِالْفَهْمِ الْمَيِّتِينَ ، وَالْعِلْمِ الْمَشْهُورِ ، وَالْحِلْمِ الْمُتَعَارَفِ ، وَالْفَضْلِ الْمُتَوَاصِفِ ،
وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَالْحَلَالَةَ الْمُتَنَاهِيَةَ . فَكُلَّمَا رَأَيْتُ مُحَاسِنَ مَجْدِهِ تُجَلِّي ، وَسُورَ فَضْلِهِ

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فأنامل .

تُتلى، هَمَمْتُ أَنْ أَطِيرَ إِلَى حَضْرَتِهِ بِجَنَاحِ الْإِرْتِيَاكِ، وَأُرْتَكِبَ إِلَى أَفْقِهِ نَوْرَهُ اللَّهُ أَعْنَاقَ
الرِّيَاحِ، وَالْأَيَّامُ تَقْطَعُنِي بِمَصَائِبِهَا، وَتَقَيِّدُنِي بِأَحْدَاثِهَا وَبِحَوَائِبِهَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ أَنْ
يَرِدَ هَذَا الْأَفُقَ فَأَفْرِخَ الْأَمَلَ بِغَيْرِ نَصَبٍ، وَأُنَالَ الْبُغْيَةَ بِغَيْرِ طَلَبٍ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَيْلَ رَائِدًا * كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَيْلِ

ومنها - أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة :

تُحْضُ الْأَبْنَ حُبَّةً وَمِقَّةً، وَالْعِبَادَ أَعْتَدَادًا بِجَانِبِهِ وَتِقَّةً، حَفِظَ اللَّهُ نَجَابَتَهُ، وَجَعَلَ
لِدَاعِي السِّيَادَةِ تَلِيَّتَهُ وَإِجَابَتَهُ، تَحِيَّةَ الْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِمِ، وَالْمَوَدَّةَ الْخَالِصَةَ الْمُتَحَكِّمَةَ،
وَرَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتِهِ، مِنْ مَكَانٍ كَذَا، وَالْوُدَّ كَلْفًا، وَالْعَهْدُ بِالصَّوْنِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ
مَكْتَنَفًا، وَتِلْكَ الذَّاتِ السَّيِّئَةَ ذَخِيرَةَ جَلِيلَةٍ، وَأَمَلٌ لِأَخْطَى مِنْهُ نَحِيلُهُ، وَهَبَةٌ يُكْذِبُ
مَعَهَا أَنْ يُقَالَ الْإَيَّامُ نَحِيلُهُ . وَكَمَا نَظَنُّ أَنْ يَنْشَأَ الْكَرَمَ صَمَّ صَدَاهُ، وَمَرَبَعَ الْفَضْلِ
عَاصِبٌ بَرْدَاهُ، وَغَائِبٌ عَنِ الرَّشْدِ أَدَاهُ، وَتَقُولُ : مَا كُلُّ مَنْ أَقْعَدْتَهُ الْعَيْلَةَ عُمَلِيهِ،
وَمَتَى يَفْطِنُ عَمِيرُ عَمْرٍ وَبَحِيلُهُ، فَكُفَّا بِكُفَاتِهَا، وَهَلْ سَوَى قَيْسٍ لِرِحَى الْعُجُوزِ عَدِمَتْ
جَدَاتِهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مِنْ طَرَفِيهِ، الْمُسْتَقْبِلِ آثَارِ سَلْفِيهِ، حَفِظَ اللَّهُ الْأَلْفَاظَ
وَالْأَلْسِنَةَ، وَحَمَلَةَ الْأَقْلَامِ وَالْأَسِنَّةَ .

وكما كتب أبو زيد الفازازي .

السَّلَامُ الْكَرِيمُ الْعَمِيمُ، عَلِيُّ الشَّيْخِ الَّذِي أُثْبِتُ عَلَى وُدِّهِ فَلَا أُنْحَوِلُ، وَأُطْنِبُ
فِي حَمْدِهِ فَلَا أَسْتَعِيرُ وَلَا أَتَأَوَّلُ، وَأَتَعَلَّلُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ عَدَمِ مَرَاتِهِ وَلَا أَمْرِيًّا أَتَعَلَّلُ،
فَلَانَ - أَدَامَ اللَّهُ رِفْعَتَهُ، وَحَرَسَ مِنَ الْأَسْوَاءِ مُهْجَتَهُ . كَتَبَ أَخُوكُمْ، الْبَرُّ بِكُمْ، الشَّيْقُ

(١) كذا في الأصل ولم تقف عليه في غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكرُ لِحَسَابِنِكُمْ، المسرورُ بما سَمِعَهُ من صَلَاحِ أحوَالِكُمْ، فلان، ولا جَدِيدَ
بِمَنْ اللهُ تَعَالَى إِلا الْخَيْرُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أن تُفْتَحَ المَكْتَبَةُ بِالكَايَةِ عَنِ المَكْتُوبِ عَنْهُ .

كما كَتَبَ أَبُو بِنُ أَبِي الحِصَالِ إِلَى بَعْضِ الكُتَّابِ يَسْأَلُهُ حَاجَةً :

مَعْظَمَ الشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي فلان، وَجِلَّةَ المَكْبَرِّ لَهُ فلان، أَعْلَى اللهُ قَدْرَكُمْ، وَأَوْزَعَ
أَوْلِيَاءَكُمْ شُكْرَكُمْ، أَيَادِيكُمْ أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَكُمْ أَوْكُفْ مِنَ العَمَامِ، وَنِعْمَكُمْ أَلْزَمُ لِلأَعْناقِ
مِنَ أطْوَاقِ الحَمَامِ، وَإِنَّ وَلِيَّكُمْ وَمَعْظَمَكُمْ يَحْتَاجُ إِلَى كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أن تُفْتَحَ المَكْتَبَةُ بلفظِ من فلان .

كما كَتَبَ [بَعْضُهُمْ] مِنْ فلان، إِلَى الشَّيْخِ الحَافِظِ الأَكْرَمِ أَبِي فلان : أَدَامَ اللهُ
كَرَامَتَهُ بِنَقْوَاهُ، فَالْكَتَابُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ أحوالًا صَالِحَةً، وَخَيْرَاتٍ عَلَيْكُمْ غَادِيَةً
رَائِحَةً، مِنْ مَوْضِعِ كَذَا، وَالبَرَكَاتُ مُتَوَافِرَةٌ، وَالخَيْرَاتُ مُتَظَاهِرَةٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى،
وَإِنَّ الأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أن تُفْتَحَ المَكْتَبَةُ بلفظِ إِلَى فلان .

كما كَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى وَالِدِهِ .

إِلَى مَوْلَايَ المَعْظَمِ وَأَبِي، المَتَكَفِّلِ بِتَعْلِيمِي وَحُسْنِ أَدْبِي، أَبْقَاهُ اللهُ نَاطِرًا إِلَى
بَعِينِ رِضَاهُ، وَأَعَانِي عَلَى الجُرَى فِي رَهِّ عَلَى حُكْمِ الشَّرْعِ القَوِيمِ وَمُقْتَضَاهُ، مِنْ أبنِكَ
المَعْظَمِ لَكَ، بَلْ عَبْدِكَ، المَتَبَلِّغِ إِلَى مَا يَصِلُ مِنَ الأَنْبَاءِ الكَرِيمَةِ مِنْ عِنْدِكَ، المُوَاصِلِ
المَسْعَى فِي شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ، فلان : بِأبي كَتَبْتُهُ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ لِيَانًا مِنَ العَيْشِ
وَخَفْضًا، وَجَمَعَ بَعْدَ الأَفْتِرَاقِ بَعْضًا مِنَّا وَبَعْضًا، وَيَسْرَى بِطَوْلِهِ وَمَتَّهُ أَنْ يَصْفَحَ
عَنِّي وَأَنْ يَرْضَى، مِنْ مَوْضِعِ كَذَا، وَلا جَدِيدَ إِلا نِعْمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تُرَاحِ

وَتُعَادِي، وَتَجْرِي الخَوَاتِيمُ مِنْهَا عَلَى حُكْمِ الْمَبَادِي، وَشَوْقٌ إِلَيْكُمْ يَعْمُرُ أَحْنَاءَ ضُلُوعِي
وَفُؤَادِي، وَيَحْسِمُ عَنِّي قَطِيعِي دَمِي الْهَتُونِ وَسَهَادِي، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ يَسَّرَ آقْضَابَ
عُزْبَةِ النَّوَى، وَيُرِيحُ النَّفُوسَ مِنْ مُحْرِقِ اللَّوْعَةِ وَلَا عِجَابَ الْجَوَى، وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا.

المهيبع الثاني

(في الأجوبة)

(وهي على ما تقدم في أجوبة المشاركة من أنها على ضربين)

الضرب الأول

(أن يفتتح الجواب بما يفتتح به الابتداء، ثم يقع التعرض

إلى وُصول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجي :

وَعُدُّكَ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّكَ - دِينٌ، وَقَضَاؤُهُ شَرَفٌ وَزَيْنٌ، وَمِثْلُكَ مِنْ نَحْلِي
بِمَحَاسِنِ الشِّيمِ، وَزَاخَمَ فِي السِّيَادَةِ بِالْمُنْكَبِ الْعَمِّ، وَحَفِظَ الْعَهْدَ لِمَا أُضِيعَ، وَأَشْتَرَى
الْمَجْدَ بِمَا بِيَعُ، وَالتَّرَمَ لِلْوَفَاءِ شَرْطًا لَا يُفْسَخُ، وَرَأَى شَرْعًا لَا يُنْسَخُ، وَوَصَلَ كِتَابَكَ الْعَزِيزُ
فِي مَعْنَى كَذَا وَكَذَا.

الضرب الثاني

(أن يفتتح الجواب بورود الكتاب وُصوله ابتداء)

كما كتب ابن أبي الخصال :

وَرَدَّ كِتَابُكَ فِي أَمْرِ فُلَانٍ يَقْرُضُ الْجَمَلَ عَلَيْهِ فِي النُّفُوزِ لَوِجْهَتِهِ، وَالتَّقَدُّمُ إِلَى رُتْبَتِهِ،
وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا عَوْنٌ وَإِنْجَادٌ، وَطَاعَةٌ وَأَتْقِيَادٌ، غَيْرَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا.

الجملة الثانية

(في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهي على أساليب)

منها - أن يُحتم الكتاب بالسلام المجرد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجي في خاتمة كتاب :

وأقرأ عليك سيدي ، وأسنى عددي ، أجزل السلام وأخفله ، وأتمه وأكمله .

ومنها - أن يُحتم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرف بن الدبأغ في خاتمة كتاب :

والله لا يُخلى مولاي من عبدٍ يسترِّفه ، ومنعم يُنعم عليه [بما] يستحقه ، وجميل يُؤليه ، وصنع يُسديده ، بمنه وجميل صنعه .

ومنها - أن يُحتم بذكر التودد والمحبة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب في آخر كتاب :

وإن لم يكن لي من الحق ما لا أتبسّط به عليه ، فلي من الود ما أمث به إليه ،
فحسبي به سلماً إلى فضلك ، وذريعة إلى مجديك ، إن شاء الله تعالى والسلام .

ومنها - أن يُحتم بإستراحة النظر في أمر المكتوب عنه .

كما كتب أبو المطرف بن المنثي في خاتمة كتاب :

ولك الطول العام ، والفضل الزاهر ، في اعتبار أمرى ، وتحقيق خبرى ، والسلام ،
إلى غير ذلك من الخواتم التي تستدعيها المكاتبة وتستوجبها المقاصد ، وفيما ذكر
من الصدور والخواتم ابتداءً وجواباً مقنع لمن تأمل ، والله المستعان في الأمر كله .

المقصد الثالث

(في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثة مصطلحات)

المصطلح الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية وماقاربها مما جرى عليه ابن عبد كان وغيره، وفيه ثلاثة مهاميع)

المهيمع الأول

(في الصدور، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الابتدآت، ولهم فيه أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بالدعاء، وعليه غالب كتابهم، وهي على أنماط)

منها — الدعاء بطول البقاء وما في معناه .

كما كتب ابن عبد كان في صدر مكتبة : أطال الله بقاءك ، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ؛ وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تتركه الآلاء مكانه ، ولا تُنكر الفواضل محله .

وكما كتب : عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وأنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك السعداء بحفظهم منك .

ومنها — الدعاء بدوام النعمة .

كما كتب : أسبغ الله عليك نعمة الراحنة بنعمة المستظفر، وصانها لَدَيْكَ بإيزاع الشكر عليها ، فلم أرو الله الحمد نعمةً قصدتُ مستقرَّها ، وتَوَخَّتُ وليَّها ، وتمنَّتُ كُفُوها ، إلا نعمتك أكسبتُ أولياءها عِزًّا ونُصرةً ، وملأتُ أعداءها ذلَّةً وِغْضاضةً ، وتمكَّنتُ بحلِّ الصِّيانة والرِّعاية ، وخيمتُ بمستقرِّ الشكر والحمد .

ومنها — أطراح الدعاء بدوام النعمة لتقييدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عزَّ وجلَّ مشوَّنة الدعاء ، لنعمتك بالنماء : لأنها توخَّتُ لَدَيْكَ محلَّها ، فخلَّتْ بفنائك سازه ، مطمئنة قازه ، تستوثرُ مهادها قبلك ، وتستنهيُّ مواردها عندك ؛ ولم تزل نائقةً إليك ، متطلعةً نحوك بما استجمع لها فيك : من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناكها الله متصلةً البقاء بطول مُدَّة بقائك ، ومتحلِّيةً بحسن فنائك ؛ فلا زلتُ لعوارف النعم مستدعيًا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريًا ، وبدوام الحمد لردفها مستمريًا .

ومنها — الدعاء يجعلُ فداك .

كما كتب : جعلني الله فداك ، فإنَّ في ذلك شرفًا في العاجل ، ودُنْحَر العُقْبَى في الآجل ، وخَيْرُ تراثٍ لمخلِّفي من بعدى . دعاءُ أخلصته النية ، وصدَّقته الطوية .

ومنها — استكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلتُ في كُتبي إليك : جعلني الله فداك ، فأكون قد بحسنتك حظَّ إحسانك إليّ ، وحقَّ مفترَضِك عليّ : لأنها تُنَسُّ لا تُوازُن ساعةً من يومك ، ولا تُوازي طرفةً من دهرِك ، وإنما يُعدى مثلك بالأنفيس التي هي أنفُس من الدنيا وأعرَض من أقطار الأرض .

ومنها — تَفْدِيَةُ النِّعْمَةِ إِعْظَامًا لَهَا :

كما كتب : جعلني الله فِدَاءَ نِعْمَتِكَ الَّتِي عَلَتْ ذِرْوَةَ مَسْنَمِهَا ، وَفَاضَتْ دِرَّةُ سَمَائِهَا ، فَعَمَّرْتَ أَقْطَارَ الْآمِلِينَ ، وَنَضَّرْتَ جَنَابَ نَاحِيَةِ الْمُعْتَمِدِينَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَغِبْطَةِ الْآخِرَةِ :

كما كتب : أَسْعَدَكَ اللهُ بِعَوَاقِبِ قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ الصَّلَاحَ فِي دِينِكَ وَالسَّلَامَةَ فِي دُنْيَاكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِكَيْتِ الْعُدُوِّ :

كما كتب : مَنَّ اللهُ بِدَيْكَ مِنْ نَاصِيَةِ عُدُوكَ بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ زِمَامِ وِلَايِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَبَلَّغَكَ مِنْ كُنُتِنَا الْحَالَتَيْنِ مَا يُنْمِي عَلَى تَأْمِينِكَ ، وَيُوفِي عَلَى تَمْنِيكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ :

كما كتب : أَدَامَ اللهُ أُنْسِي بِحَيَاتِكَ ، وَحَرَسَنِي مِنَ الْغَيْرِ فِي نِعْمَتِكَ ، وَأَكْرَمَنِي بِصِيَانَةِ أَيَّامِكَ وَلِيَالِيكَ ، وَأَعَزَّنِي بِذُلِّ عُدُوكَ وَقَمَعِ حَاسِدِيكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِطَيْبِ الْحَيَاةِ :

كما كتب : عِشْ أَطْيَبَ الْأَعْمَارِ ، مُؤَفًّى مِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ ، مَبْلُغًا نِهَائِيَةَ الْأَمَالِ ، مَغْبُوطًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، لَا يَنْقُضِي عَنْكَ حَقٌّ عَارِفِيَةً حَتَّى مُجَدِّدَ لَكَ أُخْرَى أَجَلَ مِنْهَا ، وَلَا يَمُرُّ بِكَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا كَانَ مُؤْمِنًا ^(١) عَلَى أَمْسِهِ مَقْصَرًا عَنْ فَضْلِهِ غَدِهِ .

(١) لعله موفيا تأمل .

ومنها — الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف :

كما كتب : جعلك الله ممن ينظر بعين العدل ، وينطق بلسان القسط ، ويزن
بقسطاس الحق ، ويكيل بميزان الإنصاف .

ومنها — الدعاء ببارزاع الشكر .

كما كتب : وصل الله لك كل نعمة يُنعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها
قاضيها ، ولتزيد إليها داعياً ، ومن الغير مؤمناً ، وللسلامة موجبا .

ومنها — الدعاء للحاج بالبلاغ .

كما كتب : أوطاك الله في مسيرك أوثر المطايا ، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا ،
وأوردك الهداية إلى كريم المشاهدة وزكى المواقف وأولاها بالزفة المقبولة ، والقربة
المأمولة .

ومنها — الدعاء للسافر .

كما كتب : جعلك الله في حفظه وكنفه ، وأحاطك بحيطته ، وجعل سفرك
أيمن سفر عليك ، ورجع لك بدرك الحاجة ، وبلوغ الأمل ، ونجح الطلبة ، ونيل
السؤل .

ومنها — الدعاء بالعافية من المرض .

كما كتب : مسح الله ما بك ، وعاد بالبر عليك ، وعجل الشفاء لك ، ومحص بلواك .

ومنها — الدعاء للولادة .

كما كتب : أجرى الله بالخير يدك ، وصمما (؟) بالعز طرفك ، وأوطأ كل مكرومة
قدمك ، وأطال إلى كل غاية هممك ، وبلغك أقصى محبتك .

ومنها — الدعاء في الأُضحية بقبول النُسك .

كما كتب : جعلك الله بقبول النسيكة والقربان ، فائزاً بالأجر والرضوان ، مُخلصاً
 لله بالإيمان ، في السر والإعلان ، مؤدياً لما أقرضَ عليك ، شاكراً لإحسانه إليك .
 ومنها — الدعاء بالهناء في الأعياد .

كما كتب : عرَّفَكَ اللهُ في هذا العيد المبارك من السَّلامة وعمومِها ، والعارِفةِ
 وشمولها ، والعارِفةِ وسُبُوغها ، والحياطة وكِمالها ، والحماية وجمالها ؛ أفضلَ ما عرَّفَكَ
 في ماضى أعيادك ، وسالِفِ أعوامك .
 ومنها — الدعاء بدفعِ النوايب .

كما كتب : كان اللهُ جاركَ من بَفاعِ الدهرِ ونوبه ، ووليَّ إنعامِ النعمةِ فيما آتاك
 من فضله ، وتطولَ عليك من حُسنِ الحياطةِ لما تولَّأكَ والذَّبِّ عمَّا أفادَكَ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكاتبة بلفظ : كتابي أو كتبت)

فأما كتابي ، فكما كتبَ ابنُ عبدِ كان : كتابي إليك ، وأنا أستعيب الأيام فيك ،
 وأصانعُ الزَّمانَ في تقريبيك ، وريعُ الحوارِ الذي كنا نَسُكُنُ تحتَ ظلاله ، وتنقياً
 بروقِ جماله ، بأجلِّ مُحفِّه ، وأيسرِ ألفه ، وأعدبِ مُشاهدته ، وأصدقِ مُشافهته ، ولعل
 أن يرتاحَ فيشعبَ صدعا ، ويُؤلفَ جمعا .

وأما كتبت ، فكما كتبَ ابنُ عبَّسٍ كان أيضاً ؛ كتبتُ وأنا من حنينِ الصَّبابةِ
 إليك ، وإرزامِ الشوقِ نحوك ، وأليمِ التشوقِ إليك ، ولا يحجُّ اللوعةُ بك ، على ما سألتُ
 الله أن يرحمَ ضعفي ويتصدقَ عليَّ برؤيتك ، ويهبَ لي النظرَ إلى وجهك وجمالِ
 عُمرتك ، التي هي حليفُ الجذل ، ونزْهة الأمل .

الأسلوب الثالث

(أن تُفتَحَ المكتبةُ بِالخطابِ بآنا)

كما كتب : أنا من جُملة صَنَائِعِكَ ، وَحَفَظَةِ وَدَائِعِكَ ، وَشُكْرَةِ إِحْسَانِكَ ،
مَتَى تَصَرَّفْتُ فِي الْبِلَادِ ، فَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِمَعْرُوفِكَ ، وَالْعَائِشُ بِجِدْوَالِكَ ، وَأَنْتَ مَتَرَعُ
هَمَّتِي وَفُرَّةُ عَيْنِي ، وَمَدَارُ أَمَلِي ، وَمَحَلُّ رَجَائِي .

الضرب الثاني

(الأجوبة)

وَأَبْتَدَاؤُهَا إِمَّا كَمَا فِي الصُّدُورِ الْإِبْتِدَائَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ ثُمَّ يَقَعُ التَّعَرُّضُ لُؤُصُولِ الْكُتَّابِ ؛
وَإِمَّا بِأَنْ تُصَدَّرَ بِوُصُولِهِ وَهُوَ الْأَكْثَرُ .

كما كتب ابن عبد كان : وَصَلَ كِتَابُكَ فَدَفَعَ تَبَارِيحَ الشُّوقِ ، وَقَعَ كَاتِبَةَ الْبَيْنِ ،
وَأَطْفَأَ لَهَيْبَ الْحُرْفَةِ ، وَبَرَّدَ حَرَّ الصَّبَابَةِ .

وكما كتب : وَصَلَ كِتَابُكَ مُشْتَعِلًا مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ ، عَلَى مَا يَقْصُرُ فِي جَنْبِ أَيْسَرِهِ
أَعْظَمُ الشُّكْرِ .

وكما كتب : وَصَلَ كِتَابُكَ الْمَصْدَرُ بِجِوَاهِرِ لَفِظِكَ ، وَبِدَائِعِ مَعَانِيكَ ، وَمَحَاسِنِ
نَظْمِكَ ؛ مُسْتَوْدِعًا مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَى حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ إِلَّا بِالْإِعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ عَنْهُ ؛ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ .

المهيمع الثاني

(في خواتم الكتب)

وكان اختتامُ المكاتبات عند أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق من استراحة الرأي : إما بلفظ فإن رأيت :

كما كتب ابن عبد كان : فإن رأيت أن تأتي فيه مؤتلفاً، ما لم تزل تأتيه سلفاً، فعلت . وإما بلفظ فرأيتك .

كما كتب : فرأيتك فيه بما أنت أهله، فإن الرأي [الذي] أنت أهله، فوق ما يلتمسه المُسرف في همته، والمتبسط في أمينته .

وكما كتب : فرأيتك في ذلك بما تقضي به الحق وتصل به الذمام، وتحفظ به الحرمة وتصدق به الأمل، وتقتعد به الصنعة، وتستوجب به الشكر .

المهيمع الثالث

(في عُنوانات الكتب)

ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق : من كتابة إلى فلان من فلان، أو من فلان إلى فلان .

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان . فكما كتب ابن عبد كان : للسيد الذي استعبد الأحرار بفضله .

وكما كتب : لمن قربه يمن وسعادة، ونأيه نكد ومحنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صريع الشوق إليه، وأسير الرقبة عليه .

وكما كتب : ممن لا يمتنى الخير إلا له، إذ كان لا يناله إلا به .

المصطلح الثاني

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية
مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)

القسم الأول — الأبتداء : وليس لمصطلحهم ضابط في الأبتداء ولا في الترتيب
في الرفعة والضعفة ، بل آفتاحاتهم في ذلك متباينة .

فمن ذلك الأفتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم ، والغالب في ذلك
الدعاء للجلوس ، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني : أدام الله أيام المجلس
التي لحسنات المبدل مديله ، ولعثرات المقلل مقيله ، ولمعاطف العزيميله ، ولمعاطف
الفوز مئيله ، ولقداح الحدوى مجيله ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحه ، والآراء
بمراسمه ناجحه ، ومتسائر المقاهر بموالاته راجحه ، وأيدى الآمال لآياديه بمصافاته
مصابحه ، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطاة أعطيائه عابقة فائحه ، وأدعية
الداعين لآيامن أيامه ، المدعين لعهود إنعامه ، طيبة صالحه .

ومن ذلك آفتتاح العماد الأصفهاني في آعتذار تأثر المكاتبات : إن تأخرت
مكاتباتي ، فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مضدود ، واللحم مسدود ، والبلد
محضور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع أستيعابها ، ولا حاجة إلى الإمعان
في ذكرها .^(١)

(١) لم يذكر القسم الثاني وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بيانا نعم يفهم ذلك مما تقدم
في الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات، ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية، مما رتبته القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقر الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم: من فضلاء الكُتاب إلى زماننا، مما هو دائري بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة: من نواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء، ومن في معناتهم: من أعيان الكُتاب ومن نهج نهجهم من أرباب الوظائف)

وفيه متهيبات:

المهيع الأول

(في رتب المكتبات المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقرت عليه الحال من ذلك، وأنبه على ما خالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر: لتحصّل الإحاطة به، ويُعلم ما جرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعل مختاراً يختاره، أو ينسج على منواله؛ منها على وهم من وهم في شيء من ذلك.

وأعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين، تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكتبات:

القاعدة الأولى — فيما يتعلّق بورق هذه المكتبات.

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكتبات: من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير

قَطَعَ الورق المتقدمِ الذكر ، غير أنَّ أعيانَ أهلِ الديارِ المصريةِ يُكاتبونَ في الورقِ المِصرى ، وأعيانَ أهلِ الشامِ يُكاتبونَ في الورقِ الشاميّ : لكثرةِ وجوده عندهم ، والمعنى في ذلك أنَّ كُتِبَ السلطانُ الصادرةَ عنه إلى جميعِ أهلِ المملكةِ من التُّوابِ وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائز أنْ تعلوَ مكتبةُ أحدٍ منهم على مكتبةِ السلطانِ في ذلك .

ثم قد أصطلحوا على أنْ يكونَ في أعلى المكتبةِ عن كلِّ أحدٍ من أعيانِ الدولةِ قبلَ البسملةِ وصلُّ واحدٌ بياضا ، إذ كان أقلُّ ما يُجَعَلُ بياضا في كُتِبَ السلطانُ وصلينِ فاقصروا على وصلٍ واحدٍ ، كي لا يساويه غيره في ذلك . وأصطلحوا أيضا على أنْ لا تنقصَ المكتباتُ المذكورةُ عن ثلاثةِ أوصالٍ : الوصلُ الأبيضُ في أعلى المكتبةِ على ما تقدم ، ووصلانِ مكتوبانِ : إذ لو نقص عن ذلك ، نخرجُ الكتابُ في القصرِ عن الحدِّ فيزدري ، أما لو دعتِ الضرورةُ إلى الزيادةِ على الثلاثةِ لزيادةِ الكلامِ فلا مانعَ منه . وأصطلحوا على أنْ يُتركَ للكتابِ حاشيةٌ بيضاءُ تكونُ بقدرِ رُبعِ الدرَجِ على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضوع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلقُ بخطُّ هذه المكتباتِ ، وكيفيةِ أوضاعها .

قد أصطلحوا على أنْ جميعَ هذه المكتباتِ تُكتبَ بقلمِ الرِّقاعِ على ما تقدم ذكره في الكلامِ على قَطْعِ الورقِ [من] أنْ لقطعِ العادةِ قلمَ الرِّقاعِ . وأصطلحوا أيضا على أنْ تكونَ كتابةُ البسملةِ في أولِ الوصلِ الثاني من المكتبةِ ، وأن يكونَ تحتَ الجلالةِ من البسملةِ لقبُ المكتوبِ عنه المضافُ إلى ملكه أو أميره ؛ فإن كان المكتوبُ عنه من أتباعِ السلطانِ كُتِبَ السلطنةُ وغيرهم من الأمراءِ والوزراءِ ومن في معانهم من رؤساءِ الكُتَّابِ السلطانيةِ ، كتبَ المَلِكِيّ الفلانيّ — بلقبِ ملكه السلطانِ ؛ مثل المَلِكِيّ الظاهريّ ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَلِكِي الظَاهِرِي

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأمراء كإستدَار أمير ونحوه، آنْتَسَبَ في كتابته إلى لَقَب أميره الخاصِّ مما يُضَاف في التَّقْيِيب إلى الدِّين ؛ فإن كان أميرُه لِقَبُه سَيْفُ الدِّين مثلاً، كَتَبَ بَدَلَ الْمَلِكِي الْفَلَانِي : السَّيْفِي ؛ وإن كان لَقَبُ أميره نَاصِرُ الدِّين كَتَبَ النَّاصِرِي ؛ وإن كان لِقَبُه عَلَاءُ الدِّين كَتَبَ الْعَلَائِي ؛ ونحو ذلك . وإذا كَتَبَ تَحْتَ الْجَلَالَةِ من البَسْمَلَةِ الْمَلِكِي الْفَلَانِي ونحو ذلك ، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً ، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بذاتها . وأصطلحوا على أنه كلما دَقَّ الْقَلَمُ وتَقَارَبَتِ الْأَسْطُرُ، كان أعلى في رُتْبَةِ الْمَكْتُوبِ إليه ، وكلما غَلِظَ الْقَلَمُ وتَبَاعَدَتِ الْأَسْطُرُ كان أنْزَلَ في رُتْبَةِ الْمَكْتُوبِ إليه . وأصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السطرُ الأوَّلُ من المكاتبَةِ نَلَوَ الْمَلِكِي الْفَلَانِي وما في معناه ملاصقاً له ، وفيما دُونَ ذلك من المكاتبَات يُتْرَكُ بياضٌ يسير ، ولا يَكْتَبُ فيه شيءٌ ؛ وكأن المكتوبَ عنه يقولُ للمكتوبِ إليه هذا محلُّ العلامة ، ولكنني قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأديباً معك ورفعةً لقدرك ؛ وفيما دُونَ ذلك يُتْرَكُ بياضٌ أوسعُ من ذلك ويكْتَبُ فيه المكتوبُ عنه علامته على ما سيأتي بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى . وأصطلحوا على أنه بعد انتهاء الكلام في المكاتبَةِ يَكْتَبُ "إن شاء الله تعالى" في خَطِّه ؛ ثم يَكْتَبُ التَّارِيخُ في سَطْرَيْنِ : اليومُ والشهرُ في سطر ، والسنةُ في سطر ؛ ثم تَكْتَبُ الْحَمْدُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سطر ؛ ثم الْحَسْبُ فِي سطر على ما تقدم بيانه في الكلام على الْقَوَائِمِ وَالخَوَاتِمِ في المقالة الثالثة .

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَكْتَبَاتِ عَلَى قَسْمَيْنِ :

القسم الأول - الابتداءات ، وهو على أربع درجاتٍ سبق توجيهُ ترتيبها في الكلام على أصول المكتبات ، في أول هذه المقالة

الدرجة الأولى - [المكتبة] بتقريب الأرض ، وهي أعلاها رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِ الزَّمَانِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَكْتَبَةَ بِقَبْلِ الْأَرْضِ مِنْ مَحْتَرَعَاتِ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ مَحْتَرَعَاتِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلِ الْمَكْتَبَةُ بِذَلِكَ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ؛ ثُمَّ سَرَتْ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَاسْتَعْمِلَتْ بَعْضَ الْأَسْتِعْمَالِ ، وَالْمَكْتَبَةُ بِذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْفَاضِلِ الْفَاضِلِ فِي بَعْضِ الْمَكْتَبَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى السُّلْطَانِ «صَلَّاحِ الدِّينِ يُوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ» فِي صَدْرِ كِتَابِ تَهْنِئَةٍ بِمَوْلُودِ :

الْمَمْلُوكُ يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَامِ الْعَالِي النَّاصِرِيِّ ، نَضَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِمَقَامِهِ ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَ الْحَقِّ بِأَنْتِقَامِهِ ، وَلَا أَعْدَمَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ عَقْدَ التِّرَامِيهِ ، بِكَفَالَتِهَا وَمَضَاءِ اعْتِرَامِهِ . ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى كَاتَبَ بِهِ الْآحَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،

وَقَدْ رَتَّبُوا الْمَكْتَبَةَ بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ فِي الْمَصْطَلَحِ الْمُسْتَقَرَّرِ عَلَيْهِ الْحَالُ عَلَى خَمْسِ مَرَاتِبٍ :

المرتبة الأولى - الإتيان بالإنهاء بعد يُقْبَلُ الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لَذِكْرِ دَعَاءِ وَلَاثْنَاءِ ، مَعَ مَرَاعَاةِ الْأَخْتِصَارِ وَعَدَمِ السَّجْعِ وَتَقَارُبِ السُّطُورِ ، مِثْلَ أَنْ يَكْتُبَ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ وَلَقَبِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ الَّذِي تَحْتَ الْبِسْمَلَةِ :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَسؤالُ الْمَمْلُوكِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ بِرُوزِ
 الْأَوَامِرِ الْعَالِيَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ؛ أَوْ وَالْمَمْلُوكُ يُعْرَضُ عَلَى الْأَرَاءِ الْعَالِيَةِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
 وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَيُحْتَمُّ الْكِتَابَ بِقَوْلِهِ : أَنْهَى ذَلِكَ ، أَوْ طَالَعَ بِذَلِكَ ، وَلِلْأَرَاءِ الْعَالِيَةِ مِنْ يَدِ
 الْعُلُوِّ ؛ وَيُعْبَرُّ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ فِي خِلَالِ الْمَكَاتِبَةِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَخْتَلَفُ الْحَالُ فِي خِطَابِ
 الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ : فَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنِيَّةِ خُوطَبِ بَمُولَانَا
 مَلِكِ الْأُمَرَاءِ عَزَّ نَصْرُهُ أَوْ أَعَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا غَيْرَ نَائِبِ سُلْطَنِيَّةِ ،
 خُوطَبَ بِبَمُولَانَا الْمُخْدُومِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ سَيْفِ
 خُوطَبَ بِبَمُولَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ قَلَمٍ ، خُوطَبَ بِبَمُولَانَا الصَّاحِبِ ،
 وَرَبِّمَا قَيْلِ بَمُولَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا خُوطَبَ بِبَمُولَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ ؛ وَإِنْ كَانَ
 عَالِمًا كَبِيرًا ، خُوطَبَ بِبَمُولَانَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ ، خُوطَبَ
 بِبَمُولَانَا شَيْخِ الشُّيُوخِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ وَالْوِظَافَةِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ رَأْيُ
 الْكَاتِبِ بِمَا يُنَاسِبُ الْحَالَ .

وَالعنوانُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ : الْفُلَانِيَّ مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ ، وَيُعْبَرُّ عَنِ ذَلِكَ : بِالْفُلَانِيَّ
 بِمَطَالَعَةٍ . وَقَدْ يُعْبَرُّ عَنِ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِ الْمَكَاتِبَةِ . وَصُورَتُهُ : أَنْ يَكْتُبَ فِي رَأْسِ ظَاهِرِ
 الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ « الْفُلَانِيَّ » بِاللَّقَبِ الْخَاصِ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، كَالسُّفِينِيَّ ،
 وَالنَّاصِرِيَّ ، وَالشَّمْسِيَّ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ مَمْتَدًّا إِلَى نَحْوِ رُبْعِ عَرْضِ
 الدَّرَجِ ، وَتَحْتَهُ فُلَانٌ بِمَا يَقْتَضِي تَعْرِيفَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ أَوْ شُهْرَةٍ . فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سُلْطَنِيَّةِ
 كَتَبَ تَحْتَ الْفُلَانِيَّ : بَمُولَانَا مَلِكِ الْأُمَرَاءِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا كَتَبَ :
 بَمُولَانَا الْوَزِيرِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا قَضَاةً ، كَتَبَ : بَمُولَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

بالمكان القلاني، ونحو ذلك، ويعبر عن ذلك بالتعريف، ويكتب في الجانب الأيسر من رأس ظاهر المكتبة مقابل ما كتبه في الأولى ما صورته «مطالعة المملوك فلان» باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحت ذلك، وفلان تحته عن بعد ثلاثة أسطر، وتكون لطيفة القد غير ممشوقة على الضد من المكتوب إليه. وهذا مثال عنوان إلى نائب سلطنة بالشام لقبه سيف الدين، عن اسمه يلبغا.

الس	_____	يفي	مطالعة
مولانا ملك الأمراء بالشام المحروس عز نصره			المملوك
			يلبغا

وعلى ذلك يقاس سائر العنوانات من هذه المرتبة؛ والأصل في ذلك أن الحاج ابن يوسف كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان؛ فكتب في عنوانه بقلم جليل لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، وفي الجانب الأيسر بقلم ضئيل من الحاج بن يوسف كما حكاه أبو جعفر النحاس في «صناعة الكتاب» فتبعه الناس على ذلك في تعظيم أسم المكتوب إليه، وتلطيف أسم المكتوب عنه؛ والعلامة في هذه المكتبة «المملوك فلان» باسم المكتوب عنه بقلم ضئيل بحاشية الكتاب سطرين: المملوك [سطر] والاسم سطر تحته على هذه الصورة:

المملوك

فلان

ويكون ذلك مقابل «يقبل» ملاصقاً له بحيث تكون جرة الكاف من المملوك تحت الياء من يقبل، فكانهم راعوا في ذلك صورة ما يكتب في القصص التي ترفع إلى الأكابر لاستباحة الحوائج ونحوها من حيث إنها يكتب فيها «المملوك فلان يقبل الأرض وينهى كيت وكيت» لما في ذلك من إظهار الخضوع والتواضع.

المرتبة الثانية — أن يأتي بعد « يَقْبَلُ الْأَرْضَ » بذكر الدعاء دُونَ التَّنَاءِ مع تَأْرُبِ الْأَسْطَرِ أيضًا وَأَجْتِنَابِ السَّجْعِ . وقد أَصْطَلَحُوا في هذه المَكْتَابَةِ على أن يَكْتُبُوا تَحْتَ البَسْمَلَةِ مع لَقَبِ المَكْتُوبِ عنه الذي هو المَلِكِيُّ الفُلَانِيُّ ونحوه لِقَبِ المَكْتُوبِ إليه : كَالسِّيْفِيِّ ونحوه ، على تَمَتِّ المَلِكِيِّ الفُلَانِيِّ من الجِهَةِ اليمْنِيِّ مع بِيَاضٍ بَيْنَهُمَا ، بِمَحِثٍ يَقَعُ بَعْضُ اللُّقَبِ في حَاشِيَةِ الكِتَابِ ، وبعضه تَحْتَ أَوَّلِ البَسْمَلَةِ على هذه الصُّورَةِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملكى الظاهرى

السِّيْفِيِّ

ثم يَأْتِي بِصُورَةِ المَكْتَابَةِ بعد ذلك . وَيَخْتَلِفُ الحَالُ في هذه المَكْتَابَةِ بِأَخْتِلَافِ حَالِ المَكْتُوبِ إليه ، فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سَاطِنَةٍ ، كَتَبَ « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى بِعَدِّ رَفْعِ الْأُدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، أَوْ بعد آتِبَائِهِ إلى الله تَعَالَى بِالْأُدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، تَقْبَلُهَا اللهُ تَعَالَى مِنَ المَمْلُوكِ وَمِنْ كُلِّ دَائِعٍ مَخْلِيصٌ ، بِنِجَاءِ مَوْلَانَا مَلِكِ الْأُمَرَاءِ ، أَوْ بِدَوَامِ أَيَّامِ مَوْلَانَا مَلِكِ الْأُمَرَاءِ ، وَخُلُودِ سَعَادَتِهِ ، وَمَزِيدِ تَأْيِيدِهِ ، وَعُلُوِّ دَرَجَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، بِحَمْدِ وَآلِهِ : أَنَّ الْأُمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَالْمَمْلُوكُ يَسْأَلُ الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةَ ، أَوِ الصَّدَقَاتِ الكَرِيمَةَ ، أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَهَا بِرُوزِ الْأَوَامِرِ المَطَاعَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ . ثم يَقُولُ : وَالْمَمْلُوكُ مَمْلُوكُ مَوْلَانَا مَلِكِ الْأُمَرَاءِ وَعَبْدُ بَابِهِ وَنَشْءُ إِحْسَانِهِ ، وَيَسْأَلُ تَشْرِيفَهُ بِمَرَامِيهِ وَخِدْمَهُ ، أَوِ المَمْلُوكُ يَسْتَعْرِضُ المَرَامِيْمَ الكَرِيمَةَ ، وَالخِدْمَةَ العَالِيَةَ ، لِيُبَادِرَ إلى امْتِنَانِهَا ، وَالْفَوْزِ بِقَضَائِهَا ، أَوِ المَمْلُوكُ مَمْلُوكُ الْأَبْوَابِ العَالِيَةِ وَنَشْءُهَا وَغَلَامُهَا ، وَيَسْأَلُ دَوَامَ النِّظَرِ الكَرِيمِ عَلَيْهِ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا ، وَنحو ذلك مما يَحْتَضِيهِ الحَالُ ، وَقَدْ جَهَّزَ المَمْلُوكُ

بهذه المكتبة فلاناً أو مملوكه فلاناً . فإن كان قد حمّله كلامَ مشافهةٍ ، قال : وحمّله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بساعه والإصغاء إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأى العالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضياً ، كتب « ببقاء مولانا قاضى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب « ببقاء مولانا شيخ الشيوخ » ونحو ذلك ، وبقى المكتبة على ما تقدّم بحسب ما يقتضيه الحال . والعنوان فى هذه المكتبة « الأبوابُ الفلانية ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حال المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائب سلطنة ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالمةُ ، المولويةُ ، الأميريةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، المخدوميةُ ، الكافيةُ ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاه الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافية . وإن كان وزيراً ربّ سيف ، كتب بعد الأميرية : الوزيرية . وإن كان وزيراً ربّ قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحبية . وإن كان من رؤساء الكُتاب ممن فى معنى الوزراء : ككتاب السرّ ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ونحوهم ؛ أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاصوية . وإن كان قاضى حُكم ، أتى مع القاصوية قبل الفلانية بالحاكبة . وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القاصوية بالشيخية ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عَرْض الدَّرَج سطرًا إلى آخر المالكية ، ويخلّى بياضًا فى آخر السطر بقدر رُبْع الدَّرَج ؛ ثم يكتب المخدومية الفلانية فى أول

السطر الثاني مُلاصقًا للأول ، ثم يُحلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتب : أعلاها الله تعالى ، ثم يحلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتب « فلان الفلاني » تحت آخر السطر الأول ؛ ثم يكتب في آخر الدّرج من الجهة اليسرى بعد خلوّ بياض « مطالعة المملوك فلان » ثلاثة أسطر على ما تقدّم في العنونة بالفلاني بمطالعة كما في هذه الصورة :

الأبوابُ الكريمةُ ، العالِيَةُ ، المولويَّةُ ، الأميريَّةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، مطالعة
المخدومية ، السيفيَّةُ أعلاها الله تعالى . أمر دَوَادار الظاهري المملوك
فلان

والعلامة « المملوك فلان » بقلم ضئيل مُسامت يقبل كما في المكتبة قبلها .

قال في « التنقيف » : وبهذه المكتبة يُكتب عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أُظن .

قال : وكذلك كان يُكتب المقر العلاءي بن فضل الله كاتب السر الشريف إلى المشار إليه ، يعني نائب حلب ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفل الكتاب دون أعلاه .

قلت : وعلى هذا يكون للعلامة في هذه المكتبة رُتبتان ، إن عظمه ، كتب له العلامة على سمت يقبل ، وإلا ففى أسفل الكتاب ؛ ومن ثم ذكرت قول صاحب « التنقيف » هنا وإن كان محله رُتب المتكاتبين على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة — أن لا يُكتب في أول المكتبة عن يمين أسفل البسملة الفلاني ويأتي بذكر الدّعاء والثناء مسجوعًا ؛ مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي هو المملوك الفلاني : يقبل الأرض ، ويُنهى بعد رفع دعائه ، وإخلاصه في محبته وولائه ، وأعترافه بإحسان مولانا وجزيل آلائه ؛ أن الأمر كيت وكيت ؛

والمملوك يسأل إحسان مولانا، أو صدقات مولانا، أو إحسان المخدوم، أو صدقاته في كَيْتَ وكَيْتَ ؛ ثم يقول : والمملوك فهو مملوك مولانا ومُجِبُّهُ ، والداعي لإحسانه ، ويسأل تشریفه بمراسيمه وخدمته ؛ وقد جهز المملوك بهذه العبودية فلانا ، أو مملوكه فلانا ، وحمله من الدعاء والولاء ما يُنْهِيهِ من لسانه ، ويُعْرِبُ عنه ببيانه ؛ أو وقد حملته المملوك ما يقوم عنه به في إنهائه ، من رصف الأديسة ، ووصف الأثنية ؛ والمملوك يسأل الإصغاء إليه ، والتشريف بالمراسيم العالية والخدم الكريمة : ليفوز بإقبالها ، ويأدر إلى امتثالها . طالع بذلك ، أو أنهى ذلك ؛ أو والمملوك يستعرض المراسيم العالية ، والخدم الكريمة المتواليه : ليتشرف بقضائها ، ويتشوف إلى إقضائها .

صدر آخر : ويُنْهَى بعد رفع الأذعية ، وبث المحامد والأثنية ، والمؤالاة التي يجمل منها عالي الألوية ، أن الأمر كَيْتَ .

آخر : ويُنْهَى بعد رفع دعائه الذي لا يفتقر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان فعه ، وأبتها له الذي يرفع الشجب ، وشوقه الذي يهدى النجب ؛ أن الأمر كَيْتَ وكَيْتَ .

آخر : ويُنْهَى بعد دعائه المقبول ، وشوقه الذي لا يحول عنه ولا يزول ؛ وسلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حمله الرسول .

آخر : ويُنْهَى بعد دعاء يرفعه بالغدو والآصال ، وولاء لا يتغير مادامت الأيام والليال ، وشاء أطيّب من عرف الرّوض إذا مرّ عليه نسيم الشمال ، أن الأمر كَيْتَ وكَيْتَ .

آخر : ويُنْهَى بعد رفع الدعاء ، ونصب لواء الولاء ، وجرّ ذبول الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والإعتراف ، أن الأمر كَيْتَ وكَيْتَ .

آخر : ويُنهي بعد دعائه المرفوع ، وثنايه الذي هو كالمسك يَضوع ، وشكره الذي يُسَمع منه ويُسَمع أُطِيبُ مسموع ، أن الأمر كيت وكيت .

والعنوان لهذه المكاتبه «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السيف وهو نائبُ سلطنة ، كتب «الأبواب الكريمة ، العالمة ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدومية ، الكافلية ، الفلانية ، أعلاها الله تعالى» ثم يقال : نائبُ السلطنة الشريفة المحروسة ؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة ؛ وباقي عُنوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيف والأقلام على ما تقدم في العنونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وضعه أن يكتب «الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية» مثلا سطرًا واحدًا من أول عرض الدرّج إلى آخره ؛ ثم يكتب «الفلانية أعلاها الله تعالى» في أول السطر الثاني ملاصقًا له ؛ ثم يترك بياضًا قدر رأس إبهام ؛ ثم يكتب في آخر السطر الثاني «كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما في هذه الصورة :
 الأبواب الكريمة ، العالمة ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدومية ، الكافلية ،
 السيفية ؛ أعلاها الله تعالى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة في ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «المملوك فلان» وكانهم لما انحطت رتبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامةُ إليه على سُمّت «يقبل» ليكون في معنى القصة كما تقدم ، أخذ المكتوب عنه في التنازل إلى آخر المكاتبه تواضعًا للمكتوب إليه وتأدبًا معه .

قال في «التثقيف» وبذلك كان يُكتب عن الأمير يلبغا العمري : يعني الخالصي وهو أتاك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلي بغا ، والأمير الجاى ،
وتؤاب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة - أن يأتي بصدر المكتبة على ما تقدم في المكتبة قبلها من
الإبتداء بيقبل الأرض وينهى بعد رفع دعائه وما فى معناه على ما تقدم من غير فرق :
ولا يختلف الحال فى الصدر ولا فى متن الكتاب ، والعنوان « الباب الكريم » ولا يكون
إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « الباب
الكريم ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ،
المالكي ، المخدومى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى ، فلان الفلانى - باسم المكتوب إليه .
وإن كان من أرباب الأفلام أو غيرهم فعلى ما تقدم فى « الأبواب بمطالعة » من إبدال
الأميرى بالقضائى ، أو الشيخى ، وزيادة قاضى الحكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : الباب الكريم - بالألقاب المتقدمة إلى آخر المسالكى سطرا
واحدا من أول عرض الدرج إلى آخره ، ثم يكتب المخدومى الفلانى أعلاه الله تعالى
فى أول السطر الثانى ، ويترك بياضا ، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه
أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكي .
المخدومى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى .
بهادر أمير اخور الأشرقى .

تنبيه - كل ما كان العنوان فيه الباب الكريم ، كان العنوان فيه للمسافر « المخيم »
بدل الباب ، وباقى الألقاب على حالها كما نبه عليه فى « التثقيف » وغيره ، والعلامة
فى آخر المكتبة مقابل حسبى الله ؛ إذ لما كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابل

تحت الحسبلة كانت العلامةُ فيما فوق ذلك أنزلَ في رتبة المكتوب إليه وأعلى في رتبة المكتوب عنه .

المرتبة الخامسة - يُقبل الأرض بالمر الشريف . والرسم فيه أن يترك بعد البسملة وما تحتها من الملكى الفلانى قدر سطر أو سطرين بياضاً ، ثم يكتب يقبل الأرض بالمر الشريف ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « يقبل الأرض بالمر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الذخرى ، الظهيرى ، المسندى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، الفلانى ، أعز الله تعالى أنصاره ، وأعلى مناره ، وضاعف مباره ، وينهى بعد وصف محبته ، وبث أثنيته ، كيت وبيت ، والمسئول من إحسانه كيت وكيت » وربما كتب : « والمملوك يسأل كيت وكيت » كما فى المكتبات السابقة ؛ أو « والمملوك يسأل تشريفه بمراسمه وخدمه ، والله تعالى يديم عليه سوايغ نعمه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبه : أعز الله تعالى أنصاره ، وأدام آتصاره ، وجعل على غايات النجوم اقتصاره ، وينهى .

آخر : لازالت الرقاب لمهابته خاضعه ، والركاب به فوق النجوم واضعه ، وأجنت السيوف بمضاربه من ماء الأعداء راضعه ، وينهى .

آخر : لازالت أعلامه مشرفه ، وأعلامه مصرفه ، وأيامه بطيب ثنائه بين الخافقين معرفة .

آخر : لازالت الدنيا ببقائه مجمله ، والعليا لأرتقائه مؤمله ، والنعم على اختلافها جواهر مكملة ، وينهى .

قلت وربما أتى بصورة الإنهاء مسجوعة أيضا؛ مثل أن يكتب : ويُنهى بعد
تعبده بولائه، وقيامه بحقوق آلائه. أو ويُنهى بعد دعاء يقوم بوظائفه، وولائه بتردئ
بمطارفه . أو ويُنهى بعد رفع أديعته، وقطع العمر في موالاته وعبوديته، ونحو ذلك .
وعلى ذلك جرى في "عرف التعريف" إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان
إهماله . والعنوان إن قصد تعظيمه : الباب العالى - بالقباب الباب الكريم
في المكتبة قبلها، إلا أنه يُحذف منها الكريم . وإن لم يقصد تعظيمه فالمقر الشريف
بالألقاب التي في صدر الكتاب . وصورة وضعه في الباب العالى على ما تقدم
في الباب الكريم : أن يأتي به في سطرين كاملين من أول عرض الدرج إلى آخره،
كما في هذه الصورة :

المقر الشريف ، العالى ، المولى ، الأمير ، الكبير ، العالى ، العادى ، المؤيدى ، الذنرى ، الظهيرى ،
المستدى ، الزيمى ، المالكى ، المخدومى ، السبى ، أعز الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس
والعلامة في هذه المكتبة « المملوك فلان » بقلم الرقاع ، بأسافل الكتاب ، مقابل
إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكتبات بين كُتاب زماننا بمملكة
الديار المصرية وما جرى على نهجها، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة
الأولى منها حذف الدعاء والثناء المقتضيان للدالة من المكتوب عنه على المكتوب
إليه ، وأقتصر على اليسير من الكلام دون الكثير الذى فيه سامة المكتوب إليه
وإسجاره ، عند قراءة الكتاب ؛ وعُوت بالفلساني كالسيفى ونحوه، من حيث
إنه لقب مؤد إلى رفعة ؛ وأتى فيه بمطالعة المملوك فلان ، إشارة إلى التصريح بالرق
والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرفعة بذكر لقبه
المؤدى إلى رفعة قدره - وفي المرتبة الثانية أتى فيها بالفلاى داخل المكتبة دون

العنوان فكانت أنزل مما قبلها : من حيث إنَّ العُنْوَانَ ظاهراً وباطناً المكتوبة خفيٌّ والظاهر المؤدَّى إلى الرفعة أعلى من الخفيِّ من ذلك ، وأتى بالدعاء فكانت أنزل رتبةً من التي قبلها لما تقدم من أنَّ الدعاء فيه معنى الدالَّة ، وأجذب فيه السجع من حيث إنَّ في الإتيان به تفاحاً على المكتوب إليه ، وعُنُونُ الأَبْوَابِ إشارة إلى شرف محلِّ المكتوب إليه من حيثُ الإشعارُ بأنَّ له أبواباً يُوقَفُ عليها ، وجُعِلَتْ دُونَ المرتبة الثانية من حيثُ إنَّ العُنُونَةَ في المرتبة الأولى باللَّغَبِ المؤدَّى إلى الرِّفْعَةِ مع دِلَالَتِهِ على الذات . وفي الثانية عُنُونُ الأَبْوَابِ المُوَصَّلَةَ إلى محلِّ الشَّخْصِ ، ولا يَخْفَى أَنَّ ما دَلَّ على نفس الشَّخْصِ أعلى مما هو مَوْصَلٌ إلى محلِّه ، وأتى فيها بمطالعة المملوك فلان إشارة إلى التصريح للمكتوب إليه بالرقِّ والعبودية كما تقدم في المرتبة الأولى - وفي المرتبة الثالثة حُذِفَ منها الفلاني المؤدَّى إلى الرِّفْعَةِ من داخل المكتوبة فكانت أنزل من التي قبلها فأتى فيها بذلك ، وأتى بالدعاء مسجوعاً فكانت أنزل مما قبله لما في السجع من التفاح على المكتوب إليه ، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوك فلان فكانت أنزل من حيثُ إنَّه لم يقع فيه تصريحٌ بَرَقَّ وعبوديته كما في المرتبة الأولى والثانية - وفي المرتبة الرابعة بقى الصَّدْرُ على حاله وعُنُونُ فيها بالباب بلفظ الإفراد ، فكانت أنزل مما قبلها ، من حيثُ إنَّ الإفراد دُونَ الجمع بدليل أنه بعضٌ من أبعاضه - وفي المرتبة الخامسة قيل يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمقترَبِ ؛ يعنى مقترَبُ المكتوب إليه ، فكانت أنزل مما قبلها من حيثُ إشعارُ ذلك بالقُرْبِ من محلِّه بخلاف يُقْبَلُ مطلقاً الأرض فإنه لا يَحْصِرُ في ذلك ، ثم إنَّ عُنُونَتَ بالباب العالی مجرداً عن الكريم ، كانت أنزل مما عُنُونُ فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رتبة الكريم العالی

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعللة التي ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تحيد بالمقر .

على العالى المجرد عن الكريم ، على ما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة ، وإن عُنُونَت بالمَقَرِّ الشريف فهي على أخطاطِ الرتبة عما قبلها من حيث إشعاره بقُربِ المحلِّ من المكتوب إليه . على أن في عنوانه هذه المكتبة بالمقرِّ الشريف نظراً ، فإن أعلى مراتب الأبتداء في المكتبة بالدعاء هي الدعاء للمقرِّ الشريف ، وهو بعد تقبيل الباسطِ والباسطةِ واليدِ على ما سيأتي ذكره في الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فربما التبس عنوان هذه بعنوان تلك قبل فضاءها ، والوقوف على صدرها هل هو مفتتح يقبل الأرض بالمقرِّ أو بالدعاء للمقرِّ ، إلا أن كتاب الزمان قد رفضوا المكتبة بالدعاء للمقرِّ الشريف واقتصرُوا على الدعاء للمقرِّ الكريم ، إذ كان هو أعلى ما يكتب به عن السلطان لأكابر أمراء المملكة على ما تقدم ذكره في الكلام على مكاتبات السلطان إلى أهل المملكة في المقالة الرابعة .

قلت : وفي الدساتير المؤلفة في الإخوانيات في الدولة التركية في الزمن السابق ما يخالف بعض هذا الترتيب ، فجعل في "عُرف التعريف" أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنبئ كيت وكيت ، والعنوان « الفلاني بمطالعة » على ما تقدم ذكره في الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعينه ، والعنوان « الأبواب بمطالعة » . ودونه : كذلك والعنوان « الأبواب » بغير مطالعة . ودونه : « يقبل الأرض بالمقرِّ الشريف ، والعنوان إما الباب العالى أو المقرِّ الشريف » .

وفي دستور يعزى لبعض بني الأثير أن أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنبئ كيت وكيت على ما تقدم . ودونه : « يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض ويُنبئ بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان

نفعه» . ودونه : «يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل : يَقْبَلُ الأَرْضَ حَمَاهَا اللهُ تعالى من غيرِ الزَّمانِ ؛ وآكْتَفَىهَا بالأَمَانِ ، من صُرُوفِ الحَدَثَانِ ، ولا زالت محطَّ وُقُودِ الحَدَا ، وكعبة قُصَادِ النَّدَا ، ويُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الأَرْضَ ويَصِفُهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الأَرْضَ التي هي مُلْجَأُ العُقَاةِ ، ومَلْتَمَ الشَّفَاةِ ، ومحلُّ الكَرَمِ الذي لا يُنْجِبُ مِنْ اقْتِفَاةِ ، ومقْصِدُ الرَّاجِي الذي إذا عَوَّلَ عليه كَفَاةِ ، ويُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الأَرْضَ ويدعو لها ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الأَرْضَ لِأَزَالَتِ مَحْرُوسَةِ الرَّحَابِ ، هَامِيَةِ السَّحَابِ ، فَيْسِجَةِ الحَنَابِ ، لَمَنْ أَنَابَ ؛ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » .

وجرى في "التثنية" على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالي، وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالي أو المقر الشريف .

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير؛ وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات، مثل أن يكتب : يُقْبَلُ العتباتِ الكريمة، لِأَبْرَحَتِ مَطْلَعِ السُّعُودِ ، وَمَنْبَعِ الجُودِ ، وَمَهْيَعًا لِلْقَامِ المحمود . أو : يَقْبَلُ العتباتِ الكريمة ، لِأَزَالَتِ الأَفْلَاكِ تَمَثُّ أَنِهَا بِهَا تُحْفَ ، وَأَنَّهَا لِنجومها إليها بحوض الوالدين (؟) تزف . أو : يُقْبَلُ العتباتِ الكريمة ، لِأَزَالَتِ الأَمَالِ بِهَا مُطِيفِهِ ، وَالسُّعُودِ لَهَا حَلِيفِهِ ، وَسَعَادَتِهَا لِأَسْتِخْدَامِ كُلِّ ذِي إِئْمَامٍ مُضِيفِهِ .

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر إلا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء. تأمل .

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير مُحْكَم الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضى صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التسهل، كلما تقدم متقدم في دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويعمل له شيئاً يُحَدِّثه لِيُنسَب إليه ولا يُبالي وافق في ذلك غرضاً صحيحاً أم لا، وَقَلَّ مَنْ يَصِيب الغرض في ذلك . على أن تقديم بعض هذه المراتب على بعض في العلو والهبوط إنما هو من جهة استحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانية

(المكتبة بتقريب اليد، وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — يُقْبَل الباسط الشريف، وهي الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت العلكي الفلاني بعد البسملة قدر سطرين بياضاً كما في المسألة قبلها، ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب : يقبل الباسط الشريف، العالى، المولوى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، السيدى، المالكى، المخدومى، المحسنى، الفلانى؛ لا زالت ساحته مقبله، وسماحته مؤمله، ويُنهى بعد وصف خدومه، وثبوت قيامه فيها على قدمه، أن الأمر كيت وكيت؛ والمسئول من إحسانه كيت وكيت؛ والله تعالى يجرسه بمنه وكرمه .

دعاء آخر : يليق بهذه المكتبة؛ يقال بعد تكلمة الألقاب : لا زالت نعمه باسطة، وأيامه لعقود الأيام واسطه، ويُنهى كيت وكيت .

(١) بنى المرتبة الخامسة .

آخر : لازال جناح كرمه مبسوطا ، وجناب حرمه من المخاوف محوطا ،
ويُنهي كيت وكيت .

آخر : لازال يصرف الأعنة والأسنة ، ويقلد أعناق أعدائه كل أجل
وأعناق أودائه كل منه ، ويُنهي .

آخر : لازالت حمائل السيوف تتسابق إلى بنانه ، وأعقاب الرماح تأوي
إلى أنامله : ليمكثها من قلوب أعداء الله يوم طعانه ، ومئون الخيل متحصنة بعزائم
فيقوى جنانها بجنانه .

آخر : لازالت رحي حروبه على أعدائه تدار ، وأسنة رماحه تُأدى الأعداء
البدار البدار ، وجنوده تقابل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصنة أو
من وراء جدار .

آخر : لازالت أعلام النصر معقودة بأعلامه ، وجواري اليم السعيد معدودة
من خدامه ، وسبطور الباس والكرم مثبتة إما بأقلام الخط من رماحه وإما برماح
الخط من أعلامه .

آخر : لازالت الأعنة والأسنة طوع يمينه وشماله ، والآمال والأحوال
تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله ، والسيوف والأقلام : هذه جارية بعوائد بأسه ،
وهذه جارية بعوائد نواله .

آخر : ولازالت وجوه النصر تترأى في مرآة صفاحه ، وثمار النصر تُجنى
من أغصان رماحه ، ولا يرح السيوف والقلم يتباريان في ضرر الأعداء ببأسه ونفع
الأولياء بسماحه — وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأميري
«الوزيري» — وإن كان وزيراً رب قلم ، كتب قبل الفلاني أيضا الصاحبي —

وإن كان من أعيان الكُتَّاب : ككاتب السَّرِّ وناظر الخاص وناظر الجيش وناظر
الدَّولة وكتَّاب الدُّست ونحوهم ، كتب بدل الأُميرى القَضائى ؛ ثم يكتب للجميع
بعد الوزيرى أو القَضائى ؛ العالمى ، العادلى ، الممهِّدى ، المشيِّدى ، المالكى ،
المخدومى ، المحسِنى ، الفلانى ؛ أسبغ الله تعالى ظلاله ومدَّها ، وشيِّد به مباني الملك
وشدَّها ، ووهب الأيام منه هبة لا تستطيع الليالي ردَّها ؛ وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يليق بهذه المكتبة ، يقال بعد تكلمة الألقاب ، ولا زالت أعلامه
تروِّع الأسد فى آجامها ، وتزید على الغيوث فى أنسجامها ، وتعلم الرِّماح الإقدام
إذا نكصت لإخجامها ، وينهى .

آخر : ولا زالت الدول مشيِّدة بتصرفه ، مجددة لتصرفه ، مؤيدة بين صرير
القلم وصريفه .

آخر : ولا زالت أعلامه تهزأ بالغيوث الهامية ، وأنعامه تفوق على البحار
الطامية ، وموارد إحسانه تأوى إليها الوفود الظامية .

آخر : وأدام القصد ليا به ، ونزول الآمال برحابه ، وصعودها إلى سحابه .

آخر : لا زال فيسبحا للقاصد جنابه ، مجرِّبا للناجح بابه ، صريحا فى آبتغاء خير
الدينا والآخرة طلابه — وإن كان من القضاة الحُكَّام ، كتب : يُقبَل الباسط
الشريف ، العالى ، المولوى ، القَضائى ، العالمى ، الإمامى ، العلَّامى ، السيِّدى ،
المالكى ، المخدومى ، المحسِنى ، الحاكِمى ، الفلانى ؛ أعزَّ الله تعالى أحكامه ،
وجمل به الدهر وحُكَّامه ، وثبت به الأمر وزاد إحكامه ، وينهى كيت وكيت .
دعاء آخر يناسبه : يقال بعد تكلمة الألقاب : أعزَّ الله تعالى أحكامه وأنفدَّها ،
وتدارك به الأمة وأنقذَّها ، وأسعف به الملة الإسلامية وأسعدَّها ، وينهى .

آخر : نَصَّرَ اللهُ الدِّينَ بِنُورِهِ ، وَسَقَى الغَمَامَ بِأَقْيَسِ سُوْرِهِ ، وَحَمَى حِمَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمَا ضَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ سُوْرِهِ .

آخر : وَجَمَلَ الدَّهْرَ بِمَنَاقِبِهِ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ العِلْمِ بِكَوَاكِبِهِ ، وَلَا زَالَ الزَّمَانُ يَقُولُ لِمَنْصِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِشَخْصِهِ وَرَأْيِهِ : « عَزَّ يَدُومٌ وَإِقْبَالٌ لِصَاحِبِهِ » .

آخر : وَأَمْضَى بِيَدِهِ سَيْوْفَ الشَّرْعِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامُهُ ، وَأَعْلَى طُرُوسِ العَدْلِ وَالْحَقِّ فَإِنَّهَا أَقْلَامُهُ ، وَلَا زَالَتْ يَدُ القَصْدِ مُشِيرَةً إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَى شَأْنِهِ خِصْرٌ وَلَا يُجْبَلِي إِلَّا يُهْدَاهُ إِيَّاهُمْ .

آخر : وَسَدَّدَ سِهَامَ الحَقِّ بِأَقْضِيَّتِهِ ، وَشَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرْعِ بِأَيْدِيَّتِهِ ، وَأَيْدَى الإِسْلَامِ بِأَقْلَامِ سَيِّلَاتِهِ القَائِمَةِ لِلنَّصْرِ مَقَامَ أَلْوِيَّتِهِ — وَإِنْ كَانَ المَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : يُقَبَّلُ البَاسِطَ الشَّرِيفَ ، العَالِيَّ ، المَوْلَوِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الخَاشِعِيَّ ، النَّاسِكِيَّ ، السَّيِّدِيَّ ، المَالِكِيَّ ، المَخْدُومِيَّ ، المُحْسِنِيَّ ، الفَلَانِيَّ ، لَا زَالَ يِقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فِسَادَ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَيُجَلِّو دُجَى الظُّلْمَاءِ بِصَبَاحِهِ ، وَيُنْهِى .

آخر : وَنَفَعَ بِيَرَّكَانِهِ فِي الرُّوحَاتِ وَالعَدَوَاتِ ، وَجَمَلَ بِبِقَائِهِ المَحَافِلَ وَالمَلَوَاتِ ، وَبَسَطَ فِي صَاحِ الدُّوَلِ [يَدَهُ] : إِمَامًا فِي مِبَاشَرَتِهِ بِصَاحِ التَّضْيِيرِ وَإِمَامًا فِي انْقِطَاعِهِ بِصَاحِ الدَّعَوَاتِ .

والعنوان في هذه المكتبة «الباسط الشريف» بالألقاب التي في صدر المكتبة على السواء، والدعاء له بأقول سَجِّعِيَّةٍ مِنْ دَعَاءِ الصِّدْرِ أَوْ نَحْوِهَا، بِحَسَبِ حَالِ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، مِثْلَ أَنْ يَكْتُبَ لِمَنْ هُوَ مِنْ أَرْبَابِ السِّيُوفِ ، أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نَصْرَهُ ؛ أَوْ عَزَّ

نصره . ولمن هو من رؤساء الكُتَّاب : أسبغ الله ظلاله . ولمن هو قاضى حُكْم :
أعزَّ الله أحكامه . ولمن هو من مشايخ الصوفية : أعاد الله من برَّكاته .

وصورة وضعه في الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين
كاملين من أول عرض الورق إلى آخره ، إلا أنه يفصل بين الألقاب والدعاء
ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياض لطيف كما في هذه الصورة .

الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، السيدى ،
المالكي ، المغدومي الحسيني ، الفلاني أعزَّ الله أنصاره . أمير حاجب بحلب المحروسة

وقد ذكر في "عرف التعريف" : أنه إن قصد تعظيمه ، عنونه بالمقرَّ الشريف
بالألقاب المتقدمة على السواء ، ولا تخفى صورة وضعه بعد ما تقدم ، والعلامة
«المملوك فلان» بقلم الرقاع مقابل إن شاء الله كالمكتوبة بالمقرَّ الشريف المتقدمة .

(١)
المرتبة الثانية — [يقبل الباسطة الشريفة] والرسم فيها أن يترك تحت المالكي
الفلاني قدر سطرين بياضاً كما في المكتوبة قبلها ، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة
بالتأنيث ، ويجرى الحال في ذلك كما في الباسط — فإن كان المكتوب إليه من أرباب
السيوف ، كتب : يقبل الباسطة الشريفة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ،
العالمية ، العادية ، المؤيدية الذخرية ، المالكية ، الحسينية ، الفلانية ؛ لازلَّت سحائبها
مستهلَّة ، ومواهبها للبحار مستقلَّة ؛ ويُنهى كيت وكيت ، والمستمدُّ من محبته كيت
وكيت . وربما قيل والمسئول ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لازلَّت سيولها تملأ الرَّحَاب ، وسُيوفها تُسرِّع
السَّل إلى الرَّقَاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذاً مما سبأ على الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخر : لا زالت خناصر الحميد على فضل بناتها معقوده ، وما أثر البأس والكرم لها ومنها شاهدة ومثموده ، وبوآثر السيف مسيرة القصد إلى مناصرة أعلامها المنضوده .

آخر : ضاعف الله تعالى مواد نعيمها ، وجواد كرمها ، وأنصال الآمال بمساقط ديمها .

آخر : لا زالت الآمال لائذة بكرمها ، عائذة بحرماها ، مستنجدة على جذب الأيام بسقى ديمها .

آخر : لا زالت لرؤوم الكرم مقيمها ، ولصنائع المعروف مديمها ، ولأيادي الإحسان متابعها إذا قصرت عن البروق ديمها — وإن كان المكتوب إليه من رءوس الكتاب كتب بدل الأميري القضائي ، والباقي على ما تقدم ، ثم يدعى له بما يناسبه .
دعاء يناسب ذلك : لا زالت السيوف خاضعة لأعلامها ، والنجوم خاشعة لكلامها ، والجبال متواضعة لإعلاء أعلامها .

آخر : لا زالت موالاتها فريضه ، وأجنحة أعدائها مهيبه ، ومقل الأسنه إذا خاصمتها أعلامها غضيبه .

آخر : أسبغ الله ظلها ، وهنأ بها أمة قرب مبعث زمانها وأظلها ، وهدي الآمال وقد حيرها الحرمان وأضلها .

آخر : لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالبه ، والجاه لكاسيه ، والنصر لمستنيب كئيبها عن كتابه .

آخر : لا زال رقدتها المطلوب ، وسعدتها المكتوب ، وقلمها المخاطب في مصالح الدول والمخطوب .

آخسر : بسَطَ اللهُ ظِلَّهَا وَلَا قَلَصَهَا ، وزادها من فضله ولا تقصها ، ولا جرع
كيد حاسدها الظامية إلا غصصها .

آخسر : ولا زال عمياً إنعامها ، قديماً وحديثاً ديمها وإكرامها ، قاضية بسعدها
النجوم التي هي خدامها .

آخسر : لا زالت بسيطاً ظلها ، مديداً فضلها ، سريعاً إلى داعي الندى والردى
قامها في المهيات ونصلها - وإن كان من قضاة الحكم زاد مع القاصوى قبل الفلانى
الحاكمى ودعا بما يناسب .

دعاء : أعز الله شأنها ، وأذل من شأنها ، وأغص بأدمع أعدائها الضريجة شأنها^(١) .
دعاء آخسر يليق بذلك : ولا زالت الآمال إليها وافده ، والصلوات عانده ،
ومعاني الفضل عن أخبار معنيها رائده .

آخسر : لا زالت خناصر الحمد معقودة على فضل بناتها ، وفصل بيئاتها ، وعوائد
الفضل والكرم شاهدة بالحسنين من فضلها وأمتنانها - وإن كان من مشايخ
الصوفية أبدل القضاية بالشيخية وأسقط العادلية والحاكمية ودعا له نحو قوله :
ومتع الإسلام ببقية الصالحه ، وبيض صحائف أعماله التي لا يندى الملائكة الكرام
مُصالحه .

آخسر : لا أخلى الله من بركات خلواته ، وأعاد من نواى دعواته ، وسواى
درجاته وتوجهاته ، ونحو ذلك .

والعنوان الألقاب التي فى صدر المكتبة ، والدعاء بالسجعة الأولى من الدعاء
باطنه أو نحوها .

(١) الشأن مجرى الدمع الى العين . قاموس .

وصورة وَضَعَهُ أَنْ تَكْتُبَ الْألقَابُ والدعاء والتعريف في سطرين كما تقدم في الباسط كما في هذه الصورة .

الباسطة ، الشريفة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العائلية ، الذخرية ، السندية ، الكاملة ، المحسنة أعز الله تعالى أنصارها أمير حاجب بحماة المحروسة .
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرقاع في أول الوصل الثالث على القرب من اللصاق .

المرتبة الثالثة — يقبل اليد الشريفة بالقب الباسطة المتقدمة ؛ ثم اليد الكريمة ؛ ثم اليد العالية مع حذف الكريمة رتبة بعد رتبة ، والألقاب بحالها ويدعى له ؛ ثم يقال والمستمد من محبته كيت وكيت ؛ والله تعالى يؤيده . والحال في اختلاف بعض ألقابها بالنسبة إلى أرباب السيوف وغيرهم على ما تقدم في الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السيوف في هذه المكاتب

دعاء من ذلك : يقال بعد استكمال الألقاب : لازلت مقبلة البنات ، مؤملة الإحسان ، مفضلة على أنواء السحب بكل لسان ، وينهى .

آخر : لازلت ترد بالسيف صدور الكئاب ، وترد الظماة منها موارد السحاب ، وتحدث عن البحر وكم في البحر من العجائب .

آخر : لازلت برها مأمونه ، وبذها ممنونه ، وأيامها تصبح الأعداء بأستها الزرق المستونه .

آخر : لا أخل الله من ودها ، ولا قطع وظائف حمدها ، ولا قضى مغيبها إلا جعل لها ذكرى بعدها .

آخر : لازالت مصالحها تظفر بالمتى ، وتحصل على الغنى ، وتطلق لسانه
بعاطر الثنا .

آخر : لازالت لتقليد المن سابقه في الجود العدل ، مقسمة في مكارم
التكريم : باطنها للندى وظاهرها للقبل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعد استيفاء الألقاب : لازالت مستهله بالندا ، مستقلة بكتب العدا ،
مطلة على النجوم على بعد ما بينهما من المدى .

آخر : لا برحت مفانحها مقصسه ، ومحبتها في الخواطر ممثله ، والكواكب
تود لو فارقت فلكتها وأصبحت لديها مسبله .

آخر : لازالت لصحائف الإحسان مسطره ، ولقلوب الأعداء مغطره ،
ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء ميطره .

آخر : أعلى الله تعالى شأنها ، وضاعف إحسانها .

والعنوان . اليد الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العالية ، بالألقاب التي في صدر
الكتاب من غير زيادة ولا نقص ؛ والدعاء بأول سبعة من المدعوبه في صدر الكتاب
أو نحوها ؛ والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما
في هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، الملووية ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، الذخرية ،
المالكية ، المحسنية ، الفلانية . أعلى الله تعالى شأنها نائب ملطية المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على القُرْب من موضع لصاقه^(١).

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ رُبَّمَا وُصِفَ التَّقْيِيلُ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ بَعْدَ الدُّعَاءِ بِالْأَوْصَافِ الدَّالَّةِ عَلَى زِيَادَةِ التَّأَدُّبِ وَرِفْعَةِ قَدْرِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى فِي «عُرْفِ التَّعْرِيفِ» .
وَقَدْ يَسْتَعْمَلُهُ بَعْضُ كُتَّابِ الزَّمَانِ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ فِي تَقْيِيلِ الْبَاسِطِ بَعْدَ اسْتِعْمَالِ الدُّعَاءِ : تَقْيِيلًا يَحُومُ عَلَى مَنَاهِلِهِ ، وَيَخَاقُ نَسْرُ السَّمَاءِ عَلَى مَنَازِلِهِ ؛ أَوْ يَقُولُ : تَقْيِيلَ حُبِّ أَخْلَصٍ وَوَلَاءِهِ ، وَمَحْضِ الصَّدْقِ وَوَفَاءِهِ - أَوْ تَقْيِيلًا يُوَالِيهِ ، وَيُنَظِّمُ لآلِيهِ - أَوْ تَقْيِيلًا يُوَالِيهِ بِهِ الْخِدْمِ ، وَيُؤَدُّ لَوْ سَعَى لِأَدَائِهِ عَلَى الرَّأْسِ إِنْ لَمْ تُسْعِفِ الْقَدَمَ - أَوْ تَقْيِيلًا لَا يُرَوِّى الْكِرْمَ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُسْتَفَادُ الْمَكَارِمُ إِلَّا مِنْهُ - أَوْ تَقْيِيلَ وَارِدٍ عَلَى ذَلِكَ الزُّلَالِ ، رَائِدٍ فِي ذَلِكَ الرُّوضِ الْمُتَمِّدِ الظَّلَالِ - أَوْ تَقْيِيلَ مُسَارِعٍ إِلَيْهَا ، مُزَاحِمٍ عَلَيْهَا .
وَرُبَّمَا أَتَى فِي الْإِنْهَاءِ بِمَا يَلِثُ الْمَقَامَ ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ : وَيُنْهِى بَعْدَ وَصْفِ خِدْمِهِ ، وَتَمْنِيهِ لَوْ وَقَفَّ فِي صَفِّ خِدْمَتِهِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

قلت : وفي بعض الدساتير بعد تقْيِيلِ الْيَدِ الْعَالِيَةِ ، يُقْبَلُ يَدَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ، الْعَالِيِ ، الْأَمِيرِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْمُؤَيَّدِيِّ ، النَّصِيرِيِّ ، الرَّعِيمِيِّ ، الْفَلَاحِيِّ ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ : يُخْدَمُ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ بِخَوْضِ هَذِهِ الْأَلْقَابِ ؛ وَفِي «التَّقْيِيلِ» يُقْبَلُ يَدَ الْجَنَابِ الْعَالِيِ ، وَيُخْدَمُ الْجَنَابَ الْعَالِيِ ، بِدُونِ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُنْدَى لِعَالِمِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَالْقَصْدُ مِنْ مَحَبَّتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَيُحِيطُ عَلِمًا بِذَلِكَ . وَبَعْضُ الْكُتَّابِ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ إِلَى الْآنَ ؛ وَهُوَ ذُهُولٌ ، إِذْ سِيَأْتِي فِي أَوَّلِ الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ الْمَفْتَحَةِ بِالْدُّعَاءِ لِلْمَقْتَرِ الشَّرِيفِ عَلَى الْمَصْطَلَحِ الْأَوَّلِ ، وَلِلْمَقْتَرِ الْكَرِيمِ عَلَى مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ الْآنَ ؛ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَتَأْتَى أَنْ تَكُونَ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ أَوْ الْجَنَابِ الْعَالِيِ قَبْلَ الْمَقْتَرِ الشَّرِيفِ أَوْ الْمَقْتَرِ الْكَرِيمِ .

(١) الأظهر من موضع لصاقه .

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على [ثلاث^(١)] مراتب :

المرتبة الأولى — الدعاء للقتل ، والرسم فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً ، ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة .

ويختلف الحال فى ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب أعز الله تعالى أنصار المقتّر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العوفى ، النصيرى ، الفلانى ؛ ثم يدعى له بما يناسب ، نحو : ولا زالت جيوشه جائله ، وجنوده بين الأعداء وبين مطأليها حائله ، وأولياؤه على صهوات خيلها لديه فائله ؛ أصدرناها إلى المقتّر الكريم ، تُهدى إليه من السلام أطيبه ، ومن الثناء أظننه ؛ وتُبدى لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت ؛ والقصد من اهتمامه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكلمة الالتقاب : وأيد عزائمهم ونصرها ، وأعلى أعلامه ونشرها ، ودقق فى مقاتل الأعداء حيث ترور الأسيئة نظرها ، وينهى .
آخر : ولا برحيت الآمال بكرمه تعترف ، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف .

(١) بياض فى الأصل .

آخر : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ، أصدرناها .

وإن كان من رؤساء الكُتَّاب ، كتب : بسطَ اللهُ ظلَّ المقرِّ . أو أسبغَ اللهُ ظلالَ المقرِّ الكريم ، العالی ، القضاة ، الكيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، السيدى ، السندي ، المالكي ، المخدومي ، المحسني ، الفلاني ؛ وبقى المكتبة كما في أرباب السيوف .

وهذه أدعية تناسب ذلك :

دعائهُ يليق به : ولا زالت الأمورُ إليه مَفَوَّضَةٌ ، ومضارِبُ العزِّ إلا عنه مُقَوَّضَةٌ ، وصحائفُ الحسنات بتسويده على أثناء الدهر مُبَيَّضَةٌ ؛ أصدرناها .

آخر : وصرفَ لسانَ قلمه ، وشرفَ مكانَ قدمه ، وعرفَ من كان يُناويه أنه أصبحَ لا يُعَدُّ من خَدَمِهِ .

قلت : وقد ذكر في "عرف التعريف" أن القضاة والحكام لا مدخل لهم في المكتبة بالمقرِّ ، وعلى ذلك جرى في مشايخ الصوفية . على أنه قد كُتِبَ بذلك . وقد رأيتُ المكتبة بذلك في بعض الدساتير ، وحينئذ فُيَكِّتَبُ : أعزَّ اللهُ تعالى أحكامَ المقرِّ العالی ، القضاة ، الكيرى ، العالمى ، العلامى ، الإمامى ، المالكي ، المحسني ، الحاكمى ، الفلاني ؛ ويُدعى له بما يناسب . مثل : وجدد له إقبالا ، وبلغه من الدارين آمالا ، وأحسنَ إليه مَبْدَأَ وَمَأْآلاً ، ونحو ذلك . والباقي على نحو ما تقدَّم .

وهذه أدعية تناسب ذلك :

لا برحت الشريعةُ مَحْوَطَةً بأقلامه ، مضبوطةٌ بأحكامه ، منوطةٌ بما يُسَيِّدُ مَبَانِيهَا ومثانيها من أحكامه ، مؤرَّخةٌ أيامَ سُعودِها بأيامه .

آخسر : حرس الله بأحكامه سرح المدى ، ولا برحت فتاويه بها يقتدى ،
ويظهر على المناوين والمبتدعين من تجريدها مهندا مهندا .

آخسر : لا برحت أنوار فتاويه لامعه ، وسيوف أعلامها بها قاطعه ، وحدودها
إلى [موارد] أحكام الشريعة المحمدية شارعه .

والعنوان لهذه المكتبة المقتر الكريم بنظير ما في الصدر ، والدعاء بأول سبعة
في الصدر من الدعاء .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما في هذه الصورة :

المقتر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، العونى ،
النصيرى ، الفلانى ؛ أعز الله تعالى أنصاره . فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكتبة .

المرتبة الثانية : الدعاء للجناب ، وهو على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى — أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم . والرسم فيه أن يترك

تحت « الملكى الناصرى » عرض ثلاثة أصابع بيضا كما في المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيف ، كتب : أعز الله تعالى نصرة

الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، العونى ،

الذخرى ، العضدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ،

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب الكريم ، تهدى إليه سلاماً رائقاً ، وثناءً عاقباً ،

وتوضيح لعلمه الكريم كيت وكيت ، والقصد من اهتمامه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه

بذلك ، والله تعالى يجرسه بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسِبُ ذلك .

دعاء منه : ولا زالت عِزائمه تُعير السُّيُوفَ المَضَاءَ ، وتَعَلَّم السَّهَامَ التَّقْوَدَ
في القَضَاءِ .

آخر : ولا زال جنابُه مرَّعًا ، وسحابُه مرَّعًا ، ورُعبُه لا يدع من قلوب
الأعداء مَوْضِعًا .

آخر : ولا زالت عِزائمه تُباري السُّيُوفَ ، وتَشُقُّ الصُّفُوفَ ، وتُجَارِي
إلى مَقَاتِلِ الأعداءِ الحُتُوفَ ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّابِ ، كتب : أدام الله تعالى جَلالَ الجنابِ الكريمِ ، العالی ،
القضائِي ، الكبیرِي ، الصَّدرِي ، الرَّیسی ، العَوْنِي ، الغِیائی ، المَلادِي ، الفلانی ؛
ويُدعى له بما يناسبه ، والباقي من نِسْبَةِ أربابِ السُّيُوفِ .

دعاء يناسبه : وحرس سماءه التي تغني عن المصاييح ، ونعماءه التي هي للنعم
مفاتيح .

آخر : وبلغه أشرف الرتب ، وملا به قلوب الأعداء غاية الرهب ، وشكر
ندى قلبه الذي لم يدع للغمام إلا فضل ما وهب ، صدرت .

وإن كان قاضيًا ، كتب : أعز الله تعالى أحكام الجناب الكريم العالی ،
القضائِي ، الإمامِي ، العالِي ، العَلَمِي ، الأوحدِي ، الفلانی . ويدعوله ، نحو :
ونور بعلمه البصائر ، وسرِّ بحكمه السرائر ، وجعل فيض يمه مما لا تُودع دُرره إلا
في الضائر . والباقي من نِسْبَةِ ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصُوفِيَّةِ ، كتب : أعاد الله تعالى من بركات الجناب
الكريم ، العالی ، الشَّيخِي ، الإمامِي ، العالِي ، العامِلِي ، الورَعِي ، الزاهدِي ، الفلانی .

وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْو : وَلَا زَالَ يُقَاتَلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابَلُ فَسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَتُجَلَّى
دُجَى الظُّلَمَاءِ بِصَبَاحِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا يَزِدَانِ بَعْرَضٍ بِخِدْمَتِهِ ، وَيَزِدَادُ نَضْرَةَ بِنَظَرْتِهِ .

وَالعنوان لكلّ منهم باللقاب الصدر، والدعاء بأول سبعة من دعائه أو نحو ذلك.
وصورة وضعه أن يكتب في سطرين ألقابه ودعائه وتعرفه كما في هذه الصورة:
الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ،
النصيرى ، الفلانى ، أعز الله تعالى نصرته فلان الفلانى
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى كما في المكاتبه
التى قبلها .

الطبقة الثانية — من المرتبة الثانية : ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى .
والرسم فيه أن يترك تحت الملكى الفلانى قدر أربعة أصابع بياضاً . ثم يختلف الحال
فى ذلك .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كُتِبَ : ضاعف الله تعالى
نعمة الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، العوفى ،
النصيرى ، الذخرى ، الفلانى ؛ ثم يدعى له ، نحو : ونصره فى جلاده ، وأيده
فى مواقف جهاده ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاماً
بسوق ، وثناء يروق ، وتوضيح لعلمه كيت وكيت ؛ فالجناب العالى ، يتقدم بكيت
وكيت ؛ فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسب هذه المكاتبه : يقال بعد استيفاء الألقاب ، ولا زال
عزمه مؤيداً ، وعززه مؤبداً ، وأجتهاده وجهاده : هذا يسر الأولياء وهذا يسوء العدا ؛

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالی تحُصّه بالسّلام، والثناء الوافر الأقسام، وتوضّح لعلمه كيت وكيت .

آخر : ولا زالت آراؤه كواكب يهتدى بلوامعها ، وتقرأ سورة النصر في جوامعها ، وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتي الأولياء بهوامعها .

وإن كان من الكُتاب، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی، القضاة، الكيبرى، الصّدرى، الرّئيسى، القوامى، النّظامى، الفلانى ؛ ثم يدعى له نحو : ولا زال يرجى لكلّ جليل ، ويؤمل لكلّ جميل ، ويؤهل لكلّ منتهى تفصّر دونه أصابع النّيل ؛ صدرت هذه المكتبة، والباقي على ما تقدم في أرباب السيوف .

وإن كان من القضاة، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی، القضاة، العالی، الفاضلى، الأوحدي، الصّدرى، الرّئيسى، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : ودفع عنه الأباطيل ، وأرشد يهداه من الأضاليل .

وإن كان من مشايخ الصّوفية، كتب : أعاد الله تعالى من بركة الجناب العالی، الشّيخى، الإمامى، العالی، الكاملى، الورعى، الزاهدى ؛ ويدعى له، نحو : ولا زال تُكشّف به اللّواء، وتطبّ به الأدواء . صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالی تهدي إليه سلاماً، وتخصّ عن مثل المسك ختاماً، وتوضّح لعلمه .

دعاء آخر : نفع الله بدعواته التي لا حاجب لها عن الإجابة، ولا عارض يمنعها عن الإصابه، وأمتع بركاته التي هي أمن للناس ومثابه . صدرت .

والعنوان الألقاب التي في صدر المكتبة . والدعاء : ضاعف الله تعالى نعمته ؛ ثم التعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما في هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذئرى، الفلانى . ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكاتبه .
الطبقة الثالثة - أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى وما فى معنى ذلك . والرسم
فيه أن يُترك تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل الذى فيه البسمله
ما يسع سطرين فقط . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة
الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذئرى ، الفلانى . ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه وأظهره ، وكتب
عدوه وقهره ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما طيبا ، وثناء
مُطنبا ، وتوضّح لعلمه كيت وكيت ؛ فالجناب العالى يتقدم بكيت وكيت ؛ فيحيط
علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموه بجهاده كُلِّ سَنَان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف
وسنان . صدرت هذه المكاتبه تحية بسلام يطيب ، وثناء يهتر غصنه الرطيب ،
وتوضّح لعلمه .

وإن كان من الكُتّاب ، كُتِب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، القضاى .
والألقاب من نسبة ما تقدم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء ،
نحو : ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحا ، ونجم رُفده [لأنواء الفضل مانحا]^(١)
صدرت .

(١) بيض فى الاصل لبقية هذه السجمة فاثبتناها لئتم الكلام .

وإن كان من القضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى ، والألقاب من نسبة ما تقدم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى . والدعاء ، نحو : ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ، ولا مجال الحدال من مرگيه . صدرت .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى الشيخى . وبقية الألقاب من نسبة ما تقدم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجنب . والدعاء ، نحو : نفع الله ببركات خلواته التى كم أنجلت عن الرشاد ، وبان فى مرءاتها نور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لا إنارة الزناد .

والعنوان بنظير الألقاب التى فى صدر المكاتبه ؛ والدعاء أدام الله تعالى نعمته . وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

الجنب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذئرى ، الفلانى ؛ أدام الله نعمته فلان الفلانى
والعلامة « المملوك فلان » تحت البسملة بقلم مختصر الطومار .

المرتبة الثالثة — الدعاء للجلس ، ويختص بالجلس العالى ، والبياض فيه تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدم فى الجنب العالى . ويختلف الحال فيه .

فإن كان من أرباب السيف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذئرى ، العونى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه ، ووفر من الخيرات قسمه ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تهدى إليه سلاما ، وتوفر له من الخير أقساما ، وتوضع لعلمه المبارك

كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَالْمَجْلِسُ يَتَقَدَّمُ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ، فَيَحِيطُ بِذَلِكَ عِلْمًا . وَاللَّهُ تَعَالَى
يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

وهذه أدعية تليق بهذه المكتابة .

دعاء من ذلك : وَلَا زَالَ مَشْكُورَ الْأَهْتِمَاءِ ، مَوْصُوفَ الْمُحَاسِنِ وَصَفَ الْبَدْرِ
النَّمَامِ ، مَعْرُوفًا بِجَمِيلِ الْأَثَرِ مِثْلَ مَا تُعْرَفُ مَوَاقِعُ الْعَمَامِ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ
إِلَى الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا ، وَتُسَدَّدُ لِرَأْيِهِ الصَّائِبِ سِهَامًا ، وَتَوْضَعُ
لِعِلْمِهِ الْكَرِيمِ .

آخِرُ : وَلَا زَالَ سَيْفًا يُدْفَعُ بِحَدِّهِ ، وَيَجْرِي مَاءُ النُّصْرِ مِنْ فِرْنِدِهِ ، وَيَتَنَوَّعُ بِهِ
الظُّفْرُ فَيَقْتُلُ بِتَجْرِيدِهِ وَيُخَافُ وَهُوَ فِي غَمِّهِ .

وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْتَابِ ، كَتَبَ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْقَضَائِيَّ ،
الْأَجَلِّيَّ ، الْكَبِيرِيَّ ، الرَّيْسِيَّ ، الْمَسْجِدِيَّ ، الْأَوْحِدِيَّ ، الْأَيْبَرِيَّ ، الْفَلَائِيَّ ،
وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَسَدَّدَ رَأْيَهُ وَوَفَّقَهُ ، وَصَدَّقَ فِيهِ الظَّنَّ وَحَقَّقَهُ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَ
السَّعَادَةِ ثُمَّ لَا فَرْقَهُ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ تَشْكُرُ مَسَاعِيهِ ، وَأَهْتِمَاءَهُ
الَّذِي بَاتَ طَرْفُ النُّجْمِ وَهُوَ يُرَاعِيهِ ، وَتَوْضَعُ لِعِلْمِهِ الْكَرِيمِ .

آخِرُ : وَلَا تَزَعْ عَنْهُ تَوْبَ سَعَادِهِ ، وَلَا غَيْرَ مِنْهُ جَمِيلَ عَادِهِ ، وَلَا عُرْفَ سِوَى
بَابِهِ الَّذِي لَوْ كَانَ لَهُ الْحَقُّ فِي جَبْهَةِ الْأَسَدِ لِاسْتِعَادِهِ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى
الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ تُهْدَى إِلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْتِنَاءُ الَّذِي تَنْطِقُ بِهِ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ، وَتَوْضَعُ
لِعِلْمِهِ .

وَإِنْ كَانَ مِنَ الْقَضَاةِ ، كَتَبَ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْقَضَائِيَّ ،
الْكَبِيرِيَّ ، الْعَالِمِيَّ ، الْعَامِلِيَّ ، الْفَاضِلِيَّ ، الْأَوْحِدِيَّ ، الْفَلَائِيَّ ، وَيُدْعَى لَهُ ،

نحو : ولا بَرِحْتُ طُلُبْتَهُ مَفِيدَةَ الْمَطَالِبِ ، مُورِيَةً الْهُدَى فِي الْغِيَابِ ، قَائِمَةً أَقْلَامُ هِدَايَتِهَا فِي لِيَالِ الْحَيْرَةِ مَقَامَ الْكَوَاكِبِ .

آخسر : ولا بَرِحَتِ الدُّنْيَا مَمْطُورَةً بِعَمَامِهِ ، مَجْبُورَةً بِدُخُولِهَا تَحْتَ ذِمَامِهِ .

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب : أدام الله تعالى بركة المجلس العالی ، الشَّيْخِي ، الإِمَامِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ، الْعَابِدِي ، الْوَرَعِي ، الزَّاهِدِي ، الْأَوْحِدِي ، الْفَلَائِي ، وَيَدْعِي لَهُ نَحْو : وَلَا زَالَ نُورُهُ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُدْعَى بِاسْمِهِ إِلَيْهِ .

آخسر : أعاد الله من بركاته على الراعي والرعية ، وجعل خَلَوَاتِهِ خَلَوَاتِ كُلِّ نَفْسٍ رَاضِيَةٍ مَرْضِيَةٍ ، وَالْبَاقِي عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

والعنوان الألقاب التي في الصدر ؛ والدعاء : أدام الله تعالى نعمته . ثم التعريف .

وصورة وضعه في الورق أن تكتب ألقابه والدعاء والتعريف كما في هذه الصورة :

المجلس العالی ، الأميري ، الكبيرى ، العالی ، المجاهدى ، المؤيدى ،

الدُّنْحَرِي ، الْعَوْنِي ، الْفَلَائِي ؛ أدام الله تعالى نعمته فلان الفلائی

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختصر الطومار تحت المَلَكِي الفلائی ، على ما تقدم

في المكتبة قبلها .

وأعلم أن ترتيب هذه الدرجة على هذه المراتب : من الدعاء بأعز الله تعالى أنصار

المقرّ الكريم ؛ ثم أعز الله تعالى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ؛ ثم ضاعف الله تعالى نعمة

الجناب العالی ؛ ثم أدام الله تعالى نعمة الجناب العالی ، ثم أدام الله تعالى نعمة

المجلس العالی - هو المستقر عليه الحال بين كتاب الزمان بالديار المصرية . وجعل

في "عُرْفِ التَّعْرِيفِ" أعلى المراتب في الدعاء : أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم ؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعه .

ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ المَقْرِّ الكَرِيمِ ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ المَقْرِّ الكَرِيمِ ؛ ثم أدام الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ ؛ ثم ضاعف الله تعالى نعمة الجَنَابِ العَالِي ، وحرس الله تعالى نعمة الجَنَابِ العَالِي ، مع اختصار الألقاب وحذف بعضها ؛ ثم أدام الله تعالى نعمة المجلس العَالِي . وعلى كثير من ذلك كان الحال جاريا إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس في التغيير إلى أن صار الأمرُ على ما هو عليه الآن .

قلت : وكانوا في الزمن السالف في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وما والاها لا يأتون مع المَقْرِّ الشريف ، والمَقْرِّ الكَرِيمِ ، والمَقْرِّ العَالِي ، والجَنَابِ الشريف ، بأصدرناها ولا بصدرت هذه المكاتبه كما هو الآن ؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالى أنصار المَقْرِّ الشريف» : المملوكُ يُقبَلُ الباسطة . ثم يأتي بالإنياء بعد ذلك مثل أن يقول : المملوكُ يُقبَلُ الباسطة الكريمة التي هي معدن السباح ، وموطن مأبوهن العدا من صدور الصفاح ، وينهى . أو يقول : يُقبَلُ الباسطة الكريمة ، ويرتج منها في كل ديمه ؛ وينهى . أو المملوكُ يُقبَلُ اليد الشريفه ، ويلجأ إلى ظلها الوريقه ، وينهى . ومع «الجَنَابِ الشريف» لفظُ «المملوكُ يُخدم» . ثم يقول : ويئدى مثل أن يكتب : المملوكُ يُخدمُ بأنيته ، ويفضُّ عقود الشكر على أُنديته ، ويئدى لعلمه الكريم . أو المملوكُ يُخدمُ بأنيته التي تزيد الطيب طيبا ، وتسرى سرى السحب فلاتدع في الأرض جريبا ؛ ويئدى لعلمه الكريم . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرت هذه الخدمة ، مثل أن يقول : صدرت هذه الخدمة وسلامها يتضوع ، وثناؤها السافر لا يتبرقع .

الدرجة الرابعة

(الابتداء بصيغ مُحَرَّرَة من صدور مكاتبات الأدمية)

اعلم أن صدور المكاتبات المفتحة بالأدمية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف :
أصدرناها أو صدرت هذه المكاتبه ؛ ثم يقال : وتبدي لعلمه أو وتوضَّح لعلمه .
ومن أجل ذلك جعلت هذه الدرجة دون درجة الأفتتاح بالدعاء ؛ لأن هذه فرع
من فروع تلك ، وحينئذ يكون الصدر مُشْتَمِلاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء .

أحدها - [أفتاح] صدور المكاتبه بقوله : أصدرناها أو صدرت .

والثاني - الإشارة إلى المكاتبه بقوله : هذه المكاتبه .

والثالث - الإعلام بما صدرت بسببه المكاتبه . فأنظم من ذلك ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى - الأفتاح بصدور المكاتبه ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى - صدرت والعالى ؛ وهى أن تُفْتَحَ المكاتبه ، بأن يقال : صدرت

هذه المكاتبه إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيف ، كتب : صدرت هذه المكاتبه

إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذخرى ، الأوحدي ،

الفلافى ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمته ، ووفّر من الخير قسّمته ، تتضمن

إعلامه كيت وكيت . فالمجلس العالى يتقدّم بكيت وكيت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده

والله الموفق .

وإن كان من الكُتّاب ، كتب : صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى ،

الفضائى ، الكبيرى ، الرئيسى ، الكاملى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدي ،

الفلافى ، ويدعى له ، نحو : حرس الله مجده ، وأنجح قصده ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
 القضاة ، الأجل ، الإمامي ، الصُدري ، الفقيهي ، الكامل ، الفاضلي ، الفلاني ؛
 ويدعى له ، نحو : أيد الله أحكامه ، ووَفَّرَ من الخير أقسامه ؛ والباقي على ما تقدم .
 وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
 الشَّيخي ، الإمامي ، العالم ، العاملي ، الزاهدي ، العابدي ، الورعي ، الأوحدي ؛
 ويدعى له نحو : أمد الله من بركته ، ونفع المسلمين بصالح أدعيته ؛ والباقي
 على ما تقدم .

والعنوان بالألقاب التي في الصدر وأول جمعة من الدعاء فيه . وتكون الألقاب
 والدعاء والتعريف في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميري ، الكبير ، المجاهدي ، الأويدي ، الذخري ،

الأوحدي ، الفلاني . أدام الله رفعتَه فلان الفلاني

والعلامة « المملوك فلان » تحت « المملكي الفلاني » بقلم مختصر الطومار الثقيل ،
 وربما جعل بعضهم العلامة « أخوه » .

الطبقة الثانية - صدرت والسامى . وهي أن تُفْتَحَ المكتبة بأن يقال :
 صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، والبياض فيها تحت المملكي الفلاني كما
 في المكتبة التي قبلها : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط
 على ما تقدم .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
 إلى المجلس السامى ، الأميري ، الكبير ، المجاهدي ، العُصدي ، الذخري ،
 الأوحدي ، الفلاني ؛ ويدعى له نحو : أدام الله سعده ، وأنجح قصده . ثم يقال :

تتضمن إعلامه كيت وكيت . فالمجلس السامي يتقدم بكيت وكيت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي القضائي ، الأجلّي ، الكبيرى ، الزينى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدي ، الفلاني ؛ ويدعى له ، نحو : ضاعف الله تعالى إقباله ، أو أدام الله سعادته ، وبلغه إرادته ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي ، القضائي ، الصُدري ، الفقيهى ، الإمامى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدي ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الشَّيخى ، العالمى ، العاملى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدي ، الفلاني ؛ ويدعى له ، نحو : لا أخلاه الله من أنسه ، ولا أبعدهُ من حضرة قُدسه . والباقي على نحو ما تقدم .

والعنوان الألقاب التي في صدر المكتبة بالسَّجعة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العضدى ، الذنرى ،
الأوحدي ، الفلاني . أدام الله سعده فلان الفلاني
والعلامة «أخوه فلان» تحت المَلِكى الفلاني ، بقلم مختصر الطومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الافتتاح بالإشارة إلى المكتبة ، وهي أن يُكْتَبَ : هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى بغير ياء في ألقابه ، ويعبر عنه بالسامى بغير ياء ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى متبوع أيضا : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يَسَعُ سطرين فقط . ثم إن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُيوف ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ، الذُخر ، فلان الدين ، ويُدعى له نحو : أدام الله إقباله ، وبلغه آماله ، أو أنجح الله قصده ، وأعذب وِرده ، تُعلمه كَيْت وكَيْت : فالمجلس يتقدمُ بكَيْت وكَيْت : فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، الصُّدر ، الرئيس ، الأوحِد ، ويدعى له ، نحو : أدام الله سعادتَه ، وبلغه من الخير إرادتَه ، تُعلمه كَيْت وكَيْت . والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : هذه المكتبة إلى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، فلان الدين ، نفع الله تعالى بركته ، ولا أخلى مجالس الذكر من محاسن سَمِيته وسَمِيته . والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان الألقاب التى فى صدر الكتاب ، وأولُ سَجْعَةٍ من الدعاء الذى فيه وتعرفه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ،
الذُخر ، فلان الدين . أدام الله إقباله فلان الفلانى

المرتبة الثالثة - الافتتاح بالإعلام بالقصد ، وهو أن يكتب : يعلم فلان ، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليَعْلَمَ بإثبات لام الأمر في أوله ، فحذف كُتِبَ الزمان منها اللام اللازم لإثباتها وأجروها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يُترك تحت المَلِكِ الفلاني بياضٌ : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسعُ سطرين كما في المكاتبة قبلها وما قبل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف ، كُتِبَ : يعلم الأمير ، الأجل ، الكبير ، المؤيد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ، فلان الدين ، ويدعى له ، نحو : أدام الله عزه ، ووفر من الخير كثره ، كَيْتَ وكَيْتَ ، فمجلس الأمير يتقدم بكَيْتَ وكَيْتَ ، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق بمنه وكرمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : يعلم مجلس القاضي ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كتب : يعلم مجلس القاضي ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : يعلم مجلس الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، الأوحِد ، الكامل ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ، والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان لهذه المكاتبة الألقاب التي في الصدر والدعاء بأول جملة مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس الأمير ، الأجل ، الكبير ، المؤيد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ،
 فلان الدين . أدام الله عزّه . فلان الفلاني

والعلامة تحت البسملة الأسمُ بقلم مختصر الطومار الثقيل .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات وعنواناتها ليست موقوفاً عندها ، بل لكل واحد فيها اختياراً من تقديم وتأخير ، وتبديل لقب بلقب ، وزيادة ونقص ، إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة ، مثل زيادة لقب ولقبين وثلاثة ، ونقصها . على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون في الإخوانيات الألقاب المرغبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للقرّ الشريف لأرباب السيوف بعد استيفاء الألقاب المفردة : عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملة ، ممدد الدول ، مشيد الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . ومع الدعاء للقرّ الكريم : عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ، نصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، عماد الدولة ، عون الأمة ، دُخر الملة ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ، وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها .

وإن كان من رؤساء الكُتاب ، قيل : جلال الإسلام والمسلمين ، سيد الكُبراء في العالمين ، رئيس الأصحاب ، قوام الأمة ، نظام الملة ، مدبر الدولة ، دُخر الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، وكذلك إلى آخر المراتب كل مرتبة بحسبها . وكذلك القول

في القضاة ومشايخ الصوفية كلُّ أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته وربته .
ثم اقتصرُوا بعد ذلك على استعمال اللَّقَبِ المضافِ إلى الملوك والسلاطين ، مثل ظهير
الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتَّابُ الزمان هذه الألقاب المركَّبة جملةً
أختصاراً ، وهو مستحسن : لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ، ولتُخالف
المكاتبِ الصادرة عن السلطان ، فتكون مخصَّصةً بالألقاب المركَّبة دون غيرها .

القسم الثاني

(من المكاتب الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر
أهل الدولة ، الأجوبة ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُفتَّح من ذلك بما تُفتَّح به الإبتداءات المتقدمة الذكر)
والرسم فيها أن يكتب صدر الكتاب كما يكتب أن لو كان ابتداءً ؛ ثم يذكر ورود
الكتاب المجاب عنه ، ويُؤتى بالجواب عما تضمنته ؛ وهو على أربع مراتب :
المرتبة الأولى — وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد ، أن يعبر عنه بالمثال .
وذلك مع الإبتداء بلفظ يقبل الأرض وينهى كيت وكيت . وصورته أن يقول بعد
كالمصدر : ورود المثال الكريم العالی أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان ،
ويذكر ما يليق به من المجلس العالی أو المجلس السامی أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقبل
المملوك لوروده الأرض ، وأدى من واجبه الفرض ؛ وتضاعف دعاء المملوك لتأهليه
لغلمانية الأبواب الكريمة ، وأبتهج بوردته ، وحمد الله وشكره على ما دلَّ عليه : من
عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره — إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة —
أو من عافية مولانا قاضي القضاة — إن كان قاضياً — أو من عافية الخدم وصحة مزاجه

(١) أي الذي منه وينهى ورود المثال الخ وهكذا في الآتي .

المحروس . وقَابَل المملوك المراسيمَ الكريمةَ بالامتثال ؛ فَفَهِم مَارِسِمَ له به من كَيْتَ
وَكَيْتَ ؛ والمملوكُ لم يكن عنده غَفْلَةٌ ولا إهمالٌ فَيَا رُسِمَ له به . وإن كان ثمَّ فِصُولٌ
كثيرةٌ ، قال : فأما مَارِسِمَ له به من كَيْتَ وَكَيْتَ فقد آمنتله المملوكُ ؛ وَيُجَاوِبُ عنه .
ثم يقول : وأما مَارِسِمَ له به من كَيْتَ وَكَيْتَ ، فالأمر فيه كَيْتَ وَكَيْتَ ، حتى يَأْتِيَ
على آخر الفُصُولِ ؛ فإذا آتتهى إلى آخرها ، قال : وسؤالُهُ من الصَّدَقَاتِ العَمِيعةِ ،
إمدادُهُ بمَراسِمِهِ الكريمةِ وَخِدْمِهِ ، لِيَفُوزَ بقضائها ، وَيُأَدِرَ إلى آمتثالِها ؛ والمملوكُ
مملوكه وعبدُ بابه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمثل العالى بدون الكريم ، وذلك
مع الابتداء بلفظ يُقْبَلُ الأرضَ وَيُنْهَى بعد آتتهاله إلى الله تعالى ؛ والابتداء بِقَبْلِ
الأرضَ بعد رَفَعِ دُعائه ؛ وَيُقْبَلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريفِ ؛ وَيُقْبَلُ الباسطَ الشريفِ .
فأما مع يُقْبَلُ الأرضَ بعد آتتهاله ، فالأمرُ على ما تقدمَ في جوابِ المَكاتِبَةِ قبلها ،
إلا أنه يقتصر على المثلِ العالى دُونَ الكريمِ كما تقدمت الإشارةُ إليه . وأما مع يُقْبَلُ
الأرضَ بعد رَفَعِ دُعائه ، فإنه يقول بعد تكملة الصِّدْرِ : ورودَ المثلِ العالى أعلاه اللهُ
تعالى على يد فلان ، فقبَّله حينَ قابله ، ووقَّفَ على ما تضمَّنه من كَيْتَ وَكَيْتَ ،
وَفَرِحَ بما دَلَّ عليه من عافيةِ المَخْدُومِ ، وَحَمِدَ اللهُ تعالى وشكَّره على ذلك ، وَفَهِمَ
ما أشار إليه من كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَيُجَاوِبُ عنه ، ثم يقول : والمملوكُ يسألُ إحسانَ
المخدومِ بتشريفِ المملوكِ بمهمَّاته ومَراسِمِهِ لِيَفُوزَ بقضائها ، فإن المملوكَ وَقَفُ المالكِ ؛
طالَعَ بذلك ، والله تعالى يُؤَيِّدُهُ بمنَّه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقْبَلُ الأرضَ
بالمَقَرِّ الشريفِ ، وَيُقْبَلُ الباسطَ الشريفِ ؛ فإنه يُقالُ وَرُودَ المثلِ العالى أيضا ،
وربما قيل ورودَ مثاليهِ العالى . وقد يقال المَشْرِفُ الكريمِ العالى على ما تقتضيه رتبةُ
المكتوبِ إليه ، ويرتضيه المكتوبُ عنه ؛ والباقي على نحو ما تقدم .

المرتبة الثالثة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة، على التانيث؛ وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد. ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب. فيقال: يقبل الباسطة وينهى ورود المشرفة الكريمة، ومع اليد الشريفة، والكريمة، والعالية؛ وفي معنى ذلك يختم إذا كتب بها؛ وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، وإن كان المكتوب عنه يكتفى عن نفسه بنون الجمع المقنضية للتعظيم. ثم يقول: في كل منها قبلها المملوك حين قبلها، ووقف على ما تضمنته من محبته ومودته، وفيهم ما شرحه من أمر كيت وكيت، ويجاوب عنه؛ ثم يقول: والمستمد من محبته تشريف المملوك بمراسيمه ومشرقاته وخدمه: ليقوز بقضاها، ويأدر إلى أمثالها؛ فإن المملوك ما عنده غفلة فيما يقتضيه رأيه العالی، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

المرتبة الرابعة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكتبة. وذلك مع الإبتداء بالدعاء بلفظ: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی؛ وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالی؛ وصدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی، أو المجلس السامی؛ أو هذه المكتبة إلى المجلس السامی؛ أو يعلم مجلس. فيقال: وتوضح لعلمه، أو موضحة لعلمه، أو تتضمن إعلامه، أو تعلمه، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة، وورود مكاتبته، فوقفنا عليها، وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت، ويجاوب عنه؛ ثم يقول: فيتقدم الجناب أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما يقتضيه الحال، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوادثه.

وأعلم أن لكتاب السر أجوبة لنواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتبتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتبتهم على الحضرة السلطانية؛ وتحسين السفارة في ذلك؛ ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته.

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحروس يُكْتَب ما صورته : وَيُنْهَى بعد رَفْعِ
أدعيته الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخْلِصٍ ، بدوامِ أيامِ مولانا
ملكِ الأمراء ، أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وحُلُودِ سعادته عليه ، أنَّ المثلَّ الكريمَ وردَ
على المملوكِ على يدِ فلانٍ ، فنَهَضَ له المملوكُ ، وأجملَ في تلقِيهِ السُّلُوكَ ، وفَضَّه عن
صدقاتِ عميمه ، وتفَضُّلاتِ جسيمه ؛ وفرِحَ بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ
الأمراء - أعزَّ الله أنصاره - وعافِيته ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ؛ وتضاعفَ سرورُ المملوكِ
بذلك ، وتزايدَ أبتهاجُه به ، وسألَ الله تعالى أنْ يُدِيمَ حياةَ مولانا ملكِ الأمراء ،
أعزَّ الله أنصاره ، وَيُبْقِيَهُ ؛ وأتتهى إلى ماتضمته الإشارةُ الكريمةُ فى معنى تجهيزِ
المشارِ إليه إلى خِدمةِ الأبوابِ الشريفةِ بما على يده من المكتبةِ الكريمةِ ، وما رسمَ به
من القيامِ فى خِدمتها وعَرْضِها بين يدي المواقفِ الشريفةِ شرفها اللهُ تعالى وعظمتها ؛
وقابلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالامتثالِ بالسَّمْعِ والطاعةِ ، وبأدبٍ إلى ما رسمَ به ؛
وقد عَرَضَ المملوكُ المكتبةَ الكريمةَ على المَسَامعِ الشريفةِ ، وكُتِبَ الجوابُ الشريفُ
عن ذلك بما سَتَحِيطُ به العلومُ الكريمةُ ؛ وعادَ بذلك إلى خِدمةِ مولانا ملكِ الأمراء
أعزَّ الله أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراءِ عزَّ نصره ، ومُحِبُّه القديمِ ،
والمعترفُ بإحسانه وصدقاته ؛ ويسألُ تشريفَه بالمهماتِ والخِدمِ ، أنهى ذلك ، إن شاء
الله تعالى .

وفى جوابِ بقيةِ التَّوَابِ بالممالكِ الشاميةِ : كُتِبَ السلطنةَ بحماسةٍ وطَرَابُلسَ وصدفَ
والكركَ ، ومقدّمِ العسكرِ بغزوةٍ ، يكتبُ : وَيُنْهَى بعد رَفْعِ دُعائه ، وإخلاصِهِ فى محبتهِ
وولائه ، وأعترافيه بإحسانِ مولانا وآلائِهِ ، أنَّ المثلَّ العالى - أعلاه اللهُ تعالى -
وردَ على المملوكِ على يدِ فلانٍ ، فقبَّله المملوكُ ، وأحسنَ فى تلقِيهِ السُّلُوكَ ؛ وفرِحَ بما دَلَّ
عليه من عافيةِ مولانا وسلامتهِ ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ، وحَمْدِ اللهُ تعالى على ذلك ،

وَأَتَمَّى إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ : من تجهيز المطالعة الكريمة إلى الأبواب الشريفة ، شرفها الله تعالى وعظّمها ، وفهم المملوك ذلك ، وأمتل ما أشار إليه بالسمع والطاعة ، ووقف في خدمتها عند العرض على المسامع الشريفة ، وأحاطت العلوم الشريفة بمضمونها ؛ وكتب الجواب الشريف عن ذلك بما سيحيط به علم مولانا ؛ وقد عاد فلان بالجواب الشريف وبهذه الخدمة ، وحمله المملوك من السلام والشوق والدعاء والولاء وتقبيل الأرض ما يُبديه لمسامع مولانا . والمملوك ينال إحسانه الإصغاء إلى ذلك ، والتشريف بمراسيمه وخدمته : ليأدر إلى قبولها . والله تعالى يؤيده ويحرسه بمنه وكرمه .

وعلى قياس ذلك في غير هذه من المكاتبات بحسب ما تقتضيه رتبة كل واحد من أصحابها .

الضرب الثاني

(من الأجوبة ما يفتح بورد المكاتبه مصدرا بلفظ : وردت أو وصلت)

أو وقفت على المكاتبه ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثال الكريم الفلاني ، وذكرك سلامته أحلى من ذكر الأوائل ، وقد تطرّز منه طرازا أشرف من طراز الغلائل ؛ وما سكن القلب إلى شيء كسكونه إليه ، ولا رأى واردا أكرم منه عليه ؛ فقابل نعمة قدومه بدوام شكرها ، وطوى صحائف الآمال إلا من نشرها ؛ وإذا كان وجه الأيام مقطباً استغنى بيشير وجهه الميمون عن بيشيرها ؛ فإن حسن في رأيه الإجراء على عوائد إحسانه [من التشريف بمراسيمه وخدمته] والمواصله بها ، [نالت] النفس من ورودها نهاية أربها .

(١) بياض في الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبة المطلقة : وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب ، وعيون أهل الأدب ، ممن له ملكة في الإنشاء ، وقوة في النظم والنثر ؛ فإنها لا تتوقف على ابتداء مخصوص ، آتداء ولا جوابا ؛ بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الأفتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة ، بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها ، بل ربما اقتصر فيها على الشعر خاصة دون النثر .

المهيع الثاني

(في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم : من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما آلهال مستقر عليه في زماننا)

اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات ، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به ، إلى من فوق رتبته أو مساويه في الرتبة أو دونه فيها ، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى — من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان «أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم» ككافل السلطنة : وهو نائب السلطان بالحضرة ، وأتابك العساكر ، ونائب السلطنة بالشام . والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب : المرتبة الأولى — من يكتب له عن هذه الطبقة «الفلاي بمطالعة» ، ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأته — أتابك العساكر بالأبواب الشريفة ، وكان ما كتب له «المخدومي الأتابكي فلان الفلاي» باللقب المضاف إلى لقب السلطان ، «أتابك العساكر المنصورة» .

المرتبة الثانية - من يُكْتَبُ إليه « الأبواب بمطالعة » ومن يُكْتَبُ إليه بذلك عن النائب الكافل بالحضرة، والأتابك - نائب السلطنة بالشام. فقد قال في "التتقيف": إن بهذه المكتبة يُكْتَبُ عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أُظُنُّ؛ ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام - الدوادار، وأميرأخور، ومقدمو الألويف بالديار المصرية، وأكابر الأمراء مقدمي الألويف بالشام، وكافل المملكة الشريفة الحلبية .

المرتبة الثالثة - من يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يُكْتَبُ عن كافل السلطنة بالحضرة إلى نائب السلطنة بحلب . وقد ذكر في "التتقيف" أنه كان يُكْتَبُ بذلك عن الأمير يلبغا العمري (يعني الخالصي) وهو أتابك الديار المصرية، إلى نائب الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِبَ بعده إلى نائبي الشام وحلب، الأمير منكلي بغا، والأمير الجاي؛ وتوابع السلطنة بالديار المصرية؛ وبذلك يُكْتَبُ عن نائب الشام إلى كلٍّ من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزير وكاتب السريها .

المرتبة الرابعة - من يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « الباب الكريم والباب العالي » أما الباب الكريم، فإنه يُكْتَبُ بذلك عن النائب الكافل والأتابك^(١)

وبذلك يُكْتَبُ عن نائب الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإستادار الأملاك الشريفة، وناظر الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظر الخواص، وناظر الدولة، وحاجب الحجاب بالشام، وقاضي القضاة الشافعي بالشام، وكاتب

(١) بياض في الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله إلى نائب الشام ونائب طرابلس إلى آخر ما يأتي بعد . وحرر .

السَّرْبَه، ونائب السلطنة بطرابُلس، ونائب السلطنة بحمّاء، ونائب السلطنة بصفد،
ونائب السلطنة بالكرك .

أما من يكتب له عن نائب الشام الباب العالى بدون الكريم، فمقدم العسكر
المنصور بغزة، والقضاة الثلاثة بالشام، ما خلا الشافعي المقدم ذكره؛ والوزير
بالشام .

المرتبة الخامسة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة «يقبل الأرض بالمقرّ
الشريف» وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى نائب طرابُلس،
ونائب حمّاء، ونائب صفد، ونائب الإسكندرية، وأمراء الألوفا بالديار المصرية؛
وبه يكتب عن نائب الشام .

المرتبة السادسة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة «الباسط الشريف» وبذلك
يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى مقدم العسكر بغزة، ومقدم العسكر بسيس،
ونائب السلطنة بالكرك، وحاجب الحجاب بالشام، وحاجب الحجاب بحلب .

المرتبة السابعة — من يكتب له عن هذه الطبقة «الباسطة الشريفة» ومن
يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضي القضاة الشافعي بحلب .

المرتبة الثامنة — من يكتب له عن هذه الطبقة «اليده الشريفة» أو «اليده الكريمة»
أو «اليده العالیه». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى نائبي الوجه القبلي
والوجه البحري بالديار المصرية؛ ونائب القدس، ونائب حمص، ونائب الرّحبة،
ونائب البيرة، ونائب قلعة المسلمين، ونائب ملطية، ونائب دبركي، ونائب الأبلستين،
ونائب طرسوس، ونائب أذنة، ونائب بهسني؛ وأمراء الألوفا بالشام وحلب .
وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أمراء العشرات بالديار المصرية، وقضاة

العسكريها ، وحاجب الحُجَّاب بِحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفيّ ، والمالكي ، والحنبليّ ، بها .

المرتبّة التاسعة — مَنْ يُكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصَّفَقَةِ الْقَبِيلِيَّةِ ، وإلى الأُمراءِ مُقَدِّمِي الأُلُوفِ بِالشَّامِ ، وناظر الجيش به ، وأمير آلِ فَضْلِ ، ونائب حِمص ، وكاتب السِّرِّ بِحَلَب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكِي ، ونائب دَرَنْدَةَ .

المرتبّة العاشرة — مَنْ يُكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى نائب قلعة دِمَشْقَ ، والحاجب الثاني بها ، ووكيل بيت المال بها ، ومقدمي الأُلُوفِ بِحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبَةِ ، ونائب الأَبْلُسْتَيْنِ ، ونائب مَلْطِيَّةِ ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب بهسنيّ ، ونائب البيرة ، ونائب جَعْبَرِ ، ونائب الرُّهَا ، ونائب حُسْبَانَ .

المرتبّة الحادية عشرة — مَنْ يُكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء الطَّبْلُخَانَاهِ بِالشَّامِ ، ونائب القُدس ، ونائب بَعْلَبَكَّ ، ومتولّي صَيِّدَا ، وأمراء الطَّبْلُخَانَاهِ بِحَلَب ، ووكيل بيت المال بها ، والمحتسب بها ، وناظر خاصّ البريد بها ، وأمير حاجب بصفد .

المرتبّة الثانية عشرة — مَنْ يُكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : « ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ». وبذلك يكتب عن نائب الشام ، إلى والي قَطِيَا ، ورُبَّمَا زِيد فِيهِ الْكَرِيمِ .

المرتبّة الثالثة عشرة — مَنْ يُكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : « أَدَامَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء العَشْرَاتِ بِمِصْرَ ، وأمراء

العشرينات بالشام، والمحاسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بنى عقبة،
وأكابر عرب آل فضل، وأمير عرب آل علي، وأمير آل موسى، ونائب مصياف،
ومتولى بيروت .

المرتبة الرابعة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة : «المجلس العالى
مع الدعاء» . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالى المدينة،
ووالى البرية، والحاجب الثانى بغزة، وأمير آل مرآ، ومقدم عرب جزم، ومقدم
بنى مهدي، وأمراء العشرينات بحلب .

المرتبة الخامسة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرت والعالى» .
وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأنايك، إلى كاشف الوجه البحرى من الديار
المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالى أسوان، وكشاف الجسور من أمراء
الطبلخاناه بالوجهين : القبلى والبحرى بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب
آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب
بحماة، وحاجب الحجاب بصفد، وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد
الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بمحمص، وأمراء العشرات بحلب .

المرتبة السادسة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرت والسامى» .
وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأنايك، إلى والى قوص، ووالى منقلوط،
ووالى الأشموين، ووالى البهنسى، ووالى منوف، ووالى الغربية، ووالى الشرقية،
ووالى قطيا، ونائب مصياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عيتاب،
والحاجب الكبير بغزة . وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام،
وأعيان الجند بها، ومقدم بنى مهدي، ومتولى الصلت وبنجلون، ومتولى صرخد،

والحاجب الصغير بمخص، ووالى تدمر، ومقدم إقليم الخروب بصيدا، ومقدم إقليم النعاج، ووالى البقاعين، ووالى بلنياس.

المرتبة السابعة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة « هذه المكاتبه »
وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأنايك، إلى والى الحيزية، ووالى إطفيج،
ووالى قلوب، ووالى أشموم الرمان بالديار المصرية. وبذلك يكتب أيضا إلى
نائب الكختا، ونائب كركر، ونائب حجر شغلان، ونائب سرفندكار، ونائب القصير،
ونائب بغراس، ونائب الراوندان، ونائب الشغر وبكاس، ونائب الرها، ونائب
الدر بساك، ونائب شيزر بالمملكة الحلبية، وإلى نائب اللاذقية، ونائب صهيون،
ونائب حصن الأكراد، ونائب حمص، ونائب المرقب، ونائب بلاطس، ونائب
الكهف، ونائب القدموس، ونائب الخواي، ونائب العليقة، ونائب المينقة :
من أعمال طرابلس، ونائب شقيف تبرون من معاملة صفد. وبذلك يكتب [أيضا]
عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بمصر، وإلى كاشف الرملة، ومتولى حسبات،
وحامى الخربة .

المرتبة الثامنة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة « يعلم » . وبذلك يكتب
عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بالشام .

وأعلم أن وراء ما تقدم من المكاتب عن نائب الشام مكاتب أخرى إلى من هو
خارج عن المملكة، وهم على مراتب .

المرتبة الأولى — من يكتب له عنه : « يقبل الأرض » — صاحب بغداد :
كما كان يكتب للقان أحمد بن أويس، كان يكتب إليه في ورق قطع نصف الحموى
بقلم الثلث الصغير : يقبل الأرض لدى الحضرة الشريفة، العالبة، المولوية،

السلطانية، العالمية، العادلية، المؤيدية، المالكية، الفانية، ولا زالت عزيماتها مؤيده، وآراؤها مسدده، ويُنهى إلى العلم الكريم — صاحب السراى : ودشت القَبْجاق مثله بأبسط ألقاب .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الشريف »
 أبْنُ السلطان أحمد بن أويس المذكور . وورقه نظيرُ ورق والده ، وقلمه نظير قلمه — صاحب هَرَاة : مثله .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله أنصارَ المقرِّ الكريم » — صاحب ماردين : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم العالى، المولوى، الكبيرى، العادلى، السلطانى، الملكى، الفلانى؛ ورفَع مقداره، وأجزل مَبَارَه . المملوك يحدّد الخدمَةَ العالیه، ويصفُ أشواقه المتواليه؛ ويُنهى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصا: من بلاد الروم، وهو ابن عثمان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يزيد بن مراد بك بن عثمان : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم ، العالى، المولوى، الكبيرى، العالمى، العادلى، العوفى، الغيائى، الممهدى، المشيدى، الزيمى، الغازى، المجاهدى، المناغرى، المرابطى، العايدى، الناسكى، الزاهيدى، المقدمى، الأتابكى، المحسنى، الظهيرى، الملكى، الفلانى؛ معزَّ الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، مُبيد المشركين، قابع أعداء الدين، مقتلح الحُصون من الكافرين، عون الأئمة، عماد الملة، دُخْر الدولة، ظهير الملوك والسلاطين، حاكم البلاد الرومىة، صاحب بُرْصا وقيسرية؛ سيف أمير المؤمنين، قَهْر [الله] أعداء الدين الحنيفى، بعزائمهِ وَسَطَوَاتِهِ، وجعله مؤيدا فى حركاتِهِ وَسَكَّاتِهِ، وأيده فى جهاده وأجهاده بالنصر الذى لا يفارق ألوية أعلامه وراياته،

ولا زالت رعاياه محبوبه، وعساكره منصوره؛ هؤلاء يهوده [وهبائه]، وهؤلاء بوجوده
وحياته . المملوك يقبل اليد التي لازال القصد بها يزيد ، وبحر البر من أناملها مديد،
ونوالها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد؛ ويصف صفاء محبة يتضاعف
تماؤها كل يوم جديد ، وترادف تحيات أشواقها بالمؤالاة والتحميد ، ويتوأم
بهادي رسائلها بصدق المودة الدائمة على التأييد ؛ ويؤدي إلى العلم الكريم .

قلت : كذا رأيت في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب : كاتب
سر الشام كان . وفيه اضطراب وتخليط من نعتة في ألقابه [بقوله] المملكي الفلاني ؛
وقوله سيد الأمراء في العالمين ، حيث وصفه أولا بأوصاف المملوك ، ثم وصفه
بأوصاف الأمراء ؛ إلى غير ذلك من الخبط الذي لا يخفى على متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصار المقر العالی » — وزير صاحب بغداد ،
ورقه في قطع الحموي بقلم الثلث الخفيف — قاضي بغداد : مثله سواء — صاحب
لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان . ويقال في ألقابه : الأصيلي توين
التوامين ، مجهز المقاب ، ذخر القانات — صاحب سيواس : من البلاد الرومية
أيضا — صاحب آياس لوق : من البلاد الرومية — صاحب جولمرك : من بلاد
الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناب الكريم » — صاحب حصن كيفا : من بلاد
الجزيرة ، ويقال فيه : المملكي الفلاني — مقدم التركمان البياضية .

المرتبة السادسة — « الجناب العالی » — صاحب أرزنجان — صاحب جزيرة
آبن عمر من بلاد الجزيرة — صاحب أنطاليا من بلاد الروم — ابن الشيخ
عبد القادر الكيلاني شيخ الجبال .

المرتبة السابعة - « المجلس العالى » - صاحب مياقارقين : من بلاد
الجزيرة - صاحب أكلى : من الجزيرة أيضا - صاحب أرقينين - صاحب
قلعة الجوز - صاحب جرموك - صاحب أماسيا : من بلاد الروم - نائب
ماردين - خادم صاحب ماردين - صاحب بطنان - صاحب سنجار : من
بلاد الجزيرة - صاحب حاسك (?) - صاحب أزبك - صاحب الموصل -
صاحب سنوب - صاحب بوشاظ - صاحب الدربند - صاحب عين دارا -
صاحب الحمة - صاحب خلأط - صاحب طلان - صاحب تاخ - صاحب
جمشراك - نائب كرزك - صاحب القنطرة - نائب نخرت برت - صاحب
البارعية - صاحب حران - صاحب العمادية - صاحب حاني - نائب مازكرد -
نائب صالحية ماردين - أمير التركان الشهرية - صاحب أشنو .

الطبقة الثانية - ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية ، من
يكتب إليه عن السلطان : « أعز الله تعالى نصره الجناح الكريم » وهو نائب
السلطنة بحلب .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى - « الفلافى بمطالعة » وهو النائب الكافل بالحضرة السلطانية ،
وأتابك العساكر المنصورة .

المرتبة الثانية - « الأبواب بمطالعة » وهو نائب السلطنة بالشام ، والامير الدوادار
بالأبواب السلطانية ، وأستاذ الدار بها ، وأكابر الأمراء المقدمين الخاصية .

المرتبة الثالثة - « الأبواب بغير مطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب الشام .

المرتبة الرابعة - «الباب الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرأبلُس ،
ونائب السلطنة بجماعة ، ونائب السلطنة بصفد ، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية
من الأمراء المقدمين بالحضرة ممن دون الخاصكية ، وفي معنى ذلك الوزير ، وكاتب
السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ومن في معانهم .

المرتبة الخامسة - «يقبل الأرض بالمقر الشريف». وبذلك يكتب إلى حاجب
المُحجَّاب بالشام .

المرتبة السادسة - «يقبل الباسطة» وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام ،
وحاجب المُحجَّاب بحلب ، وحاجب المُحجَّاب بجماعة ، وحاجب المُحجَّاب بطرأبلُس ،
وقاضى القضاة الشافعي بحلب ، وكاتب السر بها .

المرتبة السابعة - «يقبل اليد الشريفة». وبذلك يكتب إلى نائب البيرة ، ونائب
ملطية ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب جعبر ، ونائب الرها ، ونائب الأبلستين ،
ونائب حمص ، وأمراء الطبلخاناه بدمشق .

المرتبة الثامنة - «أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب
طرُسوس ، ونائب الرحبة ، والحاجب الثاني بطرأبلُس ، ومقدمي الألوفا بها ،
والقضاة الثلاثة : المالكي ، والحنفي ، والحنبلي بحلب . إلا أنه يقال : «أعز الله
تعالى أحكام المقر» .

المرتبة التاسعة - «أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالی» وبذلك يكتب
إلى نائب بهسنى ، ونائب الرحبة ، وأكابر الطبلخاناه بالشام ، ومن تولى الإمرة من
عرب آل فضيل ثم عززل ، وقضاة العساكر المنصورة بحلب ، وناظر المملكة بها ،
وأمرآل على .

المرتبة العاشرة — «أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ». وبذلك يُكْتَب إلى أعيان أمراء الطبلخاناة بِحَلَبَ ، والحاجب الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضَلِ .

المرتبة الحادية عشرة — «ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الجَنَابِ العَالِي» وما في معناه مما يُكْتَب به إلى أرباب الأقاليم وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شيزر، وأمراء الطبلخاناة بِحَلَبَ ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بِحَلَبَ ، وناظر خاص البريد وموقعي الدست بها .

المرتبة الثانية عشرة — «صَدَرَتْ وَالْعَالِي». وبذلك يُكْتَب إلى نائب عينتاب ، ونائب الرأوندان ، ونائب الكختا ، ونائب كركر ، ونائب بغراس ، ونائب الدر بساك ، ونائب الشغر وبكاس ، ونائب القصير ، وأمراء العشرينات بِحَلَبَ ، وأعيان العشرات بها .

المرتبة الثالثة عشرة — «صَدَرَتْ وَالسَامِي». وبذلك يُكْتَب إلى مُقَدِّمِي الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، ومقدمي البريديَّةِ بها ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة — «السامى» بغير ياء . وبذلك يُكْتَب إلى والى سمرين ، ووالى الباب ، ووالى عزاز ، ووالى أنطاكية ، ووالى حارم ، ووالى كفر طاب ، ووالى الجبول ، ووالى منبج ، ووالى تل بآشر ، وأجناد الحلقة بِحَلَبَ ، وصغار البريديَّةِ بها ، وعداد التركان وعداد الأكراد .

وأعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات الصادرة عن نائب حلب [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة ، كما تقدم في المكاتبات الصادرة عن نائب الشام ؛ وهي على مراتب :

المرتبة الأولى — المكاتبه بـ «يُقْبَلُ الأَرْضَ» — القان صاحب بَعْدَادَ : كما كان يُكْتَبُ إلى القان أُوَيْسَ ، وأَبْنِه أحمدَ : يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمقام الشريف العالی ، المَوْلَوِيّ ، السُّلْطَانِيّ ، الأَعْظَمِيّ الأَوْحَدِيّ ، المَلَاذِيّ ، العَطُوفِيّ ، المُحْسِنِيّ ، القَانِيّ ، المَلِكِيّ القَلَانِيّ ، الجَلَالِيّ ؛ أعلى الله تعالى شأنه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رقاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لُواؤُهُ يَتَأَزَّرُ بالنصر ويرتدى ، وفِنَاؤُهُ يَرُوحُ إليه العِزُّ وَيَقْتَدِي ، وعِزُّهُ يُتَّقَفُ صرفَ الزَّمانِ فلا يعتاد أن يعتدى ؛ ولا يَرِحَ محموداً في مَوْقِفِ النُّصْرَةِ موقفه ، مَاضِيًا في هامات أعدائه مُرْهَفُهُ . ويُنْهِى بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة ﴿ فَتَقْبَلْهَا رَبِّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا ﴾ ومُؤَالَاةٍ شَفَعَهَا بالإخلاص ، فعجز عن وصفها ذُورُ البلاغة واللِّسَنُ ، وأَثْنِيَّةٌ جمعها فَلَذَّتْ بها الأسماعُ لَذَاذَةَ الأَعْيُنِ السَّاهِرَةِ بالوَسْنِ ؛ أن الأُمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتَبُ له «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ المَقَرِّ الشَّرِيفِ» — صاحب مَارِدِينَ . والرسم أن يُكْتَبُ إليه : أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ المَقَرِّ الشَّرِيفِ ، العَالِي ، المَوْلَوِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَادِلِيّ ، السُّلْطَانِيّ ، المَلِكِيّ ، القَلَانِيّ ؛ ويدعى له ، نحو : لَأَزَالَتْ أَيْامُهُ مَسْعُودَهُ ، وَأَبْوَابُهُ مَقْصُودَهُ ، وَالْوَيْةُ النُّصْرَةَ بِنِوَاصِي خَيْلِهِ مَعْقُودَهُ ؛ المملوك يُقْبَلُ البَدَّ الشَّرِيفَهُ ، ويقوم من الخِدْمَةِ بِأَكْلِ وَطِيقِهِ ؛ ويُنْهِى لعلمه الكَرِيمِ بعد السلام الزَكِيِّ ، والثناء المِسْكِيّ ؛ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فيحيط بذلك علمه الكَرِيمِ ، وَيُتَّخَفُ بِالمُشْرِفَاتِ على عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ المَقَرِّ الكَرِيمِ» . وبذلك يكتب إلى ابن قَرْمَانَ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالبِلَادِ القَرْمَانِيَّةِ — حاكم جُولْمَرِكِ — صاحب بُرْصَا وهو ابن عثمان — صاحب آيَاسِ لُوقِ .

المرتبة الرابعة — « المقرّ العالى » وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا،
والوزير بالممالك القانية وقاضيا .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالى نصرّة الجناح الكريم » . وبذلك يكتب
إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالى » . وبذلك يكتب
إلى نائب كرزك ، وحاكم جمشكراك ، وحاكم سيواس ، وحاكم أماسيا ، وحاكم
سنوب ، والحاكم بخرت يرت .

المرتبة السابعة — « أدام الله تعالى نعمة الجناح العالى » . وبذلك يكتب إلى نائب
صاحب مآردين ، ونائب الصالحية ، وبعض خدام صاحب مآردين .

المرتبة الثامنة — « صدّرت والعالى » . وبذلك يكتب إلى حاكم حران ، ونائب
ماز كرد ، وحاكم قلعة الجوز .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية —
من يكتب إليه عن السلطان : « ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالى » كوزير المملكة
بالديار المصرية ، وناظر الخاص ، على ما استقرّ عليه الحال آنحرا . وأرباب الوظائف
من الأمراء المقدمين بها : كأمير سلاح ، وأمير تجانس ، وأمير أخور ، والدوادار ،
وإستادار ، وحاجب الجباب ، ونائب الإسكندرية ، وكذلك تواب السلطنة
بطرابلس ، وحمّاة ، وصفد ، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على [تسع] مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهم : النائب الكافل ، وأتابك العساكر ،
ونائب الشام .

- المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حلب .
- المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ،
ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب الكرك ، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه
الطبقة .
- المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي
والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بغزة وسياس ، والأمراء المقدمين
المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال .
- المرتبة الخامسة — « يقبل الأرض بالمقر الشريف » إن قصد تعظيمه ، أو البأسط
الشريف إن لم يقصد ، وبذلك يكتب إلى ^(١)
- المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالية » . وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه
المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض . وربما
أخطت رتبة أحد هؤلاء فكتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، وأنصرة
الجناب الكريم ؛ أو ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي .
- المرتبة السابعة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي » . وبذلك يكتب إلى
كاشف الوجه البحري وكاشف الغيوم والبهنساوية .
- المرتبة الثامنة — « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي » . وبذلك يكتب إلى الولاة
الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : كقوص والمحلة ، وغيرهما .
وربما كتبت "صدرت والعالي" لأحدهم .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . ككتاب السمر وناظر الجيـش ، وكذلك المُجَّاب الطباخانا بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاص فى الزمن المتقدم . فلما جُمع للصاحب شمس الدين المقسى بين الوزارة ونظر الخاص ، كان يُكتب عنه بما يُكتب به عن الوزراء كما تقدم . فلما انفصل الخاص عن الوزارة رُوِيَ فى الخاص ذلك القَدْر ، فكتب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكتبات الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلافى بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى النَّائب الكافل ، والأتابك ، ونائب الشام ، وألقوا بهذه الرتبة نائب حلب ، فكتبوا إليه الفلافى .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرابلس ، وحمّاة ، وصقّد ، وتغر الإسكندرية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية ، ومقدمى العسكر بغزة وسيس ، ور بما كُتِب إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكرك .

المرتبة الخامسة — « يُقبَل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القُدس الشريف ، ونائب الرّحبة ، وكاشف الوجه البحرى ، وكاشف الفيوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالية » . وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناة ،
بالوجهين القبلي والبحري ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — « يخدم الجتاب العالى » . وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات
بالوجهين القبلي والبحري أيضا .

قلت : وعلى هذه الطبقات الأربع يقاس من دونهم ممن يكتب إليه عن
السلطان ، صدرت والعالى ، ككاتبى القُدس والرَّحبة ؛ ومن يُكتب له : صدرت
والسامى ، كالكاشف بالوجه البحري ، وكاشف القيوم ؛ ومن يكتب له : هذه
المكاتبه ، كالولاة الطبلخاناة بالوجهين القبلي والبحري ؛ ومن يكتب له : « يعلم »
كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . على أن الغالب فى مثل هؤلاء أن تكون الكتابة
عنهم لأعيان الدولة « الفلانى بمطالعة » وفيمن هو مثلهم أو دونهم يقاس على
ما تقدم .

وأعلم أن هذه المراتب المضمَّنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم فى الوقوف
عند حدِّها ، بحيث لا يجوز تجاؤزها بزيادة ولا التأخر عنها بنقص ، بل هى على
سبيل التقريب ؛ والأمر فى زيادة رتبة المكتوب إليه زيادة لا تُخرجه عن حدِّه
فى المقدار موكول إلى اختيار الكاتب ، يزيد فى ذلك وينقص ، بحسب ما يقتضيه
الحال : من رفعة قدر المكتوب إليه ، لمزيد رفعته عن نوعه ، أو محاباته لأستيمائه
إلى القصد المطلوب منه ، أو الغض منه بحطيطه رتبته أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في مقاصد المكاتبات ، وهي الأمور التي تكتب المكاتبات بسببها)
وهي الجزء الأعظم من صناعة الترسُّل ، وعليها مدارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات
من مقاصد المكاتبات ، وهي أهمُّ ما يُضَلَّع به الكاتبُ ، وألزمُ ما مهَّرَ فيه ، وهي قسمان :

القسم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم)

مما هو مستعمل الآن مما كان عليه الحال في الزمن القديم مما يقلُّ ويكثرُ ،
ويتكررُ تداوُلُه في الكتابة وسائر المكاتبات في الحوادث المألوفة التي يكثر تداوُلها ،
وتتكرر الكتابة فيها بتكرار وقائعها ، وما رسمُ الكتابة به باقٍ إلى زماننا ، وإن تغير
مصطلح الابتداء والخطاب وغيرهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصنف الأول

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن تُنْفَذَ الكتبُ إلى ولاة الأعمال في مثل
هذه الحالة ، مُتَضَمِّنةً ما جرى عليه الأمر بالحضرة : من أنقياد الأولياء والرعايا

إلى الطاعة، ودخولهم في البيعة بصدور مُنْشِرْحَةٍ، وَحَصَّ مَنْ بِالْأَعْمَالِ مِنْ رِجَالِ
السُّلْطَانِ وَرَعِيَّتِهِ عَلَى الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ أَمْثَلُهُمْ، وَإِعْطَاءِ الرَّعَايَا عَلَى ذَلِكَ صَفْقَةً
أَيْمَانِهِمْ .

وقد كان الرسمُ فيها أن تُصَدَّرَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَوَارِفِهِ الَّتِي لَمْ تَرَلْ تَكْشِفُ
الْخَطْبَ، وَتَرَأْبُ الشَّعْبِ، وَتَدْفَعُ الْمُهِمَّ، وَتَرْفَعُ الْعَلِيمَ، وَتَجْبِرُ الْوَهْنَ، وَتُسَيِّغُ الْأَمْنَ؛
وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذِكْرَ خِصَائِصِهِ وَمَنَاقِبِهِ، وَتَشْرِيفَ
اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِقْرَارِ الْإِمَامَةِ فِي أَقَارِبِهِ، وَتَحْضِيصِهَا بِنَبِيِّ عَمِّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ؛
وَمَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَلَبِ مَوَدَّتِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ بِقَوْلِهِ
جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» . وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَقَاءِ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ: «أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ،
بِخَيْمَتِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكَ تَحْتَمُ الْخِلَافَةَ» وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَتَلَوُ ذَلِكَ
بِالْإِفْصَاحِ عَنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ وَفَضْلِهَا، وَالْإِبَانَةِ عَنْ رَفِيعِ مَكَانِهَا وَمَحَلِّهَا؛ وَأَنَّهَا ظِلُّ
اللَّهِ الْمَمْدُودِ، وَحَبْلُهُ الْمَشْدُودِ؛ وَمِسَالِكُ الدِّينِ وَنِظَامُهُ، وَمِلَاكُ الْحَقِّ وَقِيَامُهُ . وَأَمْتِنَانِ
اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ بَأَنْ جَعَلَ فِيهِمْ أُمَّةً يُقْسِطُونَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ
فِيهِمْ؛ وَيَقُومُونَ أَدْيَانَهُمْ، وَيَهْتَدُونَ إِيْمَانَهُمْ؛ وَيُرْهَفُونَ بِصَائِرِهِمْ، وَيَهْتَدُونَ حَائِرَهُمْ؛
وَيَكْفُونَ ظُلُومَهُمْ، وَيُنْصِفُونَ مَظْلُومَهُمْ، وَيَجْمَعُونَ كَلِمَتَهُمْ؛ وَيَجْمَعُونَ ذِمَارَهُمْ،
وَيَحُوطُونَ دِيَارَهُمْ؛ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَذْكُرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ
الْإِسْلَامِ لِلْإِمَامِ مِنَ الطَّاعَةِ وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ، وَالْأَتْقِيَادِ لِأَمْرِهِ فِي طَاعَةِ
مَنْ يَنْصُ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامِ مَقَامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ: لِيَتَّصِلَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ بَيْنَهُمْ، وَيَتَدَدَّ ظِلُّ
الْخِلَافَةِ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ كَانَ قَدْ تَلَقَّى الْخِلَافَةَ بِعَهْدِ عَن خَلِيفَةٍ قَدِمَاتٍ: مِنْ أَبٍ أَوْ غَيْرِهِ،
أَتَى بِمَقْدَمَةٍ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَوَّى فِيهِ بَيْنَ بَرِيَّتِهِ، وَجَعَلَ فِي تَطَرُّفِهِ

(١) لعله يفيضون العدل .

إلى رسوله أُسْوَةٌ خَلِيقَتِهِ ؛ وَتَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ ، وَأَمْتَنَعَ عَنِ الْفَنَاءِ . ثُمَّ يُقَالُ : وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا آخَرَارَ لِعَبْدِهِ وَوَلِيهِ فَلَانَ الثَّقَلَيْنِ إِلَى دَارِ كِرَامَتِهِ ، وَالْحُلُولِ بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ ؛ وَأَعَانَهُ عَلَى سِيَاسَةِ بَرِيَّتِهِ ، وَأَنْهَضَهُ بِمَا حَمَلَهُ ، وَأَيَّدَهُ فِيمَا كَفَّلَهُ ؛ مِنْ الذَّبِّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمِرَامَةِ عَنِ الدِّينِ ؛ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ وَسُنَّتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَأَسْتَشْعَارِ خِيْفَتِهِ وَمُرَاقِبَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ ؛ وَمَا يَلِيْقُ بِهَذَا - اسْتَخْلَصَ عَبْدَهُ وَوَلِيَّهُ فَلَانًا الْإِمَامَ الْفَلَانِيَّ خِلَافَتِهِ ، وَأَهْمَى سِمَاءَ الرَّحْمَةِ بِإِمَامَتِهِ ؛ وَأَحَلَّ عَزِيزَ النَّصْرِ بَوْلَايَتِهِ ، وَالنُّقْيَا فِي نَفْسِ رَأْيِهِ النَّصَّ عَلَيْهِ ، وَالتَّفْوِيضَ إِلَيْهِ ؛ لِمَا عِلْمَ سِبْحَانِهِ فِي ذَلِكَ مِنْ شُمُولِ الْمَصْلَحَةِ لِلْعِبَادِ ، وَعَمُومِ الْأَمْنَةِ لِلْبِلَادِ ؛ فَامْضَى - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - مَا أُلْهِمَهُ ، وَكَلَّمَهُ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا وَتَمَمَهُ ؛ عَالِمًا بِفَضْلِ آخْتِيَارِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَمِيلْ بِهِ الْهَوَى فِي إِيْشَارِهِ ؛ فَقامَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامَ الْفَلَانِيَّ مَقَامَهُ ، وَحَفِظَ نِظَامَهُ ؛ وَسَدَّدَ ثَمَّتَهُ ، وَعَفَى رَزِيَّتَهُ ؛ وَأَقْرَأَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِمَامَةَ بِهِ فِي نِصَابِهَا وَمَقَرَّهَا ، وَزَادَ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي صِيْبِ الْخِلَافَةِ وَقَدَّرَهَا .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُنْخِصَ وَلِيَّهُ السَّعِيدَ بِقُرْبِهِ بِأَفْضَلِ صَلَوَاتِهِ ، وَأَشْرَفِ تَحِيَّاتِهِ ؛ وَيُحَسِّنَ جَزَاءَهُ فِي سَعِيهِ فِي صَلَاحِ الْعِبَادِ ، وَسِدَادِ الْبِلَادِ ؛ وَأَنْ يُلْهِمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّبْرَ عَلَى تَجَرُّعِ الرَّزِيَّةِ فِيهِ [وَيَجْزِيهِ] أَفْضَلَ مَا جَزَى بِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وَأَنْ يَجْبُرَ كَسْرَهُ فِي فَقْدِهِ ، وَيُوقِّعَهُ لِجَمِيلِ الْعِزَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَيُسَدِّدَهُ فِي مَصَادِرِهِ وَمَوَارِدِهِ ، وَيَهْدِيَهُ لِمَا يُرْضِيهِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ ؛ وَيُعِينَهُ عَلَى تَأْلِيفِ الْأَهْوَاءِ ، وَجَمْعِ الْأَرَاءِ ؛ وَنَظْمِ الشُّمْلِ ، وَكَفِّ الْقَتْلِ ، وَإِرْخَاءِ الظِّلِّ .

وَكِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا إِلَيْكَ وَقَدْ اجْتَمَعَ مِنْ بَحْضَرَتِهِ ، مِنْ ذَوِي جِهَتِهِ وَأَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ ؛ وَكَافَّةَ جُنْدِهِ وَجَمَاعَةَ حَوَازَتِهِ عَلَى بَيْعَتِهِ ، وَإِعْطَائِهِ صَفْقَةَ أَيْمَانِهِمْ عَلَى طَاعَتِهِ

ومشايته ؛ عن صدور مُخْلِصَةٍ نَقِيَّةٍ ، وسَرَائِرِ صَافِيَةٍ سَلِيمَةٍ ؛ وعقائدٍ مُشْتَمَلَةٍ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا عَقَدُوا عَلَيْهِ ، وَأَقَادُوا مَخْتَارِينَ إِلَيْهِ ؛ وَشَمِلَتْهُمْ بِذَلِكَ الرَّحْمَةُ ، وَضَفَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ ؛ فَمَا بَرِحُوا الرِّزِيَّةَ ، حَتَّى فَرِحُوا بِالْعَطِيَّةِ ، وَلَا وَجَّحُوا لِلصَّيْبِ ، حَتَّى سَمَّوْا لِلرَّغِيْبِ ؛ وَلَا أَظْلَمُوا لِفَقْدِ الْمَاضِي ، حَتَّى أَضَاءَ الْوَجُودَ بِالْآتِي .

فَللهُ الْحَمْدُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي جَبَّرَتِ الْوَهْنَ ، وَحَقَّقَتْ فِي فَضْلِهِ الْمَنْ ؛ حَمْدًا يَسْتَدِرُّ أَخْلَافَ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَدْعِي سَابِغَ طَوْلِهِ ؛ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرَاكُ مِنْ أَهْلِ مَخَالِصَتِهِ ، وَالْمُتَحَقِّقِينَ بِطَاعَتِهِ ؛ وَهُوَ بِأَمْرِكَ أَنْ تَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَعَلَى جَمِيعِ أَوْلِيَائِهِ الْمُقِيمِينَ قَبْلَكَ ، وَكَافَّةَ رِعَايَاهِ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَلِكَ ؛ وَتُشْعِرَهُمْ بِمَا عِنْدَهُ لِسَارِعِينَ لَطَاعَتِهِ ، الْمُبَادِرِينَ إِلَى آتِبَاعِهِ ؛ مِنْ تَيْسِيرِ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ ، وَإِفَاضَةِ الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ ؛ وَمَا لَمْ نَكْبَ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُتَلِي ، وَحَادَ عَنِ الْأُولَى ، مِنْ الْكُفِّ الرَّادِعِ ، وَالْأَدَبِ الْوَازِعِ ؛ وَيَتَوَسَّعُ فِي هَذَا الْمَعْنَى تَوْسَعًا يَشْرُحُ صُدُورَ أَهْلِ السَّلَامَةِ ، الْمُسْتَعْرَبِينَ عَلَى نَهْجِ الْأَسْتِقَامَةِ ؛ وَيَرُدُّعُ أَهْلَ الْفُسَادِ ، وَيَفْضُضُ مِنْ نَوَاطِرِ ذَوِي الْعِتَادِ . وَيُحَلِّي الْكِتَابَ بِآيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَحْسُنُ اسْتِعَارَتَهَا فِي بَابِ الْعَزَاءِ ، وَيَلِيْقُ ذِكْرُهَا فِي بَابِ الْإِشَادَةِ بِالْخِلَافَةِ وَالْخُلَفَاءِ . فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ مِمَّا يَقْرَأُ بِالْحَضْرَةِ . قَالَ فِي مَوْضِعٍ « وَكِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ » : « وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ أَقْرَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ إِخْوَتِهِ وَبَنِي عَمِّهِ وَخَوَاصِّ الدَّوْلَةِ وَأَمْرَائِهَا وَأَجْنَادِهَا وَكُتَّابِهَا وَقَضَاتِهَا وَكَافَّةَ رِعْبَتِهَا ، وَمَنْ أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ ظَلَّ مَمْلَكَتَهَا - أَحَقُّ مَنْ حَافِظُ عَلَى عَوَارِفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْتَدَ بِلَطَائِفِهِ ؛ وَقَامَ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ ، وَسَارَعَ إِلَى آتِبَاعِهِ وَأَعْتَصَمَ بِجِبِلِّ دَعْوَتِهِ ؛ فَأَجْمَعُوا عَلَى مُتَابَعَتِهِ ، وَإِعْطَانِهِ صَفْقَةَ أَيْمَانِكُمْ عَلَى مَبَايِعَتِهِ ؛ لِيَجْمَعَ اللهُ عَلَى التَّالِيفِ كَلِمَتَكُمْ ، وَيَجْمَعَ بِالتَّأْزِيرِ بَيْضَتَكُمْ » وَيُتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ وَعْدِ أَهْلِ الطَّاعَةِ

بما يضاعف جُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بما يُصَفِّرُ خُدودهم ؛ على نسق ما سبق في الترتيب .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، كُتِبَ به عن الأمر بأحكام الله تعالى عند أستقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله ، والدولة مشتملة على وزير ؛ من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

الحمد لله المتوحد بالبقاء ، الفاضل على عباده بالفناء ؛ الذي تمجد بالأزلية والقدم ، وتفرد بالوجود وتتره عن العدم ؛ وجعل الموت حتماً مقضياً على جميع الأمم .

يحمده أمير المؤمنين على ما خصه به من الإمامة التي قصه سرها لها ، وورثه نغرها وجمالها ؛ حمد شاكراً على جزيل عطية ، صابراً على جليل الرزية ، مسلمً إليه في الحكم والفضية ؛ ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي ثبتت حجته ، ووضعت حجته ؛ وعلت كلمته ، وأنافت على درج الأنبياء درجته ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذي جعل [الله] الإمامة كلمة في عقبه باقيه ، وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقية ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه وصلى عليه ، كان من أوليائه الذين أصطفاهم لخلافته في الأرض ، وجعل إليهم أزيمة البسط والقبض ؛ وقام بما حمَّله من أوق^(١) الإمامه ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون ، رضاً بقضائه ، وصبراً على بلائه ؛ وإلى الله يرغب أمير المؤمنين في إلهامه حسن الصبر على هذا المصاب ، وإجزال حظّه عليه من الأجر والثواب ؛ وإمداده في خلافته بمواد الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

(١) الأوق الضل . قاموس .

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا؛ بعد أن جلس للحاضرين بحضرة من الأمراء: عُموته وأوليائه وخدم دولته، وسائر أجناده وعبيد مملكته، وعامة شيعته، وأصناف رعيته؛ وأنوار الخلافة عليه مُشْرِقه، وأغصان الإمامة مُثمرة مُورقه؛ والسيد الأجل الأفضل الذي أمده الله في نُصرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فوضحت أنوارها للبصائر والأبصار، وشهر له من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار؛ يتولى الأمر بحضرة تولى الكافل الزعيم، ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم؛ والناس داخلون في البيعة بانسراح صدور، وإظهار آبتهاج وسرور؛ يعطون صفقة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الحظ في طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شمول السعد وعموم الرشاد، وتيقنوا الخيرة لهم في العاجلة والمعاد؛ وأمير المؤمنين يعزبك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة في الإمام المستعلي بالله - صلى الله عليه - التي قطعت من النفوس أملاًها، وأسكنت الألباب جزأ وولها، ويهينك وإياهم بمتجدد دولته التي تهلل لها وجه الزمان، وأستهلت بها صحائب الفضل والإحسان. وأمير المؤمنين محمد الله الذي أقر الحق في منصبه، وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرده به .

فأعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسيم، والنبا العظيم؛ وأشكر الله على ما جتده لك ولكافة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التي أوفت بإساءة الزمان وجنابته، وشقت من داء كُلمه ونكايته؛ وتقدم إلى الدعاء (؟) قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، وأستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والأجتهاد في مناصحته، والتمسك بعصم مشايعته؛ لتنالوا

في العاجلة حظًا جسيماً ، وتُخَرِّزُوا فِي الْأَجَلَةِ أَجْرًا كَرِيمًا : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالع الكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين عليّ الحاضرين قبلك ، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين عمّلك ؛ ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد ، وصلاح البلاد - وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب عن الأمر بأحكام الله المقدم ذكره ، كتبت به إلى ولاية الأطراف بعد قراءة عهده ، مهنتاً بخلافته ، وتجديد ولايته ؛ من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي .

أما بعد ، فالحمد لله مولى المنائح من نعمه ، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ، ومعود الصنع الجميل من لطفه وكرمه ، الذى له الحكم الظاهر عدله ، وأدب الطول الفاضل فضله ، وعنده مقام الغيب وإليه يرجع الأمر كله .

يحمده أمير المؤمنين عليّ ما أفرد به من سنيّ المواهب ، ونظّمه له من عقود المناقب ؛ ونقله إليه من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب ؛ وترينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا زينة الكواكب ؛ ويسأله أن يصلّى على جدّه عهد الذى نشر الله به الرحمه ، وكشف الغمّه ، وأنقذ الأمّه ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمّه عليّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ، والمذكور فى زُبُر الأولين ، وعلى الصّفوة من ذريتهما الهداة الراشدين ، صلاة باقية إلى يوم الدين .

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها ، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ؛ ومن ألفتها مكانا ، وأشرفها محلاً وشانا ؛ وأولاهها بأن تُسْتَنْطَقَ به الأقدام ، وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاصّ والعام ؛ ما خصّ الله به أمير المؤمنين من المنّ الظاهره ،

وتولاه من المنج المتظاهرة ؛ وأصاره إليه من الخِلافة في أرضه ، وأسْتَخْلَفَه عليه من القيام بسُنَنِ دِينِهِ وفَرْضِهِ ؛ وأسترطاه إِيَّاهُ من حِيَاظَةِ بلادِهِ ، وأوجبهُ من طاعته على كَافَّةِ خلقِهِ وعبادِهِ ؛ وذَنَرَهُ لدولته من كَفِيلِهِ وخَلِيلِهِ ، ومقيم أدِلَّةِ حَقِّهِ ومُوضِّحِ سَبِيلِهِ ؛ السَّيِّدِ الأَجَلِّ الأَفْضَلِ الَّذِي أَرْتَضَاهُ اللهُ لِلدَّبِّ عَنِ الإسلامِ ، وَأَتَتْضَاهُ لِنُصْرَةِ إِمَامٍ بَعْدَ إِمَامٍ ؛ وشَهِرَ مَنَاقِبَهُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ ومَقَامٍ ، وَخَصَّصَهُ بِفَضَائِلٍ لَمْ تُرَ مَجْتَمِعَةً لِمَلِكٍ مِنْ مَلُوكِ الإسلامِ ؛ لِأَجْرَمَ أَنَّ أميرَ المُؤْمِنِينَ قَدْ أَحَلَّهُ مِنْهُ مَحَلَّ الرُّوحِ مِنَ الجَسَدِ ، وَالوَالِدِ مِنَ الوَالِدِ ؛ وَفَوَّضَ الأُمُورَ إِلَيْهِ تَفْوِضَ مَعُولٍ عَلَى يَمِينِ تَقِيْبَتِهِ مَعْتَمِدٍ ، مَبَالِغٍ فِي حَسَنِ الأَخْتِيَارِ لِلأُمَّةِ مُجْتَهِدٍ ؛ وَاللهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ أميرَ المُؤْمِنِينَ بِبِقَائِهِ الكَافِلِ بِبُلُوغِ الأَمَلِ ، وَيَجَازِيهِ عَنِ تَشْيِيدِ مَمْلَكَتِهِ أَحْسَنَ مَا جَزَى بِهِ مُخْلِصًا جَمَعَ فِي الإِيمَانِ بَيْنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ ؛ بِكْرَمِهِ .

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيدُ الأجلُّ الأفضَلُ عند مثوله بِخَضْرَتِهِ ، وَإِنهائِهِ أُمُورَ دولته وأحوالِ مَمْلَكَتِهِ ؛ على أمرِك الَّذِي أَسْتَحْمَدُهُ فِي الخِدْمَةِ ، وَأَسْتَحَقَّقْتَ بِهِ إِفَاضَةَ الإِحْسَانِ وَإِسْبَاغَ النِّعْمَةِ ؛ وَأَنْ لَكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ : المُسْتَنْصِرِيَّةِ وَالْمُسْتَعْلِيَّةِ مِنْ الخِدْمِ المُشْكُورِهِ ، وَالْمَسَاعِي المَبْرُورِهِ ؛ مَا يَدُلُّ عَلَى مُنَاصَحَتِكَ وَإِخْلَاصِكَ ، وَيُبَعِّثُ عَلَى أَصْطِنَاعِكَ وَأَسْتِخْلَاصِكَ - أَمْرَ بِكُتُبِ هَذَا السَّجَلِ لَكَ مُؤَكَّدًا لِأَوَاخِيكَ ، وَمُعْرِبًا عَنِ رَأْيِهِ الجَمِيلِ فِيكَ ؛ وَمَجْدِدًا مِنْ وِلايَتِكَ ، وَمُجْرِبًا لَكَ فِيهَا عَلَى مُسْتَمِرِّ رِسْمِكَ وَمُسْتَقَرِّ عَادَتِكَ . فِقَابِلُ نِعْمَةِ أميرِ المُؤْمِنِينَ مِنَ الإِخْلَاصِ فِي طَاعَتِهِ بِمَا يَرْتَبِطُهَا ، وَوَقْفُهَا مِنْ حَقِّ الأَجْتِهَادِ مَا يُقْرَأُ عِنْدَكَ وَيُنَبِّطُهَا ؛ وَأَجْعَلْ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى عِمَادَكَ ، وَأَطْوِ عَلَيْهَا طَوِيَّتَكَ وَأَعْتِقَادَكَ ؛ وَمَكِّنْ فِي نَفُوسِ الأَوْلِيَاءِ جَمِيلَ رَأْيِ أميرِ المُؤْمِنِينَ فِيهِمْ ؛ وَإِحْمَادَهُ لِمَوَاقِفِهِمْ فِي الخِدْمَةِ وَمَسَاعِيهِمْ ؛ وَحَقِّقْ عِنْدَ كَافَّةِ المُسْتَقَرِّينَ لَدَيْكَ ، وَالوَارِدِينَ عَلَيْكَ ؛ مَا يُكْتَفُونَ بِهِ مِنَ الأَمْرِ الشَّامِلِ ،

وَيُغْمَرُونَ بِهِ مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ الْمُتَوَاصِلِ ؛ وَأَجْرٍ عَلَى الْعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي إِفَاضَةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَتَنَكُّبِ سَبِيلِ الْجَوْرِ وَالْإِجْحَافِ ؛ وَمَهْدِ السُّبُلِ قِبَلِكَ ، وَأَحْمٍ مِنْ أَسْبَابِ الْفَسَادِ وَلَايَتِكَ وَعَمَلِكَ ؛ وَأَخْصُصْ مُتَوَلَّى الْحُكْمِ وَالِدَعْوَةَ الْهَادِيَةَ - ثَبَّتْهَا اللَّهُ تَعَالَى - بِالْإِعْرَازِ وَالرَّعَايَةِ ، وَوَفَّرَ حَظَّهُمْ مِنَ الْمَلَاخِظَةِ وَالْعَنَائِيهِ ؛ وَخَذَ الْمُسْتَعْتَمِدَ فِي الْخُطْبَةِ الْعَلَوِيَّةِ بِإِقَامَتِهَا فِي أَوْقَاتِهَا ، عَلَى أَفْضَلِ قَوَائِنِهَا وَوَأَجْبَاتِهَا ؛ مُعَلِّناً فِيهَا بِذِكْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يُتَوَجَّحُ فُرُوقَ الْمَنَابِرِ ، وَيُسَنَّفُ أَسْمَاعَ الْبُؤَادِي وَالْحَوَاضِرِ ؛ وَتَوَفَّرَ عَلَى مَائِمَةِ الْأَمْوَالِ وَأُتْمَانِهَا ، وَغَزْرِهَا وَرَحَاها ، وَقَضَى بُؤُورِهَا وَحَصُولِهَا ، وَدَعَا إِلَى دُرُورِهَا وَمَوَاصِلَةِ حُمُولِهَا ؛ وَأَنْظَرَ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ الْمُسْتَعْتَمِدِينَ مَعَكَ نَظْرًا يُؤَدِّي إِلَى مَصْلَحَتِهِمْ . فَاعْلَمْ هَذَا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاعْتَبَطْ بِمَا أَصَارَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ آغْتِبَاطَ أَمْثَالِكَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ ، وَاعْتَقِدْ طَاعَتَهُ اعْتِقَادَ مَنْ يَجَارِيكَ مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ ، وَاعْمَلْ بِوَصَايَاهُ وَمَرَاشِدِهِ تَحْظُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَطَالِعْ بِالْكَائِنِ مِنْكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ هَذَا السَّجِلِّ عَلَى كَافَّةِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ وَكُتِبَ فِي كَذَا وَكَذَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةَ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، يُكْتَبُ مَلَطَفٌ عَنِ الْوَزِيرِ ، يُلَفُّ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ ضِمَّتَهُ ، وَيُوجَّهُ بِهِ إِلَى حَيْثُ الْمَقْصِدُ :



وَهَذِهِ نَسْخَةٌ مُلَطَّفٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، كُتِبَ بِهِ عَنِ وَزِيرٍ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ، لِيُلَفَّ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ طِيَّهُ ؛ وَهُوَ :

يَنْطَوِي هَذَا الْأَمْرُ الْوَارِدُ عَلَى الْأَمِيرِ ، عَلَى كِتَابِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ الْفَلَانِيِّ لِدِينِ اللَّهِ ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَأَبْنَائِهِ الْأَكْرَمِينَ ، أَوْ أَبْنَائِهِ الْمُتَنْظِرِينَ ، إِنْ كَانَ لَا وَلَدَ لَهُ - بِمَا أَصَارَهُ إِلَيْهِ مِنْ شَرَفِ

الإمامه ، وبوآه إياه من مقام العظمة والكرامة ؛ إثر انتقال الإمامِ فلانِ أمير المؤمنين - قدس الله روحه - إلى جوارِ ربه . فاعتمد العمل بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك ، وتلاوته على رءوس الأشهاد ، وإذاعة مكنونه في الحاضر والباد ، على الرسم المعتاد ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جارٍ في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان ؛ ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك ، والأمر على ما تقدم في الخلافة من التعزية بالماضي ، والتهنئة بالمستقر ، ونحو ذلك مما يجري مجراه .



وهذه نسخة مكتوبة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون على التخت ، في شهر رجب الفرد سنة آئتين وخمسين وسبعائة ، بعد خلع أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصدر والألقاب :

وأورد عليه من البشائر أسنى البشر ، وأسمعه من التهانى ما أنتشى حديثه بين البرايا وانتشر ، وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل ملكهم صالح البشر .

صدرت هذه المكتبة إلى فلان^(١) وبصرها مقدماً بالظفر ، وذكراها قد ملا الأقطار بجمع عليه كل قلب كان قد نفر ؛ تُهدى إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر ، وثناءً يحصل منه على النصيب الأوفر ؛ وتوضح لعلمه أن الجنابات العالية الأمراء الأكابر ، أمراء الدولة الشريفة ، ضاعف الله نعمتهم ؛ كانوا قد عظموا أخانا الناصر ، وحكوه ، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن ؛ وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم ، والإجلال والتحكيم ، وأمتثال الأمر في كل جليلٍ وحقيق ؛ فلم يرع لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا ألتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة؛ واتفق مع الصبيان، وأراد القبض على الأمراء، وإمساك الجنابات العالية الأمراء الأكاير والإيقاع بهم . فلما تحققوا منه ذلك، اجتمعت الأمراء، واتفقت الكلمة على خلع الملك الشريف وإقامتنا . نخلع المشار إليه؛ وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسي السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله، ومبايعته لنا، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة، أعز الله تعالى أحكامهم؛ وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جاري العادة في ذلك؛ وضربت عند ذلك البشار، وشهد هذا الهناء كل بادٍ وحاضر، وتسنفت الأسماع وقرت العيون واستقرت الخواطر، وأتهجت بذلك الأمم، وتباشرت بهذا السعد الذي كُتِبَ لنا من القدام، وأصبح كل من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلاً بالدعاء مبتهجا .

فليأخذ المقر حظه من هذه التهنیه، وليذع خبرها لتكون المسار معيدة ومبديه؛ ويتحقق ماله عندنا من مكانه، والمحل الذي زان بالإقبال الشريف زمانه؛ ويتقدم أمره الكريم بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالملكة الفلانية، ويتقدم أيضا بضرب البشار وبالزينة على العادة .

وقد تجهز إلى الجناب العالي نسخة يمين شريفة يحلف عليها، ويكتب خطه، ويجهزها إلينا صعبة المجلس السامي، الأمير، الأجل، الكبير، العضد، الذخري، النصيري، الأوحدي، عضد الملوك والسلاطين، يبلغا الحموي الصالحى، أدام الله علوه، المتوجه بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بظرابس ويكتبوا خطوطهم، ويجهزها إلينا على العادة صعبة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالى صحبة المشار إليه تشریفاً شريفاً كاملاً؛ فيتقدم الجناب العالى بتسلمه منه وأبسه، ويتحقق ماله عندنا من المكانة والمترلة، ويعيد الأمير سيف الدين يلبغا المشار إليه إلى الباب الشريف، فيحيط علمه بذلك.

الصنف الثانى

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الدعاء إلى الدين ، وهو من أهم المهمات)
قال فى "مواد البيان" : أشرف ما يُنشئه الكاتب الدعاء إلى دين الإسلام الذى أظهره الله تعالى على كلِّ دين ، وأعزّه على كُره المشركين ، وأسبجراً مُحالفيه إليه ، وأجتنابُ الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه ؛ عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، لأنه قوامُ الملك ونظامُ السلطان اللذان لا يصحان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج فى إنشاء هذه الكُتُب إلى علم التوحيد وبراينته ، وشريع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه ، ومعجزاته ، وآيات نبوته : ليتوسع فى الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح حجته .

ثم قال : والرسم فيها أن تُفتَح بحمد الله الذى اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره ، وقُدسه وطهره ؛ وجعله سبيلاً إلى رِضاه وكرامته ، وطريقاً إلى الرِّقى فى جنته ؛ وشفيعاً لا يقبلُ عملٌ عاملٍ إلا به ، وبأباً لا يصلُّ وأصلُ الأمانة ؛ فلا تُغفرُ السيئات إلا لمن اعتصم بحبله ، ولا تُقبلُ الحسنات إلا من أهله . وشكره تعالى على الهداية إليه ، والتوقيف عليه ؛ وذِيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه ، وتوره من تبيانته . وتمجيدته من تعظيم آياته ، وباهر معجزاته ؛ وحكيم صنعته ، وبديع فطرته . وتزئيه عما لا يليق بسُلطانه ، ولا تجوز إضافته إلى عظيم شأنه . وتسيبته

عما يصفه به الملحدون، ويحتلّقه الجاحدون، والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نبوته، وبراهين رسالته؛ وما خصه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

ثم يتبع ذلك بالدعاء إلى الدين والحض عليه. وإيضاح ما في التمسك به من الرشد في داري المبدأ والمعاد. والتبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تمحيص السيئات، ومضاعفة الحسنات، وعز الدنيا وفوز الآخرة. والإنذار بما أوعده الله به التاركين عن سبيله، العادلين عن دليله؛ من الإذلال في هذه الدار، والتخليد بعد العرض عليه في النار؛ وتصريف المخالفين بين الرغبة والرغبة، في العاجل والمقبة.

قال: وينبغي أن يتأني الكاتب فيما يورده من هذه الأغراض، ليقع في المواقع اللائقة به، ويعلمو الحجج في أحسن المعارض، ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس. فإنه إذا وفق لذلك، ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد، وأقر السيوف في الأعماد. ثم قال: ومن صدقت في هذا الفن رغبته، أيد الله تعالى غريزته، وعضد بديته ورويته.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قد بطل في زماننا، فلم يُعهد أن ملكاً من الملوك كتب إلى بلاد الكفر بالدعاية إلى الدين. إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغلبة والقوة والقهر. كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم، والكفر مقهور معهم، مذلول لديهم. أما الآن فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» وفي رواية «ونصرت أمتي» لأجتاح أهل الكفر الإسلام؛ ولكن الله وعد دينه أن لا يُخذل.

الصنف الثالث

(من الكتب السلطانية المكتُوب بالحث على الجهاد)

قال في " مواد البيان " : كما أن الدين يتنظم بالدعاء إليه والترغيب فيه ، كذلك يتنظم بصيانة حوزته ، وما دخل في مملكته ، وكف أعدائه عن تنقص أطرافه ، والتغلب على بلاده . ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه ، وأكد الأمر فيه وشدده ، والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرق المخالفين إلى بعض الثغور ، أو شن الغارة على أهل الإسلام ، أن يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء ، وصون حريم الملة ، وحفظ نظام الدولة .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على جميل صنيعه : على إعرزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ، وإدالة الموحدين ، وإزالة الملحدين ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وذكرك طريف من موافقه في الجهاد ، ومقارعته لشيح الإلحاد ، وتأييد الله تعالى أنصاره على أهل العناد . ثم يذكر الحادثة بنصها ، ويشرح القصة على فصها ، ويندب من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم في نصرة الدين وكافة المسلمين ، وآتباع سبيل السلف الصالحين ، الذين خصهم الله تعالى بصديق الضمائر ، ونفاذ البصائر ، وصحة الدين ، ووثاقة اليقين ، فلم يكونوا ليروموا مرأما إلا سهل لهم ماتوعر ، ويسر عليهم ما تعسر ، وسما بهم إلى ما هو أقصى منه مرعى وأبعد مدى ، رغبة فيما رغبهم فيه من نصرتهم ، وتعرضا لما عرضهم له من جزيل مثوبته ، وأن يحضهم على التمسك بعزائم الدين ، والعمل على بصائر المخلصين ، واقتراض ما فرض الله عليهم من جهاد أعدائه ، وتجهيز ما وعدهم به

من الإظفار بهم والإظهار عليهم ؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرِينَ ، وَيُؤَدُّوا الْحَقَّ مُحْتَسِبِينَ ، وَيُقَدِّمُوا رَسُولًا لَنَا كَصِينٍ وَلَا شَاكِّينَ وَلَا مُرْتَابِينَ بِمُتَّبِعِينَ الْحَقِّ حَيْثُ يَمُّ وَقَصْدًا ، ومضار بين دونه من صد عنه وعند ؛ وَيُبَالِغُ فِي تَخِيَةِ أَهْلِ الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْبَأْسِ وَالشَّدَةِ ؛ وَيُعْتَمِدُ عَلَى نَصْرِ حَقِّهِمْ وَطَاعَةِ خَالِقِهِمْ ؛ وَالْفَوْزِ بِدَرْكِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ ، وَتَسْوِيرِ الْبَصَائِرِ فِي الْإِيمَانِ ؛ وَفَضِيلَةِ الْأَنْفِ مِنَ الضَّمِيمِ ، وَالْبُعْدِ مِنَ الذَّمِيمِ ؛ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَعْدِلُ الْأَرْوَاحَ وَالْمُهَيِّجَ ، وَالْإِقْدَامَ عَلَى مِصَارِعِ التَّلَفِّ . فَإِنَّ الْمُلُوكَ الْمَاضِينَ - لَعَلَّهُمْ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَجُودُونَ بِذَلِكَ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي تُوجِبُهُ - كَانُوا يَبْذُلُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَكَافِحِ ، وَيُعَرِّضُونَهُ لِلذَّابِحِ ؛ الرِّغَابِ الَّتِي تُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ إِقْدَاءَ نَفْسِهِمْ فِي الْمَهَالِكِ تَارَةً ، وَيَذَكِّرُونَهُمُ الْأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَيَخَوِّفُونَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَدْلَةِ أُخْرَى .

ثم قال : وَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يُقَدِّمَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ مُقَدِّمَاتٍ ، يَرْتَبِهَا عَلَى تَرْتِيبِ يَهْرُ الْأَرْيَاحِيَّاتِ ، وَيُسْحِدُ الْعَزَائِمَ ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ خِدْمَةِ سُلْطَانِهِ وَالْفَوْزِ بِنَصِيبِ مِنَ الْأَجْرِ .

قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ السُّلْطَانِيَّاتِ مُسْتَمَرَّ الْحُكْمِ إِلَى زَمَانِنَا . فَمَا زَالَتِ الْمُلُوكُ يَكْتُبُونَ إِلَى مَا يَلِيهِمْ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ ، وَالْحِصْنِ عَلَى مَلَاقَةِ الْعَدُوِّ ، وَالْأَخْذِ بِنُصْرَةِ الدِّينِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَاتِ الْمَكْتَابَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ : أَنَّ الشَّيْخَ شَهَابَ الدِّينِ مَحْمُودًا الْحَلَبِيَّ ذَكَرَ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ" أَنَّهُ إِذَا كَتَبَ عَنِ الْمَلِكِ فِي أَوْقَاتِ حَرَكَاتِ الْعَدُوِّ إِلَى أَهْلِ الثَّغُورِ ، يُعَلِّمُهُمُ بِالْحَرَكَاتِ لِلِقَاءِ عَدُوِّهِمْ - أَنَّهُ يَبْسُطُ الْقَوْلَ فِي وَصْفِ الْعَزَائِمِ ، وَقُوَّةِ الْهَيْمِ ، وَشِدَّةِ الْحَمِيَّةِ لِلدِّينِ ، وَكَثْرَةِ الْعَسَاكِرِ وَالْجِيُوشِ ، وَسُرْعَةِ الْحَرَكَاتِ ، وَطَيِّ الْمَرَاحِلِ ، وَمُعَاجَلَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَخْيِيلِ أَسْبَابِ النَّصْرِ ، وَالْوُثُوقِ بِعَوَائِدِ اللَّهِ فِي الظَّفَرِ ، وَتَقْوِيَةِ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ ، وَبَسْطِ آمَالِهِمْ ، وَحَثِّهِمْ عَلَى التِّيَقُّظِ ، وَحَضْمِهِمْ عَلَى حِفْظِ مَا بَأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ . وَأَنَّهُ يُبْرِزُ

ذلك في أيّين كلام وأجلّه ، وأمكِنه وأقرّبه من القوّة والبسالة ، وأبعده من اللّين والرّقّة ؛ ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى وأستترال نصّره وتأييده ، والرجوع إليه في تثبيت الأقدام ، والأعتصام به في الصّبر ، والأستعانة به على العُدوّ ؛ والرّغبة إليه في خذلانهم ، وزلزلة أقدامهم ، وجعل الدائرة عليهم ؛ دون التصريح بسؤال بطلان حرّكهم ، ورجاء تأخيرهم ، وأنْتَظار العرَضِيَّات في تحلُّفهم ، لِمَا في ذلك من إيّهام الضّعف عن لقائهم ، وأستشعار الوهن والخوف منهم ؛ وأن زيادة البسطة وتقصّها في ذلك بحسب المكتوب إليه .

وهذه نسخة مَكْتَبَة من ذلك عن السلطان إلى بعض نواب الثغور ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ ، أوردها في "حسن التوسل" وهي :

أصدرناها ومُنَادِي النَصْرِ قَدْ أَعْلَنَ بِيَاخِيلَ اللهُ أَرْكَبِي ، وَيَا مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ أَصْحَبِي ،
وَيَا وَفُودَ الظَّفَرِ والتأييد أَقْرُبِي ، وَالْعَزَائِمُ قَدْ رَكَضَتْ عَلَى سَوَابِقِ الرَّكْضِ إِلَى الْعِدَا ،
وَالهَمَمُ قَدْ نَهَضَتْ إِلَى عُدُوِّ الْإِسْلَامِ فَلَوْ كَانَ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ لِأَسْتَقْرَبَتْ مَا بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَدَى ؛ وَالسُّيُوفُ قَدْ أَنْفَتْ مِنَ الْعُمُودِ فَكَادَتْ تَنْفِرُ مِنْ قُرْبِهَا ، وَالْأَسِنَّةُ
قَدْ ظَمِئَتْ إِلَى مَوَارِدِ الْقُلُوبِ فَتَشَوَّفَتْ إِلَى الْآرْتَوَاءِ مِنْ قُلُوبِهَا ؛ وَالْحِكْمَةُ قَدْ زَارَتْ
كَالْبُيُوتِ إِذَا دَنَتْ فَرَانِسُهَا ، وَالجِيَادُ قَدْ مَرِحَتْ لِمَا عَوَدَتْهَا مِنَ الْإِنْتَعَالِ بِجَاجِمِ
الْأَبْطَالِ فَوَارِسُهَا ؛ وَالجِيُوشُ قَدْ كَثُرَتْ النُّجُومَ أَعْدَادُهَا ، وَسَارِبَهَا لِلْهَجُومِ عَلَى
أَعْدَاءِ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ أَمْدَادُهَا ؛ وَالنَّفُوسُ قَدْ أَضْرَمَتْ الْحَمِيَّةَ لِلدِّينِ نَارَ
غَضَبِهَا ، وَعَدَاهَا حَرُّ الْإِسْفَاقِ عَلَى تُغُورِ الْمَسَامِينِ عَنِ بَرْدِ الثُّغُورِ وَطِيبِ شَنْبِهَا ؛
وَالنَّصْرُ قَدْ أَشْرَقَتْ فِي الْوُجُودِ دَلَائِلُهُ ، وَالتَّأْيِيدُ قَدْ ظَهَرَتْ عَلَى الْوُجُوهِ مَخَالِيلُهُ ؛
وَحُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ فِي إِعْزَازِ دِينِهِ قَدْ أَنْبَأَتْ بِحُسْنِ الْمَالِ أَوَائِلُهُ ؛ وَالْأَلْسُنُ بِأَسْتِرَالِ

(١) في حسن التوسل (ص ٩٤) "الغدير" .

نَصَرَ اللهُ لِهَجْمِهِ ، والأرجاء بأرواح القبول أرجه ، والقلوب بعوائد لطيف الله بهذه الأمة مبتهجه ؛ والجماعة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه ، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدوِّ عدوه بل عن مكابيه ؛ والنيئات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعه ، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها و«من كان مع الله كان الله معه» ؛ وما بقي إلا طي المراحل ، والتزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البلد الساحل ؛ والإحاطة بعدو الله من كل جانب ، وإنزال نفوسهم على [حكم] ^(١) الأمرين [الآخرين] : من عذاب وأصيب وهم ناصب ؛ وإحالة وجودهم إلى العدم ، وإحالة السيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قدم ؛ وأصطلامهم على ما بأيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها ، وأبتلاؤهم من حملاتها بريج عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها ؛ فليكن مترقبا طلوع طلائعها عليه ، متيقنا من كرم الله استئصال عدوه الذي إن فز أدركته من ورائه وإن ثبت أخذته من بين يديه ؛ وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وصحتها ، وجمع سوائم الرعايا من الأماكن المخوفة ولمها ؛ وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورماها ، فإن الاحتياط على كل حال من أكد المصالح الإسلامية وأهمها ؛ فكأنه بالعدو وقد زال طمعه ، وزاد ظلمه ؛ ودم عقبي مسيره ، وتحقق سوء منقلبه ومصيره ؛ وتبرا منه الشيطان الذي دلأه بغروره ، وأصبح لحمه موزعا بين ذئاب الفلا وضبايعها وبين عقبان الجور ونسوره ؛ ثقة من وعد الله وتمسكا منه باليقين ، وتحققا أن الله ينصر من ينصره والعاقبة للتيقن .

+ +

وهذه نسخة مرسوم كريم في المعنى ، بل هو أصرح في ذلك مما قبله ، كتبت به عند ظهور الفرج اللوسارية والشوال بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

(١) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ٩٤) .

الْحَلِيِّ؛ وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه، لقيام النائب بالمملكة قيامَ السلطان الذي آستنابه، وهو :

المرسوم بالأمر العالی أعلاه الله تعالى، لازالت مراسمُه النافذة تُبَلِّغُ أهلَ العِصَابَةِ مُحَمَّدِيَّةَ غَايَةِ الآمَالِ، وأوامرُه المَطَاعَةُ تَقْضِي بِكسْرِ اللُّوسَارِيَّةِ وَشَيْنِ الشَّوَالِ؛ أن تتقدّم العساكرُ المنصورةُ بالمملكة الطَّرَابُلسِيَّةِ. أيد الله تعالى عزائمهم القاهره، وأدّل بسيفهم الطائفةَ الكافره؛ بارتداء ملابس الجهاد، والتحلّي بمرارة الصبر على آجتلاء الخِلاَدِ؛ وأن يجيبوا داعي الدين، وَيَكْفُوا أَيْدِي الْمُعْتَدِينَ؛ وَيُقَوِّقُوا سِهَامَهُمْ، وَيَجْعَلُوا التَّقْوَى أَمَامَهُمْ؛ وَيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ، وَيَحْمِلُوا سِلَاحَهُمْ؛ وَيَوْمِضُوا بِرُوقِ السِّيُوفِ، وَيُرْسِلُوا نِيَالَ الخُتُوفِ؛ وَيَهْدِمُوا بُنْيَانَ الكُفَّارِ، وَيُطْلِعُوا أَهْلَةَ القَيْسِيَّةِ بِمَدِّ الأوتارِ؛ وَيَهْضُمُوا جَانِبَ أَهْلِ العِنَادِ، وَيَقَابِلُوا البَحْرَ بِمِلءِ بَحْرِ مِنَ الخِيَادِ؛ وَيُنَظَرُوا أَمْوَاجَهُ بِأَمْوَاجِ النَّصَالِ، وَيَقَاتِلُوا الفِرْقَةَ الفَرَنْجِيَّةَ أَشَدَّ القتَالِ؛ وَلَا يَهْمَلُوهُمْ بِالنَّهَارِ وَلَا بِاللَّيْلِ، وَيُعِدُّوهُم مَّا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ؛ وَيُنَوِّرُوا بِمَصَابِيحِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ الله ظِلَامَ الدُّجَنَةِ؛ وَأَنْ يُصَارُوا وَيَصْرُوا، فَإِذَا اسْتَنْفَرُوا فَلْيَنْفِرُوا؛ وَيَسَالِفُوا فِي الغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ لِيَبْلَغُوا الرَّعِيَّةَ مِنَ الأَمْنِ أَمَانِيهَا. فقد قال صلى الله عليه وسلم: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ويعتمدوا على القريب المحيِبِ، وَيَجْتَهِدُوا فِي كَسْرِ أَصْلَابِ أَهْلِ الصَّلِيبِ؛ وَيَنَافِسُوا فِي أَمْرِ الآخِرَةِ وَيَدْعُوا الدُّنْيَا، وَيَقَاتِلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العَلِيَّةَ؛ وَيَشْهَدُوا المَوَاقِفَ، وَيَبْدُلُوا التَّالِدَ وَالتَّارِفَ؛ وَيُبْرِزُ الفَارُسُ وَالرَّاجِلُ، وَيُظْهِرُ الرَّامِحُ وَالتَّائِيلُ؛ فَإِنْ الجِهَادَ، سَطْوَةَ الله تَعَالَى عَلَى ذَوِي الفَسَادِ، وَنَقَمَتَهُ الفَاسِمَةَ عَلَى أَهْلِ الشَّرِكِ وَالعِنَادِ؛ وَهُوَ مِنَ القُرُوضِ الوَاجِبَةِ، الَّتِي لَمْ تَزَلْ سِهَامَ أَصْحَابِهِ صَائِبَةً؛ فَوَاطِبُوا عَلَى فَعْلِهِ،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسُبله ؛ وأطلبوا أعداء الله برأ وبجراً ، وقسموا بينهم الفتكاتِ
قنلاً وأسراً ؛ وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجئوهم برسائل الطعن والضرب ؛ وحُدوا
من الكُفَّار باليمين ، وجُدوا في تحصيل الرِّيحِ الثِّمين ، ولازموا التزولَ بساحل البحر
لمنازلة الطُّغاة والمشرِكين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا
فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأعداء ، وهزوا أعطاف الأسيئة ؛
وشتموا عن ساقِ العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ؛ واتخذوا الخيام مساكن ،
وأجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ؛ وأنصبوا الألوية والأعلام ، وأطفئوا بجمرة
الشِّرْذمة الغائظة للإسلام ؛ ولا تخشوا من جمعهم الآئيل إلى التفريق ، وحشدكم
الذي هو عمماً قليل إن شاء الله تعالى غريق ؛ ولا تعبثوا بسفنهم البحرية ، فإن
سفنكم الخيل مخلوقة من الرياح ؛ ولا تنظروا إلى مجاديفهم الخشبية ، فإن
مجاديفكم السيوف والرماح ؛ فأقلعوا قلوبهم ، وشئتوا جموعهم ؛ وأذهبوا الخيف
والخيف ، وخاطبهم بالسنة السيف ؛ وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز
نارا ، وآدعوا الله أن لا يذرع على الأرض من الكافرين دياراً ؛ ونكسوا صليبهم
المنصوب ، وبادروا إلى حرب حزبه المفلوج ؛ وأرفعوا باليقين شك هذه المحنة ،
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ؛ وآهجروا في ذات الله طيب المنام ، وأقلوا الأقدام
إلى الأقدام ؛ وأكشفوا عنكم أستار الملال والملام ، وأهتموا بما يعلى كلمة الإسلام
والسلام ؛ فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتميز ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصِّنفُ الرَّابِعُ

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ في الحثِّ على لزوم الطاعة وذمِّ الخِلافِ)

قال في "موادِّ البيان" : طاعةُ السلطانِ والالتقيادُ إليه ، والرجوعُ إلى رأيه والاعتمادُ عليه ، أبدئُ الأسبابَ ، في استمرارِ الأتساقِ والامتتبابِ ؛ وهي فرضٌ أوجبه الله تعالى . فقال : ((أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)) ولا تصح مملكةٌ ولا تدومُ دولةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطانِ ، والآخر طاعةُ الرعية له ؛ فتى ارتفع أحدهما ، فسَدَّ السائِسُ والمَسُوسُ . ولم تزل ملوك الأزمنا يقدمون إلى الرعايا لزومَ الطاعة ، والاعتصامَ بحبلِ الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعة .

قال : والرسم فيها أن تفتح بالحمد لله على النعم في تأليف قلوب أهل الدين ، وجمع كلمة الموحدين ؛ ورعاية أهوائهم إلى الاتفاق ، وصيانة عصاهم عن الانشقاق ؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتنبيه على فضائل الطاعة ، فإنها العروة الوثقى ، والمعقل الذي لا يرقى ؛ والحصن الحصين ، والكنف الأمين ؛ والحجى الأمتع ، والمرقب الأرفع ؛ وأن من حافظ عليها فاز وسليم ، ورنج وغيم ؛ ومن فارقتها خسرو وخاب ، ونكب عن سبيل الصواب ؛ وإيضاح مافى سبيل الطاعة من اتفاق الكلمه ، وانتظام تمثيل الأمة ؛ وتتمول الخيرات ، وعموم البركات ؛ وعمارة البلاد ، وصلاح العباد ؛ وما في المشافقة من الفساد العام ، العائد بانتثار النظام ؛ وأنبات الحبل ، وتفريق الشمل ، وأجتنات الأصل ؛ وطُمُوس الديار ، وصيال الأشرار ، وأتقماع الأخيار ؛ وتوالى الفتن التي لا تُصيبُ الظالم خاصةً دون العادل ، ولا المشافقة دون الموافق ؛ وحلول النوائب المزيلة للنعم ؛ وإتباع ذلك بما يجب من إعدار وإنذار ، وترهيب وترغيب ، وتذكير وتبصير ، ووعظ وتخويف ؛ وبعث العلماء

الحُصْفَاءَ ، عَلَى رَدِّعِ الْجُهْلَاءِ السَّخَفَاءِ ؛ وَتَنْبِيهِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، عَلَى كَفِّ ذَوِي الْعَيْثِ وَالطَّلَاحِ ؛ إِلَى نَحْوِ هَذَا مِمَّا يَجَارِيهِ . وَأَنْ يَبَالِغَ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً مُسْتَوْفَاةً جَيِّدَةً الْعِبَارَةَ ، أَخَذَتْ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَأَغْنَتْ عَنِ الْكُتَائِبِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبِ .



وهذه [مبكتبات] في معنى ذلك أوردتها أبو الحسين بن سعد في تَرْسِلِهِ ، وَهِيَ :
أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ الطَّاعَةَ وَأَوْجَبَهَا ، وَأَمْرَ بِهَا وَرَغَبَ فِيهَا ؛ وَجَعَلَهَا عِصْمَةً مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ ، وَضِيَاءَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَسَلَامَةً مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ وَسَبَبًا لِلظَّفَرِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ مِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَفَقَّهَ لَهَا ، وَأَلْزَمَهُ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا وَالْإِعْتِصَامَ بِحَبْلِهَا ؛ فَتَعَجَّلَ عِزَّهَا وَشَرَفَهَا ، وَسَعَّتْهَا وَأَمَّنَّهَا ؛ وَأَسْتَحَقَّ السَّعَادَةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا ، وَالْمَثُوبَةَ عَلَيْهَا .

آخِرُ : وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الطَّاعَةِ وَلِزُومِهَا ، وَالْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا : مِنْ الْعِزِّ وَالْمَنْعَةِ وَالْأَيْدِ وَالْقُوَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالْفُوزِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [وَمَا] فِي خِلَافِهَا مِنْ صُنُوفِ الْمَخَافِيفِ ، وَأَنْوَاعِ الْمَتَالِفِ .

آخِرُ : وَقَدْ كَانَتْ الطَّاعَةُ أَنْفَقَتْ بِكَ عَلَى كُلِّ ظَلِيلٍ ، وَأَفْضَتْ بِكَ إِلَى لَيْلٍ مِهَادٍ عِنْدَ إِقْضَايِ الْمَضَاجِعِ ، وَصَفَاءِ الْمَشَارِبِ عِنْدَ تَكْثُرِ الْمَنَاهِلِ ، وَأَتِّصَالَ أَمْنَةٍ عِنْدَ حَدُوثِ الْمَخَافِيفِ ؛ حَتَّى فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا .

آخِرُ : فَلَمْ يَمْرُقْ مِنْ طَاعَتِهِ مَارِقٌ ، وَلَا فَارِقُهَا مُفَارِقٌ ؛ إِلَّا صَرَخَ اللَّهُ خَدَّهُ ، وَأَتَعَسَ جَدَّهُ ؛ وَخَضَّدَ شَوْكَتَهُ ، وَأَكْذَبَ ظَنَّهُ وَأَمْنِيَّتَهُ ، وَجَعَلَهُ لِسِيفِ اللَّهِ غَرَضًا ، وَلِأَوْلِيَائِهِ غَنِيمَةً .

آخسر : والطاعة هي العروة الوثقى ، والطريقة المثلى ، والغنيمة لاهلها في الأخرى والأولى .

« عبد الحميد » : - فان الفتنة تشوق لأهلها بأنق منظر ، وأزيرن ملبس ؛ تجر لهم أذيالها ، وتعدهم تنابح لذاتها ، حتى ترمي بهم في حومات أمواجها ؛ مسامة لهم : تعدهم الكذب وممنهم الخدع ؛ فاذا لزمهم عضاضها ، ونقر بهم شماسها ؛ تخلت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ؛ قد سلبوا أجمل لباس دينهم ، وأستزلوا عن أحصن معاقل دنياهم : من الغناء البهي منظره ، الجميل أثره ؛ حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم ، والإيجاف في التعب ، وسوء المنقلب ؛ فمن آثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولاته ، وتحرز بالدخول في الجماعة ، تاركاً لأنقل الأمرين ، وأوبل الحالين .

« ابن عبد كان » في ذم الخلاف : - وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، أعتوره إنعامنا ، وتوه به إكرامنا ؛ وشرفه ولأؤنا ، وحسن عنده بلاؤنا ؛ وأبتيننا له الأموال ، وأسئتنا له الأعمال ، وأوطأنا عقبه الرجال ؛ فلم تقع النعم منه عند شاكر ، ولا الصنعة عند محتمل ؛ فلما رفع الله بمكاننا خبيسته ، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وأنبساط يده ما كانت همته تعجز عنه ، وآماله تقصر دونه ؛ أضراه ذلك وأبطره ، وأطغاه وأكفره ؛ فأختال زاهياً ، وأستكبر عالياً ؛ وغدر باغياً ، وشاق عاصياً ؛ وأوضع في الفتنة لنا حرباً ، ولأعدائنا حرباً ؛ ولمن انحرف عنا يداً ، ولمن مال إلينا ضداً ؛ من غير سبب أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ؛ فكان كما قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ) وكقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلما ورده الخبر بما هيا الله لنا من الرجوع إلى القسط على الحال السارة لأوليانا ، الغائظة لأعدائنا ، سقط في يده ، وفكر في غليظ جرمه

وخيانته ؛ فأذاه الخوف الذي آتسشعره ، والإشفاق الذي خامرَه ؛ إلى أن ركب عظيما من الأمور ، وكاشف بالعصبيَّة والغرور ؛ مكانفا أعداء ^(١) ، وموالي ذوى العداوة والشنارَه ؛ ورجو بحول الله وقوته ، وإرادته ومشيئته ، وما لم يزل اللهُ - تقدس اسمه - يُجريه عندنا من جميل عاداته فيمن سَفِه الحق ، وزاغ عن القصد ؛ أن يُسلِّ هذا الخائن بحبائث أعماله ، ويُسلمه لقبائح أفعاله ، وأن يصرعه بأسوا مصارع أمثاله ؛ فإنَّ أحدًا لم يحمِّد النعمة ، إلا آتدعى النعمة ؛ ولم يدع الشكر ، ويستعمل الكفر ؛ إلا كانت العثرة منه قريبه ، والبلايا محيطه ؛ قولاً لا يُبدل رسمه ولا يُحوَّل .

من كتاب موسى بن عيسى .

أما بعد ، فإنَّ امرأ لو خلص من فلتات الخطايا وخُطوات الملائكة ، بفضيلة رأيي ولطافة بصر بالأمور ، كُنْتَ أحمي بذلك دون أهل زمانك ، للذي جرَّت لك عليه تصاريف التبغ ، وتعرضت لك به وجوه العبر ؛ ولما آستقبلت من موارد أمور نفسك ، وتعتبت من مصادر أمور غيرك ؛ ولكنَّ الله إذا أراد أمرا جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عللا ؛ فمن مقادير عليل البلاء تضييع المعرفة ، وإلغاء ما تُفيدُه التجربة ؛ ومن أسباب السلامة الانتباه بالعبر ، والاستدلال بما كان على ما يكون . وأنت امرؤ جرَّت لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من المجهج ، عرفت بها مالك وعليك ؛ فان تأخذ بها ، عرفت كيف تسلك مسالكه ، وإن تدع الأخذ بذلك ، تدعه على علم . وقد رأيت الذي آتقادت لك به النعمة ، ووهبت لك به العافية ؛ فيما أهلك الله من طاعة ولآة أمورك ، والصبر لها على مواطن الحق التي رفع الله بها ذكرك ، وأحسن عليها عُقبك وذُحرك ؛ فلم تمض بك في طاعتهم ربَّه ، إلا قربك الله بها في الخير عقبه ، ولا تبذل من نفسك نُصحا ، إلا أوجب

(١) بياض في الأصل ولعله الامارة .

(٢) الملائكة هنا معناه الفطن والطمع .

لك به مُجْحَاً ، ولم تَفْتَأْ تَوَاتُرُ ذَلِكَ : من مناصحتك وحُسنِ طاعتك ، حَتَّى طُلَّتْ بِهَا
 عَلَى من طاولك ، وَفَضَّلْتَ بِهَا من فاضلك ؛ وَجَرِيَتْ ممدوداً عِنَانُكَ إِلَى قُصُوى غَايَاتِ
 أَمَلِك ، فَأَصْبَحَتْ قَرِيحَ الْمَسَامِينِ ، بعد خَلِيفَةِ اللَّهِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَيْرَتِهِ من خَلْقِهِ ،
 بعد ذَوِي الْفَضْلِ من أَهْلِ بَيْتِهِ ؛ حَتَّى مَالَكَ من رِجَالِ الْعَرَبِ نَظِيرِ فِي مَتْرَلَةٍ ،
 وَلَا نَدِيدٍ فِي حَالٍ وَلَا رُتْبَةٍ ؛ بل هم فيك رِجْلَانِ : إِمَارَاهُ بِمَنْكَ ، وَإِمَارَاهُ بِفِيكَ .
 قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الكتاب إلى زماننا . فما
 زالت المملوك يكتبون إلى من يَتَخَيَّلُونَ منه خَلَعَ الطاعة من التَّوَابِ ومن في معنائهم ،
 وَيُحْتَوِنَهُمْ عَلَى لزوم الطاعة ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ المخالفة والخروج عن الجماعة .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى مملوك سبيس عند
 كَسْرَةِ التَّارِ ، بعد قيامه معهم في المصافف ، ومساعدته إياهم ، وهو :
 بَصَّرَهُ اللَّهُ بِرُشْدِهِ ، وأراه مواقع غِيَّةٍ في الإصرار على مخالفته وتَقْضِ عَهْدِهِ ،
 وَأَسْلَاهُ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ عَمَّنْ رَوَعَتْهُ السُّيُوفُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِفَقْدِهِ .

صدرت تُعْرِفُهُ أَنَّهُ قد مُحَقَّقَ ما كان من أمر العَدُوِّ الَّذِي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَحَمَلَهُ
 التمسك بِخُدَاعِهِ عَلَى بجانب الصواب في أموره ؛ وأنهم استنجدوا بكل طائفته ، وأقدموا
 عَلَى البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة ؛ وذلك بعد أن أقاموا مَدَّةً
 يَسْتَرُونَ الخدعة بالموادعة ، وَيُسِرُّونَ المصارمة في المسالمة ؛ وَيُظْهِرُونَ في الظاهر
 أموراً ، [وَيُدَبِّرُونَ في الباطن أموراً] ^(١) وَيَعِدُّونَ كُلَّ طائفة من أعداء الدين وَيَمْتُونَهُمْ
 وما يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وَكُنَّا بِمَكْرِهِمْ تاملين ، وَعَلَى معاجلتهم عاملين ؛ وَحِينَ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧) .

تَبَيَّنَ مَرَادُهُمْ ، وَتَكَلَّلَ أَحْتِشَادُهُمْ ؛ أَسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ ، وَأَسْتَجْرَرْنَاهُمْ لِيَقْرَبُوا فِي الْقَتْلِ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ ، وَيَبْعُدُوا فِي الْهَرَبِ عَنِ مَوَاضِعِهِمْ ؛ وَصَدَمْنَاَهُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ صَدْمَةً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا قَبْلُ ، وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمَلَةً أَلْجَاهُمْ طُوفَانُهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ : وَهَلْ يَعْصِمُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَبَلٌ ؟ فَحَصَرْنَاَهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْمَتَّسِعِ ، وَضَايِقْنَاَهُمْ كَمَا قَدْ رُؤِيَ وَمَرَقْنَاَهُمْ كَمَا قَدْ سَمِعَ ؛ وَأَنْزَلْنَاَهُمْ عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ الَّذِي نَهَلَ مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّى رَوَى وَأَكَلَ مِنْ لُحُومِهِمْ حَتَّى شَبِعَ ؛ وَتَبِعْتَهُمْ جِيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ تَخَطَّفَتْهُمْ رِمَاحُنَا ، وَتَسَلَّقَتْهُمْ صِفَاحُنَا ؛ وَبَيَّدْتَهُمْ فِي الْقَالَوَاتِ رُغْبَهَا ، وَبَفَرَّقْتَهُمْ فِي الْفِغَارِ طَعْنُهَا الْمُتَدَارِكُ وَضَرْبَهَا ؛ وَيَقْتُلُ مَنْ فَاتَ السُّيُوفَ مِنْهُمْ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ ، وَيُجْبِلُ لِلْحَيِّ مِنْهُمْ أَنْ مَوْضِعَهُ كَالدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ لِلنَّبِيِّ إِلَيْهَا رَجُوعٌ ؛ وَلَعَلَّهُ قَدْ رَأَى مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفَ عِيَانًا ، وَتَحَقَّقَ مِنْ كُلِّ مَا جَرَى مَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ تَزِيدَهُ بِهِ عِلْمًا وَلَا تُقِيمَ عَلَيْهِ بُرْهَانًا .

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ مَا زَالَ مَعْنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ ، وَأَنَّهُمْ مَا أَقْدَمُوا إِلَّا وَنَصَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ؛ وَمَا سَاقَتَهُمُ الْأَطْعَامُ فِي وَقْتٍ مَا إِلَّا إِلَى حَتُوفِهِمْ ؛ وَلَا عَادَمْتُهُمْ قَطُّ فِي وَقْعَةٍ إِلَّا أَحَادٌ مُجْبَرٌ عَنِ مَصَارِعِ الْوَفْهِمْ ؛ وَلَقَدْ أَضَاعَ الْحَزْمُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَسْتَدِمَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ [بِطَاعَتِنَا] الَّتِي كَانَ فِي مِهَادِ أَمْنِهَا ، وَوِهَادِ يُمْنِهَا ؛ وَحِمَايَةِ عَفْوِهَا ، وَبَرْدِ رَأْفَتِهَا الَّتِي كَدَّرَهَا بِالْمُخَالَفَةِ بَعْدَ صَفْوِهَا ؛ يَصُونُ رِعَايَاهُ بِالطَّاعَةِ عَنِ الْقَتْلِ وَالْإِسَارِ ، وَيَجْعِي أَهْلَ مِلَّتِهِ [بِالْحَدَّرِ عَنِ الْحَرَكَاتِ] الَّتِي مَا نَهَضُوا إِلَيْهَا إِلَّا وَجَرُوا ذُبُولَ الْخَسَارِ ؛ وَلَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَصْحَابَهُ لِسُيُوفِنَا الَّتِي كَانَ مِنْ سَطَوَاتِهَا فِي أَمَانٍ ، وَوَثَقَ بِمَا صَنَعَ لَهُ التَّنَارُ مِنْ نَصْرِهِ وَقَدْ رَأَى مَا آلَ إِلَيْهِ [أَمْرًا] ذَلِكَ الضَّمَانُ ؛ وَجَرَّ لِنَفْسِهِ بِمُؤَالَاةِ التَّنَارِ عَنَاءً كَانَ عَنْهُ فِي غِنَى ، وَأَوْقَعَ رُوحَهُ بِمُظَافَرَةِ الْمُغْلِ فِي حَوْمَةِ السُّيُوفِ الَّتِي تَخَطَّفَتْ

(١) بياض بالأصل والنصحیح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨) .

أولياءه من هنا ومن هنا؛ وأفتحم بنفسه مواردَ هلاكٍ سلبت رداءَ الأمنِ عن منكبَيْه، وأغترَّ هو وقومه بما زينَ لهم الشيطانُ من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ وما هو والوقوفُ في هذه المواطنِ التي تتزلزلُ فيها أقدامُ الملوكِ الأكاسره؟ وأتى لضعافِ النقادِ قُدرةٌ على الثباتِ لوثباتِ الأسودِ الضاريةِ واللُّيُوثِ الكاسره؟ لقد آعترضَ بين السهمِ والهدفِ ببحره، وتعرضَ للوقوفِ بين نابِ الأسدِ وطُفْره؛ وهو يعلمُ أننا مع ذلك نزعى له حقوقَ طاعةِ أسلافِهِ التي ماتوا عليها، ونحفظُ له خدمةِ آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصلِ إليها؛ ونجريه وأهلَ بلاده مجرى أهلِ ذمتنا الذين لأنؤيُسهم من عَفْوِنا ما استقاموا، ونسلُكُ فيهم حُكْمٌ من في أطرافِ البلادِ من رعايانا الذين هم في قبضتنا: تزحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحققُ أنه ما بقى ينسئُ ملازمةَ رِبْقَةِ الحُتْفِ خُنَاقَه، ولا يرجعُ يُوردُ نفسَه في مواردِ الهلاكِ وهل يرجعُ إلى الموتِ من ذاقَه؟ فيستدركُ بابَ الإجابةِ قبلَ أن يُغلقَ دونه، ويصونُ نفسه وأهله قبلَ أن تبتذلَ السيوفُ الإسلاميةُ مَصُونَه؛ ويبادرُ إلى الطاعةِ قبلَ أن يبدلها فلا تُقبلَ، ويمسكُ بأذيالِ العَفْوِ قبلَ أن تُرْفَعَ دونه فلا تُسبَلُ؛ ويُعجِّلُ بجملِ أموالِ القطيعةِ وإلا كانَ أهله وأولاده في جملةِ ما يجملُ منها إلينا، ويُسلمُ مَفَاتِحَ ما عداَ عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلمُ أنها وجميعُ ما تأنَّحُ من بلاده بين يدينا؛ ويكونُ هو السببُ في تَمزِقِ شَمْلِهِ، وتَفْرِقِ أهله، وقَلْعِ بَيْتِهِ من أصله؛ وهَدْمِ كَنائسِهِ؛ وأبتذالِ نفسه ونفائسِهِ؛ وأسترقاقِ حُرْمِهِ، وأستخدامِ أولاده قبلَ خَدَمِهِ؛ وأستفلاقِ قِلاَعِهِ، وإحراقِ رُبُوعِهِ ورِبَاعِهِ؛ وتعجيلِ رؤيةِ ما وُعدَ به قبلَ سماعِهِ. ومنَ لغازانِ أن يُجَابَ إلى مثلِ ذلك، أو يُسَمَّحَ له مع الأمنِ من سيوفنا ببعضِ ما في يده من الممالكِ؛ لِيَتَفَعَّعَ بما أَهَبَتْ جيوشنا المؤيدةُ في يده من الخيلِ والحولِ، ويعيشَ

في الأمن ببعض ما نسمح له به ومن للعور بالحوّل ؛ والسيوف الآن مُصْفِيَةٌ إِذَا
جوابه لتُكْفَفَ إن أبصر سبيل الرشاد، أو تَتَعَوَّضَ برءوس حِمَاهِ وَكِبَاهِ عَنِ الإِغْمَادِ
إن أصرَّ على العناد؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصفحة الخامسة

(من الكتب السلطانية المكتُوبُ إلى مَنْ نَكَثَ العَهْدَ مِنَ المَخَالِفِينَ)

قال في "موادّ البيان" : إذا نقض معاهدٌ عهده ، أو نقض من شروط الهدنة
يده ، فالرسم أن يصدر ما يكتبُ به بالحمد لله تعالى على موهبته في إظهار الدين ،
وإعزاز المسلمين ؛ وما تكفله من النصر على الباغين ، ووعده به أهل العدل
من الإدالة والتحكيم ؛ والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ؛
وإيراد طرف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التي تخترط في هذا النظام ،
وتليق بهذا النمط من الكلام ؛ ثم يتبع ذلك بمقدمة تدلُّ على متانة البصائر في الدين ،
ووثاقّة العقائد في إذالة المخاديين ؛ ومضاه العزائم في مجاهدة المعتدين ، والأستطالة
على المعاندين ؛ مع ما تضمّنه الله تعالى من نصره وإظفاره ، ووعده به من تأييده
وإقراره ؛ وسهله من إهواء الأهوية إليه ، وجمع الكلمة عليه ؛ بما خوله
من بآيس وشده ، وعديد وعدة . وما يليق بذلك مما يُعرب به عن علو السلطان ،
ووفور الإخوان ؛ واتساع القوة والأيد ، وصدق العزم والحد . ثم يذكر الحال
التي آنعت الهدنة عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غزويهم في عُقر
دارهم ، وتثريبهم بالغارات المبتوثة برا وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبولا لمساءلتهم ،
وأمثالاً لأمر الله تعالى في مسألتهم . يأخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل
الإسلام بهم ؛ والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليهم ، والمعاقل المنتزعة من أيديهم ؛

وَأَنَّ تِلْكَ الْعِزَامُ مُضْطَرَمَةٌ مَتَوَقَّدَةٌ ، وَتِلْكَ السِّيُوفُ مُشْحَدَةٌ مُهَنْدَةٌ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ حَرَمَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَنَفَّضَ مِنَ الدِّمَامِ يَدَهُ ؛ وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ مُوَجِّهَةٌ وَرَاءَ هَذَا الْكِتَابِ ، فِي جَيْشٍ يُلْحَقُ الْخَبَّتَ بِالْمُهْضَابِ ؛ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَبَادِرَةٌ إِلَى الْإِقْلَاعِ وَالْإِنَابَةِ ، وَمَكَاتِبَةٌ فِي الصَّفْحِ وَالْأَسْتِنَابَةِ ؛ وَأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ الْأَعْذَارَ ، وَبَدَأَ قَبْلَ الْإِقْدَامِ بِالْإِنْدَارِ ؛ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ .

قال : فَإِنَّ كَانَ الْكِتَابُ جَوَابًا عَنِ كِتَابٍ وَرَدَّ ، أَجِيبَ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَبُئِيَ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى مَا يَبْسُطُ الْهَيْبَةَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّرْوَلِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّاعَةِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، وَالْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ ؛ فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَاظَ فِيهَا بِطَلْقِ بَعْضِ قَلَمِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَطِيرَةِ : لِأَنَّهَا مَزَاحِمَةٌ بِالْأَمَلِ وَالْمَلِكِ ، وَجُجَجٌ تَحْصُلُ مِنْ كُلِّ دَوْلَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ ؛ وَدَرَكٌ مَا يَقَعُ فِيهَا عَائِدٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ .



وهذه نسخة كتاب كُتِبَ بِهِ عَنِ الْحَافِظِ لَدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ الْفَاعِطِيِّ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِيِّ ، إِلَى بَهْرَامِ النَّصْرَانِيِّ الْأَرْمِينِيِّ الَّذِي كَانَ آسْتُورَهِ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ بْنُ وَنَلْشِي ، أَرْتَغَامَا لِلدِّينِ ، لِيُحْكَمَ نَصْرَانِيٌّ فِي أَهْلِ الْمَلَّةِ ، وَوَلِيَ الْوِزَارَةَ مَكَانَهُ ؛ فَقَرَّ هَارِبًا إِلَى الشَّامِ نَافِضًا لِلْعَهْدِ ، وَكَتَبَ إِلَى الْحَافِظِ يَطْلُبُ أَهْلَهُ وَجَمَاعَتَهُ مِنَ الْأَرْمِينِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَلَةِ جُنْدِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، مَظْهَرًا لِلطَّاعَةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى التَّخَلِّيِّ عَنِ الدُّنْيَا ، وَالْإِنْقِطَاعِ فِي بَعْضِ الدِّيَرَةِ لِلتَّعْبُدِ مَكْرًا وَخَدِيعَةً ؛ فَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ جَوَابًا عَنِ كِتَابِهِ الْوَارِدِ مِنْهُ . وَنَصَّ مَا كَتَبَ إِلَيْهِ :

عُرِضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكِتَابُ الْوَارِدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، الْمَقْدَمُ ، الْمُؤَيَّدُ ، الْمَنْصُورُ ؛ عَنِ الْخِلَافَةِ وَتَسْمِيهَا ، نَاجِ الْمَمْلُوكَةِ وَنِظَامُهَا ؛ فَخَرُّ الْأَمْرَاءِ ، شَيْخِ الدَّوْلَةِ

وعمادها ؛ دُو الْمُجَدِّينَ ، مصطفى أمير المؤمنين . ووقف على جميعه ، وأستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وَسَّعَتِ الْقَوْلَ فِيهِ وَبَسَطَتْهُ ، وَتَفَسَّحَتْ فِيهَا أوردته منه وذَكَرَتْهُ ؛ مِمَّا خَوَاهُ وَمَحْصُولُهُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَالْوَلَاءِ وَالْمَشَايِعَةِ ؛ وَالْأَعْتِرَافِ بِنِعَمِ الدَّوْلَةِ عَلَيْكَ ، وَالْإِقْرَارِ بِإِحْسَانِهَا إِلَيْكَ ؛ فَلَعَمْرُؤُا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ هَذَا الَّذِي يَلِيقُ بِكَ وَيَحْسُنُ مِنْكَ ، وَيَحْسُنُ أَنْ يَرِدَ عَنْكَ ، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ لَكَ ؛ وَقَدْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ أَسْلَفَتَكَ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ قَدِيمًا ، وَنَقَلَتْكَ فِي دَرَجَةِ التَّنْوِيهِ حَدِيثًا ؛ حَتَّى رَفَعَتْكَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَبَلَّغَتْكَ مَا لَمْ تَسْمُ إِلَيْهِ هِمَّةٌ طَالِبٌ ؛ وَأَوْطَأَتِ الرِّجَالَ عَقَبَكَ ، وَجَعَلَتْ جَمِيعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ تَبَعَكَ ؛ مِمَّا أَغْنَى اعْتِرَافَكَ بِهِ عَنِ الْإِطَالَةِ بِشَرْحِهِ ، وَالْإِطْنَابِ فِي ذِكْرِهِ .

وأما ما ذَكَرْتَهُ مِمَّا كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطَاكَ التَّوَثُّقَةَ عَلَيْهِ ، فَأَجَابَكَ مِنْهُ إِلَى مَا رَغِبْتَ فِيهِ ، فَاسْتَقَرَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ فِي مَعْنَاهُ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَزَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَنِيَّةٍ وَعَالَمِيَّةٍ ؛ وَاعْتِقَادُهُ أَنْ لَا يَرْجِعَ عَنْهُ ، وَلَا يُغَيِّرُ مَا أَحْكَمَهُ مِنْهُ ؛ وَإِنَّمَا حَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ هَذَا الْمُرَادِ أَنْ كَافَّةَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ غَضِبُوا لِمَلَّتْهُمْ ، وَأَمْتَعَضُوا مِمَّا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً فِي شَرِيعَتِهِمْ ؛ وَنَفَرَتْ نَفُوسُهُمْ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَيْهِ قَادِحٌ فِي دِينِهِمْ ، وَمَضَاعِفٌ لِأَمَلِهِمْ ؛ وَأَنَّهُ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ ، وَوِزْرٌ لَا يُجَاوِزُ وَلَا يُصْفَحُ [عنه] حَتَّى إِنْ أَهْلَ الْمَشْرِقِ أَخَذُوا فِي ذَلِكَ وَأَعْطَوْا ، وَعَزَمُوا عَلَى مَا آتَفَقُوا عَلَيْهِ مِمَّا صَرَفَهُ اللَّهُ وَكَفَى مَشُونَتَهُ وَالْأَشْتِغَالَ بِهِ .

وأما ما أَلْتَمَسْتَهُ مِنْ تَسْيِيرِ مَنْ بِالْبَابِ مِنْ طَائِفَتِكَ إِلَيْكَ ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَسُوغُ وَلَا يُمْكِنُ فِعْلُهُ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ لَمَنَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ فَلَمْ يَفْسَحُوا فِيهِ . وَالْآنَ فَلَنْ

يَحُلُّو حَالَك مِنْ أَحَدِ قَسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَغَيْرِ مُتَفَصِّلٍ عَنْهَا ،
فَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُحْيِيكَ فِي وِلَايَةِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : إِمَّا قُوصَ ، أَوْ إِنْجِيمَ ، أَوْ أَسْبُوطَ ؛
فَأَيْهَا أَخْتَرْتَ وَأَلَاكَ إِيَّاهُ ، وَرَدَّ أَمْرَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ عَلَيَّ أَنْ تَقْتَصِرَ مِنَ الَّذِينَ
مَعَكَ عَلَيَّ نَحْسِينَ أَوْ سِتِينَ فَارِسًا ، وَتُسَيِّرَ الْبَاقِينَ إِلَى الْبَابِ لِيُجْرُوا عَلَيَّ عَادَاتِهِمْ ،
وَرِسُومِهِمْ فِي وَاجِبَاتِهِمْ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا عِبِيدَ الدَّوْلَةِ وَمَتَقَلِبِينَ فِي فَضْلِهَا ،
وَأَكْثَرَهُمْ مَتَوَلِّدُونَ فِي ظِلِّهَا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَيَّ الْقَضِيَّةَ الَّتِي مَازَلْتَ تَذَكَّرُ رَغْبَتَكَ
فِيهَا وَإِيثَارَكَ لَهَا : مِنْ التَّخَلِّيِ عَنِ الدُّنْيَا وَلِزُومِ أَحَدِ الدِّيَرَةِ ، وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَى الْعِبَادَةِ ؛
فَإِنْ كُنْتَ مَقِيمًا عَلَيَّ ذَلِكَ فَتَخَيَّرْ ضَيْعَةً مِنْ أَيْ ضَيْعٍ شِئْتَ يَكُونُ فِيهَا دِيرٌ تُقِيمُ فِيهِ
وَتَقْطَعُ إِلَيْهِ ؛ فَتُعَيِّنِ الضَيْعَةَ لِيَجْعَلَهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْوِيفًا لَكَ مُؤَبَّدًا ، وَإِقْطَاعًا
دَائِمًا مُخَلَّدًا ؛ وَتَجْرِي بِجَرَى الْمَلِكِ ، وَيُكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، مِمَّا تَطْمَئِنُّ
إِلَيْهِ وَتَسْتَحْكِمُ نَفْسَكَ بِهِ . وَإِنْ آيَأَتِ الْقَسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَلَمْ يُرِضِكَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا ،
وَلَا رَغِبْتَ فِي الثَّانِي ، فَتَحَقَّقْ أَنَّ الْمَسْلَمِينَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَكَأَقْتِهِمْ وَأَسْرَهُمْ ؛ وَكُلٌّ مِنْ يَقُولُ
بِالشَّهَادَتَيْنِ : مِنْ قَاصِّ وَدَانٍ ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ، وَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، يَنْفِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَتَّقُونَ
عَلَيَّ الْقَصْدَ لَكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي التَّوَجُّهِ نَحْوَكَ ؛ وَهُوَ عَمَلٌ دِينِيٌّ ، لَا يُرِيئُهُ أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ ؛
فَتَأْمَلْ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْإِجَابَةُ مِنَ الْأَقْسَامِ ، وَطَالِعْ بِمَا عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ لَا وَجُودَ لَهُ فِي زَمَانِنَا لِعَدَمِ وَقُوعِ
الْهُدْنِ الْمُتَرْتَبِ عَلَيْهَا هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ ؛ فَإِنْ أَحْتَجِجُ إِلَى ذَلِكَ مَشَاهِدَ الْكَاتِبِ
عَلَيَّ الْقَاعِدَةَ الْقَدِيمَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى من خلع الطاعة)

قال في "مواد البيان" : وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة . قال : وجمع أوضاعها كلها في قانون كلي عسير المرام ، إلا أننا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والتقص منها . ثم قال : والعادة أن تفتد هذه الكتب إلى من تُرجى إنايته ، وتؤمل مراجعته . فأما من وقع الإياس من استصلاحه ، ودعت الضرورة إلى كفاحه ، فلا حاجة إلى معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إلى إيناسه ، ويزيل أسباب استيحاظه ، ويعود بثبات جاشه ، ويبعثه على مراجعة فكره ، ومعاودة النظر في أمره ، ويذكره ما أسدى من العوارف إليه ، وأفيض من النعم عليه ، وأنه لا ينقر سرّبها بجحدها وكفرها ، ويوحش ربّعها باهمال حمدها وشكرها ، ويربطها بحسن الطاعة ، ويستترهنها بالتأدب في التّباعه ، ولا يحجز الوبال إلى نفسه بالخروج عن العضمه ، في عاجل ذم الوصمة وفي آجل أليم النّقمه . ويصّره بعاقبته ومن يلبسه من ذوى الجند بما يقتضى ربّ الإنعام لديهم ، وإقرار الفضل عليهم ، وأن يسلبهم ملبس الظلّ الظليل ، وأن يعظّمهم من حلي الرأي الجميل ، ويتدرّع في أثناء ذلك بشعار النفاق ، ويتسم بميسم الشقاق ، ويتعجل إزعاجه من داره ، وبعده من قراره ، وهدم ما شيده الإخلاص من ذكره ، وتقويض ما رفّعت الطاعة من قدره ، ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً بمخندّها ، وبعد أن كان مرّامياً عن السدّة مرّامياً بيدّها ، ويضيع

مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأُفِيضَ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا ذَهَبَ مِنَ الْيَقِينِ فِي تَدْرِيجِهِ إِلَى مَرَاتِقِ
السِّيَادَةِ ، وَمِنَ الرَّغَائِبِ فِي إِحْلَاقِهِ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ ؛ وَلَا يَغْتَرُّ بِمَنْ يُزِينُ لَهُ عَاجِلَ الْآجِلِ ،
وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِخَدِجِ الْبَاطِلِ ؛ وَيَجْعَلُ أَقْوَالَهُمْ دَبْرَ سَمْعِهِ ، وَيُبْعِدُ أَشْخَاصَهُمْ عَنِ نَظَرِهِ ؛
نَاطِرًا فِي عَاقِبَتِهِ ، وَحَارِسًا مُهْجَتَهُ ؛ وَرَاقِبًا فِي حَقْنِ دَمِهِ ، وَصِيَانَةً حُرْمِهِ ؛ وَلِيَرْجِعَ
إِلَى الْفِتَاءِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُحْرِزُهُ ، وَالْكَتِفِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعِزُّهُ ؛ وَلَا يَجْعَلُ مُسَالِمَهُ بِالْعُنُودِ
مَنَازِعًا ، وَمُوَاصِلَهُ بِالْحُجُودِ مَقَاطِعًا ؛ وَوَاهِبَهُ بِالْكَفْرِ سَالِيًا ، وَمَطْلَعَ النِّعْمَةِ بِضَيَاعِهِ
حَقًّا مَغْرِبًا ؛ وَقَدْ بَقِيَ فِي الْحَبْلِ تُمْسِكُ ، وَفِي الْأَمْرِ مَسْتَدْرِكُ ؛ لِأَنَّ يَهْبَ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَسْتَبْدِلُ مِنْ لِقَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ يَقُولُ : فَإِنْ كَانَ مَا جَنَاهُ قَدْ هَدَّ
سُرْبَهُ ، وَكَدَّرَ شِرْبَهُ ؛ وَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ سُوءَ الظَّنِّ ، وَأَخَافَهُ بَعْدَ الْأَمْنِ ؛ فَلْيَبْعَثْ
رَسُولَهُ يَسْتَوْتِقُ وَيُعَاقِدُ ، وَيَتَوَكَّدُ وَيُعَاهِدُ ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ بِمَا يَمَلَأُ فُؤَادَهُ أَمْنًا ،
وَيَكُونُ عَلَيْهِ حِصْنًا ؛ سَارِعًا إِلَى أَمْتَالِ الْمَرَاسِمِ ، وَجَرِيًّا فِي الطَّاعَةِ عَلَى سَنَنِهِ الْمُتَقَادِمِ ؛
وَلَا يَسْتَمِرَّ عَلَى الْمُدَاقَعَةِ وَالْمَطَاوِلَةِ ، وَيَقْتَصِرَ عَلَى الْمَغَايِظَةِ وَالْمَمَاطِلَةِ .

ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا : وَقَدْ قَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَهُ هَذَا إِلَيْكَ نَائِبًا عَنْهُ فِي اسْتِصْلَاحِكَ ،
وَقَائِدًا يَقُودُكَ إِلَى طَرِيقِ نَجَاحِكَ ؛ قَبْلَ تَجْرِيدِ مَوَاضِيهِ ، وَإِحْلَاقِ مُسْتَأْنَفِهِ فِي الْحَرْبِ
بِمَاضِيهِ ؛ وَخِيُولُهُ تُجَادِبُ الْأَعْنَةَ ، وَذَوَابِلُهُ مُشْرَعَةُ الْأَسِنَّةِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَصْدُكَ
فِي عُقْرِ دَارِكَ الَّتِي بَوَّأَكُمَا ، وَأَنْتَرَاغُ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَعْطَاكُمَا ؛ لِتَذُوقِ مَرَارَةِ الْمَخَالَفَةِ ،
وَتَرْتِنِهَا بِجَلَاوَةِ الْمَوَافَقَةِ ؛ فَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ حَاحِيًا ، وَلَا تَكُنْ لَهَا ظَالِمًا ؛
وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيْقُ بِهِ .

وَإِنْ كَانَتِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى رَجُلٍ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةٌ بِجَمْعِ الطَّاعَةِ ، ثُمَّ سَأَلَ الْإِفَالََةَ
فَأُقِيلَ بَعْدَ مُشَارَفَةِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَالتَّنْكَيَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَاجَعَ الْعَصِيَانَ ؛ فَالرَّسْمُ أَنْ تُفْتَحَ

بحمد الله جاعل العاقبة للمتقين ، والعدوان على الظالمين ؛ والعزة لحزبه ، والدلة لحربه ؛ والإظهار لأهل طاعته ، والخسار لأهل معصيته ؛ ودائرة السوء على الخالعين طاعة خلفائه ، القائمين بحجته . ثم يقال : أمير المؤمنين على ما يراك تتخول به من تصديق أماله ، وتوفيق أفعاله ؛ وتسديد مراميهِ ، وهداية مساعيه ؛ وإجابة دعوته ، وتحقيق رغبته ؛ بإدالة مواليه ، وإدالة معاديه ؛ ومعونته على ما ولاه ، وتمكينه من ناواه ؛ ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ثم يؤتى بمقدمة تدل على جميل عاقبة الطاعة ، وذميمة مغيبة المعصية ؛ يسقط القول عليها ، ويتوسع فيها ، لتكون فراشا لما يتلوها . ثم يقال بعدها : وإنما يحجل ذلك أهل الغرارة الذين لم يلوكوا شكائم التجارب ، ولم يمارسوا ضرائم النوايب ؛ وأنت فقد تدوّقت من كراهة المعصية ومرارتها ، وعدووية الطاعة وحلاوتها ؛ ما يرجو أمير المؤمنين أن يكون قد وعظك وأدبك ، وقومك وهدبك ؛ وكشف لك عن عاقبتهما ، وعرفك بغايتهما ؛ فدعك الطاعة إليها بما أسبغته عليك من لباس شرفها ومجدها ، وأستخدمته لك من أنصار إقبالها وسعدها ؛ ونهتك المعصية عنها بما بلوته من نوائبها وصنائعها ، وجرّته من مرمض مراميها ومواقعها ؛ لأنها أقلت عددك ، ومزقت مطرفك ومثلدك ؛ حتى تداركك من عطف أمير المؤمنين ما أنبتك بعد الحصد ، ورأشك بعد الحص ؛ وأتتهى إلى أمير المؤمنين أنك حنيت إلى أتباع الضلالة الذين غرّوك ، وملت إلى أشياع الفتنة الذين استهووك ؛ فأصغيت إلى أقوالهم التي ظاهرها نصح وباطنها غش ، وآرائهم التي مواردنا صلاح ومصادرنا فساد ؛ وملت إلى معاودة الشقاق والارتكاس في العُصيان ، ومقابلة التعمى بالكفران ؛ فقدم كتابه إليك مدكرا ، ومنحك خطابه مُعذرا مُندرا ؛ ليعرفك حظك ، ويهديك رُشدك ؛ [ويدلك] على الأحسن لك في مبدئك وعاقبتك ، ويحذرك من مراجعة

ماقارفته ؛ وأن تنزل عن المنزلة التي رفاك إليها ، وتجدب رباعك من النعمة التي ارتعتك فيها ، وتختل عن مرابع الدعة التي أوردك عليها ؛ فانظر لنفسك حسنا ، وكُنْ إليها مُحسِنًا ؛ وانتفع بمرشد أمير المؤمنين ، ولا تُفسدَنَّ بخلافك عن أمره نصيبك من الدنيا والدين ؛ فارجع إليه مسترغماً فإنه يقبدي بالله في الرحمة للحسين ، مادام مؤثراً لرب النعمة لديك ، وإقرارها عليك . فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قال : وإن كانت المكتوبة إلى رعية قد نرجت عن الطاعة كتبت إليها بما مثاله :

أما بعد ، وفقكم الله لطاعته ، وعصمكم من معصيته ؛ فإن الشيطان يذلي الإنسان بغروره ، ويقم له الضلال في صورة الهدى يهتانه وزوره ؛ مستخفاً لطائفي الألباب ، ومستتراً للأقدام عن موقف الصواب ؛ محسناً بكيده لأعتقاد الأباطيل ، مزيناً بغيه أتباع الأضاليل ، صارفاً بمكره عن سواء السبيل ؛ مصوراً للحق في صورة المين ، مغطياً على القلوب بشغاف الرين ؛ والحازم اليقظ من تحرز من أشراكه وحباله ، وتحفظ من تخاليله وغوائله ؛ وآتهم هواجس فكره ، وأستراب بوساوس صدره ؛ وعرض ما يعرض له على عقله ، وكرّر فيه النظر متحرزاً من مكر الشيطان وحتله ؛ فإن الفاه عادلاً عن الهوى ، مائلاً إلى التقوى ؛ بريئاً من خدع الشيطان ، آمناً من عوادي الأفتتان ؛ أمضاه وأثقا بسلامة مغبته وعاقبته ، وشمول الأمن في أولاه وأخراه .

وآتهى إلى أمير المؤمنين أن الشيطان المرید استخف أحلام جماعة من جهالكم ، وأستولى على أفهام عدّة من أراذلكم ؛ وحسن لهم شق عصا الإسلام ، ومعصية الإمام ؛ ومفارقة الجماعة ، والأنسلاخ من الطاعة ؛ التي فرضها الله تعالى على الجمهور ، وجعلها نظام الأمور ؛ فقال جل قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ واختيار الفرقة التي نهى الله عنها . فقال :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ومجانبة الألفة التي عدّها في جلائل نعمه ، فقال مُمتناً بها على عباده : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وسوّل لهم التعرّي من آداب الدين ، والمجاهرة بالخلاف على أمير المؤمنين ؛ فنبذوا ما بأيديهم من بيعته ، وسلبوا من ظلّ دعوته ؛ وركبوا من ذلك أوامر المراكب ، وسلكوا أحسن المسارب ؛ وسعوا في البلاد بالفساد ، وقاموا في وجه الحقّ بالعناد ، واستخفوا بحمل الآثام ، وبسطوا أيديهم إلى الدماء الحرام ، وشنوا الغارات على أهل الإسلام .

وقد علمت أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثار ، فقد استنزل في هذه الدار سُخط الجبار ، وتبوأ في الآخرة مقعده من النار ؛ وجرى على غير الواجب في إقامة الفروض والصلوات ، وتأدية العبادات والزكوات ، وعقد العقود والمناكحات ؛ لأن هذه الأحوال إنما تُرضى وترفع ، وتُجاب وتُسمع ؛ إذا تولاها أمير المؤمنين ، أو من يستخلفه من صلحاء المسلمين ؛ فاما إذا استبددتم فيها بأنفسكم ، وأقنديم في تأديتها بناكب عن سبيله ، مجانبي لدليله ؛ فقد تسكعتم في الضلالة ، وتطابقت على الجهالة ؛ وكلّ راضٍ منكم بذلك ، عاصي لله ورسوله وللإمام .

ولما أطلع أمير المؤمنين على ما ذهبت إليه بسوء الاختيار ، وركبتموه من مراكب الأفتتار ؛ لم ير أن يُلغِيكم ويهجركم ، ويُغفلكم ولا يبصركم ؛ فقدم مكاتبكم معذراً مُندراً ، ومخوفاً مُحدّراً ؛ وبدأكم بوغظه مُشفقاً عليكم من زلة القدم ، وموقف الندم ؛ وجاذباً لكم عن مضالّ الغواية ، إلى مرشد الهداية ؛ وأفتحكم باللفظ الأحسن ، والقول الألين ؛ وهداكم إلى السبيل الأوضح ، والمتجر الأربح ؛ وأختار أن يهديكم الله تعالى إلى طريق الرشاد ، ويدلّكم على مقاصد السداد ؛ ويُعيدكم إلى الأولى ؛

وَيَبْعَثَكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ؛ وَأَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ فَتَعْتَصِمُوا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ،
وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ؛ وَتَرْجِعُوا إِلَى إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ
كَلِمَةُ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ ؛ وَتَتَّبِعُوا مَذَاهِبَ أَهْلِ السَّلَامَةِ ، وَأَوْلَى الْأَسْتِقَامَةِ ؛ فَإِنْ وَقَعَ
مَا أَلْقَاهُ إِلَيْكُمْ الْمَوْقِعَ الَّذِي قَدَّرَهُ فِيكُمْ ، وَسَأَلْتُمْ الْإِقَالََةَ ، فَاتُّوْبَةُ تَفْعَلَكُمْ ، وَالْعَفْوُ
يَسَعُّكُمْ ؛ وَإِنْ تَمَادَيْتُمْ فِي غَيْبِكُمْ وَبَاطِلِكُمْ ، وَغُرُورِكُمْ وَجَهْلِكُمْ ؛ تَقَدَّمَتْ إِلَيْكُمْ جِيُوشُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُقَوِّمَةٌ ، وَمِنْ عَصَاةِكُمْ مَسْتَقَمَةٌ ؛ وَذَلِكَ مَقَامٌ لَا يَتَمَيَّزُ فِيهِ الْبَرُّ ، مِنْ السَّقِيمِ ،
وَلَا الْجَاهِلُ مِنَ الْعَلِيمِ ؛ أَلَا تَسْمَعُونَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ؟ وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَشَدُّ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَمَعْصِيَةِ السُّلْطَانِ ؛ وَشَقَّ
العَصَا ، وَإِرَاقَةَ الدِّمَاءِ ، وَإِثَارَةَ الدِّهْمَا ؟ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا ، وَتَأْمَلُوا وَرَاجِعُوا ؛
وَتَبَصَّرُوا وَأَسْتَبْصَرُوا ؛ وَقَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَجَّجَهُ ، وَبَدَأَ كُمْ بِالْحُجَّةِ ؛ فَأَوْجِدُوهُ
السَّبِيلَ إِلَى مَا يَنْوِيهِ لَكُمْ وَلِكَافَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ : مِنْ حَقْنِ الدِّمَاءِ ، وَصِيَانَةِ الْحَرِيمِ ،
وَتَحْصِينِ الْأَمْوَالِ ، وَشُمُولِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ؛ وَأَجِيبُوا عَنِ كِتَابِهِ هَذَا بِمَا يُؤَفِّقُكُمْ اللَّهُ
تَعَالَى [إِلَيْهِ] : مِنْ إِجَابَةِ دَعَائِهِ وَالْعَمَلِ بِرَأْيِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خرج عن الطاعة ، وهو :
أما بعد : بلغني كتابك تذكر أنك تحمّل المرد على الجرد ؛ فسترّد عليك جنود الله
المقتربون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على
الفحول ؛ كأنها الوعول ، تحوض الوحول ؛ طوال السبال ، تختضب بالخريال ، رجال
هم الرجال ؛ بين راح وناشب ، ليس معهم إلا كلب محارب ؛ ولا ينگلون عن الأصحاب .
قد ضربوا بضرب الهام ، وأعتادوا الكتر والإقدام ، ليسوا بدوي هينة ولا إجمام ؛
يقضون بالسيوف ، ويخالطون الرحوف ، في أعتهم الخوف ؛ يزأرون زفير الأسود ،

وَيَتَّبِعُونَ وَتُوبَ الْفُهُودِ؛ لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا شَاكٌ مُخْتَبِكٌ، فِي الْحَرْبِ مُجَرَّبٌ؛ قَدْ شَرِبَ عَلَى نَاجِدِ الْحَرْبِ وَأَكَلَ، ذُو شِقْشِقَةٍ وَكُلْكَلٍ؛ كَأَنَّمَا أَشْرَبَ وَجْهَهُ تَقْبِيعَ الْحِنَاءِ؛ قَدْ رَمَى الْحَرْبَ وَرَضَعَهَا، وَغَدَّتْهُ وَالْفَهَا؛ فَهِيَ أُمُّهُ وَهُوَ ابْنُهَا، يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَأْتِسُّ بِقُرْبِهَا؛ فَهُوَ يَطْلُبُهَا أَرَبٌ، وَعَلَى أَهْلِهَا حَرِبٌ؛ لَا يَرُوعُهُ مَا يَرُوعُهُ، وَلَا يَزِيغُهُ مَا يَزِيغُ الْعُمَرَ الْجَبَانَ؛ حِينَ يَسْتَدُّ الْوَعْيُ، وَتَخْطُرُ الْقَنَاءُ؛ وَتُقَلِّصُ الشَّفَاهُ، وَتُسْفِرُ الْكُمَاهُ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ تُسَلِّمُكَ الْمُرْدُ، وَتُكْشِفُ عَنِ الْجُرْدِ. فَتَاهَبُ لَذَلِكَ أُهْبَتَكَ، وَأَخْطُبُ لَهُ خِطْبَتَكَ، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْحَوَاكِمِ؛ ثُمَّ كِيدُونِي جَمِيعًا فَلَا تُنْظِرُونُ؛ فَمَا أَسْرَنَا إِكْتَارُكَ الْجَمُوعِ، وَحَشْدُكَ الْخِيُولِ؛ فَإِنَّكَ لَا تُكْتَفَى جَمْعًا، وَلَا تُسْرَبُ خَيْلًا؛ إِلَّا وَتَقْنَا بِأَنْ سَمِعْنَا اللَّهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَيَزِيدُنَا مِنْ نَصْرِهِ؛ بِمَا قَدْ جَرَّتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَسَلَفَتْ بِهِ عَادَتُهُ؛ وَنَحْنُ نَجْرِي مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَفَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَنِكَالٍ وَسَطَوَاتٍ مُهْلِكَةٍ؛ فَرَأَيْتُمْ ذَلِكَ فِي الْمَنَازِلِ، وَعَرَفْتُمُوهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ؛ فَأَبَشِّرْنَا بِمَا سَأَاكَ صَبْرًا، وَمَشَاكَ تَقَادُ كَمَا يَقَادُ الْجَمَلُ الْمُخْشَوْشُ .



وَمِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَكْتُبَةِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا كَتَبَ بِهِ قَوَامُ الدِّينِ (يَحْيَى بْنُ زِيَادَةَ) وَزَيْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ بَغْدَادَ إِلَى (طُغْرُل) مُقَطَّعِ الْبَصْرَةَ بِأَمْرِ الْخَلِيفَةِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ تَزَحَّ عَنْهَا، قَاصِدًا بَعْضَ الْأَطْرَافِ، مَفَارِقًا لِعِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ، عِنْدَ مَا طُلِبَ مِنْ دِيْوَانِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ، فَأَوْجِبَ ذَلِكَ أَنْتَاهُ عَنْ عَزْمِهِ وَتَوَجُّهِهِ إِلَى بَغْدَادَ دَاخِلًا تَحْتَ الطَّاعَةِ، وَمُقَابَلَتَهُ بِالصَّفْحِ وَتَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ . وَهَذِهِ نَسِخَتُهُ :

أَصْدَرْتُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ، الْأَمِيرِيِّ، الْأَسْفَهْسَلَارِيِّ، الْأَجَلِيِّ، الْكَبِيرِيِّ، السَّيِّدِيِّ، الْعِمَادِيِّ، الرَّشْنِيِّ، الظَّهْيِيرِيِّ، الْمُحْتَرَمِيِّ، الْعَزِيِّ، الْجَمَالِيِّ، أَمِيرِ الْجَبُوشِ؛ أَطَالَ اللَّهُ بِقِصَاهُ، وَأَدَامَ عُلُوَّهُ وَنِعْمَتَهُ؛ وَأَنَا أَوْقَعُ الْأَقْوَالَ الْمُتَوَاتِرَةَ،

والأموال المتناصرة، مُسْتَفْرَبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأنى أسمعها في المنام، وتخطبني بها أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ، فلولا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يَأْنَسُ بِمُتَجَدِّدَاتِهَا إِلَّا مَنْ حَنَّكَهُ التَّجَارِبُ؛ لم أَصَدِّقْ هذه الحركة المباركة التي وقعت منه بسعادته؛ فإني ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَادٍ، وعورة على كماله؛ وإلا فمن أين يدخل الزَّلَلُ على ذلك الرَّأْيِ السَّيِّدِ، والعقل الرَّاجِحِ، والفكر الصَّابِ؟ الذي يُعَلِّمُ الآرَاءَ كَيْفَ تُسِيرُ، وَيُعَرِّفُ النُّجُومَ كَيْفَ تُسِيرُ، ويهدي غيره في المُشْكَلاتِ إلى صواب التَّدييرِ. والفائتُ لا كَلَامَ فيه، غير أن العَقْلَ يَقْضِي بِأَسْتِدْرَاكِ المُمْكِنِ وتَلَاْفِيهِ؛ بالانحراف عن المَهْوَى إلى الرَّأْيِ الصَّادِقِ، والرُّجُوعِ عن تَأْوِيلِ النَّفْسِ إلى مَرَاجِعَةِ الفِكرِ النَّاصِحِ؛ فالعَوْدُ إلى الحَقِّ أَوْلَى من التَّمَادِي على الباطل، وَأَحَبُّ أن تَسْمَعَ ما أَقُولُ بِأُذُنٍ وَاَعْيَةٍ وَقَلْبٍ حَاضِرٍ؛ وَحُوثِي أَن تَسْتَدْفِعَهُ الكَوَاذِبُ عَن تَدْبِيرِ الحَقَائِقِ، وَعِرْفَانِ النَّصَائِحِ؛ فَإِنَّ مِنَ القَوْلِ مَا بُرْهَانُهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ مِنْ غَيْرِهِ .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الَّذِي أَحْوَجَ إِلَى هذه الحَالِ القَبِيحَةِ السُّمَمَةِ، وَرُكُوبِ الخَطَرِ فِي هذه الحَرَكَه؛ وَأَحْتِمَالِ هذه المَشَاقِّ، والأَنْزَاعِ مِنْ غَيْرِ أن تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةٌ؟ هَلْ هُوَ لِأَشْيَاءٍ بَحْرَتِ العَادَةِ بِمِثْلِهِ، وَبِمَطَالِبَةِ دِيوانِهِ بِمَا كَانَ يَنْدَفِعُ الأَمْرَ بِبَعْضِهِ؟ كَمَا بَحْرَتِ عَادَةُ الدَّوَاوِينِ، وَخِدْمُ السُّلْطَانِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ عَمَدٌ - أَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ - بِأَوَّلِ خَاطِرِهِ، وَبَادِي رَأْيِهِ فِي هذه العَجَلَةِ، مِنْ غَيْرِ تَثْبِيتٍ وَلَا رَوِيَّةٍ. لِمَ لَا رَاجِعَ فِكْرَهُ الكَرِيمَ، وَيَقُولَ لِنَفْسِهِ: إِلَى أَيْنَ أَمْضِي؟ وَمَنْ أَخْدُمُ؟ وَعَلَى أَيْ بَابٍ أَقِفُ؟ وَتَحْتَ أَيْ لَوَاءٍ أَسِيرُ؟ وَبِأَيِّ غُبَارٍ أَكْتَحِلُ؟ وَفَضَلَ مَنْ أَطْلُبُ؟ وَعَلَى حُكْمِ مَنْ أَنْزِلُ؟ بَعْدَ أن رُبِّيتُ فِي عَرَصَةِ الخِلَافَةِ، وَدَارِ النُّبُوَّةِ، وَحِضْنِ المَمْلُوكَةِ؛ أَنَسَانِي نَعِيمُهَا صَغِيرًا، وَقَدَمَنِي كَبِيرًا؛ وَكُنْتُ مَأْمُورًا بِفِعْلِي أَمِيرًا، وَطَارَ صَبْتِي فِي الدُّنْيَا وَلَمْ أَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا؛ فَأَنَا خَيْرٌ مِنْ مَلِكٍ أَقْصَدُهُ، وَأَمْثَلُ مِنْ كُلِّ

من أرجوه وأستجده؛ أفانزل من السماء إلى الحضيض، وأهدم ما بنى الإنعام عندي في الزمن الطويل العريض؟ ! هذا هو المكروه الأعظم، الذي تعود منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال: "اللهم إني أعوذ بك من الخور بعد الكور" ومن يكون حزين خلافة كيف يرضى أن يكون تابع إماره؟ ولو لم يكن ما هم عليه إلا هذا لكفى. ثم لم لا يلتفت في هذه الحال التي هو عليها، التي صحبته بوفائها، ويسمع خطابها بلسان حالها ثم؟ تقول له: يا عماد الدين! أما هذه خيام الإنعام عليك؟ أما هذه الخيل المسومة تحتك؟ أما هذه ملابس الفخرة مفاضة عليك؟ أما هذه ممالك حافة بك؟ أليس الأصطناع رفع قدرك إلى المتزلة التي تقل عليك بعض الانحطاط عنها، ووهب لك الهمة التي أبيت الضيم بها؟ فغوشيت أن تكون ممن تواترت عليه النعم فملها، وتكاثرت عليه فضعت عن حملها؛ فياليت شعري! ماذا يكون جوابها؟ والله إنني أقول له بسعادته ولا أعقب: ولو أنه قد تحقق - والعياذ بالله - وقوع كل محذور، وحلول كل مكروه؛ لم يكن في هذه الحركة معذورا، فكيف بظن مرجم، وقول مسوف متوهم؛ ورأي فطير غير محتمر. ولقد كان أستسلامه لمالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أحسن في الدنيا وأحمد في العقب؛ واقعا ذلك من أحواله حيث وقع. والآن فالوقت ضاق في إصدار هذه المكاتبه، عن استقصاء العتاب والمحافقه؛ وإيراد كل ما تلزم به الحجّة، لكنني أقول على سبيل الجملة:

إنني أخاف على سعيد ذلك الرأي إجابة داعي الهوى، فإن الججاج من أوسع مداخل الشيطان على الإنسان، وحوشى كلاله من هذا القسم.

والثاني أستشعاره بسعادته من بادرته، وأستيحاشه من عجلته؛ وهذا أيضا من أدق مكاييد النفس الأمارة بالسوء، فإنها تؤمن من الخوف، وتخوف من المأمون،

وَتَسْحَرُ الْعَقْلَ بِالتَّحْيِيرِ وَالشَّكِّ ، فَلَا تَصِحُّ لَهُ عَزِيمَةٌ ، وَلَا تَصْفُو لَهُ فِكْرُهُ ؛ وَهَذَا التَّوَعُّعُ إِذَا عَرَّضَ فِي الصَّدْرِ يَجِبُ دَفْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقِّ وَشِجَاعَةِ الْقَلْبِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى مُنَاطَرَةِ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، وَالزَّلَلُ فِي الرَّأْيِ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَادِ ، بَلْ مِنَ الْأَوْصَافِ اللَّازِمَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَلَيْسَ الْكَمَالُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَإِذَا عَرَّضَ لَهُ بِسَعَادَتِهِ هَذَا الْأَسْتِشْعَارَ ، فَيُدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ سُلْطَانُ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، إِلَّا فِي صُدُورِ النَّاسِ ؛ فَهَذَا لَا يَنْبَغِي لِمُذْنِبٍ أَنْ يَقْنَطَ ، وَلَا لِمُسِيءٍ أَنْ يَسْتَوْحِشَ ؛ لِاسْتِثْنَاءِ إِذَا اتَّبَعَ الذَّنْبَ بِالْإِسْتِقَالَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ ، وَالْإِعْتِذَارِ وَالْإِقْلَاعِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ إِذَا كَانَتْ الْخِيَانَةُ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَعَاظَمُهُ عَفْوُهَا ، وَلَا يَضِيقُ حِلْمُهَا عَنْهَا ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَبِيرَةٍ تُوجِبُ الْخِيفَةَ ، تَغْرُقُ فِي بَحْرِ عَفْوِ الْخِلَافَةِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُخْرَجَ سِوَى الظَّنِّ وَالْأَسْتِشْعَارِ مِنْ خِيَالِهِ ؛ فَإِنْ مَثَلَهُ مِنْ خُلَصَانِ الْمَالِكِ لَا يُسْمَحُ بِهِ ، وَلَا يُشْغَبُ عَلَيْهِ عِنْدَ هَفْوَةٍ بَادِرَةٍ .

وَالثَّلَاثُ الْإِتْقَابُضُ وَالْحَيَاءُ . فَانَّهُ رَبَّمَا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : بَأَى وَجْهِ أَلْقَى مَوْلَايَ ؟ وَبَأَى عَيْنِ أَبْصَرَ مَوَاطِنَ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ ؟ رَبَّأَنِي وَأَنْسَانِي ! . وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصْلُحُ خُطُورُهُ بِبَالِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَعْفِ النَّحِيذَةِ ، وَالْمَيْلِ مَعَ خَوَادِيعِ الطَّعْنِ ، عَنْ نَصَائِحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ إِتْبَاعُ زَلَّةِ الْقَدَمِ بِالنَّدَمِ وَالْإِعْتِذَارِ ، لَا التَّهَوُّكُ فِي الْجَبَّاحِ وَالْإِصْرَارِ . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ لِحَصِيصٍ مِنْ خَوَاصِّهِ ، عَصَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ :

«بَأَى عَيْنٍ تَلْقَانِي وَقَدْ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟» فَقَالَ : «بِالْعَيْنِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا رَبِّي فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَانِي عَلَى فَوَاضِحِ الْمَعَاصِي» . وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنْ أذْنَبَ ثُمَّ تَابَ ، وَشَرَّدَ عَنْ طَاعَتِهِ ثُمَّ أَنْابَ . وَبِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مَا جَرَى مَا يَقْتَضِي قَرُوطَ الْأَسْتِشْعَارِ . هَلْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ خَافَ بَادِرَةَ مَوْلَاهُ ، فَتَنَحَّى مِنْ مَكَانِهِ إِلَى أَنْ يَعْطِفَ

(١) فِي الْأَصْلِ "بَل" وَلَا مَعْنَى لَهَا .

عليه برحمته؟ وليس هذا ببديع، ولا من الصَّفحِ ببعيد. على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لَمَا اسْتَشْعَرَ. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غصنه، وكبر شأنه، وجميع ضمان البصرة عشر معشار ذلك.

والرابع اصغأوه - والعباذ بالله - إلى قول من لا ينصحه، ويغويه ولا يرشده؛ ويتقرب إليه بمتابعة هواه. وهذا ما لا يخفى عن لَمحة الناقد، ولا يحتاج في الإعراض عنه إلى باعث؛ فقد بما قيل: «صديقك من نهارك، وعدوك من أغراك» والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الأربعة، التي أحذرنا عليه، وأحذرنا منها؛ ويسره لليسرى.

وبعد ذلك فإنا أنصفه من نفسى، وأقول الحق: إن تقسأ رباًها خليفة الله في أرضه - صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه، وأعلى همتها باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته؛ لا تحتل الهوان، ولا تقر على الأبدال؛ فغالب ظنى أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فإنا وهو بسعادته عبدان، وليكني أنفرد عنه بالنسب والتجريب؛ وطريقتي هو بسعادته يعرفها، وإننى لأدحر عن أحد نصحا. فالصواب أن يقبل قولى، ويتحقق صحة مقصدي في نصيحتي ومقصده، فإنى أوجب ذلك له على نفسى، وأراه من واجبات خدام مالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أيضا.

وقد علم الله تعالى أنى قد أوصحت من عذره، وأحسن المناب عنه بسعادته، مالو حصره وتولاه بنفسه لَمَا زاد عليه؛ ورأيت الإنعام يستغنى عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولا مع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يوفيه من الاحترام وأجبه؛ فإن أمر

أَنْ أَتَوَلَّى وَسَاطَتَهُ فَأَنَا أَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي مَرَّاضِيهِ ، وَتَمَثِّيَةِ أَمْرِهِ أَكْثَرِمًا فِي نَفْسِهِ .
 وَإِنْ آخْتَارَ بِسَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ غَيْرِي وَسَيْطُهُ وَسَفِيرِهِ ، فَيُعِينُ مَنْ يَخْتَارُهُ : لِيَكُونَ
 حَدِيثُهُ مَعَهُ . وَقَدْ أَسْلَفْتُ مِنْ وَظَائِفِ إِحْسَانِ الْمَنَابِ أَنْتِي تَحْجِزْتُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ أَمَانًا
 مُتَوَجِّجًا بِالْقَلَمِ الْأَشْرَفِ الْمُقَدَّسِ ، عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ - وَالْأَمَانِ الْمَذْكُورِ
 طَى كِتَابِي هَذَا - مَقْرُورًا بِخَاتَمِ أَمَانٍ ثَانٍ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ بِسَعَادَتِهِ جَوَابَ
 ذَلِكَ . إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ إِلَّا هُوَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ؛ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ
 إِلَّا وَهُوَ مُقَابِلُ التَّسَاجِ الشَّرِيفِ ، مُلْقِيًا نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكِهَا الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ لَهَا ،
 وَأَلْطَفُ بِهَا ، وَأَشْفَقُ عَلَيْهَا مِنْهَا ؛ تَالِيًا مَا حَكَاهُ الْقِرْعَانُ الْمَجِيدُ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
 إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ : (سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فَإِنَّهُ يَرَى -
 بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ - كُلَّ مَا يُحِبُّ ، وَيَأْمَنُ كُلَّ مَا يَحْذَرُ . وَأَنَا أَسْتَمْرِعُ وَصُولَهُ
 عَنْ أَسْتِعْرَاضِ مُهْمَاتِهِ ، وَلِرَأْيِهِ كَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : فإن آتفت المكتبة في معنى ذلك في زماننا ، راعى الكاتب فيه صورة
 الحال ، وجرى في ذلك على ما يلائم حاله ، ويناسب ما هو فيه ؛ مع النظر في كلام
 مَنْ سَبَقَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَالنَّسِجَ عَلَى مَنَوَالِ الْمُجِيدِ ، وَالْإِقْتِدَاءَ بِالْمُحْسِنِ فِي إِيْرَادِهِ
 وَإِصْدَارِهِ .

الصِّنْفُ السَّابِعُ

(الْكُتُبُ فِي الْفُتُوحَاتِ وَالظُّفْرِ بِأَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَعْدَاءِ الْمِلَّةِ ،

وَأَسْتِرْجَاعِ الْمَعَاوِلِ وَالْحُصُونِ ، وَالْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمُدُنِ)

وَأَصْلُهَا مِنْ فَتْحِ الْأَقْفَالِ وَدُخُولِ الْأَبْوَابِ . كَأَنَّ الْمَدِينَةَ أَوْ الْحِصْنَ كَانَ مُقْفَلًا

مُتَمْتِعًا بِالْأَغْلَاقِ عَلَى قَاصِدِهِ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ فَيَدْخُلُ .

قال في "مواد البيان" : وهو من أعظم المكاتبات خطراً ، وأجلها قدراً ؛ لأشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين ، وتوفير حظهم من التأييد والتأييد ، وما يمر فيها من الأساليب المختلفة التي يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكتاب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ، وتهذيب معانيها : لأنها تُنتل من فوق المنابر على أسماع السامعين ، وتُجعل نُصب عيون المتصفحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله العفو الحليم ، العفور الرحيم ، العليم الحكيم ؛ ذى البرهان المبين والفضل الجسيم ، والقوة المتين والعقاب الأليم ؛ مُبِيد الظالمين ، ومُبِير القاسطين ؛ ومؤيد العادلين ، وجاعل العاقبة للمتقين ؛ المُملي إماماً وإنذاراً ، والمعاقب تبييناً وإذكاراً ؛ الذي لا يُخفى منه مهربٌ ، ولا يبعد عليه مطلبٌ ؛ وكيف يُعتمَم منه وهو أقرب من حبل الوريد ، وله على كل لا يظ رقيبٌ وعَتِيدٌ ؟ . والصلاة على رسوله الأمين ، الذي حتم به النبيين ؛ وقضاه على المرسلين ، وأيده بأوليائه التائبين ؛ الذين قاموا في نصرتِهِ ، وإعزاز رأيتِهِ ؛ المقام الذي فازوا فيه بالخصل ، فاستوتوا به على قصبَات الفضل ؛ فشرَكهم معه في الوصف والثناء ، فقال جَل قَائِلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يُؤتى بمقدمة تشتمل على التحدث بنعمة الله في سَخِذِ العزائم لنصرتِهِ ، وتشبيت الأقدام في لقاء عدُوّه ومجاهدته ؛ وإنجازه وعدّه في الإعزاز والإظهار ، والظفر والإظفار ؛ والأستبشار بموقع النعمة في الفتح الحليل ، والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجَمِيل . ثم يفيض بما جرت العادة به في مقارَبة العدو ومداناته ، وبَتِّ الطلائع لتنفيذ السرايا في مبادى ملاقاته ؛ وما أفضى إليه الأمر في التقابل

والمؤاتبة ، والتواشج في المطاعنة والمضاربة ؛ وذكر مواقف الشجعان في الكفاح
والمجاهدة ، والذبّ والمجالدّة ؛ وثبوت الأقدام ، والحدود بالثُفوس ، وأشتداد الأيدي ؛
وقوة الشكائم ، وأستصحاب العزائم ؛ وتفخيم أمر العدو : بوصفه بكثرة الرجال
والأجناد ، والقوة والاستعداد : لأن توقع الظفر بمن هذه صفته أعظم خطراً ، وأوقع
في النفوس أثراً .

ثم يذكر ما جال بين الفريقين من قراع ومصاع ، ومضاربة ودفاع ؛ ومصاولة
ومناضلة ، ومناهدة ومكافهة ؛ وحماية ومناخه ، وثبات ومصاففة ؛ ومقاومة ومواقفة ،
ومخادعة ومطامعة ؛ وينعت المواقب والكنايب ، والخيول والأسلحة ؛ والجرحى
والمجتلين ، والأسرى والمقتلين . وأستعمال التشبيهات الفاتحة ، والاستعارات الرائقة ؛
وإرداف المعاني في الإبانة عن لعمان أسنة الذوابل ، وبريق صفحات المناصل ؛
وإعمال المقاصيل في القمم ، وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياجي الظلم ؛
وينعت الدماء المنبثثة من الجراح ، على متون الرماح والصفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : من تكامل النصر ودلائل الظفر ، وما أنجلت عنه
الحرب : من قتل من قُتل وأسير من أسير ، وهزيمة من هُزم ؛ وما فاز به الرجال
من الأسلاب والأموال ، والدواب والرجال ؛ وما جرت عليه الحال من أنفلال العدو
عند المقاتلة ، أو أسير العدو إن أسير ، أو اعتصامه بمعقل لا يحصنه ؛ أو امتناعه بحيث
يحتاج إلى منازلته باستنزاه قسراً ؛ أو حيازة المعقل الذي كان بيده ، وما اعتمد فيه :
من حُسن السيره ، وتخفيف الوطأة عن الرعية وحسن أسباب الفتنة ؛ أو رغبته
في المسالمة ، وسؤاله في المهادنة ؛ لخوف أطله ، وهلع أحتله ؛ وما تردد من رسائل ،
وتقرر من شروط وعقود ؛ وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم ، وأقتضاه
صواب الرأي .

وإن كان السلم قد وقع، والتنازع قد ارتفع؛ ذكر أنفاق الحزبين^(١)، واتحاد الكلمة، وشمول النعمة .

وإن كان لم يجبه إلى المهادنة، حذرًا من المكر والمخادعة، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتدبير، وتسديد وتقرير .

وإن كان طلب المهادنة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده، ويجم عدده، ويتم حيلته؛ فأطلع منه على ذلك، فبادره مغللاً لكيده ومكره، مديقاً له وبأل أمره؛ شرح الحال على نصها وما انتهى إليه آخرها .

قال : وقد يقع من هذه الأمور ما لا يحسب، وسبيل جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويحتم الكتاب بحمد الله القاضى لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذاله؛ الذى يستدرج بجهله إهمالاً؛ ولا يلقى العادل عن حكمه إهمالاً؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدم فى الكلام على مقدمة المكتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكتاب، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها؛ وأن ما وقع فى كتاب المهلب ابن أبى صفرة، من كتابه إلى المجاج فى فتح الأزارقة من الخوارج، على عظم الفتح وبعد صيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه :

أما بعد، فالحمد لله الذى لا تنقطع مواد نعيمه عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر . وإنا وعدونا كذا على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا؛ ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويخصنا ويحققهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله . (ففقط دابر القوم الذين

(١) فى الاصل "أنساع الحزبين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَأَتَمَّا سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ الْإِنجَازِ، لِكَوْنِهِ مِنَ التَّابِعِ إِلَى الْمُنْبُوعِ ؛ إِذِ الْجَحَّاجُ كَانَ هُوَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ الْعِرَاقِ وَمَا وَالَاهُ لَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، عَلَى شِدَّةِ سَطْوَتِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ مَعَ كَوْنِ الْأَدَبِ فِي مَكَاتِبَةِ الْمَرْءِ وَسِ الرَّئِيسِ الْإِثْنَانَ بِقَلِيلِ اللَّفْظِ الدَّالِ عَلَى الْمَقْصِدِ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَغْلٌ لِلرَّئِيسِ بِطُولِ الْكَلَامِ وَبَسْطِ الْقَوْلِ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانَهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي فُتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ وَمَعَاقِلِهِمْ وَالْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى بِلَادِ الْبُعَاةِ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ فِي الْكِتَابَةِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ بَجَالِ الْكَاتِبِ فِي فُتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ أَوْسَعُ، مِنْ حَيْثُ عِزَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ، وَظُهُورُ دِينِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .
وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُدَبِّلِ الْحَقِّ وَمُنِيرِهِ ، وَمُذِلِّ الْبَاطِلِ وَمُبِيرِهِ ؛ مُؤَيِّدِ الْإِسْلَامِ بِبَاهِرِ الْإِنجَازِ، وَمُتَمِّمِ وَعِدِهِ فِي الْإِظْهَارِ بَوَشِيكَ الْإِنجَازِ ؛ وَأَتَمِّدُ كُلَّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفُضَ كُلِّ شَرِّعٍ وَأَجْتَبَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ نُورَهُ الْأَلَمِ ، وَظَلَمَهُ الْمَسَاتِعِ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاحَ الْمُتَبِيرَ، وَالْبَشِيرَ النَّذِيرَ ؛ فَأَوْضَعَ مَنَاجِيَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛ وَسَنَّ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَحَصَّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعِصْمِ دِينِهِ ؛ وَتَمَرَّرَ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مِنْ نَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَعِنْدَ عَن دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَّدَ الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسِرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ، وَأَنْتَعَلَتْ خَيْلُ اللَّهِ بِقَبَائِلِ الْهَامِ (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيح الذي أوردناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيح الذي أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أمير المؤمنين أن [جعله من ولاة أمره، ووقفه لاتباع سنة رسوله وأقنفاء أثره، وأعانه على تمكين الدين، وتوهمين المشركين، وشفاء صدور المؤمنين و^(١)] أنهضه بالمراعاة عن المسئلة، والمحاماة عن الحوزة؛ وإعزاز أهل الإيمان، وإذلال حرب الكفران؛ ويسأله الصلاة على خيرته المحبتي؛ وصفوته المستصفي؛ عهد أفضل من ذب وكفاح، وجاهد وناخ؛ وحمى الدمار؛ وغزا الكفار؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع، ومجته المدافع؛ وسهجه الصارد، وناصيره المعاضد؛ فارس الوقائع، ومفريقي الجماع؛ مبيد الأقران، ومبدد الشجعان؛ وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجان .

وإن أولى النعم بأن يرفل في لباسها، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها^(٣)؛ ويتهدى طيب خبرها، ويتفاوض بحسن أثرها؛ نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو أولى الباطل والإفك؛ والهجوم عليهم في عقر دارهم، وأجنتات أصلهم والحد في دمارهم؛ واستزاهم من معاقلهم، وتشردهم عن منازلهم؛ وتغميض نواظرهم الشوس [وإلباسهم لباس البوس]^(٤) لما في ذلك من ظهور التوحيد وعززه، ونحو الإلحاد وعززه؛ وعلو ملة المسلمين، وانخفاض دولة المشركين؛ ووضوح [محجة^(٤)] الحق ومجته، وصدوع برهانه وآيته .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أنكفا عن ديار الفلانيين المشركين إلى دسيت خلافته، ومقر إمامته؛ بعد أن غزاهم براً وبحراً، وشردهم سهلاً ووعراً، وجرعهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠) .

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها .

(٣) كذا هنا، والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لبانها" .

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

من عواقب كُفْرهم مُرًّا ؛ وَفَرَّقَ بَجماعهم التي تُطَبِّقُ سهوب الفَصَاءِ [خيلا ورجلا ،
وتضيق بها المهامة حزنًا وسهلاً ، ومزَّقَ كَثَائِبهم التي تُلْحِق الوهاد بالنجاد ، وتختطفُ
الأبصار ببوارق الأعماد^(١)] وتجعل رعود سنايكها في السماء ، وسبى الدَّرَارِيَّ
والأطفال ، وأسَرَ البَطَارِيقَ والأقيال ؛ وأفتتح المعاقِلَ والأعمال ، وحازَ الأسلابَ
والأموال ؛ وأستولى من الحُصُونِ على حِصْنِ كذا وحِصْنِ كذا ؛ ومحا منها رُسُومَ الشَّرِكِ
وعَفَاها ، وأثبت سُنَنَ التوحيد بها وأمضاها ؛ وغنمَ أولياءُ أمير المؤمنين ، ومُتَطَوِّعَةُ
المسلمين [من الغنائم^(١)] ما أقرَّ العيون ، وحققَ الظُّنُونُ ، وآتفصلوا وقد زادت بصائرهم
نفاذاً في الدين ، وسرائرهم إخلاصاً في طاعة أمير المؤمنين ؛ بما أولاهم الله من النَّصْرِ
والإظفار ، والإعزاز والإظهار ؛ وَوَضَعَ للشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان ،
وألهم إياه من الهوان ؛ أنهم على مِصْلَةٍ من النِّعَى والعمى ، وَمَنْحَاةٍ من الرُّشْدِ والهدى ؛
فَضَرَعُوا إلى أمير المؤمنين في السِّلمِ والموادعة ، وَتَحَمَّلُوا بَدَلًا بَدَلُوهُ [تفاديا^(٢)] من الكِفَاحِ
والمقارعة ؛ فأجابهم إلى ذلك مُتَوَكِّلًا على الله تعالى ، وأمثالاً لقوله إذ يقول :
(وَإِنْ جَنَّحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وعاقَدَ طَائِعِيَتِهِمْ
على كِتَابِ هُدْنَةٍ كتبه له ، وأقره في يده ؛ حُجَّةً بِمُضْمُونِهِ .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخذ من هذه النعمة بنصيبٍ مثلك من المُخْلِصِينَ ،
وتعرفَ مَوْقِعَ ما تَفَضَّلَ الله تعالى به على الإسلام والمسلمين ؛ فيحسنَ ظَنُّكَ ،
وتقرَّ عَيْنُكَ ؛ وتشكرَ الله تعالى شُكْرَ المُسْتَمِدِّ من فضله ، المعتدِّ بظوله ؛ وتتلوَّ كِتَابَ

(١) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) في (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع "رُبْعِد" .

(٣) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين ، على كَافَّة مَنْ قَبَلَكَ من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نصِّره
وتمكينه ، وإذلالِ عَدُوِّهم وتَوْهِينِهِ ؛ فأعلم ذلك وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .
ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، وإما فتح لِمَا استولى عليه البُعَاة
من المسلمين .

فأما فتح بلاد الكُفْر فكان سبيلهم فيه أن يُصَدَّرَ الكُتَابُ بحمد الله تعالى على عُلُوِّ
دين الإسلام ورفِعتِهِ ، وإظهاره على كل دين ؛ ثم على بَعْدِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بالهُدَايَةِ إلى الدين القويم ، والصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ ؛ ويذكر ما كان من أمره صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جِهَادِ الكُفْر . ثم على إقامة الخُلَفَاءِ في الأَرْضِ حِفْظًا لِلرِّعْيَةِ ،
وحيَاةً لِلبرية ، وصَوْنًا لِلبَيْضَةِ ؛ ويخصّ خليفة زَمَانِهِ من ذلك بما فيه تفضيلُهُ
ورفعةُ شأنِهِ ؛ ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره ، وكثرة عَدَدِهِ ، ووُقُورِ مَدَدِهِ ؛
ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد ، والأشْتِدَادِ في الله تعالى ، والقيام
في نُصْرَةِ دينِهِ ؛ ثم تذكر المَلْحَمَةَ وما كان من الوَقِيْعَةِ وَالنِّحَامِ الْقِتَالِ ، وما أُنْجَلَتْ
عنه المَلْحَمَةُ من النُّصْرَةِ على عَدُوِّ الدين وخِذْلَانِهِ ، والإمكان منه ، وقَتْلِ مَنْ قُتِلَ
منهم ، وأسر من أسِرَ ، وتفريق شَمْلِهِمْ ، وانتظام كلمة الإسلام ، وطَاعَتِهِمْ بِهَلَاكِ
عَدُوِّهم ، وما في معنى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلى الديوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ،
عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بفتح القُدس الشريف ، وإتقاده
من يد الكُفْر ، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، من إنشاء القاضي
الفاضل ، وهو :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفر الحد بكل جاحد،
غني التوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد،
مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقدا، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير وأرد،
متعددا مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي [حكم القول] بعزم^(٢)
لا يمضي إلا بنسل غوي وریش راشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء]^(٣)
أنواء إلى المربع وأنوارا إلى المساجد، وبُعوث رُعيه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب
وخيالا إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير لصبح
هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سبح
طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبُشرى للخواطر في شرحها مآرب،
ويُسرى للأسرار في إظهارها مسارب، والله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الرأفة
به دوام لا يُقال معه: هذا مضي، وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها،
وأستبنت عقائد أهله على أبين بصايرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط،
وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط، وكان الدين غريبا فهو
الآن في وطنه، والقوز معروضا فقد بذلت الأنفس في تمينه، وأمر الحق وكان
مستضعفا، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك
راغمة، فأدبجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقدم، والذي في وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤)
"غنيا بالتوفيق".

(٢) الزيادة عن رسائل القاضي الفاضل الفنوغرافية المحفوظة بدار الكتب السلطانية نمرة ٢٢٩٤
أدب.

على كُلِّ دِينٍ ، وَأَسْتَطَارَتْ لَهُ أَنْوَارُ أَبَانَتْ أَنْ الصَّبَاحَ عِنْدَهَا حَيَانُ الْحَيِّنِ ؛ وَأَسْتَدْرَدَ
 الْمَسَامُونَ تَرَاتِمًا كَانَ عَنْهُمْ آيِقًا ، وَظَفَرُوا يَقْظَةً بِمَا لَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُمْ يَظْفَرُونَ بِهِ طَيْفًا
 عَلَى النَّائِي طَارِقًا ؛ وَأَسْتَقَرَّتْ عَلَى الْأَعْلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَخَفَّتْ عَلَى الْأَقْصَى أَعْلَامُهُمْ ؛
 وَتَلَاقَتْ عَلَى الصَّخْرَةِ قُبُلُهُمْ ، وَشَفِيَتْ بِهَا وَإِنْ كَانَتْ صَخْرَةٌ [قُلُوبُهُمْ]^(١) كَمَا تُشْفَى
 بِالمَاءِ غُلُّهُمْ .

ولما قَدِمَ الدِّينَ عَلَيْهَا عَرَفَ مِنْهَا سُوَيْدَاءَ قَلْبِهِ ، وَهَنَّا كَفُوْهَا الْمَجْرُ الْأَسْوَدُ
 بَيْتَ عِصْمَتِهَا مِنَ الْكَافِرِ بِحَرْبِهِ ؛ وَكَانَ الخَادِمُ لَا يَسْعَى سَعْيَهُ إِلَّا لِهَذِهِ الْعُظْمَى ،
 وَلَا يَقَاسِي تِلْكَ الْبُؤْسَى إِلَّا رَجَاءَ هَذِهِ النُّعْمَى ؛ وَلَا يُنَاجِرُ مَنْ يَسْتَمِطِلُهُ فِي حَرْبِهِ ،
 وَلَا يُعَاتِبُ بِأَطْرَافِ القَنَا مَنْ يَتَمَادَى فِي عَتَبِهِ ؛ إِلَّا لِتَكُونَ الْكَلِمَةُ بِمَجْمُوعِهِ ، وَالدَّعْوَةُ
 إِلَى سَامِعِهَا مَرْفُوعِهِ ؛ فَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَلِيُقَوِّزَ بِجَوْهَرِ الْآخِرَةِ لَا بِالْعَرَضِ
 الْأَذْنَى مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَكَانَتْ الْأَلْسِنَةُ رُبَّمَا سَلَقَتْهُ فَأَنْضَجَ قُلُوبَهَا بِالْإِحْتِقَارِ ، وَكَانَتْ
 الْخَوَاطِرُ رُبَّمَا غَلَّتْ عَلَيْهِ مَرَّاجِلُهَا فَأَطْفَأَهَا بِالْإِحْتِمَالِ وَالْأَصْطِبَارِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ خَطِيرًا
 خَاطَرَ ، وَمَنْ رَامَ صَفْقَةَ رَابِحَةٍ تَجَاسَرَ ، وَمَنْ سَمَا لِأَنَّ يُحَلِّيَ عَمْرَةً غَامِرًا ؛ وَالْأَفَانُ
 الْقُعُودُ يُلِينُ تَحْتَ نِيُوبِ الْأَعْدَاءِ الْمَعَاجِمِ فَتَعَضُّهَا ، وَيُضْعِفُ بِأَيْدِيهَا مَهْزِ الْقَوَائِمِ
 فَتَقْضُهَا ؛ هَذَا إِلَى كَوْنِ الْقُعُودِ لَا يَقْضِي فَرَضَ اللَّهِ فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يُرْعَى بِهِ حَقُّ اللَّهِ
 فِي الْعِبَادِ ؛ وَلَا يُوفَى بِهِ وَاجِبُ التَّقْلِيدِ الَّذِي تَطَوَّقَهُ الخَادِمُ مِنْ أُمَّةٍ قَضَوْا بِالْحَقِّ
 وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ، وَخُلَفَاءُ اللَّهِ كَانُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ لِلَّهِ يَسْأَلُونَ ؛ لِأَجْرَمَ أَنَّهُمْ أَوْرَثُوا
 سِرَّهُمْ وَسِرِّيَرَهُمْ خَلْفَهُمْ الْأَطْهَرَ ، وَتَجَلَّهْمُ الْأَكْبَرَ ؛ وَبَقِيَّتَهُمُ الشَّرِيفَةَ ، وَطَلَعَتَهُمُ
 الْمُنِيفَةَ ، وَعُنْوَانُ صَحِيفَةِ فَضْلِهِمْ لَا عَدِمَ سَوَادَ الْعِلْمِ وَبَيَاضَ الصَّحِيفَةِ ؛ فَمَا غَابُوا

(١) كذا فيما تقدم أيضا (ج ٦ ص ٤٩٧) وفي وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حسان الجين".

(٢) الزيادة عن وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حَضَرَ، وَلَا غَضُّوا لَمَّا نَظَرُوا؛ بَلْ وَصَلَهُمُ الْأَجْرُ لَمَّا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا، وَشَاطِرُوهُ الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ عَنْهُ مَقْبُولًا وَمِنْهُ مَقْبُولًا؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْمُضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ جُنُوبُهَا، وَإِلَى الصَّحَائِفِ مَا عَبَّقَتْ بِهِ جُيُوبُهَا؛ وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا، وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا؛ وَالشَّرْقُ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، بَلْ إِنْ أَبْدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ بِأَنْ وَارِهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَا يُكِنُّهُ أَغْسَاقُ السُّدُفِ، وَذِكْرُ لَا تُوَارِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

وَكِتَابُ الْخَادِمِ هَذَا، وَقَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ بِالْعَدُوِّ الَّذِي تَشَطَّتْ قَنَاتُهُ شَفَقًا، وَطَارَتْ فِرْقُهُ فَرَقًا؛ وَقُلَّ سَيْفُهُ فَصَارَ عَصَا، وَصُدِعَتْ حَصَاتُهُ وَكَانَ الْأَكْثَرُ عَدَدًا وَحَصَا؛ وَكَلَّتْ حَمَلَاتُهُ وَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ تُصَرِّفُ فِيهِ الْعِيَانَ بِالْعِيَانِ، عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ يَدَيْهَا يَدَانِ؛ وَعَثَرَتْ قَدَمُهُ وَكَانَتْ الْأَرْضُ لَهَا حَلِيفَةً، وَغَضَّتْ عَيْنَهُ وَكَانَتْ [عُيُونٌ] السُّيُوفِ دُونَهَا كَسِيفَةً؛ وَنَامَ جَفْنُ سَيْفِهِ وَكَانَتْ يَقْظَتُهُ تُرْبِقُ نَظْفَ الْكَرَى مِنَ الْجُفُونِ، وَجُدِعَتْ أَنْوُفُ رِمَاحِهِ وَطَالَمَا كَانَتْ شَائِحَةً بِالْمُنَى أَوْ رَاعِقَةً بِالْمُنُونِ؛ وَأُضْحِيَتِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الطَّاهِرَةَ وَكَانَتْ الطَّامِثِ، وَالرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْوَاحِدَ وَكَانَ عِنْدَهُمُ الثَّلَاثُ؛ فَيُؤْتِ الشَّرْكَ مَهْدُومَهُ [وَنُيُوبُ الْكُفْرِ مَهْتُومَهُ] وَطَوَائِفَهُ الْمُحَامِيَةَ، مُجْتَمِعَةً عَلَى تَسْلِيمِ الْبِلَادِ الْحَامِيَةِ، وَتُجْعَلُ الْمُتَوَافِيهِ، مُدْعِنَةً لِبَدْلِ الْمَطَامِعِ الْوَافِيهِ؛ لَا يَرَوْنَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ لَمْ تُعْصَرَهُ، وَلَا فِي فِنَاءِ الْأَفْنِيَةِ لَمْ تُعْصَرَهُ؛ وَقَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَدَّلَ اللَّهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ؛ وَنَقَلَ بَيْتَ عِبَادَتِهِ مِنْ أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَشَامَةِ إِلَى أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٣) في وفيات الأعيان "الفلاح" .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمدّه الله بمدار كته ، وأنجده بملائكته ؛ فكسروهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يتعش بعدها بمشيئة الله كُفْر ؛ وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصِل ؛ وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار ، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنبلوا بنار من السلاح ونالوه أيضا بنار] ^(١) فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى صارت كالعراجين ، وكم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ؛ وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فأها فإذا فوها قد نهش القرن على بُعد المسافة فأقرسه ؛ وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ؛ وكان الكافر مفقودا والإسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا ؛ وأسر الملك ويده أوثق وثاقه ، وآكد وصله بالدين وعلائقه ؛ وهو صليب الصلْبوت ، وقائد أهل الجبروت ؛ وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهماتهم ينسط لهم بآعه ، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة ودآعه ؛ لاجرم أنهم يتهافت على ناره قرأشهم ، ويجمع في ظل ظلامه خشانهم ؛ ويقانلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا يتنون عليه أشد عقيد وأوثقه ، ويعدون سورا تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سرآتهم ، وذهبت دعاتهم [ولم يفلت منهم معروف إلا القومص ، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال ، ومليا يوم الخلدان] ^(٢) بالاحتيال ؛ فنجأ ولكن كيف ، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ؛

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٢) في وفيات الأعيان وفي رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية "قنا" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذته الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده؛ فكان لعديتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا؛ الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي [وعزائم أوليائها] المستضاء بنوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر؛ فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كلها] أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن؛ وكل هذه ذوات معاقل ومعاقير، وبحار وجزائر، وجوامع ومناثر، وجموع وعساكر؛ يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها؛ ويحصده منها كغفرا ويزرع إيمانا، ويحط من منائر جوامعها صلبانا ويرفع أذانا؛ ويبدل المذابح منائر والكائس مساجد، ويؤي بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد. ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بحار وبحرور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفيخ في الصور. ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعها كل قريب منهم وبعيد؛ وظنوا أنها من الله ما نعمهم، وأن كنيستها إلى الله شافعهم؛ فلما نازلتها الخادم رأى بلدا كبلاد، وجمعا كيوم التناد؛ وعزائم قد تالبت وتألقت على الموت فزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته؛ فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولحج وعرة غريقه؛ وسور قد أعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار؛ فعدل إلى جهة أخرى

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأول مفهوم من المقام . أنظر ما كتبناه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم

كان للطامع عليها مُعَرَّجٌ ، ولتخليل فيها مُتَوَجِّجٌ ؛ فترل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ؛
 وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويواجهه السور بأكفافه ؛ وقابلها
 ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ؛ فضمها ضمة
 ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فإذا هم لا يبصرون - على عبودية الخلد - عن عنق
 الصفح ؛ فراسلوه ببذل قطيعة إلى مده ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظارا لنجده ؛
 فعرفهم الخادم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ؛ وقدم المنجنيقات التي تتولى
 عقوبات الحصون عصبها وجبالها ، وأوترهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها
 ولا يفارق سهامها نصالها ؛ فصاحت السور بأكفافه فإذا سهمها في ثنابا شرفاتها سواك ،
 وقدم النصر نمرًا من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء ؛
 فشج مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها [صم أعلاجها] ورفع منار عجاجها ؛ فأخلى
 السور من السيارة ، والحرب من النظارة ؛ فامكن النقب ، أن يسفر للحرب النقب ،
 وأن يعيد الحجر إلى سيرته [الأولى] ^(١) من التراب ؛ فتقدم إلى الصخر فضع سرده
 بانياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أمليه ، وأسمع الصخرة
 الشريفة حينئذ واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبليه ؛ وتبرا بعض الحجارة من
 بعض ، وأخذ الحراب عليها مؤثقا فلن تبرح الأرض ، وفتح في السور بابا سد من
 نجاتهم أبوابا ، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر : ((باليقين كنت ترابا)) حينئذ
 ينس الكفار من أصحاب الدور ، كما ينس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله
 وغرهم بالله الغرور .

وفي الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ؛ ابن بارزان سائلا أن يؤخذ
 البلد بالسلام لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ؛ وألقى بيده إلى التهلكة ، وعلاه ذل

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

المَلَكة بعد عَزِّ المَلَكة؛ وطرح جَبِينَه في التراب وكان جَبِينًا لا يَتَعَاطَاه طَارِح، وبذل مَبَلًا من القطيعة لا يَطْمَح إليه طَرْفٌ آمِلٍ طَامِح؛ وقال: هاهنا أُسَارِيُ مؤمنون يتجاوزون الألوف، وقد تعاهد الفَرَنج على أنهم إن هُجِمَت عليهم الدار، وحملت الحربُ على ظهورهم الأوزار؛ بُدِيََ بهم فَعَجَلُوا، وَتَخَى بنساء الفَرَنج وأطفالهم فقتلوا؛ ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يُقتل خَصْمٌ إلا بعد أن يَنْتَصِفَ، ولم يُسَلَّ^(١) سيفٌ من يده إلا بعد أن تتقطع أو ينقصف؛ وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور، من البلد المأسور؛ فإنه إن أخذ حربًا فلا بدُّ أن تمتحيم الرجال الأتجاد، وتبذل أنفسها في آخر أمرٍ قد نبيل من أوله المراد؛ وكانت الحِراجُ في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، واعتاق الحركات؛ فقبل منهم المبدول عن يدهم صاغرون، وأنصرف أهل الحرب عن قُدْرَةِ وهم ظاهرون؛ ومالك الإسلام خطَّة كان عهده بها دمنة سَكَّان، فخدمها الكُفْرُ إلى أن صارت روضة جنان؛ لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأمنظهم؛ فإنهم خدتم الله سموها بالأسل والصفاح [وبنوها بالعمد والصفاح^(٢)] وأودعوا الكائن بها وبيوت الديوية والأستبارية منها كل غريبة من الرُحام الذي يطرد ماؤه، ولا يطرد لآؤه؛ قد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه؛ إلى أن صار الحديد، الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيده؛ فما ترى إلا مقاعد كالرياض^(٣) لها من بياض الترخيم رُقراق، [وعمدًا كالأشجار لها من التذيت أوراق^(٤)] .

(١) في وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٨) ورسائل القاضي الفاضل "يفك" .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ووفيات الأعيان وأنظر ما تقدم من هذا المطبوع (ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) في الأصل "كالأسمار" وفي رسائل القاضي الفاضل "للرياض" والتصحيح من وفيات الأعيان .

(٤) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ووفيات الأعيان .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود؛ وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجود لا للوجوم، والكواكب [منها] ينتثرن للطرب للرجوم؛ ورُفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدوده، وظهرت قُبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده؛ وأقيمت الخمس وكان التثليث يُعدها [وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعدها] ^(١) وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر؛ وحقق علماه في حقايقه، فلو طار به سرورا لطار ببحاجيه .

وكتاب الخادم وهو مجلد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضق بتمادي الحرب من الصدور؛ فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها [وأيام الشتاء قد مردت مواردها] ^(١) والبلاد الماخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخايرها وأكلت غلالها؛ فهي بلاد تُرقد ولا تُسترفد، وتُحجم ولا تُستنفد؛ وينفق عليها، ولا يُنفق منها؛ وتُجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرائب لبرها، ويدأب في عمارة أسوارها، ومرمات معاقليها؛ وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح مُحتملة، وأطاع الفرعج فيما بعد ذلك مذهبها غير مرجئة ولا معتزلة؛ فلن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تُسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تُقطع .

وهذه البشائر تفاصيل لانكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص؛ فلذلك تفدنا لسانا شارحا، ومبشرا صابا؛ ينشر الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضي الفاضل "ولن يفكوا" .

قلتُ : وقد وقفتُ على نسخة كتاب كُتِبَ به عن المُكْتَفَى بالله، عند ما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية، فانزعها من يد بني طولون وأستولى عليها للخليفة، في نحو كُرَّاسَةٍ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أولها : أما بعدُ فالحمد لله العليُّ الكبير، العزيز القدير، أضربتُ عن ذكرها لطولها .

الصنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة)

قال في "مواد البيان" : من أخلاق العاقمة تفتيحُ سيرة السلطان إذا زلَّ في بعض آرائه، والإزراءُ على تديره في جيش يُجهزه فيُكسر، ونحو ذلك : مما لا يسلم من مثله، والإفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلافى الوهن ويقيم العذر، كما يكاتبهم بتفخيم المنح، وتعظيم الفتوحات، والتحدث بمواقع المواهب . وشكر الله تعالى على إسباغ النعم، والإظفار بأعداء الدين والدولة : يُقوى بذلك مُنتهم، ويُرفف بصائرهم ويستخلص طاعتهم، ويملا صدورهم رهبة . قال : وليست لهذه الكُتُب رسومٌ ينتظم كلُّ ما وقع فيها : لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نرسم في أصوله قولاً وجيزاً : وهو أن يقتضِب الكاتب له المعاذير التي تُحسن أحوالته، وتستر زلته، والمجج التي تُعيد الألام عاذراً، والدائم شاكراً، وتوجبُ التقريظ من حيث يجب التائب، والإحماد من حيث يستحق التذنب . مثل أن يعتذر عن هزيمة جيش، فيقول : وقد علمتم أن الحرب سجال، والدنيا دولٌ تدال، وقد تهب ریح النصر للقاسطين على المُقسطين آمحاناً من الله وبأوى،

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - من غير أن يُصْرَحَ
بِأَطْلٍ ، ولا يُطْلَقَ كَذِبًا مَحْضًا ، ولا يَحْتَقِقَ زُورًا يَعْلَمُ النَّاسُ خِلَافَهُ ؛ فَتَضَاعَفُ
الهُجْنَةُ ، وَتَتَكَثَّرُ الْمُحَنَّةُ ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْبَحُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَأَقْدَحُ فِي جَلَالَةِ الشَّانِ ؛
مَنْ أَنْ يُعْتَرَفَ فِي كُتْبِهِ عَلَى إِيَّاكَ قَدْ يَعْلَمُهُ بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ ؛ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمَدَ
فِي ذَلِكَ حُسْنَ التَّخْلِصِ وَالتَّوَرِيَةِ عَنِ الْغَرَضِ ، وَاسْتِعْمَالَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَكْتَلُ عَلَى
أَطْرَافِ الْحَالِ وَلَا تُفْصِحُ بِحَقَائِقِهَا .

وهذه نُسخةُ كتاب من ذلك .

الحمد لله الذي سَاسَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَأَبَانَ فِيهَا مَوَاقِعَ قُدْرَتِهِ ؛ وَسَلَكَ فِيهَا
طَرِيقَ مَشِيئَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى مَرَاةٍ عَدْلًا بَيْنَ الْعِبَادِ فِي أَقْسَامِ نِعْمَتِهِ وَمِحْنَتِهِ ، وَأَحْوَالِ
بَلَوَاهِ وَعَافِيَتِهِ ؛ وَجَعَلَ الْأَيَّامَ فِيهِمْ نُوبًا ، وَالْأَحْوَالَ بَيْنَهُمْ عُقْبًا ؛ نَخَصَّ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ
طَاعَتِهِ بِالنُّصْرِ فِي الْمُحَاكِمَةِ ؛ وَالصَّالِحَ عِنْدَ الْمُخَاصِمَةِ ؛ وَالظَّاهِرَ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ وَعَادَاهُمْ ،
وَالْقَهْرَ لِمَنْ صَادَّهُمْ وَنَاوَاهُمْ ؛ إِنْجَازًا لِمَا وَعَدَ بِهِ الصَّابِرِينَ الْمُحْتَسِبِينَ ، وَإِعْزَازًا لِلَّذِينَ
وَأَنْصَارَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَمْ يُجْلِ أَعْدَاءَهُ مِنْ دَوْلَةٍ أَدَالَهَا لَهُمْ ، وَجَوْلَةٍ عَلَى الْحَقِّ زَادَهَا
فِي طُغْيَانِهِمْ ؛ وَوَصَلَ الْإِمْلَاءَ لَهُمْ فِيهَا بِخِذْلَانِهِمْ : لِيَجِبَ الثَّوَابُ لِلْحَسَنِينَ ، وَيَحَقَّ
الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ . فَقَالَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ - وَقَدْ ظَهَرَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ -
(إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُوبًا بَيْنَ النَّاسِ) .
وَقَالَ : (لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحَقِّقَ الْكَافِرِينَ) وَنَاوَبَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
فِي الْمَصَائِبِ ، وَالْمَوَاهِبِ ؛ وَالْمَسَازِ ، وَالْمَضَازِ ؛ لِيَشْفِيَ اللَّهُ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ
مَا فِي قُلُوبِهِمْ ؛ وَيُوجِبَ لَهُمْ إِخْلَاصَ السَّرَائِرِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ ، وَالتَّضَرُّعَ

لرسوله ، والمُرَامَاةِ عن دينه ، والمدافعةِ عن حريمه ؛ ضَعَفَ الثَّوَابَ وَحَسَّنَ الْمَأْتَبَ ،
وَيُحِيلُ بِالْمُشْرِكِينَ مَا عَدَّ لَهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ .

وَإِذَا كَانَ الْحَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَلَاقِيَيْنِ ، وَالْفِتْنَتَيْنِ الْمُتَجَاوِرَتَيْنِ ، وَالْحَزِينَيْنِ
الْمُتَحَاكِمَيْنِ ؛ فِي تَعَاوُرِ الْعَلَبَةِ ، وَتَعَاقُبِ الدَّوَلَةِ ؛ جَارِيَا عَلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ وَمُتَصَرِّفَا عَلَى حُكْمِهِ ،
وَمُسْتَوْسِقَا عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ ؛ فَلَيْسَ يُغْنِي فِي ذَلِكَ زِيَادَةُ عَدَدٍ ، وَلَا اتِّصَالُ مَدَدٍ ؛
وَلَا قُوَّةُ أَيْدٍ ، وَلَا لُطْفُ كَيْدٍ ؛ وَلَا اخْتِيَارُ وَقْتٍ مَحْمُودٍ لِلْقِتَالِ ، وَلَا الْإِثْتِخَابُ لِأَهْلِ
الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ مِنَ الرِّجَالِ ؛ وَلَا يَجِبُ أَنْ يَسْتَرِيثَ النَّصْرَ مَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ ، وَيَسْتَشْعِرَ
الْجَزَعَ مَنْ نَالَ خَصْمَهُ مِنْهُ ؛ بَعْدَ تَحْصِيلِهِ السَّلَامَةَ فِي نَفْسِهِ ، وَقِيَامِ الْعُدْلِ بِعِنَايَتِهِ
وَجِدِّهِ ؛ وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ مِنَ الْمَنَاقِبِ - الَّتِي وَرِثَهَا عَنْ آبَائِهِ ، وَحَازَهَا فِي صَدْرِهِ ؛
وَالْحَيَازَةَ فِيهَا بَانَ مِنْ فَضْلِ بَأْسِهِ ، وَثَبَاتِ جَأْشِهِ ؛ وَأَصَالَةِ رَأْيِهِ ، وَصِحَّةِ تَدْبِيرِهِ ؛ وَإِيْفَائِهِ
الْحَرْبِ شُرُوطَهَا ، وَالْهِجَاءَ حُقُوقَهَا : مِنَ الْحَزْمِ وَالنُّؤُودَةِ ، وَالْإِقْدَامِ عِنْدَ الْفُرْصَةِ ؛
وَالْإِصَابَةِ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّعْبِيرِ ، وَالْإِحْتِيَاظِ فِي سِدِّ مَوَاقِعِ الْخَلَلِ وَالْعَوْرَةِ ، وَإِعْمَالِ
النَّظَرِ وَالرُّوْيَةِ ؛ لَوْلَا آعْتَرَاضُ الْقَضَاءِ الَّذِي هُوَ مَالِكُ نَوَاصِي الْعِبَادِ ، وَغَيْرُ مَدْفُوعٍ
بِمَحَالٍ وَلَا جِلَادٍ ، وَلَا قُوَّةٍ وَلَا عُدَّةٍ وَلَا عَتَادٍ - مَا أَوْفَى حُسْنُهُ عَلَى مَزِيَّةِ الظَّفَرِ ،
وَزَادَ عُظْمُهُ فِي السَّنَاءِ وَالْخَطَرِ ؛ إِلَى مَا شَمِلَ عَسْكَرَهُ فِي مُنْقَلَبِهِ بِمِرَاعَاتِهِ لَهُمْ ، وَمُدَافَعَتِهِ
مِنْ وَرَائِهِمْ ؛ حَتَّى تَوَافَى الْجَمْعُ مَوْفُورِينَ ، وَأَبَاؤُ سَالِمِينَ غَانِمِينَ ؛ وَبِاللَّهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ
وَعَلَيْهِ صَمَانُ الْإِدَالَةِ عَلَى مَا جَرَى بِهِ وَعَدُّهُ الصَّادِقُ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ كِتَابُهُ النَّاظِقُ ؛ وَهُوَ
حَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَفَايَهُ ، وَنَاصِرُهُ وَوَالِيَهُ ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالظَّهِيرُ ، وَالْمَوْلَى
وَالنَّصِيرُ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ
أَجْمَعِينَ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .



وفى مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جلّ جلاله جاريةً على سبيل جامعة لوجوه الحكمة ، منتظمة لأسباب
الصلاح والمعدله . فمنها ما عرف الله أولياءه والمندوبين بطاعته ، والمجموعين
بهداياته ؛ طريق المراد منه ، وسبب الداعي إليه ؛ والعلّة فيما قضى من ذلك لحينه ،
والصورة المقتضية له . ومنها ما استأثر بعلمه ، وطوى عن الخلق معرفة حاله ؛ فهو
- وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه ، وموقع العائدة به ؛ ورؤى بهم اضطراباً
في ظاهره عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ، ومبالغ أفهامهم - مبني على أوثق أساس
الحكمة ، وأثبت أركان الصواب على الجملة ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ والله خالق
الأشياء كلها ، وعالم بها قبل كونها ؛ في أحوال تكوينه إياها وبعده في مترع غاياتها
ومقتضى عواقبها ؛ فليس تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه دانية ولا قاصية ؛ ولا يسقط
عن معرفته فصل ما بين الخاطرين والوهميين في الخير والشر ، وما بين الجبلين والدرين
في الوفور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ؛ ويخبر فيه عن موضع التدبير ، المحتاج
فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ؛ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج
الصواب ، ويخالف طريق الصلاح ؛ فقد ضلّ من حيث ضلّ ، وغلط من
حيث غلط ؛ واتّصل سوء ظنه ، وفساد فكره ؛ بالزراية على فعل ربه ، تعالى عن
قول المبطلين ، ورجم الشياطين .

ثم إن لله جلّ جلاله عادة في الجيوش المتحارين ، والحزبين المتحاكين : من
عباده المؤمنين ، وأضدادهم المفسدين الملحدين ؛ في المداولة بينهما ، والمعاقبة
بين الفيتين منهما ؛ في العجز والظهور ، والوفاء والقصور ؛ والمعافاة والامتحان ،

والتَّصَرُّفَ وَالْحِدْلَانَ ؛ وَالْإِعْلَاءَ لِرَأْيَةِ الْحَقِّ فِي حَالِ ، وَالْإِمْلَاءَ لِلْبَاطِلِ فِي أُخْرَى ؛
بِتَضَمُّينِ الْخَيْرِ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالِدَائِرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ عَاجِلًا بِالْتَّمَجِّصِ لِهَوْلَاءِ ،
وَبِالْحَقِّ لِأَوْلِيَاكَ ؛ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مُصِيبَتِهِ ، وَيُنُوبُهُمْ فِي حَاضِرِ الدُّنْيَا مِنْ رَغْبَتِهِ ؛
وَيُجِلُّ الْعَادِينَ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيْنَ ^(١) ؛ وَمَنْ سَعِدَ
بِقِسْمٍ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَحَفِظَ مِنْ فَائِدَةِ الْإِرْشَادِ ؛ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَزِيَادَةِ
أَنْصَارٍ وَعِدَّةٍ ، وَفَضْلِ عِتَادٍ وَعُدَّةٍ ؛ وَبَسَالَةٍ وَتَجَدُّدٍ ، وَأَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَسَعَةٍ وَبَسْطَةٍ ؛
وَلَا يَعْدُو أَنْ يُسَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى قَاضِيًا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَيُوفَى بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ مِنْ عُلُوِّهِ ،
أَوْ غَلْبَةِ عُدُوِّهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ مُنْعِمًا ، وَمُتَّحِنًا وَمُعَافِيًا وَمُسَلِّمًا ؛
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل بين الكُتَّابِ ، دائر
في مُصْطَلَحَاتِهِمْ إِلَى الْآنَ . وَالشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ فِي ذَلِكَ تَفَنُّنَاتٌ
كثيرةٌ ، أورد بعضها في كتابه "حُسن التَّوَسُّلِ" .

فمن ذلك ما أنشاه فيمن هزيم هو وجيشه ، يتضمَّن إقامة عُدْرِهِ ، وَوَصْفَ اجْتِهَادِهِ ؛
وَيُحِثُّ عَلَى مَعَاوَدَةِ عُدُوِّهِ ، وَالطَّلَبِ بِنَارِهِ ؛ وَهُوَ :

هذه المكتبة إلى فلان : لا زال مأمون الغرَّة ، مأمول الكرَّة ، مُجْتَنِبًا حُلُوَ الظَّفَرِ
من أتكِّم تلك المَرَّةَ المُرَّةَ ؛ راجيا من عواقب الصَّبْرِ أَنْ يُسْفِرَ لَهُ مَسَاءُ تِلْكَ الْمَسَاءَةِ
عَنْ صُبْحِ الْمَسْرَةِ ، وَانْقِمَا مِنْ عَوَائِدِ نَصْرَةِ اللَّهِ بِإِعَادَتِهِ وَمِنْ مَعِهِ فِي [الْقُوَّةِ وَ] الْأَسْطِظْهَارِ
كَمَا بَدَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

(١) بياض في الأصل ولعله "فليس أنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتصل بنا نبأ ذلك المقام الذى أوصحت فيه السيوف عذرها ،
وأبذت به الكفاة صبرها ، وأظهرت فيه الحمأة من الوثبات والثبات ما يجب عليها ،
وبذلت فيه الأبطال من الحلال جدها ولكن لم يكن الظفر إليها ، وكان عليهم
الإقدام على غمرات المنون ، والأصطلاء بجزرات الحرب الزبون ، ولم يكن عليهم
إتمام ما قدر أنه لا يكون ، فكأرت رقاب الأعداء فى ذلك الموقف السيوف ، وكأرت
أعدادهم الحثوف ، وتدقت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت
تلك الآحاد من تلك الألوف ، فضاقت بأزدحام الصفوف على رجاله المجال ، وزاد
العدد على الجلد فلم يقدر له الإقدام على الأوجال مع قُدم الأجال ، وأملى للكافرين
بما قدر لهم من الإنظار ، وحصل لهم من الاستظهار ، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام
عما ألفوه من الفرار . (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)
وقد ورد أنهم ينصرون كما تنصر ، وإذا كانت الحروب سجالات فلا ينسب إلى من
كانت عليه [وبالآ] إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر . مع أنه قد أشتهر بما فعله
فى مجاله ، من الذب عن رجاله ، وما أبداه فى قتاله ، من الضرب الذى ما تروى
فيه خصمه إلا بدره بارتجاله ، وأن الرماح التى امتدت إليه أحرس سيفه ألسنة
أستنها ، والخياد التى أقدمت عليه جعل طعنة أكفأها مكان أعنتها ، فثبت
فى مستنقع الموت رجله ، ووقف وما فى الموت شك لواقف ليحيم خيله ورجله ،
حتى تحيز أصحابه إلى فئة مأمنينهم ، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم
أو ظهر من مكبتهم ، وهذا هو الموقف الذى قام له مقام النصر ، إذ فاته النصر
وفاته النصر ، والمقام الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد وقدر

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

فيه من اعدائه مع ظهورهم أوف لا يدركهم الحصر؛ [وكذا فليكن قلب^(١)] الجيش كالقلب يقوى بقوته الجسد، وإذا حق اللقاء فلا يفر عن كآسِه إلا الظبي ولا يجي [عريته^(١)] إلا الأسد؛ وما بقي إلا أن تعفو الكؤوم، وتثوب الخلوم؛ وتتدمل الحراح، وتبرأ من فلول المضارب صدور الصفايح؛ وتنهض لأقتضاء دين الدين، من غرمانه المعتدين؛ وتبادر إلى استنجاز وعد الله بأن الله يحص المؤمن، ويحقق الكافرين؛ والليث إذا جرح كان أشد ثباته، وأمد لوثباته؛ والموتور لا يسطل بناره، والثائر لا يرهب الإقدام على المنون في طلب ناره؛ والدهر ذو دول، والزمان متلون إن دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدة فقد أشرقت لكم منه بالنصر ليال أول، فالمولى لا يلتفت إلى ما فات، ويقبل بفكره على تدبير ما هو آت؛ ويعبد لغرب عدته، ويعجل أمد الاستظهار ومدته؛ ولا يؤخر فرصة الإمكان، ولا يعيد ذكر ماضى فإنه دخل في خبر كان؛ ولا يظهر بما جرى عجزاً^(٢)، فإن العاجز من ظن أنه يصيب ولا يصاب، ولا يتخذ غير ظهر حصانه حصناً فلا حرز أمتع من صهوة الجواد ولا سلم أسلم من الركب؛ وليعلم أن العاقبة للمتقين، ويدرع جنة الصبر ليكون من النصر على ثقة ومن الظفر على يقين، فإن الله مع الصابرين؛ ومن كان الله معه كانت يده الطولى؛ وإذا لقي عدو الله وعدوه فليصبر لحملته فإن الصبر عند الصدمة الأولى؛ والله تعالى يكلؤه بعينه، ويمسده بعونه، ويعمل الظفر بعدوه موقوفا على مطالبته له بدينه .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرى الخ .



ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، وَيَصِفُ الْأَحْتِفَالَ
بِأَخَذِ النَّارِ .

هذه المكاتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه
عنا من الانتصار والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح والسنة الرماح سره ، وأراه
من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وان
سرار القمر لا يبصره . توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها
اللقاء ، وصدمننا العدو صدمة من لا يجب البقاء ، وأرنا حرباً لو أعانها التأيد فالتت
بجموعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصيل أوجده مصارعه وأعدمه
رجوعه . وحين شرعت رياح النصر تهب ، وبتحاب الدماء من مقاتلهم تصوب
وتصب ، وكرعت الصفاح في موارد محوريهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ؛
وما بقى إلا أن تستجلى سيوفنا الرى من دمايتهم ، وتقف صقوفنا على ربوات أشلائهم ؛
وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته
الجراح حلة عنده ؛ - أظهروا الخرع في عزائهم ، وحكموا الطمع في غنائمهم ؛ فحصل
لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تيم هدم بنايتهم ، وطمع^(١) منع جيوشنا أن تكف عن
التهب إلى أن تصير من ورائهم ؛ فأغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان ، العجب^(٢)
والطمع ، وآتتهز فرصة الإمكان ، التي أعانته عليها [المطمعان] إبداء الهلع ، وتخليه ما جمع ،

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن «الغفوة» .

(٢) في حسن التوسل "فرصة الكزة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جمعنا^(١)] بعض ذلك العِقْدِ المُنْظَمِ ، وَاَنْتَقَضَ مِنْ حَزْبِنَا رُكْنُ ذَلِكَ الصَّفِّ
الذى أخذ فيه الزَّحَامُ بالكَطْمِ ؛ وثبت الخادم في طائفة من ذَوِي القُوَّةِ في يَقِينِهِمْ ،
وأرباب البصائر في دينِهِمْ ؛ فكسرتنا جُفُونُ السُّيُوفِ ، وَحَطَمْنَا صُدُورَ الرِّمَاحِ في صدور
الصفوف ، وأرينا تلك الألوف كيف تُعَدُّ الآحاد بالألوف ؛ وحلنا بين العدو وبين
أصحابنا بَضْرِبٍ يَكْفُفُ أَطْعَامَهُمْ ، وَيُرْدُ سِرَاعَهُمْ ، وَيُعْمِي وَيُصِمُّ عَنِ الآثَارِ والأَخْبَارِ
أَبْصَارَهُمْ وَاسْتَمَاعَهُمْ ؛ إلى أن نَفَسْنَا للنهزم عن خِنَاقِهِ ، وَأَيْسْنَا طَالِبَهُ عن حَاقِهِ ،
وَرَدَدْنَاهُ عنه حَائِبًا بعد أن كَادَتْ يَدُهُ تَعْتَلِقُ بِأطواقِهِ ؛ وَأَحْجَمَ العَدُوَّ مع ما يرى من
قِلَّتِنَا عن الإقدام علينا ، ورأى منا جِدًّا كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا ؛ وعادوا
ولنا في قلوبهم رُغْبٌ يَثْنِيهِمْ وهم الغالبون ، [ويُدْرِكُهُمْ وهم الطالبون^(١)] وَيَسْلُبُهُمْ رِداءَ
الأمن وهم السالبون ؛ وقد لَمَّ الخادم شَعَثَ رجاله ، ووضَّ فِرْقَهُم بِذخائر ماله ؛ وأمدَّهُم
بِنَفَقَاتِ أصالحت أحوالهم ، وأطلقت في طلب عَدُوِّ الله أقوالهم ؛ وَسِلاَجَ جَدِّدَ
أَسْتِطَاعَتِهِمْ ، وَأَعَانَ شَجَاعَتَهُمْ ؛ وَخِيُولَ تَكَادَ تَسَابِقُهُمْ إلى طَلَبِ عَدُوِّهِمْ ، وَتَحْضُّهُمُ
على أخذ حَظَّهُمْ من اللقاء كأنها تساهمهم في أَجْرِ رَوَاحِيهِمْ وَعُدُوِّهِمْ ؛ وقد نَضُّوا
رِداءَ الإعجاب عن أكفهم ، وَأَعْتَصَمُوا بعون الله وتأييده لا يَقُوَّةَ جَلْدِهِمْ ولا بِحِدَّةِ
أسيافهم ؛ وَسَيُعْجَلُونَ العَدُوَّ - إن شاء الله تعالى - عن آندِمَالِ حِرَاحِهِ ، وَيَتَعَجَّلُونَ
إليه بجيوش تسوءه طلائعها في مَسَائِهِ وتُصَبِّحُهُ كَنَائِبُهَا في صَبَاحِهِ ؛ والله تعالى لا يَكُنَّا
إلى جَلْدِنَا ، ولا يَتْرَعُ أَعْنَةَ نَصْرِهِ من يَدِنَا .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصل "وضربهم" والتصحيح عن حسن التوسل .

الصفحة التاسعة

(المكتبة بتوبيخ المهزوم وتقريره والتهمك به)

وهذا النوع من المكتبات قليل الوقوع ، ولذلك لم يتعرض إليه في "مواد البيان" .
والذى ينبغى أن تُبنى المكتبة فيه عليه ذِكْرُ هَزِيمَةِ المهزوم وما استولى عليه من
الغلبة والقهر ، وصورة الحال فى النضرة عليه ، والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر
ذات يده ، وأمير رجاله ، وأسترقاق ذراريهم ونسائهم ، وما يجرى مجرى ذلك : مما فيه
إيلام خاطره ، وتقطيع قلبه حشرات على ما ناله ، ونحو ذلك مما يدعو المكتوب
إليه إلى الطاعة ، ويوجب الأقياد .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط : كتب به القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر
رحمه الله ، إلى البولس سمد ملك الفرنج ، المستولى على طرابلس من الشام ، وأنطاكية
من بلاد العواصم حين غزاه الملك ^(١) فى طرابلس ، ثم قصد أنطاكية فأخذها
من عانه ، وهى : ^(٢)

قد علم القومص الجليل المتقلبة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البولسية إلى
القومصية ؛ ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده ؛
ما كان من قصيدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من
إخراب العمار ، وهدم الأعمار ؛ وكيف كُنست تلك الكائن من على بساط الأرض
ودارت الدوائر على كل دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل
البحر كالجزائر ؛ وكيف قطرت الرجال وأستخدمت الأولاد ومملكت الحرائر ، وكيف
قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والسائر ؛

(١) كذا بالأصل باهمال القبط وفى "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠ ، ص ٢٥٤) "بميد" .

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة . (٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة" .

وكيف نُهِبَتْ لك ولرَعِيَّتِكَ الأموال والحريم والأولاد والحواشي ، وكيف آسْتغْنَى
 الفقير وتَاهَلَ العَازِبُ وأسْتخدم الحريمَ ورَكِبَ المَاشِي ، هذا وأنت تَنْظُرُ نَظْرَ المَغْشَى
 عليه من المَوْتِ ، وإذا سَمِعْتَ صَوْتًا قَلْتَ فَرَعًا : عَلَى هذا الصَّوْتِ ؛ وكيف رَحَلْنَا
 عنك رَحِيلَ من يَعود ، وأخْرَناك وما كان تَأْخِيرُكَ إلا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ؛ وكيف فَارَقْنَا
 بلادَكَ وما بَقِيَتْ فيها مَاشِيَه ، إلا وهى لَدِينَا مَاشِيَه ؛ ولا جَارِيَه ، إلا وهى في مِلْكِنَا
 جَارِيَه ؛ ولا سَارِيَه ، إلا وهى بين أَيْدِي المَعَاوِلِ سَارِيَه ؛ ولا زَرْعٌ إلا وهُوَ مَحْصُودٌ ،
 ولا مَوْجُودٌ إلا وهُوَ مِنْكَ مَفْقُودٌ ؛ وما مَنَعَتْ تِلْكَ المَعَايِرُ الَّتِي هِيَ فِي رُؤُوسِ الجِبَالِ
 الشَّاهِقَةِ ، ولا تِلْكَ الأَوْدِيَةُ الَّتِي فِي التُّحُومِ مُحْتَرِقَةٌ وللعقول خَارِقَه ؛ وكيف سُقْنَا
 عنك ولم يَسْبِقْنَا إلى مَدِينَتِكَ أَنْطَا كِيَّةَ خَبْرٍ ، وكيف وَصَلْنَا إليها وَأنت لا تُصَدِّقُ
 أَنَّنَا نَبْعُدُ عنك وإن بَعُدْنَا فَسَنَعُودُ عَلَى الأَثَرِ ؛ وَها نَحْنُ نَعْلَمُكَ بِمَا تَمَّ ، وَنُفْهِمُكَ
 بالبلاء الذي عَمَّ .

كان رَحِيلُنَا عنك من طَرَابُلُسَ يوم الأربِعاء ، وَتَرَوْنَا أَنْطَا كِيَّةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ؛
 وَفِي حَالِ التُّزُولِ نَحْرَجْتَ عَسَا كُرُكَ لِلْمُبَارَاةِ وَتَنَاصَرُوا فَما نُصِرُوا ، وَأَسْرَمَ مِنْ بَيْنِهِمْ
 كَدَ اسْطِطِلَ فَسَالَ فِي مَرَاجِعَةِ أَصْحَابِكَ ، فَدَخَلَ إلى المَدِينَةِ ، فَخَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ
 رُهَبَانِكَ : وَإِنْ رَأَيْهِمْ فِي الخَيْرِ مُخْتَلِفٌ ، وَقَوْلُهُمْ فِي الشَّرِّ وَاحِدٌ ؛ فَلَمَّا رَأَيْنَاهُمْ قَدِ فَاثَ
 فِيهِمُ الفَوْتُ ، وَأَنَّهُمْ قَدِ قَدَّرَ اللهُ عَلَيْهِمُ المَوْتَ ؛ رَدَدْنَا هُمْ وَقُلْنَا : نَحْنُ السَّاعَةَ لَكُمْ
 مُخَاصِرٌ ، وَهَذَا هُوَ الأَوَّلُ فِي الإِنذارِ وَالآخِرُ ؛ فَرجعوا بِهِ مُتَشَبِّهِينَ بِفِعْلِكَ ، وَهوَ مُتَقَدِّمِينَ
 أَنْكَ تَدْرِكُهُمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ؛ فَفِي بَعْضِ سَاعَةِ مَرَّشانِ المَرشانِ ، وَدَاخَلَ الرَّهْبُ
 الرُهَبَانَ ؛ وَلِأَنَّ للبلاءِ القَسْطَ لَانَ ، وَجاءَهُمُ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛ وَفَتَحْنَاهَا بِالسَّيْفِ

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المغارة على مغاير، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا في الأصل بأعمال جميع الحروف .

في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان؛ وقتلنا كل من اخترته لحفظها
 والمخامة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شئ من الدنيا فما بق أحد منا إلا وعنده
 شئ منهم ومنها؛ فلو رأيت خيالناك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، ويأرك
 والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول؛ وأموالك وهي تُوزن بالقيطار، وإماءك
 وكل أربع منها تباع فتشترى من مالك بدينار؛ ولو رأيت كتابناك وصلبانها قد كسرت
 ونثرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛
 ولو رأيت صدوك المسلم وقد داس مكان القداس، والمدنج وقد دُجج فيه الراهب
 والقسيس والشماس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقه، وأبناء المملكة وقد دخلوا
 في المملكة؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق، والفتلى بنار الدنيا قبل نار
 الآخرة تحترق؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بونصر وكنيسة القسيان
 وقد زلت كل منهما وزالت - لكنت تقول: ياليتني كنت ترابا، وياليتني لم أوت
 بهذا الخبر كتابا؛ ولكنت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفى تلك النيران
 بماء صبرتك؛ ولو رأيت معانيك وقد أفقرت، ومرابك وقد أخذت في السويديّة
 بمراكبك، لصارت شوانيك من شوانيك؛ ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية
 منك أسترجعها، والرّب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ومن الأرض أقتلها. وتعلم
 أنا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش،
 وشقيف تل منس^(١)، وشقيف كفرديين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية
 في هذه المدة إقامة(?) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلا وإما أسيرا، وإما جريحاً

(١) في الاصل "تليس" ولم نثر عليه في المعاجم والذي في معجم البلدان لياقوت أن تل منس حصن

قرب معرة النعمان بالشام.

وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الخيُّ إذا شاهد الأموات، ولعلَّ الله
 إنما أتحرك لأنَّ تَسْتَدْرِك من الطاعة والخدمة ما فات، ولمَّا لم يَسَلِّمْ أحدٌ يخبرك
 بما جرى خبرناك، ولمَّا لم يَقْدِرْ أحدٌ [أن] يَبْأَشِرْكَ بالبُشْرَى بسلامة نفسك وهلاك
 ماسواها بأشْرناك بهذه المفاوضة وبشْرناك، لتَحَقِّق الأمر على ما جرى، وبعد هذه
 المكتوبة لا ينبغي لك أن تُكذِّب لنا خبراً، كما أن بُعِيدَ هذه المخاطبة يجب أن لا تُسألَ
 عما جرى .



وهذه نسخة في هذا المعنى، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :
 هذه المكتوبة إلى فلان أقالهُ اللهُ عَثْرَةَ زَلَّتْهُ ، وأقامه من حُفْرَةِ ذَلَّتْهُ ، وتجاوز له
 عن كبيرة فراره من جَمْعِ عَدُوِّهِ على قَلْبِهِ .

بلغنا أمرُ الواقعة التي لَبِيَ فيها [العدو] بجمع قليل غناؤه ، ضَعِيفٍ بِنَاوِهِ ؛ كشيء
 في رأي العين جمعه ، خفيف في المعنى وَقَعَهُ وَقَعُهُ ؛ أَسْرَعُ في مفارقة المجال ، من الظلِّ
 في الانتقال ، وأشبه في مُمَّاثَلَةِ الوجود بالعدم من طَيْفِ انخِيار ؛ يَمْشُونَ إليه^(٢)
 بقلب واجب ، ويهتدون من تَحْرُصِهِ برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب ؛
 ويأتمون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كآلف ، وَيَتَسَّرَعُونَ منه وراء مقدِّم يمشي
 إلى الرِّحْفِ ولكن إلى خلف ؛ جَنَاحُ جَيْشِهِ مَهِيضٌ ، وطَرْفُ سِنَانِهِ غَضِيضٌ ؛
 وساقَةُ عَسْكَرِهِ طالعسه ، وطلابُ عه كالتنجوم ولكن في حال كونها راجعه ؛ تَأْسُفُ
 السيفُ بيمينه على ضارب ، وتأسى الجنائبُ حوله إذ تُعَدُّ لِحَارِبٍ فتعدُّ لِحَارِبٍ ؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) في الأصل "يحفون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٣) كذا في "حسن التوسل" والذي في الأصل "ويهتدون من تجريه وتهذيبه بينه" الخ ، ولا معنى له .

وأنه حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى^(١) من عدده وعدده معالجة الحين ؛ أعجل نُصُولَ العدا عن وُصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها ؛ تُناديه ألسنة أسنائه : الكرة الكرة فلا يلوى إلى نديها ، وتُسكو إليه سيوفه الظمأ وقد رأت موارد الوريد فيردّها إلى العمود بدائها ؛ ففتح عدوه مقاتل رجاله ، وأباحهم كرائم مال جنده وماله ؛ وخلى لهم خزائن سلاحه التي أعدها لقتالهم فأصبحت معدة لقتاله ؛ فنجح منجى الحارث بن هشام ، وآب بسلامه أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام ؛ وآتم بين أوليائه وأعدائه بسمة الفرار ، وكان يقال : النار ولا العار ، بجمع له فراره من الزحف بين النار والعار ؛ وعاد بجمع موفور من الجراح ، موقر من الإثم والاعتراج ؛ لا علم بما جرى عند أسيافهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الطبأ في أكافهم ؛ فبأى جنان يطعم في معاودة عدوه من هذا قلبه ، وهؤلاء حزبه ، [وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربته] .

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها ، أو أريحية فستشب نارها ؛ أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية ، وتبعته على طلب غايتين : إما شهادة مريحة أو حياة هنية ؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ، ويعجل له الانتصاف من عدوه قبل إكمال سنته .

الصف العاشر

(في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم)

قال في "مواد البيان" : لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة - عند ما ينتهي [إليه] من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم ، وأسباحة المحارم ، وأقتراف المآثم ؛ كالزنا

(١) في "حسن التوسل" «ولا يلتفت» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرُق، والغصب والتظالم، وما يجرى هذا الجرى -
بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل أفتراض طاعته ، الممتن
بفضله قبل إيجاب شكره ، خالق الخلائق جوداً وكرماً ، وموسعهم مناً ونعماً ، الذي
أختر دين الإسلام وطهره من الأرجاس ، وزهه عن الأدناس ، وأختص به صفوته
من الناس ، وأبتعث به محمداً سيده المرسلين : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمد أمير المؤمنين أن فوض إليه إيالة خلقه ، وأقدره على القيام
بخدمته ، ونصبه لإعزاز دينه ، والمحافظة على مفروضه ومسئونه ، وزيادة العباد
عن محاربه التي نهى عن التعدي إليها ، وإقامة الحدود عليهم فيها ، ويسأله الصلاة
على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإن أمير المؤمنين يرى أن من أعظم نعم الله تعالى عليه توقيفه لحفظ
ما استحقه من شريعته ، ورعاية ما استرعاه من بريته ، وتوفير القيام على من قلده
النظر فيهم ، وأعتاد ما يعود بالصلاح في الدين والدنيا عليهم ، ومسأواته بين قريتهم
وبعيدهم في تفقده ، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده ، فلا ينال القريب [فقط]
نصيها من رعايته ويعلم جاهلهم ، ويهدي حائرهم ، ويُسِّدُ بصائرهم ، ويتقف
مأذهم ، ويصليح فاسدهم ، ويخولهم من مواعظه بما يبرد الغل ، ويسفي العلل ؛
ويشخ الشك باليقين ، ويقبس مقابس النور المبين [فمن] أصغى إلى إرشاده سجد
جده ، وورى زنده ، وأحمد يومه وغده ؛ ومن خالف عن أمره ضل مسعاه ، وخسر
آخرته ودنياه ، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه ، والكف بإقامة
الحدود عليه من حماحة .

وَأَتَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ وَأَهْلُ الدَّعَاةِ قَبْلَكُمْ مِنْ أَحْتِقَابِ
الْآثَامِ ، وَأَسْتِدْمَاتِ مَرَائِبِ الْحَرَامِ ، وَالْأَسْتِهَارِ بِمَحْظُورِ اللَّذَاتِ ، وَالْإِتْجَابِ عَلَى
دَفِيءِ الشَّهَوَاتِ ، الَّتِي تَسْلُخُ مِنَ الدِّينِ ، وَتُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَدْفَعُ عَنْ نَادِيَةِ
الْعِبَادَاتِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ، وَتَنْظِمُ فِي سِلْكِ الْبِهَائِمِ الْمُرْسَلَةِ ، وَالسَّوَائِمِ الْمُهْمَلَةِ .
وَتَقْصِيرُ مَشَائِجِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ عَنْ كَفِّهِمْ ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَكْفِهِمْ ، وَتَعْرِيفِهِمْ وَجُودَ
مَرَاشِدِهِمْ وَتَقْوِيمَ أَوْدِيهِمْ ، فَأَمْتَعَضَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَشْفَقَ مِنْ نَزُولِ الْقَوَارِعِ وَالْمَثَلَاتِ ،
وَحُلُولِ الْبَلِيَّاتِ وَالْآيَاتِ ، وَأَرْتَجَاعِ مَا أَوْدَعَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْتَرَعَ مَا أَلْبَسَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَبَادَرَ بِكِتَابِهِ مُوقِظًا لِعَافِلِكُمْ ، وَمُبَصِّرًا لِدَاهِلِكُمْ ، وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى مَرَاضِيهِ
الْأَوْلَى ، وَمَعَاوِدَةِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، وَمِبَادِرَةِ آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَالْأَخْذِ لِأَحْرَامِكُمْ
مِنْ أَوْلَاكُمْ ، وَلَسَقَمِكُمْ مِنْ صِحَّتِكُمْ ، وَلِنَوْمِكُمْ مِنْ يَقَظَتِكُمْ ، عَالِمِينَ بِأَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، وَأَنَّكُمْ فِيهَا كَسْفِيرٌ شَارَفُوا الْمَنْزِلَ . فَاجْهَدُوا عِبَادَ اللَّهِ
وَأَحْتَشِدُوا ، وَأَقْلِعُوا وَارْجِعُوا ، وَأَسْمِعُوا وَعُوا ، فَكَانَكُمْ وَاللَّهُ وَقَدْ تَوَصَّحْتُ خُدْعَهَا ،
وَتَصَرَّمُ مَتَاعَهَا ، وَجَلَّ مَتَوَقَّعُهَا ، وَالسَّعِيدُ مِنْ وَثِقَ بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَفَادِ أَيَّامِهِ ،
وَوُرُودِ حِمَامِهِ ، وَالشَّقِيُّ مِنْ أَفْرَطَ وَفَرَطَ ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَا مَنَدَمَ . وَأَوْعِزْ إِلَى وَالِيِ الْحَرْبِ
فَلَانَ بِقِرَاءَةِ مَا نَصَّ فِيهِ عَلَيْكُمْ ، وَآخْتِبَارِ سَيْرِكُمْ بَعْدَ مَرُورِهِ عَلَى أَسْمَاعِكُمْ ، فَمَنْ رَغِبَ
فِي التَّقْوَى ، وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، عَرَفَ ذَلِكَ وَتَوَخَّاهُ بِتَكْرِمَتِهِ وَتَحْوَلَهُ ، وَمَنْ أَبَى
إِلَّا غَوَايَةَ وَضَلَالًا ، وَبَطَالَةً وَمَحَالًا ، أَقَامَ حَذَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْرَ مَرَاقِبٍ فِيهِ . فَرحم
اللَّهُ عِبْدًا صَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنِ الْعَارِ ، وَحَمَاهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ،
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ ، وَيَسْفِي صُدُورَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَيُرْشِدَكُمْ
إِلَى مَا يُفِضِي بِكُمْ إِلَى الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ . فَلْيَعْلَمْ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَسْمِهِ ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ بِجُمْلَتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصفحة الحادية عشر

(الكُتُبُ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّنَازُعِ فِي الدِّينِ)

قال في "مواد البيان": من أهم ما صرف إليه السلطان تفقده، ووقف عليه [تعمده] أمر الرعايا في أعماله، وتفيد الكتب إليهم بالنهي عن التنازع في الدين، وحتم أسباب المجادلة والمرء، والتحذير من اتباع البدع والأهواء، والإخلاق إلى مفضل النحل والآراء: لأنه متى فسح لهم في هذا الباب صار شبعاً متباينين، وفرقاً متحارين؛ وأتسقت عصاهم، واتقضت حيلهم، وخرجوا عن أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان. ولهذا صرف إليه الساسة الحزمة من الملوك الأهتمام، ولم يخلوا بحتم مادته على تغاير الأيام.

ثم قال: والرسم فيها أن تصدّر بحمد الله تعالى على نعمة في تأليف كلمة أهل الإسلام، ومامن به عليهم من الاتفاق والائتلاف؛ وشكره على موهبتة في تزع الغل من صدورهم، والتأليف بين قلوبهم؛ وتصييرهم إخواناً متصافين، وخلاًفاً متوافقين؛ وعونهم بما وفقهم له من إظهارهم على من شق عصاهم، وإقبارهم بما منحهم من الألفة على مرآمة من رآهم؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكّنه الله تعالى من مرآضيه، ووفقه له من القيام بفرضه، والنهوض بحقوق طاعته، والعمل بكتابه وسنته، ورغبته في الخير العام، وتشمول الصلاح لكافة الأنام - لا يزال يحض رعيته على ما يقضى بسداد دنياهم، وحسن المنقلب في آخرهم؛ ويرى أن أنفع ذلك عائده، وأجزله فائده؛ ما رفع عنهم أسباب التنافر، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر؛ وحال بينهم وبين الخوض في محدث النحل والآراء، والإصغاء إلى مفضل البدع والأهواء؛ التي

تَصُدُّ عن سَنَنِ الْهُدَى، وتُلْقِي في مَهَاوِي الرَّدَى، وتدعو إلى شَقِّ العَصَا؛ وتَقْضِي بانتثار النِّظَام، واختلاف الأَنَام، وَأَنْفِصَام عُرَى الإسلام. وكَفَّهِم عن المُمَارَاة في الدِّين، والإِصْغَاء إلى سُنَّة المِضَالَيْن، المَعْطَلَّة للسَّنن، القَادِحَة لِلفِتْن، الدَاعِيَة إلى أَحْتِقَاب الأَنَام، وإِرَاقَة الدَّمَاء الحَرَام، ونحو هذا مما يَضَاهِيه.

ثم يقول: وَأَتَهَى إلى أمير المؤمنين أَلْتَفَاتِكُم عن معايشكم التي جَعَلَهَا اللهُ لِدُنْيَاكُمْ قِوَامًا، وعبادتكم التي صَيَّرَهَا لِأَخْرَجِكُم نِظَامًا؛ وإِقْبَالِكُم على المُمَارَاة والمنَازَعَة، والمُنَاطَرَة والمُجَادَلَة؛ إلى شُكْحٍ يَبِيحُهَا مَنْ يَرْغَبُ في الرِّيَاسَة والتَّقَدُّم: لِيَفُوزَ بِجَبِيثِ المَطْعَم، الذي يُعْمَى البِصَاثِر، وَيُفْسِدُ السَّرَائِر؛ وَيَقْدَحُ زَنْدَ الضَّلَال، وَيُسَبُّ نَارَ المِحَال والِاتِّعَال؛ فَاَمْتَعَضَ أمير المؤمنين من ذلك وخَافَ عَلَيْكُمْ أَلِيمَ عَاجِلَتِهِ، وَذَمِيمَ آجَلَتِهِ؛ وَبَادَرَكُم بِكُتَابِهِ هَذَا مُنْبَهًا لِعَافَلِكُم، وَمُرْشِدًا لِجَاهِلِكُم؛ وَبَاعِثًا لَكُم على التَّشَاغُلِ بِمَا أُطَابَ أَخْبَارِكُم، وَحَسَّنَ آثَارِكُم: من تِلَاوَةِ كِتَابِ اللهِ الذي آثَرَكُم بِتِلَاوَتِهِ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ عِبَادَتِهِ؛ وَالتَّادِبِ بِأَدَبِ نَبِيِّهِ وَعِترَتِهِ؛ وَأُوَعَّرَ إلى النَّائِبِ في الحَرْبِ بِتَقْوِيمِ مَنْ نَجَرَ عَنْ أَمْرِهِ، وَتَقْيِيفِ مَنْ أَصْرَعَ عَلَى غَيْبِهِ؛ وَأَنْ يَحْسِمَ الدَّاءَ قَبْلَ اسْتِشْرَائِهِ، وَيَسْتَدْرِكَهُ دُونَ اسْتِفْحَالِهِ؛ فَاصْغَوْا إلى زَوَاجِرِ أمير المؤمنين وَمَوَاعِظِهِ، وَأَقْتَدُوا بِهَدْيِهِ وَمَرَّاشِدِهِ؛ لِتَفُوزُوا بِطَاعَتِهِ، وَتَسْعَدُوا بِرِضَاةِ؛ وَتَسْلَمُوا في الحَاضِرِ؛ من مَهَانَةِ أَمِّ بَغِيْرَهَا أَوْلَى، إِنْ سَلَكَتُمُ الطَّرِيقَةَ المِثْلَى، وَفي الغَابِرِ مِمَّا أَعَدَّهُ اللهُ لِمَنْ خَالَفَ عَنْ أَمْرِهِ مِنَ العِقَابِ في الدَّارِ الأُخْرَى؛ فَاعْمَلُوا هَذَا وَاعْمَلُوا بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قال: وَقَدْ يَكْتُبُ السُّلْطَانُ إلى الرِّعِيَّةِ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَاخُرِ بِالبَادِيَةِ وَالتَّنَازَعِ في العَصَبِيَّةِ. ثم قال: وَالطَّرِيقَةُ في هَذَا المَعْنَى مُشْتَقَّةٌ مِنْ طَّرِيقَةِ هَذَا الرِّسْمِ.

الصنف الثاني عشر

(المكتبة بالأوامر والنواهي)

قال في "مواد البيان": "على هذه الكتب مدارُ أشغال السلطان في أعماله، لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم وإلأية وعُمالة .

قال: وليس لهذا أمثلة فنوردُها، لِكِنَّه ينبغي للكاتب أن يؤكد القول بها، فإن الأمر فيها والنهي - وإن اختلف نَظْمُهُما - نوعٌ واحد: لأن كل ما مور به منهي عن ضده، وكل منهي عنه ما مور بضده؛ فينبغي له أن يؤكد القول في آمتثال ما أمر، والعمل عليه والإفآذله، والأتفاء عما نهى عنه، والحدَر من الإلمام به. ويجزم الأمر في العبارة عنهما جرماً تاماً لا يُمكن معه من الإخلال ببعضهما والنقص فيهما لهُوى؛ ويأتي من المبالغة بما يُضيق العُدْر، ومتى وقع تقصير أو تناقل عما حُدد فيهما، فإنما يُمثل ذلك بمثل جامعة مع تفنن المعاني التي يأمر بها وينهى عنها .

ثم قال: والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق الإجمال، أمكنه أن يبسطه إذا أحتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى .

وأعلم أنه كان للخلفاء والملوك وولأة الأمور في قديم الزمان عنايةً بالكاتب إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين: من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما يجري مجرى ذلك؛ وإلى العمال بالوصية بالرعايا، والأجتهاد فيما لديهم من جباية الخراج، والأهتمام بأمر الدواوين، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين، فقد تقدم في الكلام على مُصطلح أهل الغرب في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازازي ما أغنى ذكره هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره .

وأما الأوامر والنواهي المتعلقة بأمر السلطنة، فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله
 ابن الحنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هود أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرِّقِّ
 بالرَّعيَّة، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مُعَلِّي مَنَارِ الْحَقِّ وَرَافِعِهِ، وَمُوَلِّي مُتَوَالِي الْإِنْعَامِ وَمُتَنَابِعِهِ ؛
 وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ مُشْفَعِ الْحَشِيرِ وَشَافِعِهِ ، الْمَبْعُوثِ بِبِدَائِعِ الْحِكْمِ
 وَجَوَامِعِهِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْمُبَادِرِينَ إِلَى مَقَاصِدِهِ الْعَالِيَةِ وَمَنَازِعِهِ ، وَالذَّائِبِينَ عَنْ حَوَازِرِ
 الْإِسْلَامِ بِمَوَاضِي الْأَعْتِرَامِ وَقَوَاطِعِهِ ؛ وَالرَّضَا عَنْ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ الْعَبَّاسِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 ذِي الْمَجْدِ الَّذِي لَا يُنَالُ سُمُوهُ مَطَالَعُهُ .

فإنا كتبنا إليكم ، كتب الله لكم عِزَّةً قَدْحُهَا بِالثَّبُوتِ فَائِزٌ ، وَسَعَادَةً قَسَطُهَا لِلنَّمَاءِ
 حَاطِرٌ ؛ مِنْ فَلَانَةَ : وَكَلِمَةَ الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ الْوَاءُ ، مَنْشُورَةٌ الْأَضْوَاءُ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ
 فِي الْإِعَادَةِ وَالْإِبْدَاءِ ، وَالتَّسْلِيمُ إِلَيْهِ مَنَاطُ أَمْرِنَا فِي الْإِتْمَاءِ وَالْأَبْتِدَاءِ ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى
 وَشُكْرُهُ وَصَلَاتُنَا إِلَى نَبِيِّ مَزِيدِ التَّعْمَاءِ وَالْأَلَاءِ ؛ وَمَكَاتُكُمْ لَدَيْنَا مَكَانَةُ السَّنِيِّ الْمَنَاصِبِ ،
 الْمُتَمَيُّ إِلَى كِرَامِ الْمُتَمَمِّيَّاتِ وَالْمَنَاسِبِ ؛ الْمُتَحَلِّي فِي الْغَنَاءِ وَالْأَكْتِفَاءِ ، وَالْخُلُوصِ
 وَالصَّفَاءِ ، بِالْكَرَمِ السَّجِيَّاتِ وَالْمَنَاقِبِ ؛ الْمَعْلُومِ مَا لَدَيْهِ مِنْ الْمُنَاصِحَةِ السَّالِكَةِ بِالْكَرَمِ
 السَّجِيَّاتِ فِي الْمَنَاسِحِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَهَيِّجِ الْأَوْضَعِ وَالسَّنَنِ الْأَلْحَبِ .

وقد وقفنا على كتابكم مُعَلِّمًا بِخَبَرِ فَلَانَةَ وَبِمَا رَأَيْتُمُوهُ مِنْ الْمَصْلَحَةِ فِي تَحْصِينِهَا ،
 وَالْاجْتِهَادِ فِي سَبَبِ تَأْمِينِهَا ؛ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ الْإِصْلَاحَ ، وَتَتَوَخَّوْنَ مَا تَتَوَسَّمُونَ
 فِيهِ النَّجَاحَ ؛ لَكِنْ أَمُّ الْأُمُورِ عِنْدَنَا ، وَأَوْلَى مَا يُوَافِقُ غَرَضَنَا وَقَصْدَنَا ؛ الرِّقِّ
 بِالرَّعِيَّةِ ، وَحَمْلُهَا عَلَى قَوَائِمِ الْإِحْسَانِ الْمَرْعِيَّةِ ؛ وَعَلَى أَثَرِ وُصُولِ كِتَابِكُمْ وَصَلْنَا كِتَابُ
 [أَهْلٍ] فَلَانَةَ الْمَذْكُورَةَ يَشْكُونَ ضَرَرَ الْخِدْمَةِ الْمُنْتَصِرِّفِينَ فِيهِمْ ، وَيَتَنَظَّمُونَ مِنْ
 مُتَحَيِّفِهِمْ وَمُتَعَسِّفِيهِمْ ؛ وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ ، وَلَا تَرْضَوْنَ بِهِ لَوْ أَتَيْتُمْ إِلَيْكُمْ ؛

فإنه إذا كان الناظر في خدمة مِمَّن لا يُحسِن سياسة الأمور ، ولا يعلم طريق الرِّفْقِ الحَاوِيَةِ لِرِفْقِ الخَاصَّةِ والجمهور؛ أعاد التَّسْكِينَ تنفيراً ، والتَّيسِيرَ تسعيراً ، وتعلمون أنا لا نقدم على إشار العَدْلِ في عباد الله المسلمين عَمَلًا ، ولا نَبْغِي لهم بَاطِنَةً بغير التخفيف عنهم والإحسان إليهم بَدَلًا ؛ وأنتم أوَّلُ وأوَّلَى من يُعْتَقَدُ فيه أنه يَكْتَلُ هذا المَقْصِدَ ، وَيَحْتَرِي في مصالح الرعايا هذا السَّنَنَ الأُرْشُدَ ؛ وقد خاطبنا أهلَ فُلَانَةَ بما يُذْهِبُ وَجَلَّهُم ، وَيَسْطُ أَمَلَهُم ؛ وعَرَّفْنَاهم بأنكم لو علمتم ما هو جَارٍ عليهم من [بَعْضِ] الخِدْمَةِ لأَخَذْتُمْ على يَدِهِ ، وجاز يَتَوَهَّ بِسُوءِ معتمده ؛ وأشعرْنَاهم بأننا قد آستوصيناكم بهم خَيْرًا ، ونَبَهْنَاكم على ما يدفع عنهم ضِيًّا ويرفع ضَيْرًا ؛ وأنتم - إن شاء الله - تستأنفون نَظْرًا جَمِيلًا ، وتؤخرون عنهم الخِدْمَةَ الذين لا يَسْلُكُونَ من السِّيَاسَةِ سبيلًا ؛ وتقدمون عليهم من تَحْسُنُ فيهم سِيرَتُهُ ، وتَكْرُمُ في تَمْشِيَةِ الرِّفْقِ عَلَايَتُهُ وسريرته ؛ ومثلكم لا يُؤَكِّدُ عليه في مَذْهَبٍ تحسن عواقبه ، وغَرَضٍ يوافقهُ القَصْدُ الأَحْتِيَاظِي - وَيُصَاحِبُهُ ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث عشر

(المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يَكْتُبَ السلطان إلى الرعايا - عند حدوث الآيات المَهْوَلَةِ التي يريد الله تعالى بها إرشادَ عبادِهِ إلى الإقلاع عن معصيته ، والإقبال على طاعته ، كالرياح العواصف ، والزلازل والصواعق ، وأحْتِباسِ القَطْرِ ونَحْرُوجِهِ في التَّسْكَابِ عَمَّا جرت به العادة - كُتِبَ يُضَمِّنُهَا من الوَعْظِ الشافي الرِّفْقِ ما يأخذ بجماع القلوب ، ويُشْعِرُهَا التَّقْوَى والرَّهْبَةَ ، ويبعث على المراقبة والنَّظَرَ في العاقبة .

قال : وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة، ويبالغ في الذكري التي تُحطّر الخواطر وتقدح الأنفس، وتُحرك العزائم نحو الإخلاص؛ فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صور [تُسعر^(١)] الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه، وترغب في عفوهِ وتوابهِ؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى، ورغب في التقوى بكتابه .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على آياته التي يفيضها ابتلاء واختباراً، وآياته التي يرسلها تحويفاً وإنذاراً؛ وموهبته في التوقيف بسايع نعمته على طاعته، والتحذير بدافع نعمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذي أخذ بشفاعته، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعدار أمام سُخطه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه؛ فمن استيقظ من سنته، ونظر لعاقبه [ونَهض^(١)] إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف الرين عن قلبه، وضاعف أجرة؛ ومن أضرب عن موعظته، وتعمى عن تبصيره وتذكيره، أخذه على غرته، وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ في حث الأمة على الفزع إلى الصلوات، والمسارعة إلى بيوت العبادات؛ والإكثار من التضرع والخشوع، والاستكانة والخنوع، بإذراء سحائب الدموع؛ وإخلاص التوبة عن مُحْتَقَب الآثام ومُخْتَرَع الأوزار، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإنابة بقلوب نقيه، وطويبات على الطهارة مطويه؛ وسراير صريحه، ونيات صحيحة؛ يُصدّقها الندم على الماضي، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي؛ والرغبة إليه في رفع سُخطه وإنزال رحمته، وما يجارى هذا .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا فلا عناية لأحد به أصلاً، وإن كان مما يجب الأهتمام به وتقديمه .

(١) يياض بالاصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصَّنْفُ الرَّابِعُ عَشَرَ

(المكاتبُ في التنبيه على شرفِ مواسمِ العبادةِ وشريفِ الأزمنةِ)

قال في "موادِّ البيان": إن الله وَقَّتَ لعبادهِ أوقانا عَظَمَ شأنها، ورفعَ مكانها، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لُطْفًا بهم ورأفةً، وحنانًا ورحمةً .
قال: ولم يزل السلطان يكتب إلى عُمَّالِهِ بتنبيه الرعايا عليها، وتعرِّيفهم فضلَ العبادة فيها: ليستقبلوها بالإخباتِ والخُشوعِ، ويتلقَّوها بالتَضَرُّعِ والخُضوعِ، ويتوسلوا في قبولِ التَّوْبَاتِ، وغُفْرانِ الخَطِيئَاتِ، حِفْظًا لنظامِ الدينِ، وتفَقُّدًا لمصالحِ المسامِينِ .

قال: ويذنبى للكاتب أن يحسن التَّائِي في هذه الكتب ^(١) ويُذَكِّر النَّاسِيَّ وينبه الغافلَ الألهي، والمُهْمِلَ السَّاهي، ويحركَ النفوسَ نحو مصالحها، ويبعثها على الأخذِ بفاضلِ الأعمالِ وصالحِها .

قال: والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقانا يتقبل فيها قُرْبَهُمْ وأعمالهم، ويخففُ بالإجابة إليه عند حلولها أوزارهم وأنقالهم؛ فيغفر لهم، ويعفو عن مُسِيئتهم؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عن تائبهم . والصلوة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات، والإبانة عما في قصرها على العبادات، والمسابقة إلى الخيرات، من عظيم الثواب . وَيَسْفَعُ بَبْعِثِ الْوَلَاةِ على أخذ الرعايا بالمحافظة على السُّنَنِ، وتعهُّدِ حَقِّ الله تعالى فيها، والتَّوَسُّعِ في توكيد الحجَّة، وتقى الشبهه؛ وإيراد المواعظ الرادعه، والزواجر الوازعه؛ التي تُعَوِّدُ بِسُجْدِ البصائر، وصدقائ الضمائر، والإتيان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

والفوز بما يُوفِّره من جزيل بركاتها ، والتوفُّر على حُسن مجاورتها ، والتَّقرُّب إلى الله تعالى ببذل الصَّدقات ، والإقبال على الصَّلوات وزيارة بيوت العبادات ؛ ومُدا كرة أهل الدِّين ، والسَّعي في مصالح المسلمين ؛ ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحجِّ ، أفتح بالحمد لله على أن جعل لعباده حرماً آمناً يَحصُّ ذنوبهم بزيارته ، ويَجُوُّ آثامهم بحجِّه وفادته ؛ وبلى ذلك ما يليق به من الحثِّ على تأدية المناسك ، وتكميل الفرائض والسُّنن ، وزيارة قَبْرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدِّينية .

الصفحة الخامس عشر

(المكتبةُ بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط

في سلكها من المواكب الجامعة)

قال في "موادِّ البيان" : جرت العادة أن يكتبَ السلطانُ عمَّالَه وولَّاهُ بسلامة المواسم الإسلامية كُلِّها : لأنها تُشاهدُ لجميع أصناف الرعايا وذوى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا ؛ وكُلُّ مُتربِّصٍ لِفِتْنَةٍ يتَهزُّ فُرُصَتَها . فلانكاد هذه المشاهدُ تخلو من قُوَّةٍ وحدوث أحداثٍ مُنكرةٍ تُفضي إلى الفتنِ التي لا تُرفع . فإذا أنعم اللهُ تعالى بالسلامة منها ، وجب التَّحدُّثُ بِنِعْمَتِهِ ، والشُّكْرُ لمُشِيئَتِهِ ؛ وأن يكتبَ أمير المؤمنين بسلامة ما قبَّلهُ إلى عمَّالِهِ ، لِتَسْكُنَ الكَافَّةُ إلى ذلك ، ويشتركوها في حمد الله تعالى عليه .

وأعلم أن المواسم التي كان يعتاد الخلفاءُ الركوبَ فيها والكتابةُ بالسلامة منها هي : عيدُ الفطر ، وعيدُ النَّحر . وكان الخلفاءُ الفاطميُّون بالديار المصرية يعتادون

مع ذلك الركوب في غُرةِ السَّنة ، وفي أوَّلِ رَمَضان ، وفي الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ما تقدّم ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغدير" : وهو عيدٌ من أعياد الشَّيعة كما سيأتي ذكره . ونحن نُشير إلى ذكر مَوَكبها مَوْجِبًا مَوْجِبًا ، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في ركوب كُلِّ مَوْكب منها .

الأول — البشارة بالسلامة في الركوب في غُرةِ السنة . وقد تقدّم الكلام على صورة المَوْكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته ، وهي : الحمد لله الذي لم يزل يُؤلي إحسانا وإنعاما ، وإذا أبلَى عبيده عامًا أجدهم بفضله عامًا ؛ فقد أمدكم معاشر [الخلفاء] ^(١) كرمًا ومنا ، وآناكم من جوده أكثر مما يُتمنى ؛ ومنحك من عطائه ما يُوفي على ما أردتموه ، (وتنخر لكم الليل والنهار وآناكم من كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ) وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة ، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة .

وصلّى الله على سيدنا محمد نبيّه الذي غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ، ومهيأة لمن آمن به وأتبع النور الذي أنزل معه ؛ وبين بإرشاده ما تجرى أمور السنين عليه في العدد والحساب ، ونسخ ما كانت الجاهلية [تفعله] فيه زيادة في الكفر وضلالًا عن الصواب ؛ وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته ، وضاعف الأجر لأهل ولايته ، ومنح شيعته مقبول شفاعته ؛

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

وعلى الأئمة من ذريتهما خلقاء الله على خلقه ، والقائمين بواجب حقه ؛ والعالمين في سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه ، ويضمن غفرانه ورضوانه ، وسلم عليهم أجمعين ، سلاماً باقياً إلى يوم الدين .

وإن أحق النعم بنشر الذكر ، وأوجبها للوصف وإعمال الفكر ؛ نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس ، ووضعت ضيائها لأولى الألباب ووضوح الشمس ؛ وأشترك الناس فضاعفت الفائدة لديهم ، وانتفعوا بذلك في تواريتهم ومعاملاتهم ومالهم وعليهم ؛ وتلك [هي] المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ، ومبدؤها ومستقبلها ؛ وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان . وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام فلان - ليتسوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة ، فيكون استقلال ركاية إشعاراً بأن اليوم الذي تجلّى فيه لأولياته ، ولرعاياه المتقين ظلّ لوائه ؛ هو افتتاح السنة وأول محرمها ، وعليه المعتمد في عدد تامّ الشهور وناقصها من مفتحتها إلى محتمتها - يوم كذا غرة المحرم من سنة كذا ، في عساكر لا يمحصر عددها ، وقبائل لا ينقطع مددها ؛ وإذا اضطربت نار الكفر والتهبت ، طفت بانوارهم وخبّت ؛ وقد تقلدت هندية تروع إذا أشرقت وسكنت ، فما الظن إذا اضطجبت ؛ والأرض بمرورها عليها مبهجة موفقة ، وملائكة الله عز وجل حافة به محذفة ؛ فأذن بأن اليوم المذكور هو غرة السنة المعينة ، وأن اليوم الفلاني أمسه أنسلاخ كذا سنة كذا المتقدمة : لتستقيم أمورهم على عدل نهوهم ؛ وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطريهم وحجهم ؛ وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوه الأمير على من يسكن عمله ، وجميع من قبله ؛ ويتمثلوا في معرفته ، ويجعل كل منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ؛ ويشكروا الله على النعمة عليهم بهديته . وهو يعتمد ذلك ويطلع بكائنه فيه إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

الثاني - البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان ، وهي على نحو مما تقدم في الركوب في غرة السنة .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهو :

الحمد لله كالي خلقه في اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام ؛ وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للأنام ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أخلص ولي ، وأشرف وصي ، وأفضل إمام ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ؛ صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال .

وإن من المسرة التي تُتهادى : والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفردا ؛ ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آياته الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر وأفتتاحه ، وأن الصيام الأول من بخره الأول قبل تنفيس صباحه ؛ وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ؛ والمينة برؤيته قد تساوى فيها الكافة ، وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهرة ، وقد شمل المستظلين بأقيانه بسعادتي الدنيا والآخرة .

أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة ، وتشكر النعمة السابعة على أهل الملة ؛ وتتلوها على أهل عمالك ، وتطالع بكائيك في ذلك ؛ فأعلم هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .

الثالث - الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضا ، وهي :

أفضل ما سير ذكره، ووجب حمد الله تعالى عليه وشكره، ما عاد على الشريعة بالجمال والبهجة، وأضحى واصفهُ صحيح المقال صادق الألهجة؛ فضاعف حسنة ومحض سيئه، وجعل أسباب السعادة متمسكةً متهبته؛ وذلك ما يسره الله تعالى من استقلال ركاب سيدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين؛ يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة كذا: مؤذياً خطبتها وصلاتها، وضامناً لأمة أئمتت به خلاصها يوم الفزع الأكبر ونجاتها؛ في وقار النبوة وسكينة الرسالة، والهيبية المستولية على العظمة والجلالة؛ والعساكر الجمة التي تعلق بمهابتها وتزعج، وتظن لكثرتها وإفصة والركاب يهملج؛ ولما انتهى إليه، خطب وعظ ففتح أبواب التوبة، وآب إلى الطاعات من لم يطمع منه بالأوبة؛ وصلّى صلاةً تقبلها جلّ وعزّ بقبول حسن، وقصر في وصفها ذوو الفصاحة واللسن؛ وعاد إلى مستقر الخلافة، ومثوى الرحمة والرافة؛ وعين الله له ملاحظه، وملائكته له حافظه. أعلّمت ذلك لتذيعه في أهل عملك، وتطالع بكائنك.

الرابع — المكتبة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رمضان.

قد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة بالديار المصرية في الدولة الفاطمية، في المقالة الثانية: أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رمضان إلى الجامع الأنور، وهو جامع باب البحر، الذي عمره الحاكم بأمر الله، وجدده الصباح شمس الدين المقدسي.

وهذه نسخة كتاب في المعنى، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً، وهي:

لم يزل غامر كرم الله وفضله، يفوق حاضره ما كان من قبله؛ فنعمة الله تعالى سابعه، ومنته متابعه؛ وملابسها ضافية، ومغارسها نامية، وتحتها هامية؛ وهو جلّ

وَعَزَّ يَضَاعِفَهَا عَلَى مَنْ صَلَّى وَصَامَ، وَيُؤَالِيهَا عِنْدَ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا أَنْفِصَالَ لَهَا وَلَا أَنْفِصَامَ؛ وَتَجْتَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ بُرُوزِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ فَلَانٍ: صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ، وَأَبْنَائِهِ الْأَكْرَمِينَ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ كَذَا: فِي شَاخِ عِزِّهِ، وَبَازِيخِ مَجْدِهِ، وَتَوَجُّهِهِ إِلَى الْجَامِعِ الْأَنْوَرِ الْمُنْسُوبِ إِلَى مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ جَدِّهِ، بِسَلَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَوَاتِهِ، وَبَرَكَاتِهِ وَنَحِيَّتَانِهِ؛ وَعَسَاكِرِهِ قَدْ تَجَاوَزَتْ الْحَدَّ، وَكَثُرَتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ، فَإِذَا تَأَمَّلَهَا الطَّرْفُ أَتَقَلَّبَ عَنْهَا خَاسِئًا وَأَرْتَدَّ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْجَامِعِ الْمَذْكُورِ خَطَبَ فَأُورِدَ مِنَ الْقَوْلِ أَحْسَنَهُ، وَوَعَّظَ فَاسْمِعَ مِنَ الْوَعْظِ أَوْصَحَّهُ وَأَبْيَنَهُ؛ وَصَلَّى صَلَاةَ جَهْرٍ بِالْقِرَاءَةِ فِيهَا وَرَتَّلَهَا، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الشَّرِيفَةِ وَقَدْ شَمِلَتْ الْبَرَكَاتُ بَرُؤِيَّتَهُ، وَوَفَّقَ مَنْ عَمِلَ بِمَوْعِظَتِهِ، وَنَجَّى مَنْ آقَدَى بِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَسْتَوَى عَلَى السُّعْدِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهِ وَجِهَاتِهِ. أَعْلَمَنَّكَ ذَلِكَ لَتَعْرِفَ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ، فَأَشْكُرُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِمُقْتَضَاهُ، وَأَعْتَمِدُ تَلَاوَةَ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ؛ فَأَعْلَمُ ذَلِكَ.

الخامس — المكتبة بالسَّلامَةِ فِي الرُّكُوبِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .
 قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَمْلُوكَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَ يَرْكَبُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْهُ إِلَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ بِمِصْرَ، فَيَخْطُبُ فِيهِ وَيَعُودُ إِلَى قَصْرِهِ .
 وَهَذِهِ نَسْخَةٌ كِتَابٍ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ الصَّيْرَفِيِّ، وَهِيَ :

(١) مَا تَقَدَّمَ فِي (ج ٣ ص ٥١١) مِنْ هَذَا الْمَطْبُوعِ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ رَمَضَانَ إِلَى الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَأَنَّهُ لَا يَرْكَبُ إِلَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ إِلَّا فِي الْجُمُعَةِ الرَّابِعَةِ، الَّتِي أَهْمَلْتُ هُنَا زَكْوَةَ إِلَيْهَا وَحَاصِلَ مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَرْكَبُ فِي جَمْعِ رَمَضَانَ مَا عَدَا الْأُولَى .

من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبده ، وتعويضهم للشكر عليه بموهبه ومزيده ؛ والامتنان بتيسير عصبه ، وتعجيل قصبه ، وتقريب بعيده ؛ فهو لا يُخْلِيهم من نواجمه ، ولا يُعْفِيهم من هواجسه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشمول خيراته ؛ أن مولانا وسيدنا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ والى فيه بركاته ، وزكى أعمال المؤمنين في استماع أخطابه والالتزام بصلاته ؛ وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان ، أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر لئسهم لهذه المدينة من حظي الدنيا والآخرة ، مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعززة القاهرة . فكانت هيئته يعجز وصفها كل لسان ، وظهر - عليه السلام - في الرداءين : السيف والطيلسان ؛ والجيش قد آنسبت وانتشرت ، والنفوس قد أتهجت وأستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتجليد ملكه وتوفرت . وعند وصوله خطب فأحسن في الألفاظ والمعاني ، وحدد من تأخير التوبة والتضييع فيها والتواني ؛ وصلّى صلاة شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ؛ وأنكفا عائدا إلى قصوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره ورفع ذكره ؛ ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك ليبلغ الكافة في الاعتراف بالنعمة فيه ، ويواصلوا شكر الله تعالى عليه ، والمطالعة بما اعتمد فيه .

السادس - ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد الفطر .

وقد تقدم في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية : أن الخليفة كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد ، ويخرج من باب العيد من أبواب

القصر، ويتوجه إلى [المُصَلِّي] ^(١) فيُصَلِّي وَيُحَطِّبُ، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارة مع خُلُو الدولة عن وزيره، وتارة مع آسئالها على وزيره .
وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خُلُو الدولة عن وزيره، من إنشاء ابن الصَّيرَفِيِّ، وهو :

الحمد لله نَاشِرِ لَوَائِهِ فِي الْأَقْطَارِ ، وَمُعَوِّضِ الْمُطِيعِينَ مِنْ جَزَائِهِ بِبُلُوغِ الْأَوْطَارِ ،
الذِي نَسَخَ الْإِفْطَارَ بِالصِّيَامِ وَنَسَخَ الصِّيَامَ بِالْإِفْطَارِ ؛ وَكَفَّفَ عِبَادَهُ مَا يُطِيقُونَهُ
وَوَعَدَ عَلَيْهِ جَزِيلَ أَجْرِهِ ، وَأَسْبَغَ مِنْ نِعْمِهِ مَا لَا يَطْمَعُ [فِي الْقِيَامِ] بِوَأَجِبَ حَمْدِهِ
عَلَيْهِ وَشُكْرِهِ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الَّذِي أَعْلَنَ بِالْإِيمَانِ وَبَاحَ ، وَبَيَّنَّ الْمُحْظُورَ
فِي الشَّرِيعَةِ وَالْمُبْسَحَ ؛ وَأَرْشَدَ إِلَى مَا حَرَّمَ الْإِسْلَامَ وَحَلَّلَهُ ، وَمَهَّدَ سُبُلَ الْهُدَى لِمَنْ
أَسْتَوَاهُ الشَّيْطَانُ وَضَلَّاهُ ؛ وَأَوْضَعَ مَرَاتِبَ الْأَوْقَاتِ وَمَنَازِلَهَا ، وَعَرَّفَ تَفَاوُتَ الْأَيَّامِ
وَتَفَاضُلَهَا ؛ وَعَلَى أُخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي مَضَتْ فِي اللَّهِ
عِزَّ مَاتِهِ ، وَبَيَّضَتْ وَجْهَ الدِّينِ الْحَنِيفِ مَوَاقِفَهُ وَمَقَامَاتِهِ ؛ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
الَّذِينَ تَكَلَّمُوا أَمْرَ الْأُمَّةِ نَصًّا ، وَأَمْتَطَوْا عَلَى مَنَارِهَا فَلَمْ يَالُوا جُهْدًا وَلَمْ يَتْرَكُوا حِرْصًا ؛
فَالْحَاضِرُ مِنْهُمْ يُوفِي عَلَى مَنْ كَانَ [مِنْ] قَبْلِهِ ، وَأَحْزَابُ الْحَقِّ فَرِحُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ ؛ وَسَلِمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ سَلَامًا لَا أَنْقِطَاعَ لَدَوَامِهِ ، وَشَرَفَهُمْ تَشْرِيفًا لَا أَنْفِصَامَ
لِإِبْرَامِهِ ؛ وَأَسْنَى وَمَجَّدَ ، وَتَابَعَ وَجَدَّدَ .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا : بعد أن وفي
الصِّيَامَ حَقَّهُ ، وَحَازَ أَجْرَ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَى خِزَائِهِ رِزْقَهُ ؛ وَبَعْدَ أَنْ أَفْطَرَ بِحَضْرَتِهِ
الْأَوْلِيَاءَ مِنْ آلِهِ وَأُسْرَتِهِ ، وَالْمُقَدَّمُونَ مِنْ رُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ ، وَالْمُتَّمِيزُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِهِ

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدم في هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وَشِعَتِهِ . وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما أرتقب بروزه من قُصوره ،
وَتَجَلَّى فَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ ، توجه إلى المصلى قاضياً لسنة العيد ، فكانت نعمة
ظهوره بالنظر [للمحاضر] وبالخبير للبعيد ؛ وأستقل ركابُه بالعساكر المنصورة التي أبدت
منظراً مُفْتِنًا مُعْجِبًا ، وجعلت أديم الأرض بالحيل والرجل مُحْتَجِبًا ؛ وَذَنَرَتْ الْأَنْتِقَامَ
مَنْ شَقَّ الْعَصَا ، وتجاوزت في الكثرة عدد الرمل والحصا ؛ وَزَيَّنَتْ الْفَضَاءَ بِهَيْبَتِهَا ،
وَرَوَعَتِ الْأَعْدَاءَ بِهَيْبَتِهَا ؛ وجمعت بين الطاعة وشدة البأس ، وَأَدْرَعَتْ مِنَ التَّقْوَى
أَمْنًا جُنِيَّةً وَأَحْصَنَ لِبَاسًا ؛ ولم يزل سائرا في السكينة والوقار ، ناطرا للدنيا بعين
الاحتقار ؛ والثرى بالجباه والشفاه مصافح ملثوم ، فهما موسومتان به وهو بهما
موسوم ؛ إلى أن وصل إلى مقر الصلاة ، ومحل المناجاة ؛ فصلى أتم صلاة وأكملها ،
وأداها أحسن تأدية وأفضلها ؛ وأخلص في التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت
أمرا ويحشى الله ويتقيه ونصح في إرشاده ووعظه ، وأغرب ببدیع معناه وفصیح
لفظه ؛ وعاد إلى مثنوى كرامته ، وفلك إمامته ؛ بمجود المقام ، مشمولا بالتوفيق
في التقيض والإبرام . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتُدَيْعَهُ فِيمَنْ قَبْلَكَ ، وتشكروا الله
على النعمة الشاملة لهم ولك ؛ فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى . وكتب
في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزير ، عن الحافظ
لدين الله العلوي خليفة الديار المصرية ، في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وهي :
الحمد لله الذي أعز الإسلام وشيد مناره ، وأيد أوليائه ونصر أنصاره ؛ وأظهر
في مواسمه قوته وأستظهاهه ، وختم الشرائع بشرف أبدى فكان حظها منه إيتاره ،

وحفظ الإسلام استيادته به واستثنائه؛ وصلى الله على جدنا محمد الذي كرمه بأصطفائه،
 وأسعد من حافظ على اتباع نهجه وأقتفائه؛ وبين بسرعه ما حله وحرمه، ودعا
 الأمة بإرساله إلى دين قيم أعلى بناءً وأحكامه؛ ووعدهم على مفروضه ومسئونه جزيلاً
 الأجر، وأمر في اعتقاد خلافه بالدفع والمنع والزجر؛ وعلى أخيه وابن عمه أينا
 أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أول الأئمة الخلفاء، والمشتهرة فضائله أشتهارها
 ليس به من خفاء؛ ومن حباه الله المحلل الرفيع والمن الجليل، وخصه من الشرف
 بما جاء فيه من محكم التبريل؛ وعلى الأئمة من ذريتهما القائمين بفرض الله والمؤدين
 لحقوقه، والذين كفلت أمانتهم بانسباط نور الحق وانتشار لوائه وخفوقه؛ وسلم
 وكرم، ومجد وعظم.

وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة،
 الذي أمر الله فيه بما نهى عنه من قبله، وضاعف الأجر بكرمه وفضله؛ ورفع تكاليف
 الصوم، وأوجب الإفطار في هذا اليوم؛ وساوى في ذلك [بين] كل منهم ومنجد،
 وأمر بني آدم فيه بأخذ الزينة عند كل مسجد؛ وكان من خبره أن الفجر لما طلع
 مبشراً بالشمس، ومؤذناً ببعثها من الرمس؛ تابعت الجيوش الموقورة، والعساكر
 المنصورة؛ إلى أبواب القصور الزاهرة توشكفاً لأنوار أمير المؤمنين، وترقياً لظهوره
 قاضياً حق الدين؛ فلما أسفر الصبح وأضاء، وملأت الخلائق الفضاء؛ تجلج من
 أفلاك إمامته، وبرز فأغبط كل مؤمن بنبأته على المشايعة وإقامته؛ وكان ظاهراً
 وهو محتجب بالأنوار، وممتنعاً وهو منتهب بالأبصار؛ والكافة يصابحون الأرض
 ويحتمدون في الدعاء بإخلاص نياتهم، والعساكر المؤيدة لو أنها عميت الأرض
 بتطيقها، وساوت بين قريبتها وتحيقها؛ وصارت كالجبال الرواسي فيها، لكانت
 قد تزلزلت ومادت بأهلها، وهي مع تبأين أجناسها وطوائفها متظافرة على معاندي

الدولة ومخالفينها ؛ متلاممة على الولاء ، متمالئة على الأعداء ؛ تتلفت إلى المجاهدة كأنها الأسود إقداما وبأسا ، وكأتمما فصلت جوامد الغدران سلاحا لها وليأسا ؛ والسيد الأجل الأفضل التي عظمت به المواهب وجلت ، وذهبت بوزارته الغياهب وتجلت ؛ وتهلل بنظره وجه الملة وكان عابسا ، وأعاد الدولة معصرا وقد كانت قبله عابسا ؛ وحسنت الدنيا بإيامه إذ ليس فيها من يضايه ، وانتظمت أمورها على الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيها ؛ ترتب المواكب بمهاتمه ، ويستغنى بتوغلها في القلوب عن إيمانه وإشارته ؛ وكل طائفة مقبلة على شأنها ، لازمة لمكانها ؛ متصرفة على تهذيبه وتقريره ، عاملة بأدابه : فوقوفها بوقوفه ومسيرها بمسيره .

وتوجه أمير المؤمنين إلى المصلح محفوظا بانوار تجلي ما أنشأته سنابك الخيل ، وتمحو آية تقع قام مئارها مقام ظلام الليل ؛ وعليه من وقار الإمامة ، وسكينة الخلافة ؛ ما خصه الله تعالى به دون البرية وحده ، لأنه مما ورث أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وجدته ؛ ولما انتهى إليه قصد [المحراب] ^(٢) وأذى الصلاة ^(١) أكمل أداء وأتمه ؛ ثم انتهى إلى المنبر فعلاه ، ومجد الله تعالى وحده على ما أولاه ؛ ووعظ وعظا خوفا عاقبة المعاصي والذنوب ، وحل وكاء العيون ودأوى مرض القلوب ؛ وأمر بسلوك سبيل الطاعات وأفعال البر ، وحث على التوقر عليها في الجهر والسر ؛ وعاد إلى قصوره المكرمه ، ومواطنه المقدسه ؛ وقد بذل في نصحه لله ورسوله وللمؤمنين جهده ، وفعل في الإرشاد والهداية ما لا غاية بعده .

(١) كذا بالأصل .

(٢) يياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٣) في الأصل « إلى المحراب فصلاه » ولا معنى لها .

أنيابك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه ، وتذيعه قبلك على
الرسم فيما يُخاربه ، فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

السابع — ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر .

قد تقدم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان
يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر، تارة مع آسْتَمَالِ الدَّوْلَةِ على
وزير، وتارة مع عدم آسْتَمَالِهَا على وزير .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصبري، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي أعلى منار الملئ ، وشرف مواسم أهل القبلة ، وكفل
أمير المؤمنين أمر الأيام ، كما كَفَّلَهُ أمر الأنام ، فرأى الناس من حُسن سيرته أيقاظًا
مالايرونه مجازا في المنام ؛ وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي أرسله إلى الناس كافة ،
وجعل العظمة مُحِيطَةً به حافه ؛ فاطلع في ظلام الشرك شمس التوحيد وبدره ،
وآمن به من شرح الله للإسلام صدره ، وعصاه من تمرد فأنقل الوزر ظهره ؛ وبين
عبادات كرم أجزها وعظم ثوابها ، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحة
أبوابها ؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مظهره ومظاهرة ،
والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ؛ ولم يزل حاملاً على المحجة البيضاء جاعلاً ذلك
من قربه وذخائره ، قائماً بحقوق الله جاهداً في تعظيم حرمانه وشعائره ؛ وعلى الأئمة
من دريتهما نجوم الأرض وهداة أهلها ، والواجبة طاعتهم على من في وعبرها
وسهلها ؛ والدائين بالمشرقية عن جمى الشريعة ، والذين متابعتهم من أوجه دريعة .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم
أظهر الله فيه قوة الدولة وأقذارها ، وأوجب فيه — رغبة ورهبة — مسارعة النفوس

المخالفة إلى الطاعة وأبتدأها ؛ وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قُصُورِ الزاهرة عند أنفجار الفجر، وحافظت على ما تُحِرُّهُ من كريم الثواب وجريل الأجر؛ وأستزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرُمات وأقوى الأدمه؛ وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدأفه؛ وقصد المصلى في كتابه لجه، ومواكب للتعظيم مستوجبته؛ وعزيرة لتبين في الشائيل والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أريج التفحات؛ قد عدت عددها محكمه؛ وخبوها مطهمة؛ ودواؤها إذا ظمئت كانت مقومه، وإذا رويت عادت محطمة؛ تتقلد صفايح متى أنضبت أنصفت من الجائر الحائف، ومتى اقتضبت عملا كان اقتضابها مبيضا للصحائف؛ وفي ظلها معاقل للأندين، ويحدها مصارع للأنابدين؛ وهى للدماء هوارق، وللهمات فوالق، ولستغلق البلاد مفايح ولستفتحها معالق .

ولما انتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء وأذاها أفضل تاديه، وأستزل رحمة لم تزل بصلاته متماديته؛ وأتته إلى المنبر فرقيه، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه؛ ووعظ أبلغ وعظ، وأبان عما للعامل بنصحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحفظ . وعطف على الأضاحي المعدة له فنجرها جريا في الطاعات على فعلها المتهادى، وأضحى لتوقع التكيل بإنجازه وعيده في الأعدى؛ فالله يقضى بتصديقه، ويمن بتخيله وتحقيقه؛ وواد إلى قُصُوره المكرمة مشكورا سعيه، مضمونا نفعه؛ مرضيا فعله، مسمولا عبيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وأعمل به . وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، والدولة مشتملة على وزير، من إنشاء ابن قادوس، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله مآجى دَنَسِ الآثَامِ بِالْحَجِّ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وَمُوجِبِ الْقَوَازِ
فِي الْمَعَادِ لِمَنْ عَمِلَ بِمِرَاشِدِ أُمَّةِ الْهُدَى الْكَرَامِ ؛ وَمُضَاعِفِ الثَّوَابِ لِمَنْ آجَهَدَ فِيهَا أَمْرًا
اللَّهُ بِهِ مِنَ التَّلْبِيَةِ وَالْإِحْرَامِ ، وَمُخَوِّلِ الْغُفْرَانِ لِمَنْ كَانَ بِفَرَائِضِ الْحَجِّ وَنَوَافِلِهِ شَدِيدًا
الْوَلُوعِ وَالغَرَامِ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى جَدِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي لَبَّى وَأَحْرَمَ ، وَبَيْنَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَحَرَّمَ ؛
وَعَلَى أَخِيهِ أَبِيْنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي ضَرَبَ وَكَبَّرَ ، وَحَقَّرَ مِنْ طَعْنِي
وَتَجَبَّرَ ؛ وَعَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَعْلَامِ الدِّينِ ، وَخُتُوفِ الْمُعْتَدِينَ ؛ وَسَلَّمْ وَكْرَمْ ،
وَشَرَّفْ وَعَظَّمْ .

وإنَّ من الأيام التي كَلَّتْ محاسنُها وَنَمَّتْ ، وَكَثُرَتْ فضائلُها وَجَمَّتْ ؛ وَوَجِبَ
تخليدُ عِرِّ صِفَاتِها ، وَتَعَيَّنَ تَسْطِيرُ تَأثيراتِها ؛ يَوْمَ عِيدِ النَّجْرِ مِنْ سَنَةِ كَذَا : وَكَانَ مِنْ
قَصَبِهِ أَنْ الْفَجْرَ لَمَّا سَلَّ حُسَامَهُ ، وَأَبْدَى الصَّبَاحَ ابْتِسَامَهُ ؛ نَهَضَ عِيدَ الدَّوْلَةِ
فِي جَمْعِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْصَارِ ، وَأُولَى الْعَزِيمَةِ وَالْأَسْتَبْصَارِ ؛ مُمَيِّمِ الْقُصُورِ الزَاهِرَةِ
مُتَسَبِّحِينَ بِأَفْنِيَّتِها ، وَمُسْتَمْلِينَ بِسَعَادَتِها ؛ وَتَأَلَّفُوا صَفُوقًا تَبَهَّرَ النُّوَاطِرَ ، وَيُحْجِلُ تَأَلَّفُها
تَأَلَّفَ زَهْرَ الرُّوضِ النَّاصِرِ ؛ مُسْتَضْحِينَ فُنُونًا مِنَ الْأَزْيَاءِ تَرُوقُ ، وَمُسْتَتَبِعِينَ أَصْنَافًا
مِنَ الْأَسْلِحَةِ يَغْضُ لَمْعُها مِنْ لَمْعِ اللَّهَبِ وَالْبُرُوقِ ؛ وَالْأَعْلَامِ خَافِقَهُ ، وَالرَّايَاتِ بِالْأَيْسَنَةِ
النَّصْرِ ، عَلَى الْإِخْلَاصِ لِإِمَامِ الْعَصْرِ ، مُتَوَافِقَهُ ؛ فَأَقَامُوا عَلَى تَسْوِيفِ لظهوره ، وَتَطْلُعِ
للتبرُّكِ بِلَامِعِ نوره .

ولما بزغت شمس سعادته، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته؛ وبدت أنوار الإمامة الجلية، وظهرت طلعتها المعظمة البهية؛ نحر الأنام سُجوداً بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيدُ بنو العبيد؛ وأستقل ركاب أمير المؤمنين، ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه؛ وناضل عن حوزة الدين وجاهد، وناصل أحزاب الكفار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزارة، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والطهارة؛ ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره؛ ويحسن السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلية وكبير؛ ويخلص لله جل وعز وإمامه، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في أعماله لخدمته وحسامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره، متواقفة على أمثال أمره؛ قد رفعت السنايك من العجاج سخاباً، وخيلت جنن الجند للناظرين في البرعباباً؛ والحياض المسومة تموج في أعنتها، وتختال في مراكبها وأجلتها؛ وتسرع فتكسب الرياح نساطاً، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً وأشتطاطاً؛ وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تُسمعُ بشائر النصر بترجمة الصليل؛ ويكاد يرعب الأرض ترزُّل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكتيب المهيل.

ولما انتهى ركاب أمير المؤمنين إلى المصلى والتوفيق يكتنفيه، والسعادة تُصرفه؛ قصد المحراب فأقام الصلاة، ونحا المنبر فشرَّفه إذ علاه؛ وأذى الصلاة على أكل الأوضاع وأتمَّها، وأجمع [الأحوال] لمرضى الله وأعمَّها؛ وانتفى للبدن المعدة فنحر ما حضر تقرُّ بالخالقه، وأجرى القانون على حقائقه؛ وعاد إلى قصوره الزاهرة وقد غفر الله بسعيه الذنوب، وطهر برؤيته القلوب، وبلغ الأئم من المرشد نهاية المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً ،
وباطناً وظاهراً ؛ لتذيع نبأه في عمل ولايتك ، وتُشيع خبره في الرعايا على جارِي
عادتك ؛ فأعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجاس النظر السيدى الأجلى بما اعتمدته
في ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكُتِب في اليوم المذكور .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد رُفِضَ وتُركَ استعماله بديوان الإنشاء
في زماننا .

الصنف السادس عشر

(المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج)

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية ، لا يشار إليها فيها غيرها من الممالك .
ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلمَّ جرأ يكتبون بالبشارة
بذلك إلى ولاة الأعمال ، آهتاما بشأن النيل ، وإظهارا للسُرور بوفائه ، الذي يترتب
عليه الخصب المؤدى إلى العارة وقوام المملكة ، وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء
الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام ؛ وكانت
عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كُتبا مفردة ، وفتح الخليج
وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كُتبا مفردة . ولعلَّ فتح الخليج كان يتراخى في زمنهم
عن يوم الوفاء ، فيُفردون كُلَّ واحد منهما بكُتِب .

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبشارة به في الأيام الفاطمية ،
من إنشاء ابن قادوس ، وهى :

النعْم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ؛ فأولها بَشْكُر تُنَشَرُ
في الآفاق أعلامه ، وأَعْتَدَادِ نُحْكَمِ بِإِدْرَاكِ الْغَايَاتِ أَحْكَامُهُ ؛ نِعْمَةٌ يَشْتَرِكُ فِي النِّفْعِ بِهَا

العباد، وتَبَدُّو بِرُكَّتْهَا عَلَى النَّاطِقِ وَالصَّامِتِ الْجَمَادِ؛ وَتِلْكَ النَّعْمَةُ النَّيْلُ الْمِصْرِيُّ الَّذِي تَبْرَزُ بِهِ الْأَرْضُ الْجُرُزُ فِي أَحْسَنِ الْمَلَابِسِ، وَتُظْهِرُ حُلُلُ الرِّيَاضِ عَلَى الْقِيَعَانِ وَالْبَسَائِسِ؛ وَتُرَى الْكُنُوزُ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، مُتَبَرِّجَةً بِالْجَوَاهِرِ وَالْجَبِينِ وَالْعِقْيَانِ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَهُ سَبَبًا لِإِنْشَارِ الْمَوَاتِ، وَتَعَالَى مَنْ صَاعَفَ بِهِ ضُرُوبَ الْبَرَكَاتِ، وَوَفَّرَ بِهِ مَوَادَّ الْأَرْزَاقِ وَالْأَقْوَاتِ؛ وَهَذَا الْأَمْرُ صَادِرٌ إِلَى الْأَمِيرِ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ، وَخَلَعَ عَلَى الْقَاضِي فَلَانِ بْنِ أَبِي الرَّدَادِيِّ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَطَافَ بِالخَلِجِ وَالتَّشْرِيفَاتِ، وَالْمَوَاهِبِ الْمُضَاعَفَاتِ؛ بِالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَمِصْرَ عَلَى جَارِي عَادَتِهِ، وَقَدِيمِ سِيرَتِهِ؛ وَنُودِيَ عَلَى الْمَاءِ بِوَفَائِهِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَإِصْبَعًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَأَسْتَبْشَرَ بِالنَّعْمَةِ بِذَلِكَ الْخَلَاقِ، وَوَأَصْلُوا بِالشُّكْرِ مَوَاصِلَةً لَا تَسْتَوْفِقُهُمْ عَنْهَا الْعَوَائِقُ؛ وَبَدَأَ مِنْ مَسَرَّاتِ الْأُمَمِ وَأَبْتَاهِمْ مَا يَضْمَنُ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ الْمَزِيدِ، وَيُنِيلُهُمُ الْمَنَالِ السَّعِيدِ، وَيَقْضِي لَهُمْ بِالْمَالِ الْحَمِيدِ. وَمُوصَلٌ هَذَا الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَلَانِ، فَاعْتَمَدُ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكَ إِكْرَامَهُ وَإِعْزَازَهُ، وَإِجْمَالَ تَلْقَيْهِ وَإِفْضَالَهُ؛ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةٌ مِثْلِهِ مِنْ رَجَاءٍ، وَتَتَوِيهِ وَأَحْتِفَاءٍ، وَإِكْرَامٍ وَأَعْتِنَاءٍ؛ لِيُعُودَ شَاكِرًا. فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي :

أُولَى مَا تَحَدَّثَ بِهِ نَاقِلُهُ وَرَاوِيهِ، وَتَعَجَّلَ الْمَسْرَةَ بِهِ حَاضِرُهُ وَرَأْيِيهِ؛ مَا كَانَتْ الْفَائِدَةُ بِهِ شَائِعَةً لِاتِّحَازِ، وَالنَّعْمَةُ بِهِ ذَائِعَةً لِاتِّخْصُصِ أَحَدٌ بِشُمُوهَا وَلَا يَتَمَيَّزُ؛ إِذْ كَانَ عِلَّةً لِنُكَاثِرِ الْأَقْوَاتِ، وَبِهَا يَكُونُ التَّمَانُلُ فِي الْبَقَاءِ وَالتَّسَاوِي فِي الْحَيَاتِ؛ وَذَلِكَ مَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ وِفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ : فَإِنَّهُ آتَيْتَنِي فِي يَوْمٍ كَذَا مِنْ سِنَةِ كَذَا، إِلَى سِتَّةِ عَشَرَ ذِرَاعًا وَزَادَ إِصْبَعًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَقَدْ سَيَّرْنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَلَانَا

بهذه البشري إليك ، وخصصناه بالورود بها عليك ؛ فتلقها من الشكر بمستوجبها ،
 واستقبلها من الابتهاج والاعتباط بما يليق بها ؛ وأجعل الرسوم التي جرت العادة
 بتوظيفها لفلان بن أبي الرِّدَادِ محمولةً من جهتك إلى حضرتنا ، لتولى إليه من جهتنا ؛
 فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، وكُتِبَ في اليوم المذكور .

وهذا الصنف من المكاتبات مُتَدَاوِلٌ بالديار المِصْرِيَّةِ إلى آخر وقت ، يُكْتَبُ به
 في كُلِّ سنة عن الأبواب السلطانية إلى تُوَابِ السُّلْطَنَةِ بالممالك الشامية عند وفاء
 النيل ، وتسير به البريديَّة ؛ ورُبَّمَا جِيءَ للبريدي من الممالك شيء بسبب ذلك .
 وإذا كانت الدولة عادلةً ضَمَّنَ الكتابُ أنه لا يُجِيءُ للبريدي شيء بسبب ذلك .



وهذه نسخة مثالي شريف في معنى ذلك .

ولا زال يروى عنه وإليه حديثُ الوفاءِ والنَّدا ، ويُورَدُ على سمعه الكريم نَبَأُ
 الخِصْبِ الذي صَفَا مَوْرِدًا ؛ ويُنْبِئُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ تَكْفَلَتْ للرعايا بمضاعفة الجودِ
 ومُرادفة الجَدَا ، ويُخَصُّ بِكُلِّ مِئَةِ عَمَّتْ مواهبها الأنامُ فلن تنسى أحداً .

صَدَرَتْ هذه المكاتبة إلى الجناب العالي : وبِحُرِّ كَرَمِهَا لا يتهى إلى مدى ،
 وبِشُرِّ بُسْرَاهَا دائمٌ أبداً ؛ تُهْدَى إليه سلاماً مُؤَكِّداً ، وثناءً أضحى به الشكرُ مُرَدِّداً ؛
 وتُوَضِّحُ لِعَلْمِهِ الكريم أن الله تعالى قد أجرى على جميل عاداته ، وأراد بالأمة من الخيرِ
 ما هو المألوف من إراداته ؛ ومنح مزيد النعم التي لم تزل تُعْهَدُ من زياداته ؛ فاسدئ
 معروفه المعروف إلى خلقه ، وأيدهم بما يكون سبباً لمسادة عطائه ورزقه ؛ فبلغهم
 تاملهم ، وأجرى نيلهم ؛ وزادهم بسطةً في الأرض ، وملاً به الملاً وطبق به البلادَ
 طولها والعرض ؛ ونسّر على الخافقين لواء خضبه ، وأتى بعسكر ربه لقتل المحل

وجديه، وبينما هو في القاع إذ بلغ بأذن ربه، فجعل من الذهب لباسه، وعطّر
بالشذا أنفاسه، ولم يترك خلال قُطر إلا جاءه بغاسه، ونصّ السير فسير نصّ مجيئه
في الأرض لما صحّح بالوفاء قياسه، وغازلته الشمس فكسته حُمرة أصيلها لما غدت
له بمشاهدتها ماسه، ولم يكن في هذا العام إلا بمقدار ما قيل: أقبل إذ قيل: وفي،
ومتد في الزيادة باعاً وبسط ذراعا، وأطلق بمواهب أصابعه كفاً، وعاجل إدراك الهرم
في ابتداء أمره مظال شبابه، ومرّ على الأرض فحلا في الأفواه لما ساع شكر سايع
شرايه، واعتمد على نصّ الكتاب العزيز فكاد أن يدخل كل بيت من بابه.

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء
شيمه، وأغنت أمواجه عن منة السحب فدمت عندها ديمه، وزار البلاد منه أجل
ضيف فرشت له صفحة خدها للقرى فعمها كرمه، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعا
ورفع لواءه بالمزيد ونشر، وجاء للبشر بأنواع البشر، فرسمنا بتعليق ستر مقياسه،
وتخليقه وتضويع أنفاسه، وفي صبيحة اليوم المذكور كسر سدّ خليجه على العاده،
وبلغ الانام أقصى الإراده، وتباشر بذلك العام والخاص، وأعلنت الألسنة بحمد
ربها بالإخلاص، وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد، بسيط بحره
المديد، متجدد الثم في كل يوم من أيام الزيادة جديد. فالجناب العالي يأخذ من
هذه البشرية بأوفر نصيب، ويشكر نعمة الله على ما منح - إن شاء الله - هذا العام
الخصيب، ويذيع لها خيرا وذكرا، ويضوع بطي هنائها نثرا، ويتقدم بان لا يجي
عن ذلك بشارة بالجملة الكافية، لتغدو المنّة تامة والمسرة وأفيه، وقد جهزنا بهذه
المكتبة فلانا، وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نواب القلاع الفلانية [جريا] على
العادة، فيتقدم بتجهيزه بذلك على عادة هيمته، فيحيط علمه بذلك.



وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك، كُتِبَ بها في سابع عشر ذى القعدة سنة ست وستين وسبعائة، وصورتها بعد الصدر :

وَبَشِّرْهُ بِأَخْصَابِ عَامٍ ، وَأَخْصِ مَسَرَّةَ هَنَاؤُهَا لِلْوُجُودِ عَامٍ ، وَأَكْبِلْ نِعْمَةَ تَقَابُلِ
العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكتوبة إلى الجنب العالى تُهْدَى إليه أتمَّ سَلَامٍ ، وَأتمَّ ثَنَاءٍ تَامٍ ،
وَتَوْضُحٍ لِعَالِمِهِ الْكَرِيمِ : أَنْ اللهُ تَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ جَرَى فِي أَمْرِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ عَلَى
عَوَائِدِ أَلْطَافِهِ ، وَمَنَحَ عِبَادَهُ وَبِلَادَهُ مِنْ مَدِيدِ نِعْمِهِ مَزِيدٍ إِسْعَافِهِ ؛ وَأُورِدَ الْأَمَالَ
مِنْ جُودِهِ مَنَهَلًا عَذْبًا ، وَمَلَأَهَا بِهِ إِقْبَالَ وَخِصْبًا ؛ وَأَحْيَا بِهِ مِنْ مَوَاتِ الْأَرْضِ
فَاهْتَرَتْ وَرَبَّتْ ، وَأَنْبَتَتْ كُلَّ بَهِيحٍ وَأَنْجَبَتْ ؛ وَأَيْنَعَتِ الرَّيَاضُ بِغُرْتِهَا فِيهَا الرُّوحُ
وَدَبَّتْ ، وَأَمْتَلَأَتْ الْحِيَاضُ فَفَاضَتْ بِالْمِيَاهِ وَأَنْصَبَتْ ؛ وَطَلَعَ كَالْبَدْرِ فِي آزْدِيادِهِ ،
وَتَوَالَى عَلَى مَدِيدِ الْأَرْضِ بِأَمْدَادِهِ ؛ إِلَى أَنْ بَلَغَ حَدَّهُ ، وَوَصَلَ الْفَرَجَ وَمَنَعَ الشَّدَّهَ ؛
وَفِي يَوْمٍ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا الْمُوَافِقِ لِكَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ الْقِبْطِ ؛ وَفَاءَ اللهُ سِتَّةَ عَشَرَ
ذِرَاعًا فَاهَ فِيهَا بِالنُّجُجِ ، وَعَمَّ ثَرَاهُ الْأَرْضَ فَاشْرَقَ بَعْدَ لَيْلِ الْجَدْبِ بِالرِّخَاءِ أَضْوَاءً صُبْحَ ؛
وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَّقَ سِتْرَهُ ، وَخُلِقَ مِقْيَاسُهُ فَاشْتَهَرَ ذِكْرُهُ ، وَكُسِرَ سَدُّهُ ، وَتَوَالَى مَدُّهُ ،
وَتَجَزَّتْ مِنَ الْخِصْبِ وَعَدُّهُ ؛ وَعَلَا التُّرَعُ وَالْجُرُوفُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ فَأَمَّنَ مِنَ الْجَدْبِ
الْمُخَوِّفِ ؛ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الطَّلُقَ الْمُحْيِيَّ ، وَأَسْبَلَ عَلَى الْأَرْضِ لِبَاسَ النَّفْعِ فَبَدَّلَهَا بَعْدَ
الظُّلْمِ رِيًّا ؛ فَحَمِدْنَا اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ ، وَرَأَيْنَا أَنْ يَكُونَ لِلْجَنَابِ الْعَالِي أَوْفَرُ
نَصِيبٍ مِنْ هَذَا الْهِنَاءِ الْأَعْمِ ؛ وَأَثَرْنَا إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ : لِيَكُونَ فِي شُكْرِ هَذِهِ النَّعْمَةِ أَكْبَرُ
مُشَارِكٍ ؛ فَالْجَنَابِ الْعَالِي يَأْخُذُ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى ، وَيَتَحَقَّقُ مَالَهُ عِنْدَنَا مِنْ

المكانة التي خَصَّنَه في كُلِّ مُبْهَجَةٍ بِالذُّكْرِ؛ وَيَتَقَدَّمُ أَمْرُهُ الْكَرِيمُ بَأَنَّ لَا يُجْبَى
عَنْ ذَلِكَ حَقَّ بَشَارِهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَى أَحَدٍ بِخَسَارِهِ؛ وَقَدْ جَهَّزْنَا بِذَلِكَ فَلَانَا .

الصف السابع عشر

(فيما يكتب في الإشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق)

عند وفاة النيل في كُلِّ سَنَةٍ)

وهو مما يتكرر في كُلِّ سَنَةٍ عِنْدَ رُكُوبِ الْمَيْدَانِ ، وَيَكْتُبُ بِهِ إِلَى جَمِيعِ النَّوَابِ
الأكبر والأصغر ؛ وَتُجَهَّزُ إِلَى أَكْبَرِ النَّوَابِ خِيُولٌ مُصْحَبَةٌ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ ، وَيُرْسَمُ
لَهُمُ بِالرُّكُوبِ فِي مِيَادِينِ الْمَمَالِكِ لِلْعَيْبِ الْكُرَّةُ ، تَأْسِيًّا بِالسُّلْطَانِ ؛ فَيُرَكَّبُونَ وَيَلْعَبُونَ
الْكُرَّةَ . وَالْعَادَةُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنْ تُنْشَأَ نَسْخَةُ كِتَابِ مِنْ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ ،
وَيَكْتُبُ بِهَا إِلَى جَمِيعِ النَّيَابَاتِ ، لَا يَخْتَلَفُ فِيهَا سِوَى صَدْرِهَا ، بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ
حَالُ ذَلِكَ النَّائِبِ .

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك ، كُتِبَ بِهِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سِتِّينَ
وَسَبْعِمِائَةَ لِنَائِبِ حَطْرَابُلُسَ ، وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَ تُحْمَلُ إِلَيْهِ أَنْبَاءُ مَا يَبْرُدُ غُلَّتَهُ مِنْ مُضَاعَفَةِ السُّرُورِ ، وَتُبَيَّنَتْ لَهُ أَقْوَالُ الْهَنَاءِ
بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّصْرِ الْمَوْفُورِ ، وَتُحْضَرُ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ بِأَكْلِ تَكْرِيمٍ
وَأَتَمَّ حُبُورٍ .

صدرت هذه المكاتبه تُهْدَى إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ وَالنَّشَاءِ كَذَا وَكَذَا ، وَتَوْصِيحَ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ
أَنَا نَتَحَقَّقُ مَضَاءَ عَزَائِمِهِ حَرْبًا وَسَلْمًا ، وَأَعْتَبِلَاءَ هِمَمِهِ الَّتِي تُحَرِّسُ بِهَا الْمَمَالِكَ وَتُنَجِّي ؛

وَأَنْ صَوَّافَنَهُ تَرْتَبُّبُ لُتْرَكُضٍ ، وَتُحْبَسُ لِنَهْضٍ ؛ فَلِذَلِكَ نَعَلِمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ آسَظْهَارِنَا
 مَا يُبَيِّحُ خَاطِرَهُ ، وَيُقِرُّ نَاطِرَهُ ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ خَامِسِ سُؤَالٍ ،
 تَوَجَّهَ رِكَابُنَا الشَّرِيفُ إِلَى الْمِيدَانِ السَّعِيدِ وَفَاضَ بِهِ جُودُنَا فَأَخْضَرَتْ مَرُوجُهُ ،
 وَظَهَرَتْ نَسِيرُنَا الْأَعْظَمُ فَأَشْرَقَتْ آفَاقُهُ وَتَشَرَّفَتْ بِرُوجِهِ ، وَأَقْرَأَ الْعِيُونَ مُنِيرُوجِهَا
 الْمُبَارِكِ وَبَهِيحُهُ ؛ وَغَدَا كُلُّ وَليٍّ بِمَوْلَاةٍ إِنْعَامِنَا مَشْمُولَا ، وَبِمَنَالَاتٍ إِكْرَامِنَا مُوصُولَا ؛
 وَرَكَضَ الْأَوْلِيَاءُ بَيْنَ أَيْدِينَا جِيَادًا أَلْفَتْ نِزَالًا وَعَرَفَتْ طِرَادًا ، وَأَنْعَطَفَتْ لِينًا وَأَنْقِيَادًا ؛
 وَعُدْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مَلِكِنَا الشَّرِيفِ وَقَدْ جَهَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا إِسْعَادًا ، وَأَيْدَى لِعَزْمِنَا الْمُعَانِ
 مَبْدَأًا وَمَعَادًا ؛ وَأَثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ الْعَالِي بِهَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمِيْمُونَةِ ، وَالْحَرَكَةِ الَّتِي هِيَ
 بِالْبَرَكَةِ مَقْرُونَةٌ : لِأَخْذِ حَظِّهِ مِنَ السَّرُورِ بِذَلِكَ وَالْهِنَا ، وَيَتَحَقَّقُ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ
 عَلَيْهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمُنَى .



وهذه نسخة مثال شريف في المعنى ، كُتِبَ بِهِ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، سَنَةِ
 أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِينَ . وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَتْ مِيَادِينُ سَعْدِهِ لَا تَنْتَاهِي إِلَى مَدْيٍ ، وَكُرَاتُ كَرَاتِهِ فِي رِحَابِ النَّصْرِ تَلْمَعُ
 كَنْجَمِ الْمُدَى ؛ وَمُدُورٌ صَوَائِحِهِ كَشَوَاحِرِ الْمُرَّانِ تَحْلُبُ بِأَيْدِيهَا لِلْأَوْلِيَاءِ وَتَقْدُ
 مَرِيرَةَ الْعِدَا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُوبَةُ وَظَفَرُهَا لَا يَزَالُ مُؤَيِّدًا ، وَنَصْرُهَا لَا يَبْرَحُ مُؤَبَّدًا ؛ تُهْدَى إِلَيْهِ
 سَلَامًا مُؤَكَّدًا ، وَتَنَاءً كَنَشْرِ الْأَرْضِ بِالنَّدَى ؛ وَتُوضَّحُ لِعَلْمِهِ أَنَّنَا لَمْ نَزَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَتَبُّعُ
 سَنَنَ سَلَفِنَا الشَّرِيفِ ، وَتُجْرَى الْأُمُورَ عَلَى عَوَائِدِ جَمِيلِهِمُ الْمُنِيفِ ؛ وَنَرَى تَمْرِينَ
 الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَتُؤَثِّرُ إِبْقَاءَ آثَارِ الْجِهَادِ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ أُسْلُوبِ ؛

فلذلك لا نُحِلُّ في كُلِّ عامٍ بالتَّعَاهُدِ إلى المِيدَانِ السَّعِيدِ، وَالرُّكُوبِ إِلَيْهِ فِي أَسْعَدِ طَالِعِ
يُؤَدِّي النَّصْرَ وَيُعِيدُ : لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ آتِهَاتٍ يَتَجَدَّدُ ، وَأَسْبَابِ مَسْرَّةٍ لِكَافَّةِ الْأَنْامِ
تَأَكَّدُ ، وَدَعَوَاتِ أَلْسِنَتِهَا تَتَضَاعَفُ مِنَ الرَّعِيَةِ وَتَتَرَدَّدُ .

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَبِ القَرْدِ ، رَكَبْنَا إلى المِيدَانِ
السَّعِيدِ فِي أَمِّمٍ وَقَدْ أَخَذَ مِنَ السَّعْدِ يَجْمُوعِهِ ، وَأَظْهَرَ فِي أَفْقِ العَسَاكِرِ مِنْ وَجْهِهَا
الشَّرِيفِ البَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ؛ وَلَمْ نَبْرَحْ يَوْمَنَا المَذْكُورِ فِي عَطَاءٍ نُجِيدِهِ ، وَإِنْعَامٍ نُقِيدُهُ ،
وَإِطْلَاقِ نُبْدَانِهِ وَنُعِيدُهُ ؛ وَالْأَوْلِيَاءِ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ يَمْرُحُونَ ، وَفِي بَحَارِ كَرَمِنَا المُنِيفِ
يَسْبُحُونَ ، وَفِي مِيدَانِ نَائِسِدِنَا المُنِيفِ يَسْبُحُونَ ؛ وَالكَرَاتِ كَالشَّمْسِ تَجْنَحُ تَارَةً
وَتَغِيبُ ، وَتَحْشَى مِنْ وَقَعِ الصَّوَالِجَةِ فَتَقَابِلُهَا بِوَجْهِهِ مُصَفَّرٌ مُرِيبٌ ؛ ثُمَّ عُدْنَا إِلَى القَلْعَةِ
الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَمِّمٍ حَالٍ ، وَأَسْعَدِ طَالِعِ بَلَّغِ الْأَنْامِ الْأَمَانَ وَالْأَمَالَ ؛ وَالْعَسَاكِرِ بِخِدْمَتِنَا
الشَّرِيفَةِ مُحْدِقُونَ ، وَمِمَالِكِنَا بِعُقُودِ لَوْلَانَا مُطَوَّقُونَ ؛ وَالرَّعَايَا قَدْ أَلْبَسَهَا السُّرُورَ أَثْوَابًا ،
وَفَتَحَ لَهَا مِنَ الْأَبْتِهَاتِ أَبْوَابًا ؛ وَقَدْ آثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ بِذَلِكَ لِأَخَذِ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ
المَسْرَّةِ والبُشْرَى ، وَيُسْتَرَكُ هُوَ وَالْأَنْامُ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ الكُبْرَى ؛ وَمَرَسُومُنَا لِلجَنَابِ
أَنْ يَتَقَدَّمَ بِالرُّكُوبِ بَيْنَ عِنْدِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ فِي مِيدَانِ طَرَابُلُسِ المَحْرُوسَةِ ، وَيَلْعَبَ
بِالْكُرَةِ عَلَى جَارِي العَادَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِيُسَاهِمَ أَوْلِيَاءُ دَوْلَتِنَا القَاهِرَةِ فِي ذَلِكَ ، وَيَسْلُكَ
مِنْ طَرَفِهِمُ الجَمِيلَةَ أَجْمَلَ المَسَالِكِ .

قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ المَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَةِ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمَلًا بِدِيَوَانِ الإِنْشَاءِ ،
يُكْتَبُ بِهِ كَلِّمًا رَكَبَ السُّلْطَانُ إِلَى المِيدَانِ الصَّالِحِيّ بِحِطِّ اللُّوقِ ، إِلَى أَنْ عَطَّلَ جِيدُهُ
مِنَ الرُّكُوبِ فِي أَوَانِحِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ « بَرَقُوقِ » وَأَقْتَصَرَ عَلَى لَعِبِ الكُرَةِ فِي المِيدَانِ
الَّذِي جَرَتْ بِهِ العَادَةُ ؛ فَتَرَكْتَ المَكَاتِبَةَ بِذَلِكَ مِنْ دِيَوَانِ الإِنْشَاءِ وَرُفِضَ اسْتِعْمَالُهَا .

الصفحة الثامن عشر

(المكتبة بالإشارة بحج الخليفة)

لما كانت الأسفار، محل الأخطار، وموقع الاختلاف وحدث الفتن، كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمّالهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره . والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات، وأن من النعمة [أن يمن] الله تعالى بقضاء المناسك، والوقوف بالمشعر الحرام، والطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج؛ ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، واتفق الكلمة في جميع هذه الأحوال، على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأماناً، وحرماً ممن دخله كان آمناً؛ الذي اختار دين الإسلام على الأديان، وأبتعت به صفوته من الإنس والجان؛ محمداً أكرم نبي مَعَدَّ بن عدنان .

يحمد أمير المؤمنين أن أعانته على تادية حقه، ونصبه لكفالة خلقه؛ ووقفه للعمل بما يرضيه ويُدني إليه . ويسأله أن يُصلي على خير من غار وأنجد، وصدر وورد؛ وركع وسجد، ووحد وسجد، وصلى وعبد؛ وحل وأحرم، وحج الحرام؛ وأتى المُسْتَجَار والمَلْتَرَم، والحطيم وزمزم، محمداً سيد ولد آدم؛ وعلى أخيه وأبن عمه مصباح الدلالة، وحجاب الرسالة؛ إمام الأمة، وباب الحكمة؛ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب،

(١) يياض بالاصل والتصحيح بما يقتضيه المقام .

مُزَّقِي الكُتَّابِ ، وَمُفَرِّقِي المَوَاقِبِ ؛ وَمُعْظِمِي القَوَاصِبِ ، فِي القَلِيلِ وَالْمَنَاقِبِ ؛ وَعَلَى
الْأُمَّةِ مِنْ دُرِّيَّتَيْهِمَا المَهِادِينَ ، صَلَاةً بَاقِيَةً فِي العَالَمِينَ .

وَإِنَّ أَوْلَى النَّعْمِ بَانَ يُسْتَعْدَبُ ذِكْرُهَا ، وَيُسْتَعَطَّرُ نَشْرُهَا ؛ وَتُحَدَّثُ بِهَا الْإِلْسِنَةُ ،
وَتُعَدُّ فِي مَوَاهِبِ اللَّهِ الحَسَنَةِ ؛ نِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْفِيقِ لِحَجِّ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَثَابَةً
لِزَائِرِيهِ ، وَالْإِطَافَةَ بِحَرَمِهِ الَّذِي يُوجِبُ المَغْفِرَةَ لِقَاصِدِيهِ ؛ وَالتَّزْوِيلَ بِأَفْنِيَّتِهِ الَّتِي مِنْ
يَحْتَدُّ بِهَا فَقَدْ آنَسَلِخَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَتَلَبَّسَ بِالحَسَنَاتِ ؛ وَكَنَابَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا
إِلَيْكَ يَوْمَ النَّفَرِ الْأَوَّلِ : وَقَدْ قَضَى بِحَمْدِ اللَّهِ تَفْتَهُ ، وَوَفَى نَذْرَهُ ؛ وَنَمَّ حَجَّهُ ، وَكَلَّ طَوَافَهُ ؛
وَشَهِدَ مَنَافِعَهُ ، وَأَدَّى مَنَاسِكَهَ ؛ وَوَقَفَ المَوْقِفَ بَيْنَ يَدِي رَبِّهِ قَانِتًا دَاعِيًا ، وَرَاجِبًا
رَاجِبًا ؛ وَعَرَفَهُ بِعَرَافَاتِ إِعْلَامِهِ قَبُولَ سَعْيِهِ ، وَإِجَابَةَ تَلِيَّتِهِ ، وَبَلَّغَهُ فِي مَنَى أَمَانِيهِ
مِنْ رَأْفَتِهِ ؛ وَأَرَاهُ مِنْ مَحَايِلِ الرَّحْمَةِ ، وَدَلَائِلِ المَغْفِرَةِ ؛ مَا تَلَأَتْ أَنْوَارُهُ ، وَتَوَصَّحَتْ
آثَارُهُ ؛ وَأَجْرَاهُ عَلَى تَفْصِيلِ العِبَارَةِ فِي سُؤْلِ السَّلَامَةِ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بِحَجِّهِ ، وَوَقَفَ
مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَعَامَّتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ؛ وَأَنعمَ بِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَاجْتِمَاعِ أَهْوِيَّتِهِمْ ؛
وَآكْتِنَافِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ لَهُمْ ، وَزَوَالِ الْأَخْتِلَافِ وَالمُبَايَنَةِ بَيْنَهُمْ .

فَإِنْ أَرَادَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَهُوَ يَصْدُرُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى
عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا مِنَ البَيْتِ الحَرَامِ ، إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَإِنْ أَرْمَعَ الْأَنْكِفَاءَ إِلَى مَقَرِّهِ ، قَالَ :

وَأَشْعُرُكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ وَهُوَ عَائِدٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَقَرِّ خِلَافَتِهِ ،
فِي عَزٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَعُلُوٍّ مِنْ كَلِمَتِهِ ؛ وَأَمْتِدَادٍ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَتَضَاعُفٍ مِنْ جُنْدِهِ
وَأَعْوَانِهِ : لِنَاخِذِ بِمَحْظُوكَ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ وَالجَدَلِ ، وَتُدْبِيغِهِ بَيْنَ أَهْلِ العَمَلِ : لِيشَارِكَ
العَامَّةَ فِي العِلْمِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيُخْلِصُوا لَهَّ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفير في الجملة .

والرسم فيه أن تُذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك : من بلوغ المآرب ، وتسهيل المقاصد ؛ وإدراك الأوطار ، وشمول النعمة في الذهاب والإياب ؛ وما يجري مجرى ذلك مما يخترط في هذا السلك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذي الطول والإتمام ، والفضل والإكرام ؛ والمئن العظام ، والأيدى الحسام ؛ الذي أزعى أمير المؤمنين من حياتيه عيناً لا تنام ، وأستخدم لحراسه والمراماة دونه الليالي والأيام ، وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظن والمقام .

يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأنام ، وعَدَّقَ به أساليب النقص والإبرام ؛ ويسأله الصلاة على من أخصه بشرف المقام ، وأبتعه بدين الإسلام ؛ وجلا به حنادس الظلام ، مجد خاتم الأنبياء الكرام ؛ وعلى أخيه وأبن عمه الهمام الضرغام ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب مَكْسِرِ الأصنام ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام ، وأدلة الحلال والحرام .

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مُسْتَدِرّاً لأخلافها ، مُتَّصِباً لقطافها ، وَيُفِيضُ في ذكراها ، مُسْتَدْعِياً للزيادة بشكرها ؛ وَيُطْلِعُ خُلَصَاءَهُ على حُسْنِ آثارها لَدَيْهِ : وَسُبُوغِ مَلَائِمِهَا عَلَيْهِ ؛ لِيَأْخُذُوا بِحِطِّ مِنَ الْغَبْطَةِ وَالْأَسْتَبْشَارِ ، وَيَسْرَحُوا فِي مَسَارِحِ الْمَبَاحِ وَالْمَسَازِرِ ؛ وَكُتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا إِلَيْكَ حِينَ اسْتَقَرَّ رِكَابُهُ بِنَاحِيَةِ كَذَا ، مَبْشَرًا لَكَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ فِي حَيَاتِهِ ، وَمَوْهَبَتِهِ فِي سَلَامَتِهِ ؛ وَمَا أَوْلَادِهِ مِنْ آثَارِهِ (؟) الدليل ، وتسهيل السبيل ؛ وَطَيِّ الْجَاهِلِ ، وَتَقْرِيبِ الْمَنَازِلِ ، وَإِعْدَابِ الْمَنَاهِلِ ؛ وَإِنَالَةِ الْأَوْطَارِ ، وَتَدْمِيتِ الْأَوْعَارِ ؛ وَبِرَكَّةِ الْمُتَصَرِّفِ ، وَسَعَادَةِ الْمُتَصَرِّفِ ؛ وَوُضُوءِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ

قَرِيرَ الْعَيْنِ ، قَلِيلَ الْأَيْنِ ؛ مَحْفُوظًا سَارِيًّا وَأَثِيًّا ، مَكْلُوعًا عَائِدًا وَذَاهِبًا ؛ مُشَرَّدَ النَّصَبِ
مَسْرُورًا ، مَوْفُورَ النَّصِيبِ مَحْبُورًا ؛ فِي اجْتِمَاعٍ مِنْ كَلِمَةِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَتُقُوذِ
بِصَائِرِهِمْ فِي نَصْرِ رَأْيَتِهِ ؛ وَإِعَانَتِهِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأَسْتَرَعَاهُ مِنْ بِلَادِهِ : لِيَأْخُذَ
بِالْحِطِّ الْأَجْزَلِ ، مِنَ الْإِتْبَاحِ وَالْجَدَلِ ؛ وَيَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ،
وَيُضِيفُهَا إِلَى سَوَائِفِ نِعْمِهِ التَّالِدَةِ ؛ وَيُذَيِّعُهَا بَيْنَ رَعِيَّتِهِ ، وَأَنْصَارِ دَعْوَتِهِ ؛ لِيَشْتَرِكُوا
فِي آرْتِفَافِ لِعَابِهَا ، وَأَلْبَحَافِ أَنْوَابِهَا ؛ فَأَعْلَمَ هَذَا وَأَعْمَلَ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وهذا الصَّنْفُ من المكاتبات السلطانية قليلُ الوقوع ، فإن وقع مثله
للكتاب في زماننا ، نخرجه على نِسْبَةِ الأسلوب المتقدم .

الصنف التاسع عشر

(الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع)

وهذا الصَّنْفُ مِمَّا أَغْفَلَهُ صَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَلَا يَدْرِي مِنْهُ .

والرسم فيه أن يكتب عن الخليفة أو السلطان إلى من أخلص في الطاعة ،
أو ظهرت له آثار كفاية : كَفَتْحٍ أَوْ كَسْرٍ عَدُوٍّ ، وَمَا يَجْرِي بِمَجْرَى ذَلِكَ .

وهذه نسخة كتاب كتب به أبو إسحاق الصَّابِيُّ عن الطائع لله ، إِلَى صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، قَرِينَ خَلَعِيٍّ وَقَرَسِيٍّ بِمَرْكَبِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ وَسَيْفٍ
وَطَوْقٍ ، وَهِيَ :

من عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ
وَشَمْسِ الْمَلَةِ أَبِي كَالِيجَارِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمَلَةِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن
يُصَلِّيَ على جده مجد عبده ورسوله صَلَّى اللهُ عليه وسلم .

أما بعد، أطل الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المنزلة العُلَيَّا،
وأنا لك من أثرته الغاية القُصْوَى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضُدَ الدَّوْلَةِ ونَاجِ المِلَّةِ
- رحمة الله عليه - من القَدْرِ والمَحَلِّ ، والمَوْضِعِ الأَرْفَعِ الأَجَلِّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند
كُلِّ أثر يكون منك في الخدمه ، ومَقَامِ حَمْدِ تَقْوَمِهِ في حِمَايَةِ البَيْضِ ؛ إنعاماً يُظَاهِرُهُ ،
وَإِكْرَاماً يُتَابِعُهُ وَيُؤَاتِرُهُ ؛ والله يَزِيدُكَ من توفيقه وتسدیده ، ويمُدُّكَ بمَعُوذَتِهِ وتأيدِهِ ؛
ويَجْبِرُ لأمير المؤمنين فيما رَأَيْهُ مُسْتَمِرًّا عليه من مَزِيدِكَ وتمكينك ، والإبْقَاءِ بك
وتعظيمك ؛ وما تَوْفِيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتَوَكَّلُ وإليه يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من [أمر كردويه] كافر نعمة أمير المؤمنين
ونعمتك ، وجاحد صنيعته وصنيعتك ؛ في الوثبة التي وثبها ، والكبيرة التي آرتكها ؛
وتقديره أن يتنزه الفرصة التي لم يمكّنه الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دفعه
ورده عنها ؛ ومعاجلتك إياه الحرب التي أصلاه الله نارها ، وقتعه عارها وشتارها ؛
حتى أنهزم والأوغاد الذين شركوه في إثارة الفتنة ، على أقبح أحوال الذلّة والقلة ؛
بعد القتل الدريع ؛ والإثمّان الوجيع . فالحمد لله على هذه النعمة التي جَلَّ مَوْقِعُهَا ،
وبأنّ على الخاصة والعامة أثرها ؛ ولزم أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نشرها
والحديث بها ، وهو المسؤول إقامتها وإدامتها برحمته .

(١) تقدم في هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند بذلك أثر .

(٢) الذي تقدم « يزيدك » وما هنا أوضع .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم، والمقام المحيد الكريم؛
 بِجَمَاعِ نَامَةٍ، وَدَابَّتَيْنِ بِمُرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَرَآكِبِهِ، وَسَيْفٍ وَطَوِيقٍ وَسِوَارٍ مُرَصَّعٍ .
 فَتَلَقَّ ذَلِكَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَالْأَعْتَادِ بِنِعْمَتِهِ فِيهِ؛ وَالْبَسَ خَلَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَتَكْرِمَتَهُ، وَسِرًّا [مِنْ بَابِهِ] ^(١) عَلَى حَمَلَاتِهِ، وَأَظْهَرَ مَا حَبَّكَ بِهِ لِأَهْلِ حَضْرَتِهِ، لِيُعْزَّزَ
 اللَّهُ بِذَلِكَ وَاِلَيْهِ وَوَلِيِّكَ، وَيُنْذَلَ عُدُوهُ وَعَدُوُّكَ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ
 وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . وَكَتَبَ فُلَانٌ لِمُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي بَكْرٍ فِي رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ
 وَثَلَاثِينَ : أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِكَ، وَأَدَامَ عِزَّكَ، وَأَجْزَلَ حِفْظَكَ وَحَيَاطَتَكَ، وَأَمْتَعَ أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَبِالنِّعْمَةِ فِيكَ وَعِنْدَكَ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ على الاستعمال ، متى أنعم
 السلطان على نائب سلطنته أو أمير أو وزير أو غيره بخلعة بعث بها إليه وكتب
 قرينها مثلاً شريف بذكر ذلك ؛ إلا أنه أهمل في ذلك السجع والأزدواج ، واقتصر
 فيه على الكلام المحلول كما في غيره من المكاتبات ، إلا في النادر المعنى بشأنه .

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتنويه والتلقيب)

قال في "مواد البيان" : جرت عادة الخلفاء بالكاتبه بالتلقيب ، لأن اللقب موهبة
 من مواهب الإمام : أمضاها وأجازها ؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نعمة التي يمنحها
 على عبده ؛ والكنية تكملة يستعملها الناس فيما بينهم ، فليس حكمها حكم اللقب .

(١) بياض بالأصل والتصحيح عما تقدم (ج ٦ ، ص ٣٩٧) .

(٢) سماه فيما تقدم « أحمد بن محمد » .

قال : والرسم في هذه الكتب أن تفتح بحمد الله على نِعْمِهِ السَّابِغَةِ الضَّافِيَةِ ،
ومَوَاهِيهِ الرَّاهِيَةِ النَامِيَةِ ؛ وَعَوَارِفِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جَزَاءً لِلْحَسَنِينَ ، وَزِيَادَةً لِلشَّاكِرِينَ ؛
وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يَلِيْقُ أَنْ يَفْتَحَ بِهِ هَذَا الْغَرَضَ ؛ وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ . ثُمَّ يَقَالُ :

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا خَوَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمِهِ ، وَبَوَّأَهُ مِنْ قِسْمِهِ ؛ وَخَصَّصَهُ
بِهِ مِنَ التَّمَكِينِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْمُعُونَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِفَرِيضِهِ ، يَرَى الْمَنْ عَلَى خُلَصَاتِهِ ،
وَإِسْبَاحِ النَّعْمِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ؛ وَأَخْتِصَّاصِهِمُ بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَرَ مِنْ حِبَائِهِ ؛ وَالْإِمَالَةَ بِهِمْ
إِلَى الْمَنَازِلِ الْبَازِخَةِ ، وَالرَّتْبِ الشَّامِحَةِ . وَإِنْ أَحَقَّ مِنْ وَفَرِ قِسْمِهِ مِنْ مَوَاهِبِهِ ، وَغَزُرَ
سَهْمُهُ مِنْ عَطَايَاهُ وَرَغَائِبِهِ ؛ مَنْ تَمَيَّزَ بِمَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ وَمُطَاوَعَةٍ ، وَوَلَاءٍ
وَمُشَافَعَةٍ ، وَأَنْقِيَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ؛ وَصَفَاءٍ عَقِيدَةٍ وَسِرِّيَّةٍ ، وَحُسْنِ مَذْهَبٍ وَسِيرَةٍ ؛ وَلِذَلِكَ
رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْعَتَكَ بِكَذَا لِأَسْتَقْفَاقِهِ هَذَا النَّعْتِ مِنْ سِمَاتِكَ ، وَأَسْتِنْبَاطِهِ إِيَّاهُ
مِنْ صِفَاتِكَ ؛ وَشَرَفَكَ مِنْ مَلَابِسِهِ بِكَذَا ، وَطَوَّقَكَ بِطَوِّقٍ أَوْ بَعْقِدٍ ، وَقَلَدَكَ بِسَيْفٍ
مِنْ سَيُوفِهِ ، وَعَقَدَ لَكَ لِيَوَاءً مِنْ أَلْوِيَّتِهِ ، وَحَمَلَكَ عَلَى كَذَا مِنْ خَيْلِهِ وَكَذَا مِنْ
مَرَاكِبِهِ . وَبُحْسِنِ الْوَصْفِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَسْتَقْفَاقِ الْأَلْفَاظِ
مِنْ مَعَانِيهِ ، يَعْرَبُ عَنْ قَدْرِ الْمَوْهَبَةِ فِيهِ . ثُمَّ يَقَالُ : إِبَانَةٌ لَكَ عَنْ مَكَانِكَ مِنْ حَضْرَتِهِ ،
وَإِنَابَةٌ عَلَى تَسْمِيرِكَ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَأَلْبَسْ تَشْرِيفَهُ وَتَطَوَّقْ ، وَتَقَلَّدْ مَا قَلَدَكَ بِهِ ؛ وَارْكَبْ
حُمُولَاتِهِ ، وَأَبْرِزْ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي مَلَابِسِ نَعَائِهِ ، وَأَرْفُلْ فِي حُلِيِّ آلَائِهِ ، وَزِينِ
مَوْكِبِكَ بِلَوَائِهِ ؛ وَقُلْ (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) وَأَعِنِّي عَلَى
مَا يَسْتَرْهِنُهَا لَدَيَّ ؛ وَخَاطِبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُتَلَقِبًا بِسِمَّتِكَ ، مُتَمَنَّعًا بِنِعَّتِكَ .

وهذه نسخة مكاتبة إلى الأفضل بن ولحشى ، وزير الحافظ لدين الله الفاطمي ،
أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، حين قرَّر الحافظ نُعُوته : السَّيِّدُ ، الْأَجْلُ ،

الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ،
وهادى دعاة المؤمنين ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تفرّد بالإلهية ، وتوحد بالقدم والأزلية ؛ وأبدع من برأ
وخلق ، وأنشأهم من غير مثال سبق ؛ وأصطفى لتدبيرهم فى أرضه من بعثه برسالته ،
وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارة لطفه بهم ودلالته ؛ وصلى الله على جدنا محمد
رسوله الذى جعل رتبته أخيراً ونبوته أولى ، فكان أفضل من تقدمه نبياً وسبقه
رسولاً ؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى دثره لخلافته ،
وأيده بوزارته ؛ مع كونه من منزلة الأصطفاء ، وتأييد الوحي الظاهر من غير خفاء ؛
بحيث لا يقتصر إلى وزير ، ولا يحتاج إلى ظهير ؛ وإنما جعل ذلك تعليماً لمن يستخلفه
فى الأرض من عباده ، وتمثيلاً نص - جلّ وعزّ - إلى قصده وأعماده ؛ لما فيه من
ضمّ النشْر ، وصلاح البشر ، وشمول المنافع ، وعموم الخيرات التى أمِنَ فيها من مدافع ؛
وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضايته ، والمستقين له حقّ ثقافته ، والكافلين لكلّ
مؤمن بأمانه يوم الفرز الأكبر ونجاته ؛ وسلّم عليهم أجمعين ، سلاماً متصلاً إلى
يوم الدين .

والحمد لله الذى جعل النعم التى أسبغها على أمير المؤمنين ، بحسب ما اختصه به
من منزلة التى فضله بها على جميع العالمين ؛ بفعله خليفة فى الأرض ، والشفيع لمن
شابهه يوم الحساب والعرض ؛ وأجزل له من مننه ما لا يباهضه شكر إلا كان ظالماً ،
ولا يقابله اعتداد إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعاً ؛ وإن من
أرفعها مكاناً ، وأعظمها شاناً ؛ وأنعمها قدراً ، وأثبها ذكراً ؛ وأعمها نفعا ، وأحسنها
صنعاً ؛ وأغزرها مادّة ، وأثبها قاعدة إذا غدت النعم شاردة نأده ؛ وأعودها فائدة

على الخاص والعام ، وأضمنها للسعد المساعد والحظ الوافر التام - ما كان من المنّة
الشامخة الذرى ، والمنحة الشاملة لجميع الورى ؛ والعارفة التي اعترفت بها التوحيد
والإسلام ، والموهبة التي [إذا] أنفق كل أحد عمره في وصفها وشكرها فما يُعدّل ولا
يُلام ؛ والآية التي أظهرها الله للملّة الخنيفة على فترة من الرسل ، والمعجزة التي هدى
أهله لها دون كافة الأُمّة إلى أعدل السبيل ؛ والبرهان الذي خصّ به أمير المؤمنين
وأظهره في دولته ، والفضيلة التي أبانت مكانه من الله وكريم مترّيته ؛ وذلك ما آمن الله
به على الشريعة الهادية ، والكلمة الباقية ؛ والخلافة النبوية ، والإمامة الحافظية ؛
منك أيها السيد الأجل الأفضّل : ولقد طال قدرك في حلال الثناء ، وجلّ استحقاقك
عن كلّ عويض وجرّاء ؛ وغدت أوصافك مسألة اجتماع وأتلاف ، فلو كانت مقالة لم
يقع بين أرباب الملل شيء من التناقض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمد استيجابك
من مُتّجيه ، أو يتسهّل إدراك شأوه على طالبه ومبتغيه ؟ ؛ والإيمان لو تجسّم لكان
على السعي على شكرك أعظم مُتأثر ، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيبا
على المنابر ؛ فاما الشرك فلو أبقينه حيا لتصدى وتعرض ، لكنك أنحيت عليه
وأدلت التوحيد منه فانهد بناؤه بحمد الله وتقوّض ؛ فكان لك في حقّ الله العضب
الذي تقربت به إليه فأرضيته ، والعزم الذي صممت عليه في نصره الحقّ فأمضيت به
والباطن الذي أطلع عليه منك فنصرك ولم تُرق دما ، ولا روعت مسلما ؛ ولا أفلقت
أحدا ولا أزججتّه ، ولا عدلت عن منهج صواب لما أتتهجته ؛ وذلك مما أشرك
الكافة في معرفته ، وتساووا في علم حقيقته ؛ مع ما كان من تسيرك العساكر المُظفّرة
صُحبة أخيك الأجل الأوحّد : أدام الله به الإمتاع وعصده ، واحسن عنه الدفاع
وأيدّه ؛ مما جرت الحال فيه بحسن سياستك ، وفضل سيادتك ؛ على أفضل ما عودك الله
من بلوغ آمالك ، من غير أدنى لِحقّ أحدا من رجالك ؛ والأمر في ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأبين من ضياءِ فلقِ الصَّباحِ ؛ وهذا إذا تأمله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَكَ من إحسانه ، بغاية ما في إمكانه ؛ وأن يُوَلِّيكَ من مَنِّهِ ، أقصى ما في استطاعته وقُدْرَتِهِ ؛ ولم يَرَأَ أَحْضَرَ من أن قرَّرَ نُعُوتَكَ «السَّيِّدُ، الأَجَلُ، الأَفْضَلُ، أميرُ الجيوشِ ، سَيْفُ الإسلامِ ، ناصرُ الأَئِمَّةِ ، كافلُ قُضَاةِ المُسْلِمِينَ ، وهادى دُعاةِ المؤمنين ، أبو الفَتْحِ رِضْوَانُ الحَافِظِيَّ» إذ لا أُولَى منكَ بِكَفَالَةِ قُضَاةِ دَوْلَتِهِ وإرشادِهِمْ ، وَهَدَايَةِ دُعَاتِهِإِلَى ما فيه نَجَاةُ المُسْتَجِيبِينَ في مَعَادِهِمْ ؛ وَجَدَدَ لَكَ ما كان قَدَمَهُ : من تكفيلِكَ أَمْرَ مَمْلَكَتِهِ ، وإعادةِ القَوْلِ فيما أسلفه من رَدِّهِ إِلَيْكَ تَدْبِيرًا ما وراءَ سِرِّيرِ خِلافِهِ ؛ التِّذاذًا بِتَكَرُّرِ ذَلِكَ وترديده ، وَأَبْتَهَاجًا بِتَطْرِيحِهِ ذِكْرَهُ وَتَجْدِيدَهُ ؛ فَأُمُورُ المِثْلَةِ والدَّوْلَةِ مَعْدُوقَةٌ بِتَدْبِيرِكَ ، وأحوالُ الأَدَانِي والأَفْاصِي موكولةٌ إلى تَقْرِيرِكَ ؛ وَقد جَمَعَ لَكَ أميرُ المؤمنين من استخدامِ الأَقلامِ ، وَجَعَلَ السِّيادَةَ لَكَ على سائرِ القُضَاةِ والدُّعاةِ والحُكَّامِ ؛ وأَسْجَلَ لَكَ بالأختصاصِ بالمَعَالِي والأَنفِرادِ ، وَالتَّوَحُّدِ بأنواعِ الرِّياساتِ والأَسْتِبدادِ ؛ وَلِكَ الإِبْرَامُ وَالتَّقْضُ ، وَالرَّفْعُ وَالحَفْضُ ؛ وَالوِلايَةُ وَالعَزْلُ ، وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ ، وَالتَّنْوِيهُ وَالتَّامِيرُ ؛ فالْمُقَدَّمُ من قَدَمَتِهِ ، وَالحَمُودُ من حِمْدَتِهِ ؛ وَالمُؤَخَّرُ من أُنْحَرَتِهِ ، وَالمَذْمُومُ من ذَمَمَتِهِ ؛ فلا مَخالِفَةَ لِمَا أَحَبَبْتَهُ ، وَلا مَعْدِلَةَ عَمَّا أَرَدْتَهُ ؛ وَلا تَجَاوَزَ لِمَا حَدَدْتَهُ ، وَلا تُخْرُجَ عَمَّا دَبَّرْتَهُ ؛ وَأينَ ذَلِكَ مِمَّا يُضْمِرُهُ لَكَ أميرُ المؤمنين وَيَنْوِيهِ ، وَيَعْتَقُدُهُ فيكَ فَلَإِزالِ مَدَى الدَّهْرِ يُعِيدُهُ وَيُبْدِيهِ ؟ وَلو لم يَكُنْ من بَرَكانِكَ على دَوْلَةِ أميرِ المؤمنين ، وَيُؤَيِّنُ تَدْبِيرِكَ العائِدَ على الإسلامِ وَالمُسلِمِينَ ، إِلا أَنْ أَوَّلَ عَسْكَرِ جَهَنَّمَ إلى جِهادِ الكُفْرَةِ المَلْأَيْنِ ؛ وَكانَ لَهُ النُّصْرُ العَزيزُ الَّذِي تَبَلَّجَ بِحُرِّهِ ، وَالفَتْحُ المُبِينُ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ وَأَنْتَشَرَ ذِكْرُهُ ؛ وَالظَّفَرُ المُبْهِجُ لِلدِّينِ - العَسْكَرُ المَنْصُورُ على الطائفةِ الكافرةِ : قَتْلًا لأَبْطالِها ، وَأَسْرًا لأَعناقِ رِجالِها ؛ وَأَخْذًا لِغِلاخِ المِلسرةِ

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فونها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكفرة".

منها، وأنه لم يُفَلِّتْ من جماعتها إلا مَنْ يُخْبِرُ عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيماً يخرج
عما تَضَمَّنَه هذا السَّجِلُّ لما آقْتَصَرَ عليه، إلا أنه عَاجَلَهُ ما يَسْرُهُ بِجَاهِرٍ لَكَ
بِمَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ لَدَيْهِ؛ وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُحْدِمُكَ السُّعُودَ، وَيُحْصُكَ مِنْ مَوَاجِبِهِ
بِمَا يَتَجَاوَزُ المَعْهُودَ؛ وَيُمَدُّكَ بِمَوَادِّ التَّوْفِيقِ والتَّأْيِيدِ، وَيَقْضِي لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ
بِمَا لَمْ يَوْضِعْ فِيهِ لِلزَّيْدِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ قَدْ رُفِضَ وَتُرِكَ اسْتِعْمَالُهُ فِي زَمَانِنَا
فَلَا مَعْوَلٌ عَلَيْهِ أَصْلًا .

الصنف الحادى والعشرون

(المكاتبَةُ بالإِحْمَادِ والإِذْمَامِ)

قال في "موادِّ البيان" : السُّلْطَانُ مَحْتَاجٌ إِلَى مَكْتَابَةٍ مَنْ يَقِفُ مِنْهُ عَلَى طَاعَةِ
وَأَجْتِهَادِ، وَمُنَاصِحَةٍ وَإِخْلَاصِ، بِالشُّكْرِ والإِحْمَادِ، وَالبَعِثِ عَلَى الأَزْدِيَادِ مِنَ المُخَالَصَةِ
وَحُسْنِ السَّعْيِ فِي الخِدْمَةِ وَغَيْرِهَا؛ مِمَّا يَرْتَبِطُ بِهِ النِّعْمَةُ، وَيَسْتَوْجِبُ مَعَهُ حِفْظَ الرِّبَةِ .
وَمَكْتَابَةٍ مَنْ يَعْتَرُ مِنْهُ عَلَى تَهْصِيرِ وَتَضْجِيعِ، وَتَفْرِيطِ وَتَضْيِيعِ؛ بِالدَّمِّ وَالتَّقْرِيعِ
وَالتَّأْيِيبِ : لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو أَعْوَانُ السُّلْطَانِ مِنْ كُفَاةِ يَسْتَدِيمِ كِفَايَتِهِمْ بِتَصْوِيبِ
مَرَامِهِمْ، وَاسْتِحْسَانِ مَسَاعِيرِهِمْ؛ وَإِحْمَادِهِمْ عَلَى تَسْمِيرِهِمْ، وَشَرْحِ صُدُورِهِمْ
بَسْطِ أَمَالِهِمْ؛ وَالعِدَّةِ بِرَفْعِ مَنَازِلِهِمْ وَمَحَالَمِهِمْ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَلَى نَظَرَاتِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ؛
وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوْبِيخِ وَتَقْدِيمِ الأَعْدَارِ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ سَقُوطِ المَرَاتِبِ، وَقُبْحِ
المَصَائِرِ وَالعَوَاقِبِ .

(١) فِي الأَصْلِ "وَشَاهِدٌ" .

قال : وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما ، إلى المعاني الناجمة في الغرضين ، ويتوسط فيهما سميًا التوسط الذي يقتضيه الحال المقاض فيها : لأن في ذلك تقريرًا للمحسن على إحسانه ، ونقلًا للمسيء عن إساءته : لأنه إذا علم الناهض أنه مثاب على نهضته ، والوأي أنه معاقب على ونيته ، آجتهد هذا في الاستظهار بخدمته بما يزيد في رتبته ، وخاف هذا من حط منزلته وتغيير حاله . ثم قال : والرسوم في هذه المكاتبات تختلف بحسب اختلاف أغراضها ، وتشتعب بتشعب معانيها ؛ والأمر في ذلك موكول إلى نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كل شيء في موضعه ، وترتيبه إياه في مرتبته .

فأما المكاتبه بالإجماع ، فكما كتبت عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على محاربة باد الكردى .

كاتبنا ، ووصل كتابك مؤرخًا بيوم كذا ، تذكر فيه ماجرى عليه أمرك في الخدمة التي نيطت بكفائتك وغنائك ، ووكلت إلى تدبيرك ووفائك : من رد باد الكردى عن الأعمال التي تطرقها ، وحدت نفسه بالتعلب عليها ، وتصرفك في ذلك على موجبات الأوقات ، والتردد بين أختينا وعدتسا أبي حرب : زياد بن شهر ا كويه وبينك من المكاتبات ؛ وحسن بلائك في تحيفه ، ومقاماتك في حص جناحه ، وآثارك في الاقتضاض على فريق بعد فريق من أصحابه ؛ وأضطرارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي استعملتها ، والسياسات التي سست أمره بها ؛ إلى أن نزل عن وعورة المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ؛ وتراجع عن السوم إلى الاقتصار ، وعن السرف إلى الاقتصاد ؛ وعن الإباء إلى الاقتياد ،

وعن الاعتياص إلى الإذعان؛ وأن الأمر استقر على أن قُبلت منه الإجابة، وبذلت له فيما طلب الاستجابة؛ واستُعِيدَ إلى الطاعة، واستُضِيفَ إلى الجماعة؛ وتَصَرَّفَ على أحكام الخدمه، وجرى مجرى مَنْ تَضَمَّهُ الجملة؛ وأُخِذَت عليه بذلك العهود المستحكمة، والأيمانُ المغلظة؛ وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده، وُضِرِبَتْ عليها حُدُودُه، وفهمناه .

وقد كانت كُتِبَ أختينا وعُدَّتنا أبي حرب [زياد بن شهرا كويه] ^(١) مولى أمير المؤمنين تَرِدُ علينا، وتَصِلُ إلينا؛ مشتملة على كُتَيْبِك إليه، ومُطالعاتك إياه؛ فنعرُفُ من ذلك حُسْنَ أَثْرِكَ [وحزم رأيك] ^(١) وسداد قولك، وصواب اعتمادك؛ ووقوع مضاربك في مفاصلها، وإصابة مرَاميك أغراضها؛ وماعدوت في مذاهبك كُلِّها، ومُتَقَلِّباتك بأسرها؛ المطابقة لإيثارنا، والمؤافقة لما أمرت به عنا؛ ولا خلت كُتَيْبِ أختينا وعُدَّتنا أبي حرب من شُكْرِ لَسَعِيكَ، وإحماد لأثْرِكَ؛ وثناء جميل عليك، وتلويح وإفصاح بالمناسبة الحقيقية بك، والمؤالاة اللازمة لك؛ والوفاء الذي لا يُستغْرَبُ من مثلك، ولا يستكثر ممن حلَّ في المعرفة محلك؛ ولئن كُنْتَ قصدت في كُلِّ نهج استمرت عليه، ومعدلي عدلت إليه؛ مكافئة هذا الرجل ومُراعته، ومُصَابَرَتُهُ ومنازلته؛ وألتماس الظهور عليه في جميع ما تراجعته من قول، وتنازعتاه من حد؛ فقد أجمع لك إلى إحمادنا إياك، وأرتضائنا ما كان منك؛ المنة عليه إذ سَكَنْتَ جاشه، وأزلت أسديحاشه؛ وأستللته من دنس لباس المخالفه، وكسوته حُسن شعار الطاعة؛ وأطلت يده بالولاية، وبسطت لسانه بالبحه؛ وأوقيت به على مراتب نُظْرَائِهِ، ومنازل قُرَائِهِ؛ حتى هابوه هيبة الولاه، وأرتفع بينهم عن مطارح العصاه .

(١) الزيادة عن رسائل الصابي المخطوطة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا، وعند أخينا وعدتنا أبي حربٍ مشكورا؛ وعلى هذا الرجل مائتا، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مئتا ماجورا؛ ولما به نسال أن يجزى علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا، ونصرة أوليائنا؛ والحكم لنا على أعدائنا، وإتزالهم على إرادتنا؛ طوعا أو كرها، مسلما أو حربا؛ فلا يخلو أحد منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربقة أسر، أو مينة عفو؛ إنه جل ثناؤه بذلك جدير، وعليه قدير.

ويجب أن تنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردى إن كنت لم تنفذها إلى أو أن وصول هذا الكتاب : لتكون في خزائنا محفوظه ، وفي دواويننا منسوخه ؛ وأن نتصرف في أمر رسله وفي بقية - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حرب ، فرأيك في العمل على ذلك ، وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك ؛ وما يحتاج إلى علمه من جهتك ، موقفا إن شاء الله تعالى .

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف المألوم فيه والمذموم بسببه . فمن ذلك الذم على [ترك] الطاعة وشق العصا .

كما كتب عمارة يصف شخصا بأنه لما ارتفع مكانه ، وعلا قدره ؛ بطر معيشته ، وخرج عن طاعة الخليفة : وأن فلانا كان ممن عرفت حاله : في غموض أمره ، ونحو ذكرك ؛ وضيق معيشته ، وقلة عدده وناهضته ؛ ولا تجاوز حياته ما يقوله ، ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه ؛ ولا يمني نفسه ، ولا يدفع يد لأمس عنه بقوة تنوء بملاي ، ولا عز يلجا إليه . فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه ، وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا ترجى له ؛ وبسط له من الدنيا ، وآتاه من غصارتها ونعمتها ، وعزها وسلطانها ، ما لم يؤت أحدا من أهل زمانه . فلما مكّن الله

له في الدنيا طغى وتجبّر، وعلا وتكبر؛ وظن أن الذي كان فيه شيء قاده إلى نفسه
بحوله وقوته : تهويلا من الشيطان، وأستدرأجا منه له .

وكما كتب عبد الحميد في مثله :

أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله لك ، إلا ما أحب من رب
صنيعته قبلك ، وأستيتام معروفه إليك ؛ وكان أمير المؤمنين أحق من أصلح ما فسد
منك ؛ وإنك إن عدت لمثل مقاتك ، وما بلغ أمير المؤمنين عنك ؛ رأى في معاجلتك
رأيه ؛ فإن النعمة إذا طالت بالعبد مُتددة أبطرته : فإساء حمل الكرامة ، وأستقل
العافية ؛ ونسب ما هو فيه إلى حيلته ، وحسن نيتيه ورهطه وعشيرته . وإذا نزلت به
الغير ، وأنكشفت عماية العشي عنه ؛ ذل متقادا ، وندم حسيرا ؛ وممكن منه عدوه :
قادرا عليه ، وقاهرا له . ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك ، ومعاجلة
إفسادك ، جمع بينه وبين من شهد قلتات خطك وعظيم زلتك ؛ ولعمري لو حاول
أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك ، ومجودك فضله عليك ، لردك إلى ما كنت
عليه ، ولكنت مستحقا .

وفي مثله :

فإن صاحب البريد كتب إلى عن أصحابك بكذا ، فقلت : إنهم لم يقدموا على
ما أقدموا عليه حتى تجمؤك ، فعرّفوا خور عودك ، وضعف مكبيرك ، ومهانة
نفسك ، وأنه لا غير عندك ولا تكبير .

ومن ذلك الدّم على الخطيا ، كما كتب أحمد بن يوسف :

كان البخل والشوم صارا معا في سهمه ، وكانا قبل ذلك في قسيمه ؛ فغازهما
بالورائه ، وأستحق ما أستملك منهما بالشفعة ؛ وأشهد على حيازتهما أهل الدين .

والأمانة حتى خَلَصَ له من كُلِّ ممانِع ، وسأله من تَبِعَهُ كُلِّ مُنَازِع ؛ فهو لا يُصِيبُ إلا مُخْطِئًا ، ولا يُحْسِنُ إلا نَاسِيًا ؛ ولا يُنْفِقُ إلا كَارِهًا ، ولا يُنْصِفُ إلا صَاعِرًا .
قلت : وهذا الصَّنْفُ من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وَقُوعُهُ في وَقْتٍ من الأوقات . فإن عَرَضَ له مُوجِبٌ ، راعى الكاتِبُ فيه صورة الحال ، وكتب على ما يوجبُه المقام ، وتَقْتَضِيهِ تلك الوقعة .

الصنف الثاني والعشرون

(ما يُكْتَبُ مع الإِنعام لِنُؤَابِ السُّلْطَنَةِ بِالْحَيْلِ وَالْجَوَارِحِ)

وغيرها من أنواع الإِنعامات) وهذا الصَّنْفُ من المستعمل في زماننا كُلِّ وَقْتٍ فاما ما يُكْتَبُ مع الإِنعام بِالْحَيْلِ ، فقد جرت العادة أن السلطان يُنْعِمُ بِالْحَيْلِ على نُؤَابِ السُّلْطَنَةِ بِالشام ، وَيُكْتَبُ بِذلك مِثَالَاتٌ شريفة إليهم . ورُبَّمَا أنعم بِالْحَيْلِ وَكُتِبَ بها في غير ذلك .

وهذه نُسخة مِثَالٍ شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الجَنَابِ وَخَصَّهُ من النعم بما لا تُحْصِي له آثار ، ولا يُتَعَلَّقُ له بِغُبَارٍ ؛ ولا يوصف بِجَالٍ واحدة : لأنه إن جرى فَبَحْرٍ وإن وَقَفَ فَنَارٍ .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجَنَابِ العالى بِكُلِّ سلام لا تُدْرِكُ لسوابقه غايه ، ولا تُحْصِي له نِهَايَه ؛ ولا يرد منه كل ما جاء وله في وجهه كَفَاقِ الصُّبْحِ آيَه ، ولا يُتَقَدَّمُ في مِيدَانِ إلا وقد حُمِلَ له في كُلِّ مكانٍ رَأْيَه . وتَوَصَّحَ لعلمه الكريم أنه قد جُهِّزَ له قَرِينَهَا ما جرت به عادته من الحُصْنِ التي لا يدعى البرقُ أنه لها نَظِيرٌ ، ولا تُجَارِي الرِّياحُ من سوابقها ما يطير ؛ كم لها في مِيدَانِ جَمَالٍ ، وكم لها في رُؤْيَةِ دَوِّيَّةِ آرْتِجَالِ ؛

وكم دُعِيَ الوغى بها على كُلِّ ضَامٍ فانت رجالا تَقْدَحُ سَنَائِكُهَا نارا، وَتَفِيضُ جَوَانِبَهَا
 مِنَ الرَّيْضِ عَقَارًا، وَيَتَكْفَلُ بِدَيْعُهَا بِكُلِّ مَرَامٍ، وَتُعْطَى مَا فِي يَدَيْهَا لِأَنَّهَا مِنَ الْكِرَامِ؛
 وَقَدْ تَشَرَّفَتْ مِنْ نِعْمِنَا الشَّرِيفَةِ بِالسُّرُوجِ وَالنُّجْمِ وَالْعِدَّةِ الْمُكَمَّلَةِ، وَتَحَلَّتْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ مَا يُغْنِي بِجَمَلَتِهِ الْمُفْصَلَةَ؛ وَأَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِ تَرْقُصُ فِي أَعْيُنِهَا زَهْوًا، وَتَتْرُكُ بِطَيْبِ
 صَهِيلِهَا كُلَّ بَحْرِ تَحْوِضُهُ إِلَى الْمَنَائِي رَهْوًا؛ وَتَوَجَّهَ بِهَا فَلَانٌ كَالْعُرَائِسِ الْمَجْلُوتَةِ فِي حُلَاهَا،
 وَالنُّجُومِ لَوْلَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ حَلِيِّ عَطَلِهَا؛ وَالسَّحَابِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ مِنَّةَ الرِّيحِ
 فِي تَقْلُهَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الشَّرِيفَةَ بِشُكْرِهَا ، وَلِيَتَسَلَّمَ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ الَّتِي
 تَعْتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بِقَدْرِهَا ؛ وَلِيَحْمَدَ اللَّهَ مِنْ تَفَقُّدَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى كَرَمِ فَرَسِ جَاءَ
 وَهُوَ سَابِقٌ ، وَجُودِ جَوَادٍ لَا يَدُورُ مَعَهُ السَّحَابُ فِي طَائِقٍ ؛ وَيَعْتَمِدُهَا لِأَرْتِقَاءِ كُلِّ
 صَهْوَةٍ مُنِيفَةٍ ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ ؛ وَيَعِيدُ الْوَاصِلَ بِهَا إِلَى
 خِدْمَةِ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ عَلَيْهِ بِنَا النِّعَمِ الْمُتَوَالِيَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



أَخْسِرُ : وَلَا زَالَ إِقْبَالَنَا يُمِئِدُهُ مِنَ الصَّافِنَاتِ الْحَيَادِ بِمَا يُبَارِي الرِّيحَ ، وَيَتَمَنَّوْنَ
 بِغُرْبِهَا الصَّبَاحَ ، وَيَطْلُقُ أَعْيُنَهَا فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ فَتَسْبِقُ بِرَكْبِهَا ذَوَاتِ الْجَنَاحِ ؛
 وَلَا بَرِحَ إِنْعَامِنَا يُخَفِّهُ بِكُلِّ طَرَفٍ يُبْهِجُ الطَّرْفَ ، وَيَتَلَجُّ الصَّدْرُ بِمَا آسَمَدَ عَلَيْهِ مِنْ
 الْمَلَاحَةِ الَّتِي تَرُوقُ الْعَيْنَ وَتَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيُفْرِدُهُ بِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالنُّبِينِ :
 إِذْ هُوَ وَاحِدٌ كَالْأَلْفِ - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَعْبُقُ بِطَيْبِ نَشْرِهِ أَرْجَاؤُهُ ، وَشَاءَ يُعْرَبُ
 عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ وَسُمُوِّ ذِكْرِهِ فَيُشْرِقُ سَنَاؤُهُ وَيُضَاعَفُ سَنَاؤُهُ ؛ وَتَوْصَحُّ لِعَالِمِهِ
 الْكَرِيمِ أَنَّهُ غَيْرُ خَافٍ عَنْهُ مَا يَبْصُلُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْخِيُولِ الْبَرِّيقَةِ فِي كُلِّ عَامٍ ،

وما يُخَصُّه منها بـكُلِّ مَيْمُونِ الْغُرَّةِ مُبَارَكِ الطَّلَعَةِ هِنِيءِ السَّيْرِ عَلَى الْإِنْعَامِ ؛ وقد أرسلنا إلى جنابه الكريم من ذلك سَهْمَهُ ، وَأَضَفْنَا إِلَى ذَلِكَ مَا اسْتَصْلَحْنَاهُ مِنَ الْخَيْلِ الْعَرَبِيَّةِ الْغَرِيبَةِ وَالْعِنَاقِ الْعَجِيبَةِ الْعَرَبِيَّةِ (١) ، مِمَّا الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ، فَتَرَهَّقُ عَلَى صَهَوَاتِهَا نَفُوسَ الْأَعْدَاءِ وَتَسْتَرْطُهَا مِنْ صَيَاصِيهَا ؛ فَيَأْخُذُ الْجَنَابُ الْعَالِي مَا يُخَصُّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُفَرِّقُ الْبَاقِيَ عَلَى مَنْ رَسَمْنَا لَهُ بِهِ يُعْمِنُ رَأْيَهُ الْمُبَارَكِ الَّذِي لَا يُسَاهِمُهُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُشَارِكُ ؛ وَيُجَهِّزُ الْخَيْلَ الْمَخْصُوصَةَ بِفُلَانٍ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى بِضَاعَفٍ عِزِّ ظُهُورِهَا عِنْدَ أَمْتِطَاتِهَا لَدَيْهِ .

وأما ما يكتب مع الإنعام بالجواريح [فَمَا يُكْتَبُ] (١) مع إرسال سُقْرِ .

وقد بعثنا إليه بسُقْرِ كَأَنَّهُ مَلِكٌ مُتَوَجِّحٌ ، وَرِزْقٌ مُرَوِّجٌ ؛ تَجَزَّأً عَلَى سَفِكِ الدَّمَاءِ ، وَأَبَى أَنْ يَطْلُبَ رِزْقَهُ إِلَّا مِنَ السَّمَاءِ ؛ يُوَدُّ الْكُرْكِيُّ لَوْ خَلَصَ مِنْ مَخَالِيهِ ، وَيَخَافُ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ خِرَطِ الشَّبَكَةِ (٢) وَيَقَعَ فِي كَلَالِيهِ ؛ يُدْرِكُ الصَّيْدَ وَلَا يُوجَلُّهُ ، وَيَرْفَعُ صَدْرَهُ ثُمَّ يُؤَمِّي إِلَيْهِ بِرَأْسِهِ كَأَنَّهُ يَسْتَعْجِلُهُ ؛ قَدْ جَمَعَ مِنَ الْمَحَاسِنِ كُلِّ الصُّنُوفِ ، وَكُتِبَتْ عَلَيْهِ أَسْطَرٌ تُقْرَأُ بِمَا تُقْرَى بِهِ الضُّيُوفُ .

ومما يكتب مع إرسال صَقْرِ .

وقد وجَّهنا إليه بصَقْرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الصَّيْدِ حِرَاحٌ ، وَلَا يَدْعُ مِنْ وَحْشٍ يَسْرَحُ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحٍ ؛ أَيَّمَا تَوَجُّهِ لَأَيَاتِ إِلَّا بِجَوْرِ ، وَحَيْثُ أُطْلِقَ كَانَ حَتْفُ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ ؛ يَدْعُ أَفْطَارَ الْفَلَاةِ بِجَزَرِهِ ، أَوْ رَوْضَةَ الدَّمَاءِ مُزْهِرِهِ ؛ يَجِدُّ إِلَى الطَّيْرِ فِي عُنُقِهِ ، وَيُحَلِّقُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرْجِعُ وَطَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ ؛ تَخَافُهُ الْعُقُورُ عَلَى نَفُوسِهَا ، وَتَخْضَعُ لَهُ وَلَا مَنَالَهُ فَمَا تَخْرُجُ إِلَّا وَالطَّيْرِ عَلَى رُؤُوسِهَا ؛ يَزِيدُ خُبْرَهُ فِي مَطَآنِ الصَّيْدِ عَلَى الْخَبْرِ ،

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

(٢) كذا في الأصل و"التعريف" .

وتخرج الطَّيَّاءُ وقد تَسَبَّجَتْ خَوْفًا مِنْهُ فِي مَلَأَةٍ مِنَ الْعَجَاجِ مَحِيظَةً مِنْ قَرُونِهَا بِالْإِبْرَةِ
شَدِيدِ الْأَيْدِ ، قَدْ بَنَى عَلَى الْكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْدِ ؛ يَحْمَدُ مُقْتَنِيهِ أَيَّامَهُ الْغُرَّ ؛ وَيَقُولُ
لَهُ إِذَا تَلَقَّتْ إِلَى الصَّيْدِ : إِنْ جَلَبَتْ ضُبْعًا فَانْتِ حَرٌّ ؛ لَا يَصْحَبُ مُسْتَصْحِبُهُ مَعَهُ
إِلَّا مَرَّادَهُ ، وَأَيْمًا سَارِ حَامِلُهُ - وَهُوَ مَعَهُ - كَانَ مَعَهُ زَادَهُ .

ومما يكتب مع إرسال شاهين .

وقد وَجَّهَ إِلَيْهِ بِسَاهِينٍ إِذَا حَلَّقَ وَرَاءَ الطَّيْرِ شَاهَتْ بِهِ الْوُجُوهُ ، وَشَاهَدَتْ الْأَمَالَ
بِهِ مَا تَرْجُوهُ ؛ قَدْ أَصْبَحَ كُلُّ مُحَلِّقِ الْجَنَاحِ رَهِينَ يَدِهِ ، وَكُلُّ سَارِبٍ مِنَ الْوَحْشِ طَعَامُ
يَوْمِهِ أَوْ غَدِهِ ؛ لَا يُتَعَبُّهُ خَلْفُ الطَّرِيدَةِ بَعْدَ الْمَدَى ، وَلَا يَرُدُّهُ خَوْفُ مَسَافَةٍ وَلَا تَقَحُّمُ
رَدَى ؛ رَبِيَّةٌ عَامٌ لَمْ يُتَمَّعْ بِطُولِ مَادَهْرِ ، وَمَمْتَدَّةٌ مِنْهُ فِي الطَّلَاقِ مِثْلَ رِيحِ سُلَيْمَانَ غَدُّوْهَا
شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ .

ومما يكتب مع إرسال كوهية .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ كُوهِيَّةً ، هِيَ بِالْمَحَاسِنِ حَرِيَّةٌ ، وَلِكَثْرَةِ الْإِقْدَامِ جَرِيَّةٌ ؛ يَكُلُّ بِهَا
صَاحِبُهَا أَمْرًا مَطْبَخِيَّةً ، وَيَمْدَحُهَا مِنَ الطَّيْرِ مَنْ لَيْسَ بِمُضْرِحِهَا ؛ لَا تَعْفُ عَنْ دَمٍ ،
وَلَا تَرَى أَطْرَافَهَا إِلَّا مُثْمِرَةً بَعْنَابٍ^(١) أَوْ مُحَضَّبَةً بَعْنَدَمٍ ؛ قَدْ أَخَلَّتْ مِنْ كُلِّ سَائِخٍ^(٢) ،
وَلَيْسَتْ زِيَّ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ وَفَكَتْ بِكُلِّ سَائِخٍ .

ومما يكتب مع سقاوة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ بِسِقَاوَةٍ ، مَحَالِيْبُهَا عَلَى الطَّيْرِ كَالْحَدِيدِ أَوْ أَشَدُّ قَسَاوَةً ؛ تُسِيلُ دِمَاءَ
الصَّيْدِ كَالْمَدَائِبِ^(٣) ، وَتَكْسُو الْأَرْضَ حَبْرًا مِنْ رِيَّاشِ الْحَبَّارِيِّ وَفِرَاءٍ مِنْ جُلُودِ الْأَرَانِبِ ؛

(١) كذا في "التعريف" (ص ٢٢٥) وفي الأصل «مسكرة» .

(٢) في الأصل «قد أخلت من كل سائخ» والتصحيح عن "التعريف" .

(٣) كذا في "التعريف" وفي الأصل «كالمداب» .

وَجَعَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْكَفِّ مَا كَانَتْ الْعَيْنُ عَلَيْهِ تُدَوِّرُ ، وَتَكْفَلَتْ بِكِفَايَةِ الْمَطْبِخِ
وَمَلَأَتْ الْقُدُورَ .

ومما يُكْتَبُ مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه بِبَازٍ مَهْمَا لَقِيَ لَقِيفَ ، وَمَهْمَا خَطَا لَدَيْهِ خَطِيفَ ، كَأَنَّمَا خُطِّ
جَوْهَرُهُ بِقَلَمٍ ، أَوْ رِيَشٍ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ وَالظُّلَمِ ؛ قَدْ أُعِدَّ لِلطَّوَارِقِ ، وَأَدْرَأَ بِمِثْلِ
الطَّوَارِقِ ؛ قَدْ دَحَضَ مُجَجِّجَ الْجَمَلِ ، وَكَسَرَهَا حَتَّى أَبَانَ عَلَيْهَا حُمْرَةَ الْجَمَلِ ؛ لَا يُسْأَلُ
فِي الصَّيْدِ عَمَّا نَهَبَ ، وَلَا تُعْرَفُ لَهُ قِيَمَةٌ إِلَّا أَنْ لَهُ عَيْنًا مِنَ الذَّهَبِ .

ومما يُكْتَبُ مع الفهد .

وقد أنعمنا عليه بفهدٍ أهرتِ الشَّنْقُ ، ظاهراً الحِدْقُ ؛ بِأَدَى الْعُبُوسِ ؛ مُدَنَّرٌ
الْمَلْبُوسِ ؛ شَتْنِ الْبَرَاثِنِ ، ذِي أَنْيَابٍ كَالْمُدَى وَمَخَالِبَ كَالْمَحَاجِنِ ؛ قَدْ أَخَذَ مِنَ الْفَلَقِ وَالْفَسَقِ
إِهَابًا ، وَتَقَمَّصَ مِنْ نُجْلِ الْحِدْقِ جِلْبَابًا ؛ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي سُرْعَةِ وَثُوبِ الْأَجْلِ بِهِ
وَبَشْبِهِهِ ، وَتَكَادُ الشَّمْسُ مُدُّ لَقَبُوهَا بِالغَزَالَةِ لَا تَطَّلِعُ مِنَ الْوَجَلِ عَلَى وَجْهِهِ ؛ يَسْبِقُ
إِلَى الصَّيْدِ مَرَامِي طَرْفِهِ ، وَيَقُوتُ لِحَظِّ مُرْسِلِهِ إِلَيْهِ فَلَا يَسْتَكِلِ النَّظَرَ إِلَّا وَهُوَ
فِي كَفِّهِ ؛ وَتَقَدَّمَهُ الضَّوَارِي إِلَى الْوَحْشِ فَإِذَا وَثَبَ لَهُ تَعَثَّرَتْ مِنْ خَلْفِهِ ^(١) .

وأما ما يُكْتَبُ مع الإنعام بالسلاح .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سيفًا تلمعُ محاليلُ النَّصْرِ مِنْ غَمْدِهِ ، وَتُسْرِقُ جِوَاهِرَ
الْفَتْحِ فِي فِرْنِيدِهِ ؛ وَإِذَا سَابَقَ الْأَجَلَ إِلَى قَبْضِ الثُّغُوسِ ، عَرَفَ الْأَجَلَ قَدْرَهُ فَوْقَ
عِنْدِ حَدِّهِ ؛ وَمَتَى جَرَّدَ عَلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْعِدَا وَهَتْ عَزَائِمُهُ ، وَعَجَزَ جَنَاحُ جَيْشِهِ

(١) وقع في هذه الرسالة تحريف كثير في الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أَنْ تَهَيَّضَ بِهِ قَوَادِمُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُفْنَا الَّذِي عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ [الْأَعْرَبِ]^(١) نَجَادُهُ فِي يَدِ
جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ قَائِمِهِ .

الصفحة الثالث والعشرون

(المكتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه)

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبته ، ويشير إلى تخصيص الخلافة
بمصريها إليه دون سائر البرية ، وانتقالها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كآبائه
عن كآبائه ، وبقائها في عقبه إلى الأبد . ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين
التي أنعمها الله تعالى عليه ، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولدا ، ويذكر
أسمه وكنته ، ويصفه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، وهي :

الحمد لله مؤيد الإسلام بخلفائه الراشدين ، ومُظهِر الإيمان بأوليائه الهادين ، الذي
جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين ، وأقام منهم الحاضر المستبوع ، والمرجو
المتوقع ، وأطلع منهم في سماء الهداية شهبا لا يخبو منها شهاب حتى يتوقد شهاب ،
وفتح بهم للإرشاد أبوابا لا يربح منها باب حتى يفتح باب .

يحمد أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آبائه ، ووقفه (؟) بانتقال ماورثه من آبائه
إلى أبنائه ، ويسأله أن يصل على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة
سيدنا محمد خاتم رسله ، المترجم عن توحيد وعنده ، وعلى أخيه وأبن عمه على بن
أبي طالب قسيمه في فضله ، ووصيه على أمته وأهله .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وإن أولى النعم بأن يُقَاضَ في سُكْرِها، وتُعَطَّرَ المحَافِلُ بِبَشْرِها ؛ نِعْمَةٌ حَاطَت
دَعَائِمَ الدِّينِ، وَأَمَرَّتْ حَبَلَ المَسامِينِ ؛ وتساوى^(١) في [تَنَاولِ] قِطَافِها الكَافِهَ، وَأَذَنَتْ
بُشْبُوعَ الرَّحْمَةِ والرَافِهَ ؛ وَأَضَحَّتْ بِها النُّبُوءَةَ مُشْرِقَةَ الأَنوارِ، والإمامَةَ عالِيَةَ المَنارِ ؛
وإِخْلَافَةَ مُخَمَّلَةَ المِذْبَرِ والسَّرِيرِ، رَافِلَةً في حُلَلِ الأَبْتِهاجِ والسَّرُورِ .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالى ولدا ذكرا مباركا رَضِيًّا، سَمَّاهُ
فَلانًا، وَكَناهُ أبا فِلانٍ، بِجِلا بَنهارِ غُرَّتِهِ الدَّامِسِ، وَأَقَرَّ بِمَقَدِمِهِ العائِسِ، وَأَخْضَرَ
بَيْنَ [نَقِيبَتِهِ] البائِسِ ؛ وَوَثِقَتْ الأَمالُ بِسَعادَةِ مَقَدِمِهِ، وَتَطَلَّعَتِ الأَعناقُ إلى جُودِهِ
وَكَرَمِهِ ؛ مُبَشِّرًا لَكَ بِهذِهِ النُّعْمِ الحَسَنَةِ الأَثَرِ، القَلِيلَةِ الخَطَرِ؛ عِلْمًا بِمِكانِكَ مِنْ وِلايَتِهِ
وَمُخَالَصَتِهِ، وَسُرُورِكَ بِما يُفِيضُهُ اللهُ عَلَيهِ مِنْ شَأْيِبِ نِعْمَتِهِ : لِتاخِذَ مِنَ المَسَرَّةِ
والبِجْدَلِ بِحَظِّ المَولَى المُخْلِصِ، وَالعَبْدِ المُتَخَصِّصِ ؛ وَلِتَشِيعَ مَضْمُونُ كِتابِهِ فيمَنْ قَبْلَكَ
مِنَ الأَولِياءِ، لِئِشارَتِكُونا في الشُّكْرِ وَالثَناءِ ؛ فَاعلَمْ هَذا وَأَعْمَلْ بِهِ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى .

[قُلْتُ] ^(١) وَهَذا الصَّنِفُ مِنَ المِكاتِبِ السُلطانِيَةِ مُستَعْمَلٌ في الإِشارَةِ عَنِ السُلطانِ
إِذا حَدَثَ لَهْ وَلَدٌ، فيُكْتَبُ بِالإِشارَةِ بِهِ إلى تَوابِ السُلطانَةِ وَأَهْلِ المِلكَةِ .

الصنف الرابع والعشرون

(ما يُكْتَبُ عَنِ السُلطانِ بِالإِشارَةِ بِعافِيَتِهِ مِنْ مَرِيضٍ)

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من مريض، إلى
صاحب ماردین، وهو :

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِهِ الكَرِيمِ مُتَوَاتِرَةً ، وَالْمَسَارُّ إِلَى مَقَامِ مُلْكِهِ سَائِرَةٌ ؛
وَالْتَهَانِي ، بِبُلُوغِ الْأَمَانِي ، مِنْ كَيْلِ شِفَانِنَا تَجْعَلُ نُفُورَ الثُّغُورِ بِاسْمِهِ وَوُجُوهَ الدُّهُورِ
نَاصِرَهُ ؛ وَنِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابَلَةً بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ عَلَى أَنْ أَجَدَّ مَلِكَ الْإِسْلَامِ بِإِفْتِقَادِهِ ،
وَأَبْقَى لِلذَّيْنِ الْمُحَمَّدِيِّ نَاصِرَهُ . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِيِّ وَمَوَارِدُنَا مِنَ الصَّحَّةِ حُلُوةً
فِي الْأَفْوَاهِ ، وَالسُّنْتِنَا شَاكِرَةً لِنِعْمِ اللَّهِ ؛ وَعَافَيْنَا نُجَدَّدُ فِي كُلِّ جَدِيدٍ ، وَصِحَّتْنَا قَدْ بَلَغَتْ
مِنَ الْمَزِيدِ مَا نُرِيدُ ؛ وَقَدْ أَلْبَسْنَا اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الشِّفَاءِ ثَوْبًا قَشِيبًا ، وَنَصَرْنَا نَصْرًا عَزِيزًا
وَفَتَحَ لَنَا قَتْعًا مُبِينًا - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَتَارَجُ بِهِ أَرْجَاءُ مُلْكِهِ ، وَتَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ
فِي سَلِكِهِ ؛ وَتُوضِّحُ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ مَا حَصَلَ مِنْ عَافِيَتِنَا الَّتِي تَضَاعَفَ بِهَا فَرَحُ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْهِمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الضرب الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان في الجواب)

وَكُلُّ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْوَارِدِ بِهَا الْكَلْبُ إِلَيْهِ يُسْتَقُّ جَوَابُهُ مِنْهَا ، وَغَالِبَ مَا يُعْنَى
بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَابُ مَا يَرِدُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ بِالتَّقَادُمِ وَالْهِدَايَا ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها .

جواب سُطْطَانِيٍّ عَنْ وَصُولِ خَيْلٍ : - وَلَا زَالَ يُخْفِ بِكُلِّ صَاهِلٍ فِي الْجُحْفَلِ ،
وَبِحَمَالٍ فِي الْمُخْفَلِ ؛ وَأَجْرَدَ إِذَا أُمَّ غَايَةَ لَمَعَتْ فِي أَثَرِهِ الْبُرُوقُ تَتَطَفَّلُ ، وَمُسَوِّمٌ يَلْتَمِ
جَلَالَهُ بِمَزِيدِ جَلَالِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ إِذَا أُسْدَلَتْ عَلَيْهِ يَتَكَفَّلُ ! . أَصْدَرْنَاهَا وَالْعِطْرُ
يَضُوعٌ مِنْ سَلَامِهَا ، وَالْمَسْكُ يُفُوحُ مِنْ خِتَامِهَا ، وَأَنَارَ النَّدَى تَحْكِي آثَارَ أَقْلَامِهَا .

آحر في المعنى : ولا زال مُحْتَمِلًا بِالْحَيَادِ وَإِرْسَالَهَا، وَمُهْدِيًا لِرِكَابِنَا الشَّرِيفِ
السَّوَابِقِ الَّتِي إِذَا لَمْ يَسَابِقْهَا شَيْءٌ مِنْ لِيَوَانَ تَجَلَّتْ فِي مُسَابَقَةِ ظَلَالِهَا، وَيَتَّقِي لِمَوَازِينِهَا
الْحَيُولِ الَّتِي إِذَا أَصْبَحَتْ فِي مَدَى أَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَتَعَلَّقُ بِأَذْيَالِهَا . أَصْدَرْنَاهَا .

آحر في مثله : ولا زال يُهْدِي إِلَيْنَا مِنَ الْحَيَادِ بَحْرًا، وَيَقُودُ مِنَ الْعِرَابِ مَا تَمَلَأُ
غُرَّتَهُ الْمَوَاكِبَ بِشِرَاءٍ، وَإِذَا طَلَعَ فِي الْكَيْبَةِ يَزِيدُهَا عِزًّا وَنَصْرًا، مِنْ كُلِّ طَرَفٍ
تَأَصَّلَ حُسْنًا وَحَسُنَ إِهَابًا وَجَلَّ قَدْرًا .

آحر في مثله : وَأَعْلَى لَهُ عَلَى صَهَوَاتِ الْعِتَاقِ مُرْتَقِيًا، وَخَصَّهُ بِكُلِّ جَوَادٍ وَهُوَ مُنْتَقِلٌ
إِلَيْهِ مُنْتَقِيًا، وَأَطْلَعَ عَلَيْهِ نَوَاصِي الصَّوَابِقِ الَّتِي عُقِدَ الْخَيْرُ بِهَا عَقْدًا مُوثِقًا . أَصْدَرْنَاهَا
وَنُورُ التَّحَايَا مِنْ أَرْجَائِهَا يُبِيرُ، وَمَفَانِحُهَا تَسْرَفُ بِهَا كُلُّ مَنِيرٍ وَسَرِيرٍ، وَرِكَابُ أَثْنَيْتِهَا
تَسِيرُ إِلَى مَقَامِهِ فَتَطِيبُ رَاحِلَةً فِي ذَلِكَ الْمَسِيرِ .

آحر في مثله : وَلَا زَالَ يُهْدِي مِنَ الْحَيَادِ الْمُسَوِّمَةَ أَصَائِلَهَا، وَيُخْفُفُ مِمَّا يَجِيهِ عِنْدَ
الْوِفَادَةِ عَلَيْهِ صَاهِلَهَا، وَيَقَابِلُ أَكْرَمَ غُرَّةٍ: الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَاصِيَتِهَا وَالْيَمْنُ يُقَابِلُهَا، وَيُمْتَعُ
بَاعْزَ جَوَادٍ حَلِيَّةِ الشَّفَقِ دُونَ إِهَابِهِ إِذْ يَمَاطِلُهَا، وَسُرْعَةُ الْبَرَقِ خَفَّتْ إِذْ يُسَاجِلُهَا .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكُتِبَ الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب

بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

إعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من
الأبواب السلطانية، يأمرهم ^(١) كُتِبَ نَائِبُ الشَّامِ إِلَى نَوَابِ السُّلْطَنَةِ بِوَرُودِ

(١) بياض بالاصل ولعله بأمر .

المثال الشريف مُبَشَّرًا بذلك ؛ ويجهز إلى كُلِّ منهم مع المثال الوارد إلى كُلِّ نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك . إلا أنه يكون حاكيا لصورة المثال الوارد بذلك ، لأنه مُبْتَدَأُهُ ؛ ويشتمل ذلك على عدة أمور .

فمن ذلك جلوس السلطان على تحت المُلْك ، فيخبر نائبُ الشَّام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بأنَّ المِثَالَ الشريف ورد عليه بذلك ، وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه بجهزه إليه .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِبَ به عن نائب الشَّام إلى بعض نواب السلطنة ، بالإشارة بسُلْطَانَةِ السُّلْطَانِ المَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ ، وقد ورد على يَدِ بعض المُجَابِبِ . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ ، في سنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهي بعد الصدر :

أمتعه [الله] من البشائر بما يتَّوَصَّحُ على جبين الصَّباحِ بِشْرُهُ ، وبما يَتَرَجَّحُ على ميزان الكواكب قَدْرُهُ ؛ وبما يَنْفَسِحُ من أوقات أَمْنٍ لَا يَخْتَصِمُ فِي ظِلِّهَا زَيْدٌ وَعَمْرُو حَتَّى يُقَالَ : وَلَا زَيْدٌ النَّحْوِ وَعَمْرُو . وَيُنْهَى بِعَدَدِ دَعَاءِ يَتَّبَلَّجُ فِي اللَّيْلِ فَجْرُهُ ، وَشَاءَ يَتَّارِجُ فِي طَيِّ النَّسِيمِ نَشْرُهُ ، وَوَلَاءٍ يَتَسَاوَى فِي دَرَجَاتِ الصَّفَاءِ سِرُّهُ وَجَهْرُهُ . أَنَّ خَيْرَ الْبَشَائِرِ مَا خَصَّ أَوْلِيَاءَ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَعَمَّ الرِّعَايَا ، وَسَمَّا إِلَى تُغُورِ الْإِسْلَامِ خَيْرُهُ الْجَلِيَّ فَقَالَ : «أَنَا ابْنُ جَلَاوُطْلَاعِ الثَّنَائِيَا» وَقِسَمَتْ مَسْرَّتَهُ عَلَى كَافِلِي الْمَمَالِكِ فَقَالَتْ مَمْلُوكَةٌ مَوْلَانَا : «لَنَا الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا» وَسَلَكَ الْمَمْلُوكُ مِنَ الْإِسْرَاعِ بِإِشَاعَتِهِ الْحَقَّ الْوَاجِبَ ، وَجَهَّزَ خِدْمَتَهُ بَيْنَ يَدَيْ الْمِثَالِ الشَّرِيفِ الَّذِي سَبَقَ طَائِرُ مَيْمِنِهِ وَلِكِنَّهُ جَاءَ فِي خِدْمَتِهِ حَاجِبٌ ؛ وَهِيَ الْبُشْرَى الْوَارِدَةُ فِي الْأَمْثَلَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَةِ ، الْمَالِكِيَةِ الْمَلِكِيَةِ ، الصَّالِحِيَةِ الْعِمَادِيَةِ ؛ الْعَرِيقَةُ فِي نَسَبِ النَّصْرِ بِالْأَنْسَابِ النَّاصِرِيَّةِ الْمَنْصُورَةِ ، أَعْلَى اللَّهِ

تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها، وصرف بها الأئمة لِمَا سَرَّ وصرَفَهَا عَمَّا دَهَى؛
 يجلسه على كُرْسِيِّ المملِكة الذي هو آية سَعْدِهِ الكُبْرَى، وَتَحْتَ السُّلْطَنَةِ الذي عينه
 مَلِكُ الجُودِ والعِلْمِ فقال: السَّلَامُ عَلَيْكَ بَحْرًا؛ وإجماع الأمة على أنه صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ،
 وَكَفَاةُ الحَلِّ والعَقْدِ على أنه سُلْطَانُ الإسلام والمسلمين؛ وأركان البيْتِ النَّاصِرِيِّ
 على أنه عمادُه، وعلى أنه سَنَدُ المَكَلِّ وإذا انقَضَ بَيْتُ سِنَادِهِ؛ فياله جُلُوسًا قامت
 فيه كواكب السَّعْدِ مشدودة المَنَاطِقِ، وباله إجماعًا آتفق فيه - حتى من تصميم
 السيوف وتعبير الأفلام - كُلُّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ؛ وباله بَيْتَ مُلِكِ أَبِي الله إِنْ أَن يَقِيمَ
 وَزَنَهُ أَفْضَلُ الأَفَاعِيلِ، وباله مَلِكًا قال الدَّهْرُ الطَّوِيلُ أنتظاره: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾. وباله أَمْرًا بَلَغَ حُبُّهُ وَخَبْرَهُ الأَوْطَارَ والأوطانَ،
 وَنَفَذَتْ بُرْدَهُ المِصْرِيَّةَ على حِينِ فَتْرَةٍ تَالِيَةٍ لَهُ السُّعُودِ: ﴿فَاتَّقِدُوا لَاتَفْذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾
 وَحُشِرَ النَّاسُ صُحَى لِيَوْمِ الزَّيْنَةِ، وجاءوا إليها مستبشرين من أذنى وأقصى كُلِّ مَنْ
 فِي المَدِينَةِ؛ وَضُرِبَتِ البِشَارُ وَيَعْجَبًا! أَنهَا تُضْرَبُ وَمَكَاتُهَا مِنَ القُلُوبِ مَكِينَةً.
 حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِصْرُ حَظَّهَا مِنَ المَنَاءِ قُسِمَتْ عَلَى الأَمْصَارِ، وَأَضَاءَ بَارِقُ نَشْرِهَا
 مِنْ كُلِّ وَجْهِ فَسَمَتْ بِالشَّامَاتِ غُرَّةَ الأَبْصَارِ؛ وَرَكَضَ بَرِيدُ الخَيْرِ بِمَبَارِكِ بابِ البَرِيدِ،
 وَوَصَلَ نَيْلُ النِّيلِ إِلَى أَنهَارِ دِمَشْقَ فَبَرَدَى عَلَى الشُّكْرِ نَائِبٌ وَيَزِيدُ؛ وَبُشِّرَ الإِسْلَامُ
 مِنْ وَجْهِ الخَلْفِ الصَّالِحِ بِأَكْرَمِ مَنْ بَرَّ، وَأَسْتَفَاضَ الأَسْمَ الشَّرِيفَ: فَلَوْ كَلَّفَ مُشْتَأَقٌ
 فَوْقَ وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْهِ المُنْبَرُ:

فالحمد لله على أن سرَّ البيت الشريف النَّاصِرِيَّ بجمع شمله، وعلى أن أتى المَلِكُ
 العَقِيمَ الصَّالِحُ مِنْ أَهْلِهِ؛ وَقَدْ جَهَّزَ المَمْلُوكُ المِثَالُ الشَّرِيفَ المَخْتَصَّ بِمَوْلَانَا: وَمَوْلَانَا
 أَوْلَى مِنْ أَنْتَظَمْتَ لَدِيهِ دُرُّ هَذِهِ الأَخْبَارِ الثَّمِينَةِ، وَعُظِّمْتَ بِنَاحِيَّتِهِ شَعَائِرُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ
 المَكِينَةِ، وَكَلَّ خَيْرَ حَمَاهِ خَيْرَ قَرِينِهِ؛ وَاللهُ تَعَالَى يُعِزُّ الإِسْلَامَ بِعِزِّهِ، وَيُمِضِي الأَجَالَ

والأرزاق على يدي حزيه وساميه ، ويُحجزُ رأيه ورأيته النَّصر قبل أن يطوف الأولياء
بعلمه ، وقبل أن يُحيط الأذكياء بعلمه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين
إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، في خلافة المعتضد بالله أبي الربيع سليمان ،
من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهناء كل سرى يسره ، وكل سني يقرأ أمام ناظره الكريم ويقره ،
وكل وفي إذا طلع في آفاق حلب قيل : لله دره ؛ ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه
جميل ، وبكل جلي جليل ، وبكل خير تصح الدنيا بصحته فليس بها غير النسيم
عليل ؛ تقيلاً يزاحم عقود الثغور ، ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الأبتسام
للسرور ؛ ويُنهي بعد رفع اليد بدعائه ، وضم الجوائح على ولآيته ؛ وجرم الهناء المشترك
بمسرة مولانا وهنائه ؛ أن المثال الشريف زاده الله شرفاً ، وزاد فضل سلطانه على
العباد شرفاً ؛ ورد بالبشارة العظمى ، والنعماء التي ماضاهتها الأيام قبل بنعمي ؛ والمسرة
التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاماً ، ويحبها الإسلام والمسلمون حباً جمّاً ؛
بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك العرض ، وشفائه الذي في عيون الأعداء
منه شفاً تظعن وفي قلوبهم مرض ؛ وأن مادة الأدواء بحمد الله قد أتحسمت ،
والواردة من الأفتقاد بالأجر والعافية قد أبتسمت ؛ وأن طنون الإشفاق قد أضمحلّت ،
وسمات الروض قد فدت الجسم الشريف فاعتلت ، وأخبار الهناء يعينها كل بر يد
نشوان من الفرج [ينشد] أسألها أي المواطن حلت ؛ فيالها بشاره خصت الإسلام
وعمت بيده ، وسارت فوق الأرض وسرت تحتها أسلاف الملك ومبتيه ؛ وشملت البلاد
وعبادها ، والسلطنة وقد حجب الله عمادها عما دهي ، والمملك السلطاني وقد ثبت الله

به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها؛ والطير وقد حملت ورقه أوراق السرور، والوحش وقد قالت مهاة: على عيني أحمّل ذلك السقام أو ذلك القُتور؛ (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيًّا) والألطف الرَّاحِمُ بها المؤمنين من خلقه (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) .

وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان، فيأله من وأرد لمشاريع الأمن أورد، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد؛ وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوقة في كل ضرب من التهانى، وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدى الغواني؛ فيأخذ حظه من هذه البشائر، وتصيبه من هذا الوجه الذى ملأ الوجود بشرا، وشطره من الهناء المخصوص الذى تعجل منه المملوك شطرا؛ والله تعالى يسره بكل خير تُشرق زواهره، وتعبق في كرائم الدرّوج أزهيره، ويتألق على يد بريده من المخلقات كل كوكب صبح تملأ الدنيا بشائره .

ومن ذلك المكتبة بورود المثال الشريف بوقاء النيل .

إذا ورد على نائب الشام بوقاء النيل المبارك، كتبت نائب الشام عن نفسه إلى نائب حلب وغيره، من تواب السلطنة بالممالك الشامية، بورود المثال الشريف عليه بذلك، ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان: من السجج، وإيراده مورد البشارة، وإظهار الفرج والسرور بذلك، لا يكاد يخالفه إلا في كونه وأردا مورد الحكاية لمثال السلطان، ومثال السلطان محبر بذلك ابتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة، كتبت به لسنة ثلاث وأربعين وسبعائة، وهى بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بِكُلِّ مُبْهَجَةٍ ، مُعْطَرَةً الْأَرْجَاءَ بِكُلِّ سَائِرَةِ أَرْجَاهِ ؛ مُبَسَّرَةً الْأَوْقَاتِ
بِمُقَدَّمَتِي سَمَاعٍ وَعِيَانٍ : كِلَاهِمَا لِلسَّارِ مُتَّبِعَةٍ ، مُسْتَحْضِرَةً فِي مَعَالِي الْكَرَمِ كُلِّ دَقِيقَةٍ
تَشْهَدُ بِسَطْوَةِ النَّيْلِ أَنهَا أَرْفَعُ مِنْهُ دَرَجَةً ؛ وَيُنْهِي بَعْدَ دَعَاءِ مَا الرَّوْضُ أَعْطَرَ مِنْ شَدَاهِ ،
وَلَا مَاءَ النَّيْلِ وَإِنْ كَرُمَ وَفَاءً بِأَوْفَى مِنْ جَدَاهِ ؛ أَنْ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللهُ تَعَالَى
شَرَفًا ، وَرَدَ بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ وَحَبْدًا هُوَ مِنْ وَفَى مُوَأَفَى ، وَمُتَغَيَّرِ الْمَجْرَى وَعَيْشِ
الْبِلَادِ بِهِ الْعَيْشِ الصَّافِي ، وَحَسَنِ الزِّيَارَةِ وَالرَّحِيلِ مَاضَاهَتَهُ الْغَيْوُثِ فِي وِلَافِي ؛ وَوَارِدِ
مِنْ مَعْبَدٍ بَعِيدٍ ، وَحَمِيلٍ لَا جَرَمَ أَنْ مَدَّهُ تَابَتْ^(١) وَيَزِيدُ ؛ وَجَائِدٍ إِذَا تَتَابَعَ حَيْثُ تَيَّارُهُ
يُقَلِّدُ بَرَّهُ وَدُرَّهُ مِنَ الْأَرْضِ وَسَاكِنِيهَا كُلِّ جَيْدٍ ، وَإِذَا ذُكِرَ الْخِصْبَ لِمَكَانٍ عَيْدِهِ
الْمَشْهُودِ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ كَذَا ، وَأَنْ الْبِلَادِ جُبِرَتْ بِكَمْرِ
خَلِيجِهِ ، وَأَسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهَا بِتَفَرُّجِهِ : وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِآلَانِهِ ، وَوَسَمَتْ لَوْنَهُ الْأَضْمَبَ
عَلَى رَغْمِ الصَّهْبَاءِ بِأَحْسَنِ أَسْمَانِهِ ؛ وَخُلِقَ فَلَاتُ الدُّنْيَا بِسَائِرِ مُخَلِّقِهِ ، وَعُلِقَ سِتْرُهُ
الْمِصْرِيَّ التَّبْرِيَّ فزَكَ عَلَى مَعْلِقِهِ ، وَحَلَقَ مَسِيرَ تَرَاغِهِ عَلَى الْقُرَى فَبَاتَ عَلَى النُّدَا ضَيْفُ
مُخَلِّقِهِ ؛ وَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ ، وَأَنْعَرَجَ عَلَى الْبِقَاعِ يَلْوِي مِعْصَمَهُ فَتَهُ أَوْقَاتِ
ذَلِكَ اللَّوَى وَالْمُنْعَرَجِ ؛ وَأَسْتَقَرَّتِ الرِّعَايَا آمِنِينَ آمِلِينَ ، وَقُطِعَ دَابِرُ الْجَدْبِ بِسُعُودِ
هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ (وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وَرُسِمَ أَنْ لَا يُعْجَبُ حَقُّ بَشَارَةِ ،
وَلَا تَعْبَثَ يَدُ التَّنْقِيسِ مِنْهَا لِيَزْدَادَ الْخَبْرُ نُورًا عَلَى نُورٍ ، وَيَكُونَ فِي إِثَارِهِ وَحُسْنِهِ الْخَبْرُ
الْحَسَنَ الْمَأْتُورَ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْخَبْرِ فَلَانَ وَعَلَى يَدِهِ مِثَالِ شَرِيفٍ يَخْتَصُّ بِمَوْلَانَا
وَقَدْ جَهَّزَ بِهِ ؛ فَيَأْخُذُ مَوْلَانَا حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى ؛ وَيُوضِّحُ بِهَا عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ

(١) فِي الْأَصْلِ "لَا جَرَمَ أَنْ يَدَهُ" .

بِشْرًا، وَاللَّهِ تَعَالَى يَمْلَأُ لَهُ بِالْمَسْرَاتِ صَدْرًا، وَيَضَعُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الرَّعِيَةِ إِضْرًا، وَيُسْرَهُمْ
فِي أَيَّامِهِ بِكُلِّ وَارِدٍ يَقُولُ الْإِحْسَانُ لِمُتَحَمِّلِهِ : (لَوْ شِئْتَ لَا تُخَذِّتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض التواب، من إنشاء الشيخ جمال الدين
أبن نباتة أيضا، وهي بعد الصدر :

وَضَاعَفَ مَوَادَّ نِعَمِهِ وَنَعْمَائِهِ ، وَمَسَّرَتْهُ وَهَنَائِهِ ؛ وَحَفِظَ عَلَيْهِ مَا وَهَبَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ
الَّتِي يَرَوِي النَّبِيلُ عَنْ كَرَمِهِ وَوَقَائِهِ ، وَشَرَّفَ السُّيُوفَ لِكُونِهَا مِنْ سِمَاتِ كَرَمِهِ وَالسُّيُوفَ
لِكُونِهَا مِنْ سِمَائِهِ .

المملوك يُجَدِّدُ الْخِدْمَةَ بِتَفَحَّاتِ سَلَامِهِ وَتَنَائِهِ ، وَيَصِفُ وَلَاءَ لَوْ تَجَسَّمْ لَأَسْتَمَدَّتْ
عَيْنُ الشَّمْسِ مِنْ سَنَائِهِ ؛ وَيُنْهَى أَنْ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى شَرَفًا ، وَرَدَّ
مُبَشِّرًا بِوَفَاءِ النَّبِيلِ الْمُبَارَكِ فِي يَوْمِ كَذَا ؛ فَيَالَهُ رِبْعًا جَاءَ فِي رِبْعِ ، وَحَامِلًا فِي مُقَرَّدِهِ
الْفَضْلَ الْجَمِيعَ ؛ وَدَاعِيًا بِالْحَضْبِ يَنْشُدُ كُلَّ ثَانِيَةِ آتِينَ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ ،
وَمُتَغَنِّيًا عَلَى مَنَصَّةِ الْمِقْيَاسِ عِرْسَهُ يُحَلِّيْ عَلَيْهِ مِنْ شِبَابِكِهَا السُّرَّ الرَّفِيعِ ؛ وَأَنَّهُ أَقْبَلَ
وَالْبِلَادَ أَشْهَى مَا تَكُونُ لِلْقِيَاهِ ، وَأَشَوْقُ مَا تَرَى لِمُبَاشَرَةِ رَبِّهِ وَرِيَّاهِ ؛ وَقَدْ أَمْتَدَّتْ أَيْدِي
الْجُسُورِ لِقَمِهِ ، وَأَسْتَعَدَّتْ شِفَاهُ الْجُرُوفِ اللَّعْسُ لِنَيْمِهِ ؛ فَكَّرَمَ عَلَيْهَا زَائِرَهُ ، وَصَحَّبَهَا
بِالنُّجُجِ سَارِيَهُ وَسَائِرَهُ ، وَدَارَتْ عَلَى الْجَدْبِ مِنْ خَطُوطِ الْأَمْوَاجِ دَوَائِرُهُ ؛ وَعَمَّتْ
الْمَنَافِعُ ، وَتَلَقَّتْ عَيْوَبَ الْفَلَاحِ نَاهِلَةً بِالْأَصَابِعِ ؛ وَفَاضَ الْبَحْرُ بِرَبِّهِ ، وَنَشَرَ رِدَائَهُ عَلَى
الْأَرْضِ وَسَيَّضَوْعُ رَوْضِهَا بِنَشْرِهِ ؛ وَخَلَقَ الْمِقْيَاسَ فَيَالِكَ مِنْ قِيَاسِ بُشْرِيٍّ غَيْرِ مَمْنُوعِ ،
وَكَسَرَ الْخَلِيجُ فَيَالَهُ غُضُنَ قَلَمِ عَلَى النَّبِيلِ وَطَائِرُ تَجْعِهِ عَلَى الْفَرَاتِ مَسْمُوعِ ؛ وَرُسِمَ أَنْ

لَا يُجِبُ حَقُّ بَشَارِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا التَّنْقِيصُ لِدَارٍ وَلَا التَّنْفِيصُ لِدَارِهِ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْأَمْرَ فُلَانٌ وَقَدْ جُهِّزَ بِمَا عَلَى يَدِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ مَوْلَانَا مِنْ أَقْسَامِ الْمَسَارِّ بِصُنُوفٍ ، وَيُدْفَعُ عَنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ بِمُيْنِهِ أَيْدِيَ الصُّرُوفِ ؛ وَيَنْفَعُهَا بِظِلَالِهِ الَّتِي آوَاهَا مُلْكُهُ الْكَرِيمُ إِلَى جَنَّةٍ : وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ تَحْتُ ظِلَالِ السُّيُوفِ .

الضرب الرابع

(من المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ الثُّوَابِ وَالِاتِّبَاعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ ، وَفِيهِ مَهِيَعَانُ)

المهيعة الأولى

(في الأجوبة عن الكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ السَّابِقَةِ فِي الضَّرْبِ الْأَوَّلِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَقْدَمَةِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ : هَلِ الْكُتُبُ الْإِبْتِدَائِيَّةُ [أَعْلَى رُتْبَةً ^(١)] فِي الْإِتْيَانِ بِهَا أَمْ الْجَوَابِيَّةُ ، وَذِكْرُ الْأَحْتِجَاجِ لِكُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَذِكْرُ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ فَلْيَرِاجِعْ مِنْ مَوْضِعِهِ هُنَاكَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْكَلَامَ عَلَى أَجْوَابَةِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُنْتَقِمِ ، جَارِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّ الْكُتَابَ إِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا التَّعْزِيَةَ فِي سَلْفِهِ ، وَالْهِنَاءَ بِمُتَجَدِّدِ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ فِي أَنْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، فَارْتَمَ فِيهَا يُكَاتَبُ بِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُنْبِئَ عَلَى الْأَسْتِبْشَارِ بِالنِّعْمَةِ فِي خِلَافَتِهِ ،

(١) يَبَاضُ بِالْأَصْلِ . وَالتَّصْحِيحُ عَمَّا تَقَدَّمَ فِي (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيئته ؛ وأنفساح الآمال في دولته ، والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته ؛ وتعزيتته عن أبيه ، بما يوجب محمل المحنة وبقضيه ؛ يعنى إن كان الخليفة الميت أباه ، فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمّله ، ويعينه على ما كفّله ؛ ويقرن ملكه بالحدّ السعيد ، والخلود والتأييد ؛ وإدالة الأولياء ، وإدالة الأعداء ؛ ونحو هذا مما يجاريه .

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه ، ومن في معناه ممن يؤليه في المحبة ، فإن الكاتب يحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة ، وأستقامة أمر الرعية بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يصرح بدمّ الذهاب قبله . ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجلوسه على تخت الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة ، لا يكاد يفرق بينهما ، على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين ، فإنما يتكلفها كتاب مخالفى الملة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال في "مواد البيان" : إلا أنه لاغنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها ، لتتقدم عندهم المعرفة بما يجب به المخالفون ، فيأخذوا عليهم بأطراف الحجّة إذا كاتبهم ابتداء أو جواباً .

قال : ولا تخلو أجوبة هذه الكتب من أربعة معان :

أحدها — إجابة الدعاء إلى الدين ، وقبول الإرشاد والهدى ، والتروغ عن النغى ، والإقبال على التبصرة والتذكرة ، بعقائد خالصة ، ونيات صريحة .
والثاني — الإصرار على ما هم متمسكون به ، وتمحل الشبهة في نصرته ، وأدعاء الحق فيما يعتقدونه ، والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دُعوا إليه .

والثالث - بَدَلُ الْحِزْبِيَّةِ وَالْمُصَالِحِ، وَالْجُنُوحِ إِلَى السَّلْمِ وَالْمُؤَادَعَةِ .

والرابع - إظهار الحِمِيَّةِ ، والقيامُ في دفاعِ مَنْ يَرُومُ أَقْسَارَهُمْ عَلَى مَفَارِقَةِ شَرَائِعِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ، وَبَدَلُ الْأَنْفُسِ فِي مُقَارَعَتِهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردةِ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ ، فقد ذكر في "مواد البيان" أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما - إجابة الصَّرِيحِ ، والمُبَادَرَةُ إِلَى التَّشْمِيرِ فِي الْجِهَادِ ، وَالْقِيَامُ فِي مَعُونَةِ الْأَوْلِيَاءِ ، عَلَى كِفَاجِ الْأَعْدَاءِ .

والثاني - الْأَعْتِذَارُ وَالتَّعَلُّلُ وَالتَّنَاقُلُ .

هذا إن كانت الكُتُبُ صادرةً إِلَى الْقَوَادِ وَالْمُقَدِّمِينَ . أما إذا كانت مقصورةً عَلَى الْأَسْتِنْفَارِ ، فلا جوابَ لها إِلا التَّفُورُ أَوْ الإِمْسَاكُ . قال في "مواد البيان" :
والطريق إلى إقامة العُدْرِ لِمُسْتَصْرِخٍ فِي التَّائِحِ عَنْ مُسْتَصْرِخِهِ متى أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ عَلَى الْكَاتِبِ ، وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَتِ الْأَعْذَارُ مُتَكَلِّفَةً غَيْرَ صَحِيحَةٍ .

قال : وينبغي أن يتأني لذلك وَيُحْسِنَ التَّلَطُّفَ فِيهِ ، وَلَا يَعْتَلَّ بِكَذِبِ صُرَاحٍ يَنْكَشِفُ لِمُعْتَدِرٍ إِلَيْهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردةِ بِالْحَثِّ عَلَى لُزُومِ الطَّاعَةِ ، إِذَا وَرَدَتْ عَلَى النَّوَابِ وَالْوَلَاةِ وَأُمُرُوَا بِقِرَائَتِهَا فِي أَعْمَالِهِمْ عَلَى الرَّعَايَا ، فإنه يكون : إما باتقياد الرَّعَايَا إِلَى مَادُّعُوا إِلَيْهِ ، أَوْ أَسْتَدَامَتِهِمْ لِمُرَكَّبِ النَّفَاقِ ، وَأَسْتِدْنَاءِ مَادَّةٍ لِتَقْوِيمِهِمْ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ إِلَى مَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ ، فقد ذكر في "مواد البيان" أنها لا تخلو من أحد أربعة معانٍ .

أولها — الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصفيح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة .

والثاني — المغالطة والمراوغة، وأستعمال المداهنة والمخادعة .

والثالث — التجايح والمكاشفة .

والرابع — إيجاب الحجية على المجوب (؟) عنه في أنه المبتدئ بفسخ ما عاقد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللاتق به في الصناعة .

وأما الجواب عن الكُتُب إلى مَنْ خَلَعَ الطاعة ، فقد قال في "مواد البيان" : إنها تحمل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ؛ وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا، عَرَفَ سَبِيلَ التَّخْلِصِ فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الوارِدَةِ بِالْفُتُوحِ ، فإنها إن صدرت من السلطان إلى وُلائِهِ ، فينبغي أن يُنْبِئَ جَوَابُهَا عَلَى الْأَسْتَبْشَارِ بِمَوْجِعِ النِّعَمِ فِي الظَّفِيرِ بِالْعَدُوِّ ، وَالْحَدَلِ بِمُتَجَدِّدِ الْفَتْحِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ إِيمَاءٌ تَهَيَّأَ بِسَعَادَتِهِ ، وَعُلُوُّ رَأْيِهِ وَأَنْبَسَاطُ هَيْبَتِهِ ؛ وَمَا عَوَّدَهُ مِنْ إِظْهَارِ أَوْلِيَائِهِ ، وَخِدْلَانِ أَعْدَائِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ قَدْ أَشَاعُوا هَذَا النَّبَأَ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ مِنْ رِعَايَاهُ فَابْتَهَجُوا بِهِ ، وَشَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ وَدَعَوْا لَهُ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ . وَإِنْ صَدْرَتْ مِنْ وِلاَةِ الْحَرْبِ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَا يَجِيبُهُمْ بِهِ مَبْنِيًّا عَلَى حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَوَارِفِهِ ، وَالرَّغْبَةِ فِي مُضَاعَفَةِ لَطَائِفِهِ ؛ وَشُكْرِهِ عَلَى إِنْجَازِ وَعْدِهِ فِي الْإِظْفَارِ بِأَعْدَاءِ الْمِلَّةِ وَالِدَوْلَةِ وَنَحْوِ هَذَا . وَمُخَاطَبَةِ أَهْلِ الطَّاعَةِ بِمَا يُرْهِفُ عَزَائِمَهُمْ ، وَيُقَوِّمُ شَوْكَهُمْ ؛ وَتَقْرِيطِ وَالِي الْحَرْبِ وَوَصْفِهِ بِمَا يُشْحَدُ بِصِيرَتِهِ فِي الْخِدْمَةِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَى

الأجناد ، ووَعِدِهِمْ بِجَزِيلِ الْجَزَاءِ عَلَى الْجِهَادِ وَالْإِبْلَاءِ ، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ، وَيُوجِبُهُ تَدْيِيرُ الْأَمْرِ الْحَاضِرِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالاعتذار عن السلطان عند ما يَحْصُلُ لَهُ زَلٌّ في التدبير أو [في] الظَّفَرِ بِقَبْضِ الْأَعْدَاءِ عَلَى جَيْشٍ مِنْ جَبُوشِهِ ، فَإِنَّمَا تَقَعُ الْإِجَابَةُ عَنْهَا إِذَا نُقِدَتْ إِلَى أَحَدِ الْعُمَّالِ خِصُوصًا . قال في "مواد البيان" : وحينئذ فينبغي أن يكون الجواب عنها مَبْنِيًّا عَلَى تَقْوِيَةِ نَفْسِ السُّلْطَانِ وَتَوْثِيقِهِ بِالْأَدِلَّةِ ، وَأَنْ مَا نَالَهُ لَا يَتَوَجَّهُ كَثِيرًا عَلَى ذَوِي الْحَرَمِ ، إِلَّا أَنْ عَوَاقِبَ الْفَلَجِ وَالظَّفَرِ وَالْإِصَابَةِ فِي الرَّأْيِ وَالتَّدْيِيرِ تَكُونُ لَهُمْ ، وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يُجَارِيهِ وَيَلِيْقُ بِهِ .

قال : أما إذا كانت المكتبة في ذلك إلى الكَافَّةِ ، مُمَهَّدَةً لِعُدْرِ السُّلْطَانِ ، قَاطِعَةً قَالَةَ الرَّيَّةِ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ لَاجِبُ الْجَوَابِ عَنْهَا : لِأَنَّهَا إِذَا لَمْ تُتَوَجَّهْ إِلَى وَاحِدٍ بَعِيْنِهِ لَا تَسْتَدْعِي خِطَابًا .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين ، إذا صدرت إلى العُمَّالِ ، وَأُمِرُوا بِقِرَاءَتِهَا عَلَى الرَّعَايَا عَلَى مَنَابِرِ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّهُ يُنْبِئُ الْأَمْرَ فِيهَا عَلَى أَمْتِثَالِ الْأَمْرِ ، وَالْمُطَالَعَةِ بِأَرْتِسَامِ الْقَوْمِ مَا رَسِمَ لَهُمْ فِيهَا . أما إذا كانت صَادِرَةً لِنَقْرَاءِ عَلَى الْعَامَّةِ لِيُبَيَّنُوا مَا فِيهَا وَيَعْمَلُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَاجِبُ الْجَوَابِ عَنْهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَوَاعِظَ وَمَرَاشِدَ تَتَخَوَّلُ بِهَا الْأُمَّةَ رِعَايَاهُمْ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالأوامر والنواهي ، فقد ذكر في "مواد البيان" أن الكتاب الوارد في ذلك : إِنْ كَانَ شَيْئًا قَدْ جَزِمَ الْمَتَّبِعُ فِيهِ الْأَمْرَ ، وَضَيَّقَ عَلَى التَّابِعِ فِي إِثَارِهِ سَبِيلَ الْمُرَاجَعَةِ فِيهِ ، فَإِنَّ الْجَوَابَ عَنْهُ سَهْلٌ : لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُجِيبُ بِجَوَابِ جَامِعٍ ، وَهُوَ وَقُوفُهُ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ وَإِنْفَاقُهُ لَهُ . وَإِنْ كَانَ الْوَارِدُ أَمْرًا مُحْتَمَلًا لِلرَّاجِعَةِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي إِمْضَائِهِ إِذَا أَمْضَى إِفْسَادًا لِلْعَمَلِ ، وَإِخْلَالًا بِأَسْبَابِ

المُلكِ والسلطان، فالجواب عنه شاقٌ صعبٌ؛ لأنه ينبغي أن يُبنى على تَلَطُّفٍ شديدٍ في الإبانة عما يُنتجُه ذلك المأمور به إذا أُنْفِذَ على وجهه من قِتِّيٍ وِخَلِّيلٍ، وموردٍ المراجعة في ألفاظه لا يَتَبَيَّنُ فيه إزراءٌ على رأيِ الرئيس ولا طَعْنٌ في تدييره: بأن تكون ناطقةً بأن رأيه الأعلى، وتدييره الأضوب؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفاً على الصواب، وظاهره تَصْوِيباً وتقرِيظاً: لأن كثيراً من الرؤساء والملوك يُعْجَبُونَ بأرائهم، ويترآون أنفسهم بحُكْمِ الرياسة في منزلة من لا يُرَاجَعُ ولا يُعَارَضُ فيما يأمر به .

قال: وقد أتى من كُتُبِ الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بِشَرْحِ حالٍ واقتصاصِ أمور . ثم قال: وأجوبة هذه الكُتُبِ يجب أن تكون مُسْتَقْصِيَةً للمعنى المنشرح، مُسْتَوَلِيَةً على حواشيه، غير مُخَلَّةٍ بشيءٍ مما يحتاج إلى تعرُّفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية، وهي مشتملة على مَوَاعِظٍ ومَرَاشِدٍ يتخوَّلُ بها الأئمة رعايَاهُمْ؛ فإذا صدرت إلى العُمَلِ وأُمِرُوا بقراءتها على الرعايَا، فأجوبتها إنما تُتْبَى على أمتثال الأمر والمطالعة بأرتسام القوم ما رُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لثُقَرَاءٍ على العامة لِيَتَبَصَّرُوا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لاجواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيهِ على مواسم العبادة، فإنه يصدر عمَّن وَرَدَ عنه إلى الإمام بعد شُهُودِ ذلك المَوْسِمِ، والأَنْفِصَالِ عنه على حال السلامة، كما في صلاة العيد ونحوها . قال في "موادِّ البيان": وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورةً على ذِكْرِ ما مَنَّ اللهُ تعالى به من قَضَاءِ الفريضة على حَالِ الأتِّلَافِ والأَتِّفَاقِ، وشُمُولِ الأَمِينِ والهُدَى والسُّكُونِ، وسُبُوغِ النِّعْمَةِ على الكَافَّةِ؛ وأن ذلك بسعادة وعناية الله تعالى بدولته وبرعيته، ونحوها مما يقتضيه المعنى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلى ولاة أمره بالسلامة في ركوب أول العام وغرّة رَمَضَانَ ، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه ، وعيدي الفِطْرِ والأضحى ، وفتح الخليج بعد وفاء النيل ، فقد قال في "مواد البيان" : إنّه إن كان الكتاب عن السلامة في صلاة العيدين أو جمع رَمَضَانَ ، فينبغي أن يكون مَبْنِيًّا على ورود كُتُبِهِ متضمنة ما أمان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تَأْدِيَةِ فريضته ، والجمع في صلاة عيد كذا بَرَعِيَّتِهِ ؛ وما ألبسه الله تعالى من الهدى والوقار ، وأفاضه عليه من البهاء والأنوار ؛ وبروزه في خاصّيته وعامّيته إلى مُصَلَّاه ، وسماع خُطْبَتِهِ وَعَوْدِهِ إلى قَصْرِه الزاهر ، وعليه تالُّلُ القبول لصلاته ودُعائه ، مما أجزاه الله تعالى فيه على عادة آلائه ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحسان ، والاعتراف والاعتداد ، وأفتضه على رهوس الأشهاد ؛ فأغرّقوا في شُكْرِ الله تعالى على الموهبة في أمير المؤمنين ، ورغبوا إليه في إطالة بقائه مُرَامِيًّا عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا مما يُجَارِيه .

ثم قال : فإذا نُفِذَتْ هذه الكتب من العَمَلِ إلى أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً بأجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وَعَوْدِهِمْ إلى منازلهم سالمين ، فينبغي أن يكون الجواب عنها : «وصل كتابك مُتَضَمِّنًا مالا يزالُ الله تعالى يُؤَلِّيه لأمر المؤمنين في رَعِيَّتِهِ ، وخاصّيته وعامّيته : من آتفاق كلمتهم ، وأتلاف أفئدتهم وسلامة كآفتهم ؛ وما من الله به عليه وعليهم من أجتماعهم لتأدية فريضتهم ، وَعَوْدِهِمْ إلى منازلهم ؛ على السَّلامَةِ من ضمايرهم ، والظّهارة من سرائرهم ؛ نَحْمَدُ أمير المؤمنين الله تعالى على ذلك وسأله مزِيدَهُمْ منه ، وتَوْفِيْقَهُمْ لِمَا يُرْضِيهِ عنهم ؛ وشكر مسعالك في سياستهم ، وأمتداد يدك في إياتهم ؛ وهو يأمرُك أن تجرّى على عادتك ، وتسير فيهم بجيمل سيرتك» وما يليق بهذا .

ثم بنى على ذلك سائر كتب السلامة، وقال: ينبغي أن يُستنبط من نفس كل كتاب منها المعنى الذى تجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُبَشِّرًا بسلامته من سفره؛ فينبغى أن يُبنى جوابه على ما صورته: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هياه الله تعالى له من السلامة ويُمن الوجهه، مع تقرب الشقه؛ وإنالة المسار، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وأمثل المرسوم فى إطلاع الأولياء على ما نُصَّ فيه من هذه البشرى؛ فعظمت المنحة لديهم، وجأت النعمة عندهم؛ وأنشرحت صدورهم، وأنفسحت آمالهم، ووقفوا بصنع الله تعالى لهم؛ وأرضعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة فى حياطة أمير المؤمنين قاطنًا وظاعنًا، وحسن صحابته حالًا وراحلا؛ وجميل الخلافة على من خلفه من حامته وعامته، وأهل دعوته وخاصة دولته؛ والله تعالى يجيب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء، ويمدّه بطول البقاء» وما ينتظم فى سلك هذا الكلام ويضاهيه.

قلت: وقد تقدم فى الكلام على المكتبة السلطانية الابتدائية: أن المكتبة بالإشارة بالسلامة فى رُكُوب العيدين وما فى معناهما من قدوم السفر وغيره، قد ترك استعماله بديوان الإنشاء فى زماننا. فإن قُدِّرَ مثله فى هذه الأيام، أجراه الكاتب على نحو ما تقدم، على ما يقتضيه مصطلح الزمان فى المكتبات السلطانية.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلع وما فى معنى ذلك، فينبغى أن يكون مبيّنًا على تعظيم المنه، والاعتراف بجزالة المنحة؛ وجميل العطية، وزائد الفضل؛ وأن ما أسدي إليه من ذلك تفضل عليه، وتطول من غير استحقاق لذلك؛ بل فائض فضل، وجزيل امتنان؛ وأنه عاجز عن شكر هذه النعمة والقيام بواجبها، لا يستطيع

لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأذعية لهذه الدولة . وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتنويه والتلقيب إذا صدرت إلى نواب المملكة ، فالذى ذكره في "مواد البيان" أن المنوه به يُجيبُ عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه ، ووقوفه عليه ، ومعرفة بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إزاعه الشكر ، ومعوته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة . أما إذا كتبت بالتنويه والتلقيب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماذ والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماذ والتقريظ ، بخوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحماذ موقعه من المحمود ، ومطالبتة لنفسه بالخروج من حقه باستفراغ الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه ، كان الجواب بالتنصّل والمقابلة بما يرى سآحته ، ويدل على سلامة ناحيته ؛ وأن يُورد ذلك بصيغة تزيل عن النفس ما سبق إليها ، وتبعث على الرضا . وكذلك في كل واقعة بحسبها ، مما يحصل به التنصّل والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السلطاني ، فعلى نحو ما سبق في الخلع : من تعظيم المنّة ، والاعتراف [بجزالة المنحة ^(١)] وجميل العطية ، وزيادة الفضل ، وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد ولد ، فإنه يكون بإظهار السرور والأغتراب ، وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم قريبا في الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيَادَة المَدَد، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في أن يُؤَالِي هذا المَزِيدَ وَيُضَاعِفَهُ .
ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرِيضٍ كان
قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْدُ الله تعالى وشُكْرُه على ما مَنَّ اللهُ تعالى به من العافية ،
وتَفَضُّلُ به من إزاحة المَرِيضِ ، وِوَقَايَةِ المَكْرُوهِ ، وإظهارُ الفَرَجِ والسُّرُورِ بذلك .
وما يَخْرُطُ في هذا السَّلَكِ .

(١)
وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بوليد أو قريب ، فإنه يظهر فيه الغم
والحُزْنَ والكآبَةَ ، وحمدُ الله تعالى على سلامة نَفْسِهِ ، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في الخَلْفِ
عليه ، إن كان المَيِّتُ ولدًا ، مع الدعاء بِطُولِ البَقَاءِ وُخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وما يجرى هذا المجرى .
وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، مما يكثر وقوعه ، ويتعدد تكراره ،
يَسْتَضِيءُ بها الكاتب في كتابة الأجوبة ، وينسج على منوالها .



نسخة جواب عن كتاب وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِبَ به إلى
أمير الأمراء ، قَرِينِ خَلْعَةِ وَسَيْفِ وَتَاجِ وَسِوَارِيْنِ ، من إنشاء أبي الحسين بن
سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنَا أمير المؤمنين ، بما أعلم من فَضْلِ مُرَاعَاتِهِ لأمور الدين ، وِصْدَقِ
عِنَايَتِهِ بمصالح المسلمين ، وأُفِيضَ له (؟) من مَوَاهِبِ الله عندهم ، وِصُنُوفِ نِعْمِهِ عليهم ؛
فبما هداه من طُرُقِ الرِّشَادِ ، وِبَصَرِهِ إِيَّاهِ من مَنَاهِجِ الصَّوَابِ ؛ وِقَرَنَهُ به من التَّوْفِيقِ
في عَزَائِمِهِ ، وإِلْجَادِهِ في مَرَّاسِمِهِ ؛ وتَوَعَّدَهُ فيه بالخيرات التَّامَّةِ ، والكِفَايَةِ العامَّةِ ؛ في كُلِّ

(١) في الاصل "التنعم" ولم نعر عليه في كتب اللغة .

أمرٍ يُضِيه، ورأيٍ يرتئيه؛ اعتماداً له بحُسنِ المعونة على ما أسترعاه، ووصليه بالمزيد
 فيما خوله وأعطاه؛ وجراسةً ماساقه إليه من إرث النبوة، وحمله إياه من ثقل الإمامة؛
 لما عرفه من نهوضه بالعِبء، وقيامه بالحق فيما ناطه وأسنده إليه؛ وتأمله ماتأمله
 من حال عبده الذي لم يزل لطاعته معتقداً، وبِعصمة ولايته معتصداً؛ ولوقت
 يبلغه منزلة الإجماد، ويحوز له عائدة الاجتهاد، فيما أرضاه مر تصداً؛ ولسعيه ونيتيه،
 وظاهره وطويته، معتمداً؛ ووجوده أيده الله في يسير ما آمتحن به بلاءه، وعرف
 فيه غناؤه؛ موضعاً للصنيعه، مُحتملاً للعارفه؛ مُقراً بحق النعمة، عارفاً بقدر الموهبه؛
 وترقيته فرصة ينتهزها في إبداء عزيمته، وإمضاء رأيه؛ وأنه [وائق] بالاستظهار بمكانه،
 والإسهام له في عز سلطانِه؛ حتى أسفرت رويته، وأستقرت عزيمته؛ فاختص
 عبده بجيمل الأثر، وأصطفاه بلطيف الخطوة، وأعتمد عليه في إمارة الأمراء،
 موفياً به على رتبة النظراء، وكاسياً له حلة المجدي والسناء؛ ورد إليه تدير الرجال،
 وتقدير أمور العمال؛ وشفع ذلك بالتكنية والتلقب في مشاهد حفايته، ومجالس
 خلوته؛ وأكل الصنع عنده بالحاق عبده فيما قسم لكل واحدٍ منهما من شريف
 حياته، وسنى عطائه؛ وتجاوز في التكرمة له إلى أعلى الأحوال، وأزفح الرتب والمخال؛
 فيما أمر - أعلى الله أمره - بحمله إليه من الخلعة التي سبق شرف لباسها [على] الأيام،
 ويخلد ذكرها على الدهور والأعوام؛ والسيف الذي تفاعل لعبده فيه بما يرجو بمن
 مولاه وسعادة جده: أن يحققه الله في الاعتقاد به على أعدائه، وعمده في محور مشاقبه
 وغامصي نعمائه؛ والتاج المرصع الذي نظم له جوامع الفخر، والوشاح الموشى الذي
 وشحه حلية الجمال مدى الدهر؛ والطوق الذي طوقه قلائد الجهد، والسوارين اللذين
 أذناه بقوة العضد وبسطة اليد؛ واللواء المعقود به مفتح العز في طاعته، المرفوع به
 معالم النصير على شاني دولته؛ ووصل إلى وفهمته .

وسيدنا أمير المؤمنين - فيما أكرمه الله به من خلافة به ، وأتمته من الحكم على
 برئته ، ووكله إليه من حقوق الدين ، وحياطته كرم المسلمين ، وإحياء السير الرضية ،
 والسنة الحميدة ، وإمارة الأحكام الخائره ، والمظالم الظاهره ، وتقويم أود الملكة
 بعد تزغزع أركانها ، وتصدع بُنيانها ، وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن آشمت
 [الذلة^(١)] عليها وتمكنت الوحشة فيها ، وحكم اليأس في آمالها ، وغلب القنوط على
 أطعماها ، وتغافل بما أعتمده له ، وفوضه إلى نظيره : من الخلية بحقائقه ، والتوكيد
 بما لم تزل الخفايل فيه لأئجه ، والأمارات منه واضحة ، والشواهد به صادقه ،
 والدلائل عليه ناطقه ، حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره ، وتعتقت
 آثاره ، ودرست رسومه ، وغارت نجومه ، وأغشى الشيطان بجرانه ، وأشرأب لتبديله
 بعدوانه ، وأنتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال ، وحلم يستخف رواصي
 الجبال ، وروية تستخرج كوامن الغيوب ، وتكشف عنها حنادس الشوك ، وباع
 لما يمتد إليه بسيط ، وذراع لما ينتظم عليه رحيب ، وصدر يتسع لمعضلات
 الأمور ، ويشرق في مدهيات الحوادث ، فشرّد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة
 الاغترار ، وتطاوت بهم مدة الإصرار ، ومدد رواق الملك وضرب قبابه ، وثبت أواخيه
 وأحصد أسبابه^(٢) ، وقطع أطماع الملحين ، وأبطل كيد الكافرين ، وفقت في أعضاء
 المنايذين ، فتحصنت البيضة ، واجتمعت الكلمة ، وأتفقت الأهواء المتفرقة ،
 وانتظمت الآراء المتشعبة ، وسكنت الدهماء المضطربه ، وقررت القلوب المتزعجة ،
 وصدقت خواطر الصدور المتلججه ، وظهر الحق ورتخ عموده ، وبهر بحاله ونصر
 عوده ، ونبشرت أعلامه وطلعت سعوده ، وعز أولياؤه ونصرت جنوده ، وساخ

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) في الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدُمه ، وأنقطعت وصائله وعصمه ؛ وأنبتت حباله ورُممه ، وأنحلت أسبابه
وذممه - حقيقٌ بما بأن من فضله ، وأستفاض في الأئمة من عدله ، وعم كافة الرعية
من طوله ؛ ووصلت إلى المثل والذمي والداني والقاصي عائدة الخير في أيامه ، وفائدة
الأمن بمملكته وسُلطانه ؛ ومأمولٌ لأفضل ما بدا لعبيده من ثمرة آجتابه وأصطفاه ،
وما تَعَمَّده به من النعم العظيمة ، والمواهب الجسيمة ؛ وأسبغه عليه من العوارف
السنية ، ورفعه إليه من المنازل العلية ؛ التي تقصُر عنها همم ذوي الأقدار ، وتقف دونها
آمال أولي الأخطار ؛ مُقَدِّمًا له على أهل السوابق من أنصار دولته ، وأشباع دعوته .

فلو ترادفت ألسنُ العباد - أيد الله أمير المؤمنين - على اختلاف لغاتهم ، وتباين
طبقاتهم ، وتفاوت حالاتهم ؛ في مقابلة نعمة سيدنا التي أعشى العيون بهاؤها ، وتادية
حقوقه التي أعيا المجتهدين قضاؤها ؛ لكانت - حيث آتته ، وأثى تصرفه ؛
على استمراغ القدرة واستنفاد الطاعة - غير مُقارِبة حدًا من حدودها ، ولا مؤدية
فرضًا من فروضها ؛ وإذا كان الأمر على ذلك - أيد الله أمير المؤمنين - في قوت
الإحسان مقادير الشكر ، وإيفائه على مبالغ الوُسع ؛ فقصد عبده في جبر التقيصه ،
وسد الخلة ؛ الأزدياد في الطاعة ، والإخلاص في الموالاة والمشايعه ؛ وإدامة الأبهال
إلى الله تعالى ، ورفع الرغبة في معونة عبد أمير المؤمنين على مجافاة بلائه ، والتفرد
بجزائه ، وتجديد المسألة في إطالة بقائه : في عز لا تبلى جدته ، وسُلطان لا تنتهى مدته ؛
ومواد من مناسيحه وموائده ، وروادف من عوائده ؛ مُتظاهرة لا ينقطع منها أول
حتى يلحق تاليه ، ولا ينصرم سالفه حتى ينصرف آتیه ؛ ويكون المال بعد استيفاء
شروط الأمل ، وتفضي حدود المهل ؛ إلى النعم المقيم ، في جوار العزيز الكريم .

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده، ونظام معروفه عنده ؛ بدؤه إياه بما يتحن به خفة نهضته ، وسرعة حركته ؛ وقعوده لأمره بحمد حديد ، وبعيش عتيد ؛ وصمده لما يحظيه لذلك مولاه ، ويجوز له حمده ورضاه ؛ بصديق بصيره ، وخلوص سيره ؛ واستسهال لكل خطه ، وتجشم لكل مشقه ؛ دنيت المسافة أم شسعت ، قربت الطيبة أم تزحت ؛ وسيدنا أهل لأستتام يد ابتداها ، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة آبتناها ؛ باستعمال عبده بأمره ونهيه ، وأعتاده لمهمات بحضرتة وفي أطراف مملكته ؛ إن شاء الله تعالى .



قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبو الفضل العباس خليفة العصر ، من نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام ، واستبداده بالأمر دون سلطان معه ، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، مفتتحا له : « يقبل الأرض » التي يكتب بها الملوك . وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكاتبه إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه ملك ولا سوقة ، وهو :

يقبل الأرض وينهى ورود المثال الأشرف الميمون طائرته ، المرقوم على صفحات الأفلاك تهانيه المحمول على متن السحاب بسائرته ، الشاهد بالفتح المبين أوائله وبالنصر العزيز أو آخره ؛ متضمنا ما من الله تعالى به من جميل الصنع الذي وكفت بالخير تحائبه ، وخفي اللطف الذي بهرت العقول تحائبه ؛ بما منح الله تعالى به مولانا أمير المؤمنين مد الله تعالى على الإسلام وارف ظلّه ، وأنام الأنام بمد رواق

الإمامة المعظمة في مهادِ عدلِهِ ، ومكَّنَ له في الأرض كما مكَّنَ لآبائِهِ الخلقاءِ الراشدين من قبلِهِ : من جُلوسِهِ على سُدَّةِ الخِلافةِ المُقدَّسة التي وُصِلَ مُنْقَطِعُ حديثِها بإِسنادِهِ ، وحازَ منها بأشرفِ مَقْعَدٍ تَرَاثَ آبائِهِ الكِرَامِ وأجدادِهِ ؛ وأبْتَسَمَ نَغْرُ الخِلافةِ بعباسِهِ ، وتَأَسَّسَ منها جانبَ الدِّينِ بعدَ الأَسْتِحْشاشِ بِإيناسِهِ ؛ فقبِلَ المملوكُ له الأرضَ خاضِعاً ، ولَبَّى أوامِرَهُ الشَّرِيفَةَ ضارِعاً ، وأجابَ دَاعِيَهُ بِالامْتِثالِ سَامِعاً طَائِعاً ؛ وَتَجَدَّدَ سُجُودُ الشُّكْرِ لذلِكَ فَعُرِفَ بِسِيَّاهُ ، وَأَنْتَسَبَ إلى الوِلاءِ الشَّرِيفِ الإِمَامِيِّ أَنْساباً شامِلاً لاسمِهِ وَمَعْنَاهُ ؛ وَأَعْلَمَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأُمراءِ والأَجنادِ بِذلِكَ فقايلوه بِالاستِبْشارِ طُرّاً ، وتلقوها تَلَقَّياً يَلِيقُ بِمِثْلِها وإن كان لا مِثْلَ لِهُذِهِ البُشْرَى ؛ وَقُرِئَتْ المُطَلَقَاتُ الشَّرِيفَةُ على المنابرِ فَسَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ وَقَرَّتْ ، وَسَرَّتْ أَلْفاظُها إلى الأَسْماعِ الشَّيْقَةِ فَسُرَّتْ ، وَكُرِّرَتْ أَلْفاظُها العَدْبَةُ مِراراً خَلَّتْ لَدَيْ النَفوسِ إِذْ مَرَّتْ ؛ وَأَرْتَفَعَتِ الأَصواتُ بالدعاءِ بَدوامِ هذه الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ دَواماً لا يَسْتَشِعِرُ مُسْتَشِعِرُ خِلافةِ ، فَحَقِيقُ ظُهُورِ مِعْجَزَةِ أَكْرَمِ مُرْسَلِ بَعْدِ الثَّمانِ مائةِ بِقولِهِ لعمْرِهِ العباسِ : ” أَلَا أُبَشِّرُكَ بِأَعَمِّ : بِ خُتِمَتِ النَّبُوَّةُ وَبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخِلافةُ “ .



وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن ميثال شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » واستقرار ولده السلطان الملك المنصور « أبي بكر » مكانه في الملك بعهد من أبيه . من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارنباري ، بعد التعزية بأبيه السلطان الملك الناصر ، وهي :

وَيُنْهَى وَرُودَ المرسومِ الشَّرِيفِ شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ أَمْرَ المُصَابِ الَّذِي كَادَتْ لَوْقُوعِهِ الأَرْضُ تَتَزَلزلُ بِأهلِها ، وَالعُقُولُ تَتَرَبَّلُّ عَنْ مَحَلِّها ؛ وَبَلَّغَتْ القُلُوبُ

الحنّاجِر، وأسْتَوْحِشَتِ الْقُصُورُ وأسْتَأْنَسَتِ الْمَقَابِرُ، وَتَصَدَّعَتْ لَهُ صُدُورُ السُّيُوفِ
وَرُءُوسُ الْمَنَابِرِ، وَقَصَمَ الظُّهُورُ، وَشَيَّبَ السُّودَ مِنَ الشُّعُورِ؛ وَجَرَعَ كُشُوسَهُ،
وَصَدَّعَ الْحَوَازَةَ الْحَرُوسَةَ؛ وَذَلِكَ بِمَا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَنْتِقَالِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ السَّعِيدِ،
الشَّهِيدِ؛ وَالدِّمُولَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - إِلَى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ: فَاجْرَى الْمَمْلُوكُ
عِوَضَ الدَّمُوعِ دَمًا، وَأَقَامَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مَأْتَمًا، وَتَغَيَّرَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ لِقَفْدِهِ
فَامْسَى مُظْلِمًا؛ وَنَدَبَهُ الْإِسْلَامُ فِي سَائِرِ تَحَارِيرِهِ وَمُصَلَّاهُ، وَأَسِيفَ عَلَيْهِ الْبَيْتُ الْحَرَامُ
وَرُكَّاهُ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةً حَسَنَةً﴾.

لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَشْرَقَ مِنْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ كُلُّ شَيْءٍ، وَوَيْوَمَ
قُبِضَ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَثْبَتَ النَّاسِ يَوْمَ
وَفَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ - قَدَسَ
اللهُ رُوحَهُ - كَانَ مُتَشَرِّفًا بِاسْمِ نَبِيِّهِ، وَمُتَبَرِّكًا فِي ذُرِّيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ بِذِكْرِ سَمِيهِ؛
وَلَوْ ذَابَتِ الْمُهْجُ أَسْفًا عَلَيْهِ لَمَّا أَنْصَفَتْ، وَقَدْ أَسِفَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّمُ بِأَسْرِهَا وَحَقَّ لَهَا
أَنْ أَسِفَتْ؛ نَبَتْ لِحُومِنَا مِنْ صَدَقَاتِهِ، وَعَمَّرَتْ الْمَمْلُوكَ وَالْمَالِكَ بِجَزَلَاتِ هِبَاتِهِ؛
وَمَا يُقَلِّ مَنْ قَضِيرِهِ إِلَّا إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَمَا فَارَقَ مُلْكَهُ إِلَّا وَبَاتَ فِي جِوَارِ
اللهِ الْكَرِيمِ؛ وَكَانَ سُلْطَانَنَا وَهُوَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللهُ سُلْطَانًا، فَسَقَى اللهُ عَهْدَهُ صَوْبَ
الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

وَبِحَمْدِ اللهِ قَدْ جُبِرَتِ الْقُلُوبُ الْمُنْصَدِعَةُ بِجُلُوسِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ -
عَلَى تَحْتِ السَّلْطَنَةِ الْمَعْظَمَةِ وَاللهُ مَعَهُ، وَمَا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ إِلَّا أَهْلُهُ، وَلَا قَامَ
بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ عُلِمَ فَضْلُهُ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَارِثُ الْمَلِكِ النَّاصِرِيِّ الْمَنْصُورِ

حقاً ، والقائمُ بِسَانِ السلطنة غَرِباً وَشَرْقاً ؛ وَخُلَاصَةُ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ
نَصْرًا ، وَأَدَامَ مُلْكَهُ دَوَامًا مُسْتَمَرًّا ؛ وَالْعُيُونُ الْبَاكِيةُ قَدْ قَرَّتِ الْآنَ بِهَذِهِ الْبُشْرَى ،
وَالْقُلُوبُ النَّائِكَةُ قَدْ مَلَّتْ بِهَيْجَةٍ : (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) وَاسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ بَعْدَ قَلْبِهِ ،
وَنَامَ عَلَى جَفْنِهِ بَعْدَ أَرْقِهِ ؛ وَاسْتَقْبَلَتِ الْأُمَّةَ عَامًا جَدِيدًا ، وَسُلْطَانًا مَنْصُورًا سَعِيدًا ؛
وَاسْتَبَشَرَتِ الْقِبْلَتَانِ ، وَتَنَاجَى بِالْمَسْرَةِ النَّقْلَانِ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَمْسَوْا خَائِبِينَ ، وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَصْحَوْا فَرِحِينَ (هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ هُوَ الْعَرِيقُ
فِي سُلْطَنَةِ الْإِسْلَامِ ، وَالْإِمَامُ الْأَعْظَمُ ابْنُ الْإِمَامِ ؛ خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ مَا دَامَتِ الْأَيَّامُ ،
وَأَحْسَنَ عَزَاءَهُ فِي خَيْرِ سُلْطَانِ الْأَنْامِ ؛ وَأَبْتَهَلَتِ الْأَلْسِنَةُ بِالْتَّرْحَمِ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ
الشَّهِيدِ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - بِدُمُوعِ سَائِلِهِ ، وَقُلُوبِ مَوْجُوعَةِ بِيْرَاحَاتِ النَّبَاحَاتِ
ثُمَّ عَوَّضُوا بِالْمَسْرَاتِ الْكَامِلَةِ ؛ وَالدُّعَاءُ مَرْفُوعٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ -
بِرَأٍ وَبِحُرَا ، وَالْبِلَادُ مُطْمَئِنَّةٌ وَالْعَسَاكِرُ عَلَى مَا يَجِبُ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ ،
وَالتَّشْرِيفِ بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَوَارِثِ سُلْطَانِهِمْ ؛ وَكَانَ الْمَمْلُوكُ يَوَدُّ لَوْ شَهِدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - عَلَى ذَلِكَ السَّرِيرِ وَالْمِئْبَرِ ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَوَاقِفِ
الْمُعْظَمَةِ وَالْمَقَامِ الْأَكْبَرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جَوَايِ عَنِ وُرُودِ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ بِرُكُوبِ السُّلْطَانِ بِالْمِيدَانِ ، وَالْإِذْنَ
لِلنُّوَابِ فِي لَعِبِ الْكُرَّةِ ، وَهِيَ :

وَيُنْهَى وُرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ شَرْفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَمَهُ ، يَتَضَمَّنُ الصَّدَقَةَ الَّتِي
أَجْرَتْ أَوْلِيَاءَهَا عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ مِنَ الْأَحْتِفَالِ ، وَالْمَرَاحِمِ الشَّامِلَةِ الَّتِي وَسَّعَتْ لِمَنْ
كَرَّمَهَا سَافِرَةً عَنِ أَوْجِهَةِ الْإِقْبَالِ ، وَالْبُشْرَى الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَسْرَاتِ مَا بَلَغَتْهُ

الآمال ؛ وهو أن الركب الشريف استقل إلى الميدان السعيد نهار السبت في كذا من شهر كذا : في أسعد طالع ، وأمين وقت مطاوع ؛ وفي الخدمة الشريفة من الأمراء - كثرهم الله تعالى - من جرت العادة بهم من كل كمي مقنع ، قد لبس من الطاعة برداً وبالإخلاص تدرع ؛ وأمتطى من فائض الصدقات الشريفة صهوة سابق قد شمر للسبق ذبلاً ، وفر كبرق لمع ليلاً .

وأن مولانا السلطان - خلد الله ملكه - طلع عليهم طلوع البدر عند الكمال ، وحوله الممالك الشريفة كالأنجم الزاهرة التي لا تعد ولا تُسبب بمثال ؛ والحياض لا يرى لها أثر من الركن ، والكرة تشرف بالصوبحان كما تشرف بالتقيل الأرض ؛ وعاد الركاب الشريف - زاده الله شرفاً وعظمه - إلى القلعة المنصورة ، إلى محل المملكة الشريفة ، وفي دست السلطنة المعظمه ؛ محفوا من الله تعالى بلطفه (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) .

وما اقتضته الآراء الشريفة ، والمرامح المطيفة ؛ وآثرت به إلام المملوك بذلك ، والمرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - أن يتقدم المملوك بالتزول إلى ميدان فلانة المحروسة ، ومعه ممالك مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - والأمراء ؛ فقابل المملوك هذه الصدقات ، بتقيل الأرض ورفع الدعوات ؛ وجمعوا بين الكرة والصوبحان ، وحصل لهم من المسرات ما لا يحصره بيان ؛ وأنسخت نفوسهم إذ أصبحوا في أمن وأمان ، وأبتهلوا إلى الله تعالى بدوام هذه الأيام التي نعتهم بأنواع الإحسان ؛ وصحبوا بالأذعية لمولانا السلطان - خلد الله ملكه - التي عمت مواهبه وفاق بمكارمه الماضين ، وأزبى على سلفه الشريف بالعطاء والتمكين ، جعل الله أعداءه تحت قهره إلى يوم الدين ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جواب بوقاء النيل المبارك، كتب به عن نائب طرابلس، وهي :

وَيُنْهِى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - الَّذِي أَسْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعَمَّومِ الرِّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمِيمِ النِّعَمَةِ؛ وَوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَا بَرِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ يَفِي بِعَهْدِهِ، وَيَسْلُ سَيْفَ الْخَضْبِ مِنْ غَمِّهِ، وَيَقْتُلُ الْمُحِلَّ بِمُجْرَمَةِ مَتْنِهِ وَجَوْهَرِ حَدِّهِ؛ مُهَيِّئًا لِلْأَوْلِيَاءِ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، مَسْرُورَةً بِمَا مَنَّ اللهُ بِهِ مِنْ تَرَادُفِ الْآلَاءِ وَعُمُومِ النِّعَمَاتِ؛ وَحَالَ مَا وَرَدَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - بِأَدْرَ الْمَمْلُوكِ إِلَى أَمْتَالِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَخَذَ كُلُّ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى، الَّتِي عَمَّتْ تَهَانِيهَا بَرًّا وَبِحَجْرًا؛ وَجَعَلَتْ أُمُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُبْنِي بَرَكَهَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا؛ وَقَدْ عَادَ فُلَانُ الْبَرِيدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ، طَالِعَ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



آخر في المعنى :

وَيُنْهِى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ عُلُوقًا وَشَرَفًا، وَبَيَّضَ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ صُحُفًا؛ يَتَضَمَّنُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ الْجَزِيلِ، وَابْتِدَاءَ آثَارِ السُّرُورِ بِمَا يَسِّرَ اللهُ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ؛ فَاسْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعَمَّومِ الرِّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمِيمِ النِّعَمَةِ؛ إِذْ جَاءَ مُجِيَّاهُ فِي هَذَا الْعَامِ طَلْقًا، وَسَلَّكَ فِي عَوَائِدِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ طُرُقًا؛ وَإِذْ بَلَغَ الْمَرَامَ وَالْمُرَادَ، وَكُسِرَ سَدُّ خَلِيجِهِ جَبْرًا لِلْعِبَادِ

والبلاد ، حيث ملأ الأرض رياً ، وأهدى من نَفَحَاتِ الأَمِينِ والمِنِّ رِياً ؛ والمرسوم الشريف - شَرَّفَهُ اللهُ وَعَظَّمَهُ - بأن لا يُجْبَى على ذلك حَقُّ بَشَارِهِ ، ولا يُتَعَرَّضُ إلى أَحَدٍ بِحَسَارِهِ ؛ فقابل المملوك المشال الشريف والمرسوم الشريف بتقييل الأرض والسَّمْعِ والطَّاعَةِ ، وبأَدْرَ المملوك إلى إِذَاعَةِ هذه البُشْرَى ، التي عَمَّتْ تَهَايُنَهَا بَرّاً وَبَحْرًا ؛ وجعلت أمور هذه الأمة بِمِنِّ بَرَكَةِ هذه الأيام الشريفة بعد عُسْرِ يُسْرًا ؛ وأستنطق الأئِسِنَةَ بالدعاء لهذه الدَّوْلَةِ الفَاهِرَةِ ، وَجَلًّا وَتَلًّا صُورَ المَهْنَاءِ وَسُورَ الأَلَاءِ بِهذه النِّعْمَةِ الوَاقِيَةِ والمِنِّةِ الوَافِرَةِ ؛ وسأل الله تعالى أن يُخَلِّدَ مَلِكَ مولانا السلطان ، وَيُؤَالِي أُنْبَاءَ البشائر في أَيَّامِهِ الشريفة مَرْوِيَّةً بِالأَسَانِيدِ الحِسانِ ؛ وقد عاد فلان البريدي بالأبواب الشريفة - شَرَّفَهَا اللهُ تعالى وَعَظَّمَهَا - بهذا الجواب الشريف ، وقد عَينَ أَتَهَالِ أَهْلَ هذه المملكة الفَلَانِيَّةِ بالدعاء بدوام هذه الأيام الزَاهِرَةِ السَّارَةِ بِهذه البشائر بِخُلُوقِهَا من الكَلْفِ والحَسَارَةِ ، طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جوابٍ عن مشال شريف بوصول قَوسِ إِنْعام ، كُتِبَ بِهِ عن نائب طَرَابُلُس ، وهي :

يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي وَرُودَ المرسوم الشريف أعلاه اللهُ تعالى وشرفه ، يتضمن ما أقتضته الآراء الشريفة من الخَيْرِ التَّامِّ ، والإِنْعامِ العَامِّ ، وَالصَّدَقَةِ الوَاقِيَةِ الوَافِرَةِ الأقسام ؛ التي ما بَرِحَتْ ممالك هذه الدَّوْلَةِ الشريفة في إِنْعامِها العَمِيمِ تَنْقَلِبُ ، وَالخَيْلُ السَّوَابِقُ بِسَعَادَتِهَا الأَبَدِيَّةِ مُجَلَّبٌ وَنَجْنَبٌ وَتُرْكَبُ : من تجهيز الحِصَانِ البَرِّيِّ بِسَرِجِهِ وَلِجَامِهِ وَصُدَّتِهِ الكَامِلَةِ ، وَتُشْمَلُ المملوك بالصَّدَقَاتِ التي ما بَرِحَتْ مُتَرَادِفَةً مُتَوَاصِلَةً ، وَلِعَبْدِ هذا البَيْتِ الشريف شامله ؛ وَقَبَلِ المملوكِ الأَرْضَ وَقَبَلِ حَوَافِرِهِ ، وَأَعْتَدَّ

بهذه النعمة الباطنة والظاهرة؛ وأعدّه ليومئذٍ تجلّ وجهاً، ولقاءً عدوّاً وطراداً؛ والله تعالى يُخلّد هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريبَ والبعيدَ، والمواليَ من أولياء هذه الدولة الشريفة والعبيد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جوابٍ عن وُصولٍ خيلٍ من الإنعام السلطانيّ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ .

ويُنهى وُصول ما أنعم به من الخيل التي وُجدت الخير في نواصيها، وتُخذ صهواتها^(١) حصوناً يُعتمّم في الوغى بصياصيها .

فمن أتمه غطاءه النهار بجُلته، وأوطاه الليل على أهله؛ يَمْوجُ أديمه رياً، ويتأرجح رياً، ويقول من استقبله في حليّ لجامه: هذا الفجر قد طلع بالثرباً؛ إن أنقلت في المضايقي أنساب أنسياب الأيم، وإن أنفجرت المسالك مرّ مرور الغيم؛ كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعه، وكم عاين [طرف] السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته؛ لا يستن داحس في مضاره، ولا تطعم الغبراء في شقّ غباره، ولا يظفر لاحق من لحافه بسوى آثاره؛ تسابق يده مرامي طرفه، ويذكرك شوارد البروق ثانياً من [عطفه]^(٢) .

ومن أدهم حالك الأديم، حالي الشكيم، له مقلّة غانية وسالفة ريم؛ قد ألبسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده؛ يظن من نظر إلى سواد طرفه، وبياض حجوله

(١) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وأدنرت» .

(٢) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «ألنقت المضايقي» وهي أوضح .

(٣) بياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

وغيرته؛ أنه توهم النهار نهراً نفاضه، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضه؛
لئن الأعطاف، سريع الأعطاف؛ يقبل كالليل، ويمر بكأمود^(١) [صخر] حطه السيل؛
يكاد يسبق ظله، ومتى جرى السهم إلى غرض بلغه قبله .

ومن أشقر: وشاه البرق بلهيه، وعشاه الأصيل بذهبه؛ يتوجس مالدیه بدقيقتين^(٢)،
وينفض وفرتيه عن عقبتين، ويتزل عذار بلحامه من سألقتيه على شقيقتين؛ له من
الراح لونها، ومن الرياح لونها؛ إن جرى فبرق خفق، وإن أسرع فهلال على شفق؛
لو أدرك أوائل حرب بني وأئل لم يكن للوجه وجهه، ولا للنعامه نباهه، ولكان
ترك إغارة [سكاب لوماً وتحريم بيعها سفاهه]^(٣) يركض ما وجد أرضاً، وإذا اعترض
به راكبه بجرأ وثب عرصاً .

ومن كبيت نهد، كان راكبه في مهد؛ عندمى الإهاب، شمالي الذهب؛ يزل^(٤)
[الغلام] الخلف عن صمواته، وكان تغم الغريض ومعبيد في لهواته؛ قصير المطأ،^(٥)
فسيح الخطأ؛ إن ركب لصيد قيد الأوابد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد؛
وإن جنب إلى حرب لم يزور من وقع القنا بلبانه، ولم يشك لو علم الكلام بلسانه،
ولم يردون بلوغ الغاية وهي ظفر راكبه ثانياً من عنانه؛ وإن سار في سهل أختال
بصاحبه كالثمل، وإن أضعد في جبل طار في عقابه كالعقاب وأحط في مجاريه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) في "حسن التوسل" «يتوخش» .

(٣) بياض بالأصل، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) في الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) في الأصل «سريع» والتصحيح عن " » » .

كَالْوَيْلِ ؛ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ ، وَمَتَى أَرَادَ الْبَرْقُ مُجَارَاتَهُ قَالَ لَهُ الْوُقُوفُ
عِنْدَ قَدْرِهِ : مَا أَنْتَ هُنَاكَ فَتَمَهَّلْ .

وَمِنْ حَبَشِيٍّ أَصْفَرَ يَرُوقُ الْعَيْنُ ، وَيَسُوقُ الْقَلْبَ بِمِشَابَهَةِ الْعَيْنِ ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ
أَلْقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَشْعَتِهَا جَلَالًا ، وَكَأَنَّهُ تَفَرَّ مِنَ الدُّجَى فَأَعْتَقَ مِنْهُ عُرْفًا وَأَعْتَقَ أَحْجَالَهَا ،
ذِي كَفَلٍ يَزِينُ سَرَجَهُ ، وَذَيْلٍ يَسُدُّ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ مِنْهُ فَرَجَهُ ؛ قَدْ أَطْلَعَتْهُ الرِّيَاضَةُ
عَلَى مُرَادِ فَارِسِهِ ، وَأَغْنَاهُ نَضَارَ لَوْنِهِ وَنَضَارَتَهُ عَنْ تَرْصِيعِ قَلَائِدِهِ وَتَوْشِيعِ مَلَابِسِهِ ؛
لَهُ مِنَ الْبَرْقِ خِفَّةٌ وَطَيْبَةٌ وَخَطْفَةٌ ، وَمِنَ النَّسِيمِ لِينٌ مُرَوِّرٌ وَلُطْفَةٌ ، وَمِنَ الرِّيحِ هَرِيرٌ يَزُهَا
إِذَا مَا جَرَى شَاوِرِينَ وَأَبْتَلَّ عَطْفُهُ ؛ يَطِيرُ بِالْعَمَزِ ، وَيُدْرِكُ بِالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْزِ ،
وَيَعُدُّو كَأَلْفِ الْوَصِيلِ فِي اسْتِغْنَاءِ مِثْلِهَا عَنِ الْهَمَزِ .

وَمِنْ أَحْضَرَ حَكَاةً مِنَ الرُّوضِ تَفْوِيْفُهُ ، وَمِنَ الْوَشْيِ تَقْسِيمُهُ وَتَأْلِيْفُهُ ؛ قَدْ كَسَاهُ
النَّهَارُ وَاللَّيْلُ حُلَّتِي وَقَارِ وَسَنًا ، وَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا
حَسَنًا ؛ وَمِنْهُ الْبَازِي حُلَّةٌ وَشَيْهٌ ، وَنَحَلْتُهُ الرِّيَاحُ وَنَسَمَاتُهَا قُوَّةَ رَكْبِهِ وَخِفَّةَ مَشِيهِ ؛
يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الْجُرَى قَبْلَ سُؤَالِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يُسَاقِهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْلِ أَغْرَاهُ حُبُّ الظَّفَرِ
بِمُسَابَقَةِ خَيْالِهِ ؛ كَأَنَّهُ [تَفَارِيْقٌ] ^(٣) شَيْبٌ فِي سَوَادِ عِدَارٍ ، أَوْ طَلَائِعُ بَحْرِ خَالِطٍ بَيَاضُهُ
الدُّجَى ، فَمَا تَجِبِي ، وَمَا زَجَّ ظِلَامُهُ النَّهَارَ ، فَمَا أَنْارَ ؛ يَخْتَالُ لِمَشَارَكَةِ أَسْمِ الْجُرَى بِنْتِهِ
وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي السَّيْرِ كَالسَّيْلِ ، وَيُدُلُّ بِسَبْقِهِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَشْتَرِكِ بَيْنَ الْبُرُوقِ وَاللَّوَامِعِ

(١) فِي الْأَصْلِ « الْعَيْنُ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ « طَرُوقُهُ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « » « » .

(٣) الزِّيَادَةُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

وبين البرقية من الخيل ؛ ويكذب [الماتوية^(١)] لتولد اليمن فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل .

ومن أبلق ظهره حرم ، وجره صرم ؛ إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم ، وإن صرف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكنف والقدم ؛ قد طابق الحسن البديع بين ضدتي لونه ، ودلت على اجتماع التقيضين علة كونه ؛ وأشبهه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار ، وأخذ وصف حلتى الدجى في حلتى الإبدار والسرار ؛ لا تكلم منا كبه ، ولا يضل في حجرات الجيوش را كبه ، ولا يحتاج ليله المشرق بجاورة نهاره إلى أن تسترسل فيه كوا كبه ؛ ولا يجاريه الخيال فضلا عن الخيل ، ولا يمل السرى إلا إذا مله مشبهاه : النهار والليل ؛ ولا تمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل ؛ فهو الأبلق الفرد ، والجواد الذى محاريبه العكس وله الطرد ؛ قد أغتته شهرة نوعه في جنسه عن الأوصاف ، وعدل بالرياح عن مباراته لسلو كها له في الاعتراف جادة الإنصاف .

فترقى المملوك إلى رتب العزم من ظهورها ، وأعدتها لخطبة الحنان إذ الجهاد عليها من أنفاس مهورها ؛ وكلف بركوها فكلمها أكله عاد ، وكلما أملته ثمره إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ؛ ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل ، وعلم أنها ليومى ساميه وحره جنة الصائيد وجنة الصائل^(٢) ؛ وقابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه^(٣) ،

(١) يياض بالأصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «زيد البحر والخيل» .

(٣) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «جنة للصائل وجنة للصائل» .

(٤) في الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ لِمُقَارَعَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ [وَاللَّهُ تَعَالَى يُشْكِرُهُ الَّذِي أْفَرَدَهُ فِي النَّدَى بِمَذَاهِبِهِ، وَجَعَلَ الصَّافِنَاتِ الْحِيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ^(١)].

المهيـع الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ بِهِ عَنْ نُوَّابِ السُّلْطَانِ وَالْأَتْبَاعِ إِلَى السُّلْطَانِ أَبْتِدَاءً)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيءُ بِهِ الْكَاتِبُ فِي مِثْلِهِ .
فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ عَنْ نَائِبِ كُلِّ مَمْلُوكَةٍ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ وِلَايَتِهِ .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته، كتب إلى السلطان يُخَبِّره بذلك وبما المملكة عليه .

وهذه نسخة مكتوبة من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ نَائِبِ حَلَبَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَهِيَ:
يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْبِئُ أَنَّ الْمَمْلُوكَ وَصَلَ إِلَى الْمَمْلُوكَةِ الْفُلَانِيَةِ الْخُرُوسِيَّةِ، وَحَلَّ بِمَحَلِّهَا الْمَأْنُوسَةَ، الَّتِي شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بِكَفَالَتِهَا، وَأَهْلَتْهُ الْمَرَاحِمُ الْمُنِيفَةُ لِإِبَاتِهَا، رَافِلًا فِي حُلِيِّ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ، مُتَفَيِّئًا ظِلَّ الْعِزِّ الْوَرِيفِ، صُحْبَةَ فُلَانٍ مُسْفَرِهِ، وَدَخَلَهَا يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا لِأَبْسَا تَشْرِيفِهِ الشَّرِيفِ الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْهِ، مَا شِئًا لِمَحَلِّ الْكِرَامَةِ الَّذِي سَارَ إِلَيْهِ، [بِمَحْضُورٍ مِنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَحْضُورِهِ^(٢)] مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْمُجْتَابِ، وَالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَالْأَصْحَابِ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ، وَأَكْمَلِ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهي من سقط النسخ .

القَوَاعِدَ؛ وَقَبَلَ الْأَرْضَ بِبَابِ الْفَاعَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَدَخَلَ دَارَ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ وَقَطُوفَ الْأَمَانِي لَهُ مَهْضُورَهُ؛ وَقُرِئَ بِهَا بِحَضْرَةِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ تَقْلِيدُهُ، وَعَظَّمَ الْمَرَاسِمَ الشَّرِيفَةَ تَأْيِيدُهُ؛ وَتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْهُ لَهُ الْمَرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ، وَتَنْفِذِ كُلِّ مِهْمٍ شَرِيفٍ وَمَرْسُومٍ؛ وَتَصَفَّحَ أَحْوَالَ الْمَمْلُوكَةِ، وَسَلَكَ كُلَّ أَحَدٍ مَسْلَكَهُ؛ وَأَسْتُجْلِبَتِ الْأُدْعِيَةُ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَأَجْتَهَدَ فِي حِيَاطَةِ الْبِلَادِ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْهِ شَيْطَانُ الْمُفْسِدِينَ بِأَشْطَانٍ؛ وَأَنْتَظِمَ لَهُ أَمْرَ الْمَمْلُوكَةِ بِالْمَهَابَةِ الشَّرِيفَةِ أَحْسَنَ أَنْتِظَامٍ، وَبَلَغَ بِهِ كُلَّ وَدِيٍّ مِنْ قَهْرِ الْعُدُوِّ غَايَةَ الْمَرَامِ؛ وَقَدْ أَعَادَ الْمَمْلُوكَ فَلَانًا مُسَفَّرَهُ إِلَى خِدْمَةِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ مُزَاحَ الْأَعْذَارِ، مُبَلِّغَ الْأَوْطَارِ؛ عَلَى الْعَادَةِ - طَالِعَ بِذَلِكَ - وَلَا زَالَ مِنْهُ مَزِيدُ الشَّرَفِ وَالْعُلُوِّ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَنْهَى أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ مَغْمُورًا بِالصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ، وَالْإِنْعَامَاتِ الْمُطِيفَةِ؛ صُحْبَةَ مَمْلُوكِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانَ خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مَمْلُوكَهُ، وَالْأَيْسَ تَشْرِيفَهُ الشَّرِيفِ، وَقُرِئَ تَقْلِيدُهُ الشَّرِيفُ بَدَارَ الْعَدْلِ، وَقَبَلَ الْأَرْضَ مَرَارًا عَلَى الْعَادَةِ . وَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالْحَايِفِ الشَّرِيفِ عَلَى النُّسْخَةِ الْمُجَهَّزَةِ صُحْبَةَ الْمَشَارِ إِلَيْهِ مِنَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَظَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِحُضُورٍ مِنْ جَرَتِ الْعَادَةُ بِحُضُورِهِ؛ مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ، وَكَتَبَ خَطَّهُ عَلَيْهَا؛ وَأَنْتَصَبَ الْمَمْلُوكَ لِحَلَاصِ الْحَقُوقِ، وَإِزَالَةِ الْمَظَالِمِ؛ وَنَشْرِ لَوَاءِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ، لِيَتَنَصَّفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ، وَيَتَرَجَّرَ الْقَوِيُّ عَنِ الضَّعِيفِ؛ وَأَتَّبَعَ الْحَقَّ فِي الْقَضَايَا، وَأَسْتُجْلِبَ الْأُدْعِيَةَ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَادِلَةِ مِنَ الرَّعَايَا؛ وَرَتَّبَ أُمُورَ الْأَزَاكِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَكْمَلِ عَادَةٍ وَأَجْمَلِ

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظّمها، لينهى بين يدي الأيادي المعظمة ما عاينته من المملوك من إخلاصه في الطاعة الشريفة ومغالاته. طالع بذلك. إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة، فقد قال في "موادّ البيان" : من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء، إيجاباً لهم وتعظيماً. إلا أننا رأينا ذوي الأخطار من القدمات قد شافهوهم بالعزاء مسلين، وبالهناء داعين؛ وربما دُفع الكاتب إلى ضجة رئيس يقتضى محله أن يهني الخليفة بمتجدد النعم لديه، ويعزيه لمتطرق النوايب إليه؛ فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء وعزائهم ما يحدئ عليه، عند الحاجة إلى استعمال مثله.

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة، أوردتها في "موادّ البيان" وهي :

أولى النعم - خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين - بأن تنطق بها ألسن الذاكرين
يضع عطرها، وبتناقلها أفواه الشاكرين يفوح نشرها - نعمة إيلانه في خلافته
التي جعلها ذنراً للأنام، وعصمة للإسلام، وحاجزاً بين الحلال والحرام؛ وقواماً
للائتلاف والائتصاف، وزماماً عن الاختلاف والافتراق؛ ونظاماً لصالح الخاصة
والعامه، وسبيلاً إلى اجتماع الكلمة وسكون الأمة؛ وسبباً لحقن الدماء، ودعة
الدّمماء، ومجاهدة الأعداء؛ وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكوات؛ والعمل بالفرائض
والسنن، وحبم البدع والفتن؛ وعدقها بالأخيار ورثة نبيه وصيرته، والأبرار الطهارة
من أرومة رسوله وشجرتيه؛ الذين نصبهم دعاة إلى طاعته، وهداة لبريئته، وأعلاماً
لشريعته؛ يأمرون بالمعروف ويأثمرون، وينهون عن المنكر ويتهمون، ويقضون

بالحق وبه يعدلون ؛ وكلما لحق منهم سلف بمقر أوليته ، أقام خلفا يختصه بانتخابه
وتكريمه .

والحمد لله الذي قصر خلافة علي أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى
كانت مفوضة إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ، وأنجز لهم ما وعدهم من إبقاء الإمامه ،
في عقبهم إلى يوم القيامة ؛ وأستخلص لها في عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ،
المرامى عن حوزتها ، المعز لكلماتها ، الرافع لرايتها ، المحدد لحدودها ، الحافظ لعقودها ،
وسلم قوسا منه إلى باريها ، وناطها بكفئتها وكافيتها ، وأفضى إليه بشرف الولادة
والأبوة ، وميراث الإمامة والنبوة ؛ وألف به بين القلوب الآيبه ، وجمع عليه النفوس
النائية ، وأتفقت الآراء بعد تبأيها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعادياها ،
وأستندت ثلثة الدين بعد انشغالها ، وأطمأنت الدهماء بعد تفارها ، حمدا يكون لنعمة
كفاء ، ولموهبته جراء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لا تترع الهمم إليها ، ولا تتطلع الأمانى عليها :
لاختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ؛ فإن أمير
المؤمنين يتعظم عن تهنيئه بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لا يسوغ أن يهنا
بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ؛ والعبء
يسأل الله تعالى ضارعا إليه في إنهاض أمير المؤمنين بما حمّله وكلفه ، وتوفيقه فيما
كفّله وأستخلفه ؛ وأن يمكن له في الأرض ، ويعلى يده بالسط والقبض ؛ ويمده بعز
السلطان ، وعلو الشأن ؛ وظهور الأولياء ، وثبور الأعداء ؛ وإعزاز الدين ، وأبتراز
المليحين ؛ وتقوية يده في نصره الإسلام ، وسياسة الأنام ؛ ويعرف رعيته من بين
دولته ، وسعادة ولايته ؛ يجمعهم على الطاعة والمواقفة ، ويعصمهم من المعصية والمفارقة ؛

وَيُوفِّقُهُم مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي مَوَالِيهِ ، لَمَّا يُوفِّرُ حَظَّهُمْ مِنْ مَرْضَاتِهِ ، وَيَجْعَلُ وِلَايَتَهُ هَذِهِ مَقْرُونَةً بِإِنْفِصَاحِ الْمُدَّةِ وَالْأَجْلِ ، وَبُلُوغِ الْمُنَى وَالْأَمَلِ ، وَصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُبَلِّغُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَدَوْلَتِهِ أَفْضَلَ مَا بَلَغَهُ خَلِيفَةٌ مِنْ خَلْفَائِهِ ، وَوَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ .

ومن ذلك ما يكتب في الإشارة بالفتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعة أو قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ وَحَصَلَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى السُّلْطَانِ مُبَشِّرًا بِذَلِكَ الْفَتْحِ ، مُنَوِّهَا بِقُدْرِهِ ، مَعْظَمًا لِأَمْرِهِ ، وَمَا كَانَ فِيهِ : مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ وَقُوَّةِ الظَّفَرِ .

(١)

[فمن مكتبة في الإشارة بفتح حصن المرقب ، وهي] :

قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، والتأييد وقد طار به مُحَلِّقُ التباشير نَحْفَقَ فِي الْخَافِقِينَ جَنَاحَهُ ، وَالْإِسْلَامَ وَقَدْ وَطِئَ هَامَةَ الْكُفْرِ بِمَقْدَمِهِ ، وَالَّذِينَ وَقَدْ عَزَّ بِفَتَكَاتِ سَيْفِهِ الْمَنْصُورِ فَأَنْفَ أَنْ يَكُونَ الشَّرْكَ مِنْ خَدَمِهِ ، وَالْأَفْلَاقَ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لِهَذَا الْفَتْحِ الْقَرِيبِ كَانَ أَجْتِمَاعُ كَوَاكِبِهَا ، وَالْأَمْلاكَ وَقَدْ نَزَلَتْ لِتَشْهَدَ أَحْمَدَ النَّصْرَةَ الْبَدْرِيَّةَ فِي صُفُوفِهَا وَمَوَاقِبِهَا ، وَحِصْنِ الْمَرْقَبِ وَقَدْ أَلْقَتْ عَلَيْهِ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَشْعَمَةً سَعْدِهَا ، وَأُنْجَزَتْ لَهُ الْأَيَّامُ مِنَ الشَّرَفِ بِهَا آمَالُهُ بَعْدَ مَا طَالَ أَنْتَظَارُهُ لَوْعِدِهَا ، وَأَمَّتَهُ الْأَقْدَارُ الَّتِي دَلَّلَتْهُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ تَطَاوَلَ إِلَيْهِ الْحَوَادِثُ مِنْ بَعْدِهَا ، وَقَدْ أَحَاطَتْ الْعُلُومُ بِأَنَّ هَذَا الْحِصْنَ طَالَمَا تَحْتَمَّتِ الْأَحْلَامُ ، أَنْ تُحْيَلَ فَتَحَهُ مَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَمَا حَدَّثَتْ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهَا بِقَصْدِهِ إِلَّا وَسَّأَهَا النَّجَلُ ، وَلَا خَطْبَتَهُ بِنَدْلِ

(١) لم يذكر المؤلف عنواناً لهذه المكتبة ، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام لينتم الكلام . وقد بحثنا عن هذه المكتبة في الكتب التي بأيدينا فلم نهند إليها ، غير أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي قد ذكر فقرات منها في "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النَّفَاسُ وَالنُّفُوسُ إِلَّا وَكَانَتْ مِنَ الْحِزْمَانِ عَلَى رِقَّةٍ وَمِنْ مُعَاجِلَةِ الْأَجَلِ وَقْتَهُ عَلَى وَجَلٍ ؛
 وَحَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ كُلِّ شَايخٍ تَهَيَّبُ عِقَابُ الْجَوِّ قَطَعَ عِقَابِهِ ، وَتَهَفُ الرِّيحُ خَدَمًا
 دُونَ التَّوَقُّلِ فِي هِضَابِهِ ؛ [وَحَوْلَهُ مِنْ] الْأُودِيَةِ خَنَادِقُ لَا تُعَلِّمُ مِنْهَا الشُّهُورُ إِلَّا بِأَنْصَافِهَا ،
 وَلَا تُعَرِّفُ فِيهَا الْأَهْلَةَ إِلَّا بِأَوْصَافِهَا ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّطَ بِالنُّجُومِ ، وَتَقَرَّطَقَ
 بِالغُيُومِ ، وَسَمَّا فَرَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَرَسَا أَصْلُهُ فِي التُّخُومِ ؛ تُحَالُ الشَّمْسُ إِذَا عَلَتْ أَنَّهَا
 تَتَنَقَّلُ فِي أَرَاخِهَا ، وَيُظَنُّ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى السَّمَاءِ أَنَّهُ ذُبَالَةٌ فِي سِرَاجِهِ ؛ فَكَمْ مِنْ ذِي جُبُوشٍ
 قَدْ مَاتَ بِغُصَّةٍ ، وَذِي سَطَوَاتٍ أَمَّعَلَ الْحَيْلَ فَلَمْ يَغْزُ مِنْ نَظَرِهِ عَلَى الْبُعْدِ بِفُرْصَةٍ ؛
 لَا يَعْلُوهُ مِنْ مُسَمَى الطَّيْرِ سِوَى نَسْرِ الْفَلَكِ وَمِرْزَمِهِ ، وَلَا يَرْمُقُ مُتَبَرِّجَاتِ أَرَاخِهَا غَيْرُ
 عَيْنِ شَمْسِهِ وَالْمَقِيلِ الَّتِي تَطْرِفُ مِنْ أَنْجُمِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ نُصِبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَانِقِ مَا سَهَمَهِ
 أَنْفَدُ مِنْ سِهَامِ الْجُنُونِ ، وَخَطَرَاتُهُ أَسْرَعُ مِنْ لِحَظَاتِ الْعُيُونِ ؛ لَا يَخَاطَبُ إِلَّا بِوَسَاطَةِ
 رُسُلِهِ بِضَمِيرِ الطَّلَابِ ، وَلَا يُرَى لِسَانُ سَهْمِهِ إِلَّا كَمَا تُرَى خَطَفَاتُ الْبَرْقِ إِذَا تَأَلَّقَ
 فِي عُلُوِّ السَّحَابِ ؛ فَتَرَّتْ عَلَيْهِ الْجُبُوشُ نُزُولَ الْقَضَاءِ ، وَصَدَمَتْهُ بِهِمَمَهَا الَّتِي تَسْتَعِيرُ
 مِنْهَا الصَّوَارِمُ سُرْعَةَ الْمَضَاءِ وَرُوعَةَ الْأَنْتِضَاءِ ؛ فَنَظَرَتْ مِنْهُ حِصْنًا قَدْ زَرَّرَ عَلَيْهِ الْجَوُّ
 جَيْبَ عَمَامِهِ ، وَأَفْتَرَتْ نَعْرَهُ كُلَّمَا جَدَّبَ عَنْهُ الْبَرْقُ فَأَصْلَ لِسَامِهِ ؛ فَتَذَلَّتْ صِعَابُهُ ،
 وَسَهَلَتْ عِقَابُهُ ؛ وَرُكِرَتْ لِلْجُنُوبَاتِ (؟) فِي سَفْحِهِ وَطَالَمَا رَامَتِ الطَّيْرُ أذْنَاهُ فَلَمْ تَقْوِ عَلَيْهِ
 الْقَوَادِمُ ، وَكَمْ هَمَّتِ الْعَوَاصِفُ بِتَنْسَمِ رَبَاهُ فَأَصْبَحَتْ مُحَلَّفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا الْغَائِمُ ؛ فَضُرِبَ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِصْنِ بِسُورِ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ، وَنُصِبَتْ فَوْقَهُ
 مِنَ الْأَسِنَّةِ تُغَوِّرُ بَرَأَقَةَ الثَّنَائِيَا وَلِكِنَّهَا غَيْرَ عَذَابٍ ؛ فَعَادَ ذَلِكَ السَّفْحُ مُصَفَّحًا بِصَفَاحِهَا ،

(١) فِي الْأَصْلِ «فِي الْأُدُويَةِ» وَالنَّصِيحِ مِنْ «حَسَنِ التَّوَسُّلِ» .

مُشْرِقًا بِأَعْلَامِ أَسِنَّةِ رِمَاحِهَا؛ فَارْسَلَتْ إِلَى أَرْجَائِهَا مَا أُرْبِي عَلَى الْعَمَائِمِ، وَزَادَ فِي نَفْسِهِ
عَلَى التَّمَائِمِ .

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَاصْبَحَتْ * وَمِنْ جُنْثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ!

وَنُصِبَتْ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقُ فَلَمْ تَرَعْ حَقَّ جَنْسِهَا؛ وَسَطَّتْ عَلَيْهَا فَاصْبَحَ غَدَا فِي التَّحَامِلِ
أَبَدًا مِنْ أُمْسِهَا، وَأَسْتَهْضَمَتْهَا الْعِدَا فَأَعْلَمَتْهُمْ أَنَّهَا لَا تُطِيقُ الدَّفَاعَ عَنْ غَيْرِهَا بَعْدَ أَنْ
عَجَزَتْ عَنْ نَفْسِهَا؛ وَبَسَطَتْ أَنْفَهَا أَمَارَةً عَلَى الْإِذْعَانِ، وَرَفَعَتْ أَصَابِعَهَا: إِمَّا إِجَابَةً
أَنْ تَدُلَّ لِلشَّهْدِ وَإِمَّا إِيَابَةً إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ؛ نَخَافُ الْعِدَا مِنْ ظُهُورِ هَذَا الْأَسْتَظْهَارِ،
وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَجَانِيقَ حُجُولٌ لَا تَنْبِتُ لَهَا الْإِنَاثُ الَّتِي عَصِرَتْ مِنَ النَّفْعِ بِأَيْدِيهِمْ نَاسْتَعَانُوا
عَلَيْهِمْ مَعَ الْعِدَا بِطُولِ الْحِدَارِ؛ فَمِنْدَ ذَلِكَ غَدَتْ تَكُنُّ كُمُونَ الْأَسَاوِدِ وَتَنْبُ وَتُوبَّ
الْأُسُودِ، وَتُبَارِي بِهَا الْحُصُونُ السَّمَاءَ فَكَلَّمَا قَدَفَتْ هَذِهِ بِكُوا كِبَاهَا النَّيِّرَةَ قَدَفَ هَذَا
بِكُوا كِبَاهِ السُّودِ؛ وَلَمْ يُكْسِرْ لَهُمْ مَنَجْنِيقٌ إِلَّا وَنَصَبُوا آخَرَ بِمَكَانِهِ، وَلَا تُطِيعَتْ لِأَحَدٍ
إِصْبَعٌ إِلَّا وَاصِلَ الْآخِرِ بِنَانِهِ؛ فَظَلَّتْ تَحَارِبُ مِثْلَ الْكِبَاهِ، وَتَحَامَلُ تَحَامِلَ الرَّمَاهِ؛ حَتَّى
لَقَحَتْ وَفَسَحَتْ لِلرِّضَا بِجَالًا، وَمَالَتْ وَمِيلَ فِيهَا وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ تَكُونُ سِجَالًا .

هَذَا وَالنُّقُوبُ قَدْ دَبَّتْ فِي بَاطِنِهِ دَيْبُ السَّقَامِ، وَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِ كَمَا تَمَشِّي
فِي مَقَاصِلِ شَارِبِهَا الْمُدَامِ؛ وَحَشَّتْ أَضَالِعَهُ نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الْهَوَى: مُخْرِقُ الْأَحْشَاءِ
وَلَا يَبْدُو لَهَا ضَرَامٌ؛ قَدْ دَاخَلَتْ مَرَسَلَةَ الْوَجَلِ، فَتَحَقَّقُوا حُلُولَ الْأَجَلِ؛ وَعَلِمُوا
أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ الَّذِي تَمَادَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ قَدْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى عَجَلٍ، وَأَيُّقِنَنَّ
الْحِصْنَ بِالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ فَكَادَ يُرْقِصُهُ بَيْنَ فِيهِ فَرَطُ الْجَدَلِ؛ وَزَادَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَلَعَلَّ فِي نَفْسِهِ .

شَوْقَهُ إِلَى التَّشْرِيفِ وَيَا صَبَابَةً لَوْ سَمَّيْتُهَا وَأَسَمَّيْتُهَا مَشْتَقًا لَكِنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْجَلْدَ ، وَأَخْفَوْا
ضَرَامَ نَارِ الْجَزَعِ وَكَيْفَ تَحْفَى وَقَدْ وَقَدْ ، وَتَدَفَّقَتْ إِلَيْهِمُ الْجِيُوشُ فَمَلَّتِ الْأَفْقَ ،
وَأَحَاطَتْ بِهِمُ إِحَاطَةَ الطُّوقِ بِالْعُنُقِ ، وَنَهَضَتْ إِلَيْهِمْ مُسْتَمِدَّةً مِنْ عَزَمَاتِ سُلْطَانِهَا ،
مُسْتَعِدَّةً لِاتِّعَاعِ أَرْوَاحِ الْعِدَا عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَوْطَانِهَا ، فَاقْطَعَتْ بِهِمُ الظُّنُونُ ،
وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ رَحَى الْمُنُونِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ الْمَجَانِيْقُ أُحْجَارَهَا (فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَحَطَّتْ بِسَاحَتِهَا عِقْبَانُ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ، فَهَدَمَتِ الْعَمَارَ وَالْأَعْمَارَ ،
وَأَجْرَتْ فِي أَرْجَائِهَا أَنْهَارَ الدَّمَاءِ فَهَلَكُوا بِالسَّيْفِ وَالتَّبِيلِ وَالتَّارِ ، وَتَحَكَّمَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ
فِي أَهْلِ التَّثَلُّيْتِ فَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَمْنِهِمْ ، وَهَرَبُوا مِنْهَا إِلَى مَخَائِلِ حِصْنِهِمْ .

ولما ركب الأول للزحف في جيوشه التي كاثرت البحر بأواجه ، تزلزل الحصن
لشدته ركضه ، وتضعضع من خوف عصبانه فليحت سماؤه بأرضه ، وتخلت قواعده
ماشيد من أركانه فانحلت ، وألقت الأرض ما فيها وتخلت ، ومشت النار من تحتهم
وهم لا يشعرون ، ونفخ في الصور بل في السور فإذا هم قيام ينظرون ، وما كان
إلا أن قابلت العساكر ذلك البرج حتى أهوى يائمه التراب ، وتادب باداب الطاعة
فخر راكعا وأناب ، فهاجمتهم الجيوش مهاجمة الخوف ، وأسرت المضاء والانتضاء
فلم تدري العدا : أ هم أم الذين في أيمنهم السيوف التي تسبق العذل . وثبت منهم
من لم يجد وراءه مجالا فلجسوا إلى الأمان ، وتمسك ذني كغفرهم بعزة الإيمان ،
وتسبثوا بساحل العفو حتى ظنوا أنهم أحيط بهم وجاءهم الموج من كل مكان ،
وسألونا أن يكونوا لنا من جملة الصنائع ، وتضرعوا في أن نجعل أرواحهم لسيوفنا
من جملة الودائع فتصدق عليهم بأرواحهم كراما ، وظلوا على معنى الحديث النبوي :

يَرُونَ النَّمَاتَ يَقْظَةً وَالْحَيَاةَ حُلْمًا وَأَطْلَقْتَهُمُ الْيَدَ الَّتِي لَا يَنْجِبُ لَدَيْهَا الْآمِلُ ، وَأَعْتَقْتَهُمُ
الْيُمْنَى الَّتِي فَبَجَّحُ الْأَرْضَ فِي قَبْضَتِهَا : فَتَى تَشَاءُ تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْأَنَامِلُ ؛ وَخَرَجُوا بِنُفُوسٍ
قَدْ تَجَزَّدَتْ حَتَّى مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَمُقِلِّ طَلَّقَتِ الْكِرَا خَوْفًا مِنَ الصَّوَارِمِ الَّتِي تَسْلُهَا
عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ؛ وَسَطَّرَتْ وَالْمَدِينَةُ قَدْ تُسَمُّ أَعْلَاهَا ، وَشِعَارُ الْإِيمَانِ قَدْ جَرَّهَا مِنْ لِبَاسِ
الْكُفْرِ وَأَعْرَاهَا ؛ وَالْأَعْلَامُ قَدْ سَلَكَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ أَعْلَى مَرْقَى ، وَالسَّعَادَةُ
قَدْ بَدَلَتْ بَيْعَهُ مَسَاجِدَ وَمَحَارِبَهُ قِبَلَهُ وَكَانَتْ شَرْقًا ؛ فَاصْبِحْ يَرْفُلُ فِي حُلِّ الْإِيمَانِ ،
وَأَذَعَنَّ بِالطَّاعَةِ فَانْحَسِرْ جَرَسَ الْجَرَسِ بِهِ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ومن ذلك] ما يكتب به في التعازي إلى الخلفاء .

وقد تقدم في الكلام على التهنئة بولاية الخلافة ، أنه كما ينبغي أن لا يهنا الخليفة
بالخلافة إعظاما ، فكذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه . إلا أنه ربما دعت ضرورة
الكاتب إلى ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلى الخليفة .
ولا يخفى أن الحال في ذلك تختلف باختلاف المعزى : من والدٍ أو وليٍّ أو غيرهما .

[وهذه نسخة مكتوبة في معنى ذلك^(١)] ذكرها في "مواد البيان" وهي :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل خلافته نخلقه قواما ، ولبريته نظاما ، وجعل له
خلفاء يدبرهم لميراثها ، ويحتضهم بتراثها ؛ فإذا آتقت مدة ماضيهم : لما يريد الله
من استدانته إلى مقر خالصاته ، نقلها إلى نوره بأصطفائه وأصطفائه .

والحمد لله الذي قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم زعيمهم
الماضي الذي كانت بيديه موارثها ، والآتي الذي صار إليه [تراثها] .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح بقضيه المقام .

والحمد لله الذى ختم لأمير المؤمنين المتتبعين إلى دار الكرامة بأفضل الخاتم،
وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمة؛ وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليفته،
وحياطة شريعته؛ وحماية بلاده، وسياسة عبادته؛ ولوراثته آباءه وأجداده؛
وجعل الماضى منهم مرضياً عنه، والآتى مرضياً به؛ وأعدت الرعية من عدل
أمير المؤمنين ما جبر كسرها في خليفته، وصبرها في رزقته؛ وهو المسئول أن يلهمه
على المصيبة في سلفه الطاهر صبراً، وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته التي
لا كفاء لها شكراً؛ بمنه وفضله إن شاء الله تعالى.



[وهذه نسخة كتاب في التعزية أيضاً ^(١) وهي :

إن الله خص أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافة، وعظم محله بما نصبه له
من إمامة بريته؛ وجعله عماداً لأهل الإسلام يجتمع عليه أهواؤهم، وتسكن إليه
أملأؤهم؛ ويصلح به دينهم ودنياهم، ويستقيم به أمر أولادهم وأحرارهم؛ فإذا أسبغ
نعمة من نعمه عليه، وظاهر موهبة من مواهبه لديه؛ شركوه فيها، ونهضوا معه
على الشكر عليها؛ وإذا ابتلاه ببلية، وأمتحن صبره برزية؛ أخذوا بالنصيب العظيم
من الحادث، والحظ الجسيم من الكارث؛ [و] ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله
جزاءً من الأجر عليها.

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من ولده فلان - رضى الله عنه - عاريةً
من عواريه، وبلغه من الاستمتاع بها ما احتسب من أمانيه؛ ثم أسترجمها ليُنقل بها
ميزانه، ويضعف إحسانه؛ ويجعلها له ذنراً، وتوراً يسعى بين يديه وأجر؛ فعظم

(١) يياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام.

بذلك المصائب على رعيته، وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سُكون القلوب، وتقع الخطوب؛ واستقرار قواعيد الخلافه، وشمول الرحمة والرافه؛ وقد حصل أمير المؤمنين على نعيم كثيرة من موهبته وتوايه في استعادته، وحصل كافة خاصيته على القلق لفقده، والأسى من بعده؛ وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد، وثقاف كل مباد؛ ومهبط كل رحمه، وطريق كل نعمه؛ وهو خليف بان يظهر من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره؛ ما يبعث على الناس به، والتأدب بأديه؛ والله تعالى يحسن لأمر المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في الموتف؛ ويوفر حظهم من الثواب، ويعظم له الأجر على المصائب؛ ويريه في أوليائه وأحبابه، أعظم محابه وغايه آراهه؛ وينقل المنقول إلى ابواب الكرامة والاحتفاء، بأفضل الأجداد والآباء؛ بفضلِهِ ورحمته، إن شاء الله تعالى .



[وهذه] نسخة كتاب : كُتِبَ به إلى الأبواب السلطانية عند فتح (آياس) قاعدة بلاد الأرمين وأتراعها من أيديهم، وهي :

يُقبَل الأرض ويُنبى أن ليلة الانتظار أطلعت صباحها، ومواعيد الآمال بعثت على يد الإقبال نجاحها؛ والعساكر المنصورة جردت رابع ربيع الأول بمدينة آياس صباحها، وأوردت إلى الصدور رماحها؛ فلم يكن إلا كبح البصر، ولسان صدق القتال قائل: بأن الجيش الناصري قد انتصر؛ وأنقض ذلك النهار، بإيقاد نار حرب الحصار؛ على أبراج وأسوار، أُديرت على الميناء كما أُدير المعصم على السوار؛ فما أشرق

(١) كان الأولى ذكر هذه المكتبة مع المكاتبات التي ذكرت في البشارة بالفنوح، إذ لامناسبة في ذكرها هنا، تأمل .

صَبَّاحُ الصَّفَاحِ وَوَلَّاحٌ ، إِلا والأعلام النَّاصِرِيَّةَ عَلَى قَلْعَةِ القَلْعَةِ مَائِسَةً الأَعْطَافِ مِنْ
الأَرْتِيَّاحِ ؛ مُعَلِّنةً أَلْسِنَتَهَا بِحَيٍّ عَلَى الفَّلَاحِ وَحَيٍّ عَلَى النَّجَاحِ ، وَعِزُّ الإِسْلَامِ يُقَابِلُ ذُلَّ
الكُفْرِ : بِهَذَا النُّصْرُ وَهَذَا الأَفْتِيَّاحُ ، وَجَمْعُ الأَرَمِينَ المَلَأَ تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَمِيرٍ
وَأَتْرَاحٌ ؛ وَلَعِبَتْ أَيْدِي النِّيرانِ فِي القَلْعَةِ وَجَوَانِبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ مِنَ الأَسْوَارِ أَعْضَاءُ
مَنَاكِهَا ، وَنَطَقَ بِالأَقْدَانِ لِسانُ النَّارِ : هُدَى مَنَازِلُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ .

ثم آتت المحاصرة إلى قلعة البحر، وضم الأرمين الملا إليها سيف القدرة والقهر؛
وهذه القلعة عروس بكر في سماء العز شاهقه، لم يسبق لأحد من الملوك الأوائل إلى
خطبتها سابقه؛ قد شمتحت بأنفها، ونات بعطفها، وتاهت على واميقها، وغضت عين
راميقها؛ فهي في عقاب لوج الجو كالطائر، وسورها البحر والحجر فلا يكاد يصل
إلى وكرها الناظر؛ وقد أوثقت بحلقات الحديد، وقيدت كأنها عاصية تساق بالأصفاذ
إلى يوم الوعيد؛ فأرسل عليها المنجنيق عقابه، وأعلق بها ظفره ونابه؛ فكشف
من شرفاتها شنب ثغرها، وسقاها بالكف أسهمه كسوس حجارة فتمايلت من شدة
سكرها؛ وقص من أبراجها الصناديق المقللة، وفصل من أسوارها الأعضاء
المتصلة؛ فترزل عمدها، وزيل عن مكانه جامدها؛ وعلت الأيدي المرامية بها،
وغلت الأيدي المحامية عنها؛ واشتد مرضها من حرارة وهج الحصار، وضعفت قوتها
عن مقاومة تلك الأحجار؛ ولم يبق على سورها من يفتح له جفنا، وشن المنجنيق
عليها غارته إلى أن صارت شتا؛ فأرسل إليها من سماء غضبه رجوما، ووالى ذلك
عليها سبع ليال وثمانية أيام حسوما؛ فبادرت إلى الطاعة وأستسلمت، وكررت نحوها
رُكوعه فسجدت؛ وركبت الجيوش المنصورة عوَض الصافات اللجج، وشمحت
في سبيل الله عز وجل بالمهج؛ فعند ذلك سارع أهلها إلى التعلق بأسباب الحرب،

وكان نحراب قلعة المينا هذى لخراب قلعتهم من الحرب، وأحرقوا كيدها من أيديهم
بنار الغضب، وأترحوها منها ليلاً، وجرؤوا من الهزيمة ذليلاً، وتسلمها المسلمون،
وتحسرها عليها الحسرة الكبرى الكافرون، وهدمت حجراً حجراً، وصاحت بجهتها وجه
الترى، وأعدمت من الوجود عيناً وأثراً، فما أعجب هذا الفتوح وأغرب!،
وما أحلى ذكره في الأقوال وما أعذب!!، وما ألد حديثه في الأسماع وما أطرب!!،
وما أسعد هذا الجيش الناصري وما أنجب!!! .

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفْرُ • هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي قَدْ كَانَ يُنْتَظَرُ!
فَتْحٌ مُبِينٌ وَنَصْرٌ جَلٌّ مَوْقِعُهُ • سَارَتْ بِهِ وَلَهُ الْأَمْلَاكُ وَالْبُشْرُ!
عَجَائِبٌ ظَهَرَتْ فِي فَتْحِهِ بَهْرَةٌ • لَمْ تَأْتِ أَمْثَالَهَا الْأَيَّامُ وَالسَّيْرُ!
لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ مَاضٍ بِهِ نَزَلَتْ • فِي وَصْفِ وَقَعْتِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ!
هَذِي أَيْاسُ الَّتِي قَدْ عَزَّتْ جَانِبَهَا • وَعَزَّتْ خَاطِبُهَا حَتَّى أُنِيَ الْقَدْرُ!
جَاءَتْ إِلَيْهَا جُيُوشٌ كَمَ بِهَا أَسَدٌ • يَبِضُّ الصَّفَاحُ لَهَا الْأَنْيَابُ وَالظَّفْرُ
جَيْشٌ لَهَا كَبْحَرٍ زَانِحٍ بَلْبٍ • إِذَا سَرَى لَا يُرَى شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ!
يَسِيرُ بِالنَّصْرِ أَنْ سَارَ مُتَّجِهَاً • مَا زَالَ يَقْدُمُهُ التَّائِيدُ وَالظَّفْرُ.
جَيْشٌ لَهُ اللَّهُ وَالْأَمْلَاكُ نَاصِرَةٌ • مَلِكُهُ نَاصِرٌ لِلدِّينِ مُنْتَصِرُ!
يَوْمَ الْخَمَيْسِ رَأَيْتُ الْخَيْلَ حَامِلَةً • عَلَى رُءُوسِ عُدَاةٍ هَامَهَا أُكْرُ،
وَقَلْعَةَ الْبَحْرِ كَانَتْ آيَةً لَهُمْ • فَعَنَّ يَسِيرٍ فَاصْحَتْ لِلْوَرَى عِبْرُ!
كَانَتْ بَأْفَقِ سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً • أَبْرَاجُهَا بِأَسْقَاتٍ نَحْرُهَا خَطْرُ!

فَرَكَّبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ بَازِلَةً • أُرْوَاهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَدَّخِرُ،
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ وَلَا وَلَا مَلِكٌ • يَا أُوِيَّ مَقْرًا إِلَى أَنْ مُدَّتِ الْجُمْرُ!
وَعَجَّلَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَهُمْ • هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي تُوْفِي لَهُ النَّذْرُ
يَرْضَى بِهِ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ قَاطِبَةً • وَشَاهِدُ الْقَوْلِ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع

وأوله القسم الثاني

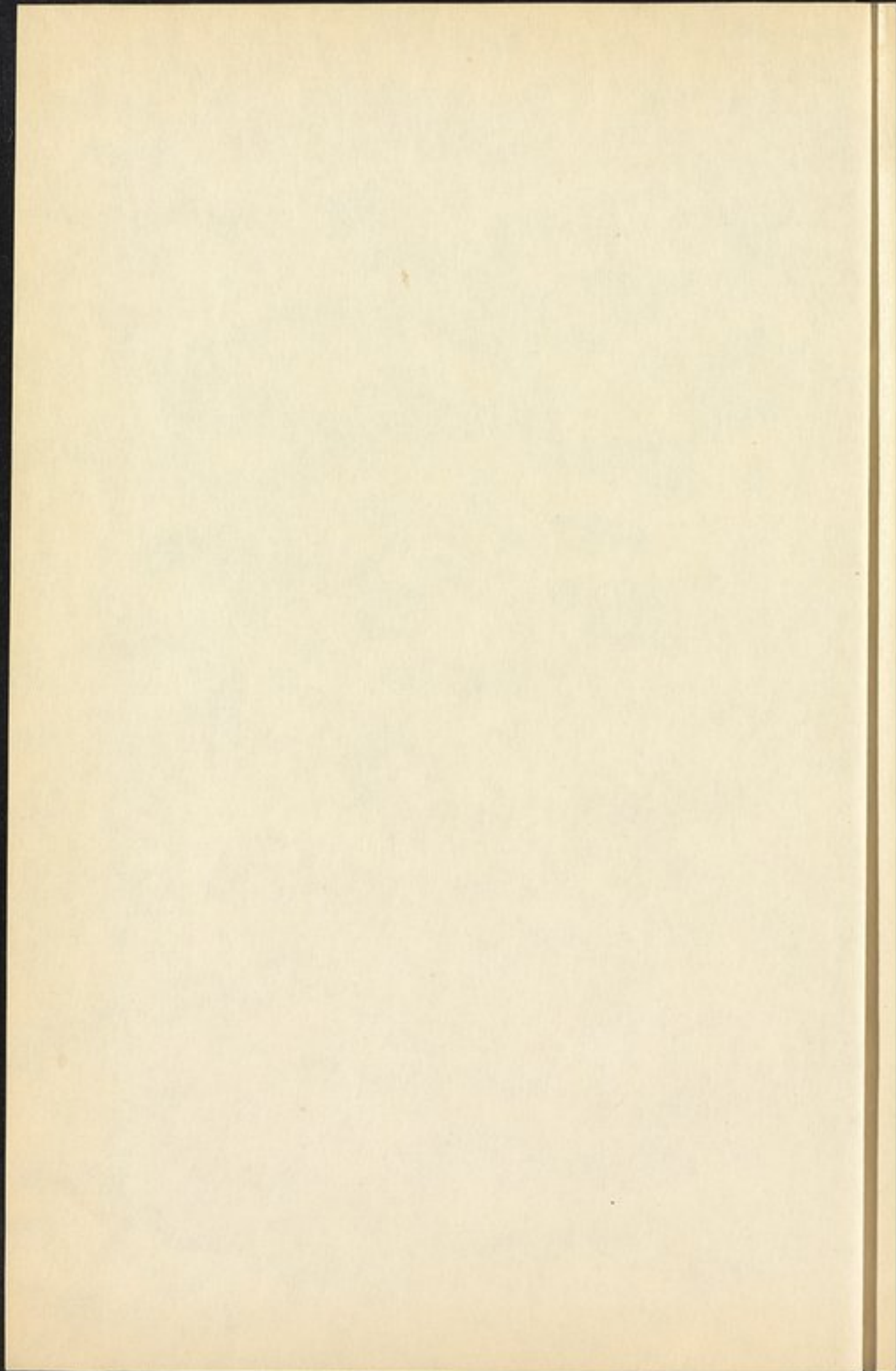
(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

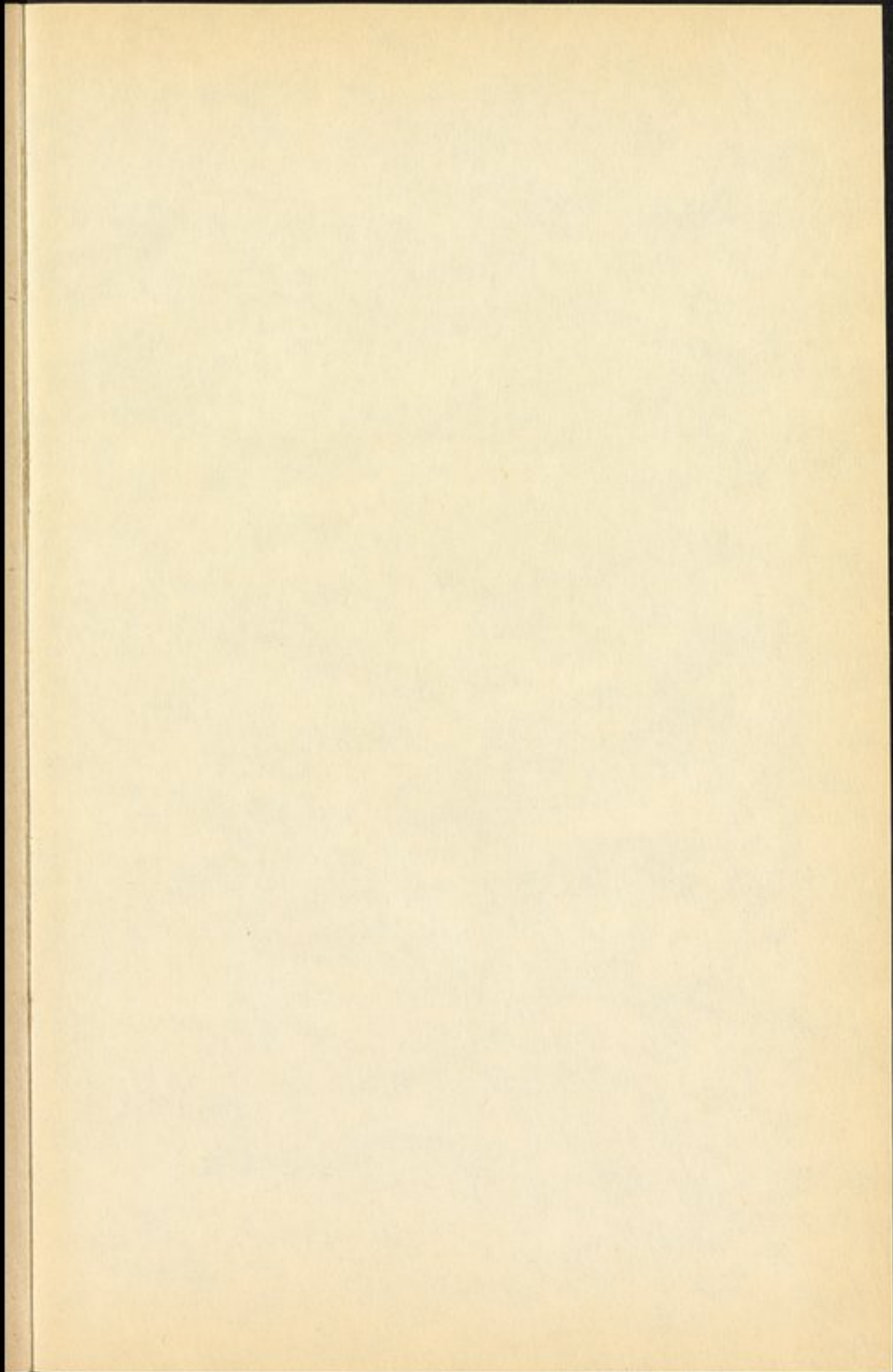
والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

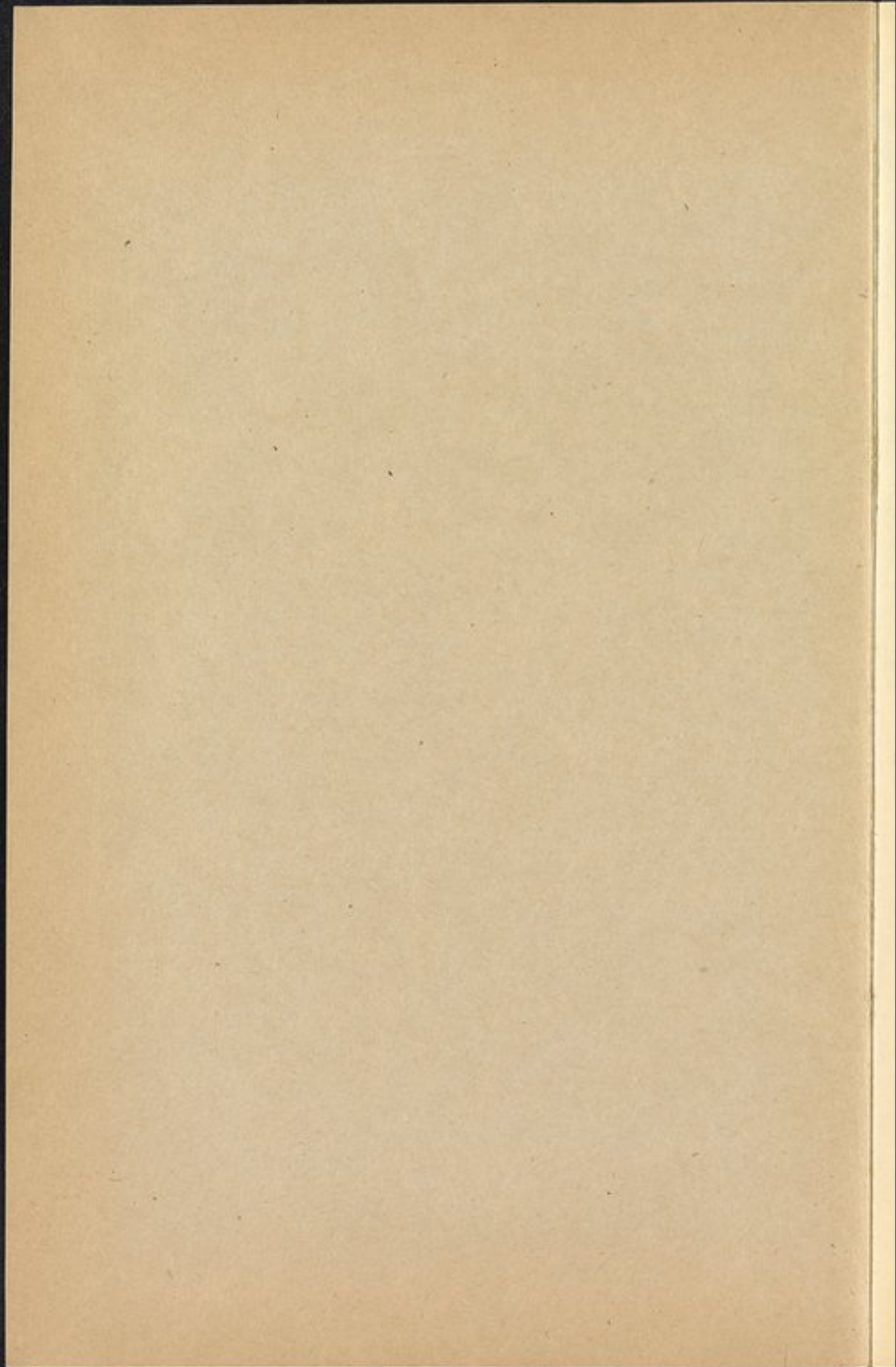
وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية، ٤٢٤٧/١٩١٥/٣٠٠٠)







893.7K125

W
8

Cop. 2

893.7K125

W

v. 8

cop. 2

Kalkashandī

Kitāb ṣubḥ al-aḥshā.

APR 29 1947

BINDED

φ98φ112φ

JUN 17 1947

101

102

103

125

1